تيسير التفسير

لقطب الأئمة
الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش
(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج
الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي
بمساعدة لجنة من الأساتذة

الجزء السادس عشر

من أول سورة النبأ إلى الخاتمة

الطبعة الثانية
1439 هـ - 2018 م.


تيسير التفسير
الجزء السادس عشر

حُقوق الطَّبع محفُوظَة



الطَّبعَة الثَّانِيَة

مزيدة ومنقَّحة

1439هـ / 2018م

سلطنة عُمان ـ ص.ب.: 668 مسقط، الرمز البريدي: 100
هاتف: 24641300 / 24641325، فاكس: 24641331
البريد الإلكتروني: info@mhc.gov.om
موقع الوزارة على الإنترنت: www.mhc.gov.om

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل ـ سواء التصويرية أو الإلكترونية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي أو سواه وحفظ المعلومات واسترجاعها ـ إلا بإذن خطي من الناشر.



لِقُطب الأئمةِ

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة



من أول سورة النبأ إلى الخاتمة



تخريج الأحاديث ووضع التراجم:

أ. أحمد بن حمو كروم

أ. عمر بن أحمد بازين

الرقن والفهرسة ومتابعة الطبع:

أ. مصطفى بن إبراهيم طلاي

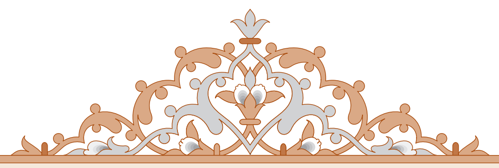
تدقيق النص ومتابعة الطبع:

د. مصطفى بن محمد شريفي

78

تفسير سورة النبأ

مكِّـيَّة وآياتها 40 ـ نزلت بعد سورة المعارج



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16) ﴾

الإخبار عن البعث وأدلَّة القدرة الإلهيَّة

[نحو] ﴿عَمَّ﴾ ما الاستفهاميَّة تحذف ألفها إذا دخل عليها حرف الجرِّ إن لم تركَّب مع «ذا»، وإلَّا ثبت، نحو: بماذا تجيء؟ وإنَّما حذفت ـ قيل ـ لكثرة الاستعمال، وفيه أنَّ «ما» الموصولة أكثر استعمالا. ولشدَّة اتِّصالها بما بعدها، وفيه أنَّ الموصولة أشدُّ اتِّصالاً بصلتها، حتَّى إنَّه لا تحذف الصلة ويبقى الموصول، بخلاف مدخول «ما» الاستفهاميَّة فيجوز حذف ما بعدها، مثل: أكرم زيدا فتقول: بِمَه؟ وإن اعتبرت العامل فالموصول الفاعل أشدُّ اتِّصالاً بالفعل، وقد تثبت قليلا، نحو: على ما قام يشتمني لئيم؟ ويكتب «إلى» و«على» معها بلام ألف، نحو: إِلَامَ جئت؟ وعلام ركبت؟.

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يقع السؤال بينهم، فلا مفعول له، أو يقدَّر: يتساءل بعض بعضًا، أو يتساءلون النبيء والمؤمنين، أو الناس. وهو سؤال استهزاءٍ. والواو لكفَّار مكَّة ولو لم يَجْرِ لهم ذكْرٌ، لأنَّ القرآن فيهم أنسبُ، مع أنَّه عامٌّ حكمًا، ولحضورهم. ولم يذكروا بالظاهر تنزيها للمقام عنهم.

[صرف] وأصل التفاعل وقوع فعل كلٍّ واحد على الآخر، نحو: تضاربوا، فكلُّ واحد فاعل ومفعول، ورجِّح جانب الفاعليَّة فيرفع الاسم، ويرجع إلى هذا قولك: تعاطيا الكأس، ومِنْ تعدِّي التفاعل قوله:

وَلَمَّا تَنَازعْنا الحديثَ وأَسمَحَتْ هَصَرْتُ بغُصنٍ ذي شماريخَ مَيَّالِ[1]

وقد يستعمل في تعدُّد الفاعل بلا وقوع من كلٍّ على الآخر، فيجوز أن يتعدَّى، نحو: تراءوا الهلال، وقد يرجع للقسم الأَوَّل، إذ لا يقال ذلك إلَّا على قصد أن يراه كلُّ واحد قبل صاحبه، أو دون صاحبه.

[صرف] وقد يكون لتعدُّد الفعل من واحد نحوَ: ﴿فبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [سورة النجم: 55]، أي تتعدَّد الْمِرْية، وقد يرجع إلى الأَوَّل، بمعنى تتمارى أنت ونفسك، وقد يكون دون تعدُّد الثلاثيِّ نحو: تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وذلك للمبالغة.

وقيل: الواو للمؤمنين والكافرين، المؤمنون يتساءلون ليزدادوا علمًا، وَالكُفَّار استهزاءً، وهو خلاف الظاهر، والسياقُ يأباه المقام، ألا ترى قوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ...﴾ إلخ، فإنَّه للكفرة، ولو جاز تخصيص بعض ما يشمله العموم بما يخصُّه، وكيف يقول الله للمؤمنين: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ بطريق التوبيخ مع غيرهم مع أنَّ سؤالهم عبادة؟.

---

(1) البيت من الطويل، وهو لامرئ القيس في ديوانه، ص 32. انظر: **إميل يعقوب**: معجم شواهد اللغة، ج 6، ص 450. «هَصَرْتُ بغصن»: أَخذتُ برأسه فَأَمَلْتُه إليَّ. ينظر: الصحاح للجوهري. (هصر).



﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ البعثِ، كما مرَّ، أو القرآن، والصحيح الأوَّل، وليسوا يتساءلون عن نفس البعث أو القرآن ما حقيقته كما هو شأن السؤال بـ«ما»، بل عن أحواله وصفاته، كما يقال: ما زيد؟ والمراد: أعالم أم عابد؟.

[نحو] و«عن» متعلّق بـ«يَتَسَآءَلُونَ» لأنَّ «عن» الأوَّل للتعليل والثاني للمجاوزة، أو كلاهما لها، و«عَنِ النَّبَإِ» بدل من «عَمَّ» على تقدير الهمزة أي أَعَنِ النَبَإِ؟ وهذا يغني عن تقدير بعضٍ: أيتساءلون عن النبإِ؟ وليس كما قيل: إن إعادة الاستفهام تلزم مع الاستفهام الحقيقيِّ فقط، ولا في بدل الكلِّ فقط.

وقيل: «عمَّ» الأَوَّل متعلق بـ«يَتَسَآءَلُونَ» محذوفا، والثاني بالمذكور، لدليل قراءة «عَمَّهْ» بهاء السكت، ولو تعلَّق بما بعد لم يوقف عليه، وفيه أنَّ هاء السكت في القرآن لا يجب الوقف عليها بل تجري وصلاً.

وقيل: يتعلَّق الثاني بـ«يسألون» محذوفًا جوابًا من الله، كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [سورة غافر: 16]، وإيراد البعث أو القرآن بالسؤال والجواب عنه إعظامٌ له، وقد وصفه بالعظيم.

﴿الذِي هُمْ فِيهِ﴾ متعلّق بقوله: ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ قدِّم للفاصلة وبطريق الاهتمام. وإن جعلنا التساؤل شاملاً للمؤمنين فاختلافُهم مع المشركين.

والواضح أنَّ التساؤل بين المشركين والاختلاف بينهم أيضًا، فمِنْ منكرٍ للبعث ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا...﴾ [سورة المؤمنون: 37]، وشاكٍّ ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ...﴾ [سورة الجاثية: 32].

[أصول الدين] ومن منكر لبعث الجسم مثبت لبعث الروح وحده، وعليه جمهور النصارى، وهو كفر بالله ﷻ وعيسى وسائر الأنبياء والرسل، وبالكتب كلِّها، ومنكرٍ للبعث لإنكار الله ﷻ، ومنكر له بإدِّعاء استحالة المعدوم بعينه، مثبتٍ له بالمثل، وقيل: مختلفون مع الرسول.

﴿**كَلَّا**﴾ ردع عن التســاؤل استهزاءً، ولو عم التســاؤل المذكور المؤمنين المتســائلين زيادة للعلم والإيمان ﴿**سَــيَعْلَمُونَ**﴾ إذا حلَّ بهم العذاب. وعيد للمتسائلين اســتهزاءً وزيادة ردعٍ لهم. والسين مستعمل في التقريب والتأكيد، ولم توضع للتقريب. ولا مفعول لـ«يَعْلَمُ»، والمعنى: ســيكون لهم بالحقيقة علم، أو يقــدَّر: ﴿سَــيَعْلَمُونَ﴾ أي: يعرفون ما يلاقونه من فنــون العذاب، أو سَيَعْلَمُونَ حقيقة الحال، أو يعلمون جزاء التساؤل فيستحيوا. أو يُعَدَّى لاثنين، أي: يعلمون ما قيل لهم حقًّا.

﴿**ثُمَّ كَلَّا سَــيَعْلَمُونَ**﴾ عطف على الأوَّل، والمراد بهمــا واحد، و«ثُمَّ» للترتيب الذكريِّ تأكيدًا؛ أو المراد غيــر الأوَّل، و«ثُمَّ» للتَّفاوت الرتبي، لأنَّ العلم في الموضعين عبارة عن لقاء الموعود.

وقيل: الأوَّل ما يكون عند الموت من الشــدَّة والتعنيف وكربة الافتضاح، والثاني شدائد يوم القيامة، فـ«ثمَّ» للتراخي في الزمان، أو مع الرتبة.

وقيل: الأوَّل في البعث، والثاني فــي الجزاء على إنكاره، و«ثُمَّ» للتراخي في الزمان، يعلمون حقيقة البعث إذا بُعثوا، وحقيقــة العقاب على إنكاره إذا دخلوا النار.

وقيل: سيعلم الكفَّار أحوالهم من التعذيب الجسميِّ، ثمَّ سيعلمون أحوال المؤمنين فيغتاظــون، والغيظ عــذاب رُوحيٌّ، أو ســيعلم المؤمنــون عاقبة تصديقهم، ويعلم الكافرون عاقبة تكذيبهم.

﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الاَرْضَ مِهَادًا**﴾ كمهاد، أي: فراشًا، وهذا تشبيه بليغ، بسطناها مع وسعها وغِلظها، أَلَا نقدر على البعث مع قدرتنا على ذلك؟ وفيها دليل عليه إذْ أخرجنا نباتًا، وهو والبعث واحدٌ، ولم نخلقها عبثًــا بل للتَّمتُّع فيها للدين والإيمان.

[صرف] وقيل: أصل المهاد مصدر، واستعمل بمعنى مفعول، أو يبقى على المعنى المصدريِّ مبالغة كأنَّها نفس البسط.

وهذا البسط من أوَّل خَلْقِها وقيل: بَعْدُ. والبسط بحسب الظاهر فقط لسعتها، وفي نفس الأمر كُريَّة.

﴿**وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾ كالأوتاد لها، مع ما في الجبال من المنافع، وهو تشبيه بليغ. وقيل: في الموضعين استعارة، وهو مختار السعد في نحو: زيد أسد.

[قصص] [قيل:] خلقها الله ﷻ فجعلت تميد بالماء تحتها وجوانبها فأرساها بالجبال، فقالت الملائكة: هلْ خلقت يا ربَّنا أشدَّ من الجبال؟ فقال: النار، قالوا: ربَّنا هل خلقت أَشَدَّ من النار؟ قال: نعم الماء، قالوا: ربَّنا هل خلقت أشدَّ منه؟ قال: الهواء، قالوا: ربَّنا هل خلقت أشدَّ منه؟ قال: نعم ابن آدم، يتصدَّق بصدقة بيمينه تخفى عن شماله[1].

[قلت:] ومن الإخفاء البيع بالرخص والشراء بالغلاء قصدًا للصدقة بلا إخبار بها ولا إشارة إليها.

وخلق الجبال بعد خلق الأرض، وهي متفاوتة في الحدوث. قيل: أوَّل ما خلق منها أبو قبيس، وزعم بعض أنَّه قد يتلاشى منها بعضُ ما وجد، وأنَّه قد يحدث بعض تلاع[2] بجمود الماء.

[نحو] ﴿**وَخَلَقْنَاكُمْ**﴾ عطف على مدخول الهمزة لا على مدخول «لَمْ»، فهو مثبت انسحب عليه الاستفهام بالهمزة التقريري أو التعجيبي، كأنَّه قيل: أخلقناكم؟ وقيل: على مدخول «لَمْ» فيكون منفيًّا بـ«لَمْ» مثبتًا بالاستفهام،

(1) أورده **الآلوسي** حديثا بدون سند.

(2) التلاع: جمع تلعة ما ارتفع من الأرض ككدية.

كأنَّه قيل: ألم نخلقكم؟ ولو كانت «لَمْ» لا تدخل على الماضي لأنَّه قد يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع، وفي الأواخر ما لا يغتفر في الأوائل.

﴿**أَزْوَاجًا**﴾ مزدوجين ذكورًا وإناثًا، للتناسل وانتظام أمر المعاش، وأصنافًا في اللون، وأصنافًا في اللغة وغير ذلك، ويبعد ما قيل: كلُّ واحد منكم زوجان [من] ماء الرجل وماء المرأة.

﴿**وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا**﴾ كسباتٍ، أو استعارة على حدِّ ما مرَّ، وقِسْ على ذلك ما لم أذكره.

[لغة] والسبات الموتُ، شبّه النوم به لأنَّ فيه انقطاع الحسِّ، ومن معاني السبت القطع، وقيل: من السبت بمعنى البسط. [قلت:] امتنَّ الله ﷻ بنعمة النوم الطويل، وقيل: النوم الخفيف، وهو خفيف ولو طال، لأنَّه بحيث يبطل به أمر المعاش كالموت. وقيل: «سُبَاتًا» السكون والراحة، يقال: سبت، أي: استراح، وهو أيضًا من لوازم النوم. ويوم السبت سُمِّيَ لراحة أهله فيه وفراغهم، أو لقطع الله سبحانه الخلق فيه، لم يخلق فيه شيئًا، والأوّل أصحُّ وأنسب للاستدلال به على بعث الموتى.

﴿**وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِبَاسًا**﴾ يستركم ظلامُه عن انكشاف ما لا تحبُّون الاطِّلَاع عليه، كالهروب من العدوّ، والنزول عليه، وعن امتداد أبصاركم المشغل عن النوم بالحركة والكسب المفوّت للراحة فيضعف البدن.

وقيل: المراد اللِّباس الذي يجعل للنوم كلِحافٍ، فإنَّ شبه الليل به أكمل، ويبعد ما قيل: إنَّه كاللباس لليوم في سهولة الخروج عنه.

[فقه] وهلك من استدلَّ بالآية على جواز الصلاة ليلاً بلا لباس، وقد أمر من نزلت عليه الآية باللباس في صلاة الليل والنهار، ومن خالفه عَرِيَ عن لباس التَّقوى، وكانت له ظلمة شديدة يوم القيامة.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ اسم زمان، أي: وقتَ عيشٍ، أي: حياةً مطلقًا، أو للكسب كالبعث من الموت.

[صرف] والتخريج على ذلك لا يتوقَّف على السماع، لأنَّ اسم الزمان الميميَّ والمكان الميميَّ والمصدر الميميَّ تقاسُ، وما ورد على خلاف القياس فهو مقبول، وقد قيل: إنَّه مصدر ميميٌّ ناب عن الزمان، كجئت طلوع الشمس.

[بلاغة] وفي الجمع بين ذكر الليل لباسًا والنهار معاشًا تلويحٌ إلى أنَّ النائم معطَّل الحواس، محتاج لما يستره عمَّا يضرُّه، وفيه مطابقة لَفْظِيَّة وَمَعْنَوِيَّة، لأنَّ النهار وقت المعاش واليقظة، في مقابلة السبات.

[بلاغة] ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ شبَّه سبع السماوات بالقبَّات، ورمز لذلك بلازم القبَّات، وهو البناء، وإثبات البناء تخييل واستعارة للخلق.

[قلت:] وأذكر الآن أنَّهم غلطوا في الاستعارة التبعيَّة، فبناؤها على استعارة أَصلِيَّة إذ لا تلفظ بهذه الأَصلِيَّة المدَّعاة، فكيف تُتَصَوَّرُ بلا تلفُّظ؟ وأمَّا أن يراد التبع في المعنى الذي فُرِّعت عليه التبعيَّة، أو في التشبيه المقصود.

وقيل: اختار لفظ البناء في الآية للإشارة إلى أنَّ خلقها على سبيل التدريج.

والسماء خيمةٌ لا سطح مستوٍ، وما ذكر في آية [سورة الأنبياء رقم 32] بأنَّها سقف لا ينافي أنَّها خيمة، فإنَّ الخيمة سقف على من تحتها، وصحَّ أيضًا أنَّ العرش خيمة.

وإنَّما احتجَّ على المشركين ببنائه تعالى ﷻ سبع سماوات شدادًا، أيَّ: قويَّات محكمة، لا يسقط منها ما يَضُرُّكم أو يعطِّلكم عن المعاش، مع أنَّهم مشركون لا يصدِّقون بما قال رسول الله ﷺ، لأنَّهم سمعوا بثبوتها من أسلافهم عَمَّن يعتقد أسلافهم صِدْقه كإسماعيل، أو سمعوه من أهل الكتاب وليس مِمَّا يعاندون فيه.

ولا يَضُرُّنا في ذلك كون هذا على هذا المقدار والجعلات قبل هذا وبعده، وإنزال الماء من المعصرات على تحقيق عندهم، أو لأنَّه لا يعتبر إنكارهم إن أنكروا سبع السماوات لصحَّتها، وإخباره ﷺ بها.

أو الخطاب يعمُّ الناس وغَلَّبَ المؤمنين، أو اعتبر في الاستفهام التقرير حتَّى كأنَّه إخبارٌ مجرَّد هكذا: جعلنا الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا، وخلقناكم أزواجا... إلى: «وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا»، ولا يتعلَّق «فَوْقَ» بـ«بَنَيْنَا» على ظاهره، لأنَّها بنيت قبل وجودهم، بل بتقدير مضاف، أي: فوق أرْضكم أو فوق جوِّ أرضكم.

﴿**وَجَعَلْنَا**﴾ خلقنا ﴿**سِرَاجًا**﴾ شمسًا كالمصباح ﴿**وَهَّاجًا**﴾ مضيئًا، يقال: وهجت النار أضاءت، أو «وَهَّاجًا»: حارًّا، يقال وهجت النار بالغت في الحرارة. والشمس أحرُّ من النار، إلَّا أنَّهُ لا يصلنا من حرِّها إلَّا ما نشاهد منه.

[نحو] ولا يصحُّ جعل «سِرَاجًا» مفعولا أوَّلاً و«وَهَّاجًا» ثانيا، لأنَّه لا مسوِّغ للابتداء به، والفعل الناسخ إنَّما يدخل على النكرة إذا كان لها مسوِّغ قبل دخوله، اللهمَّ إلَّا أن يقال: للتعظيم، بل هو متعدٍّ لواحد و«وَهَّاجًا» نعت.

[هيئة] وشهر أنَّ الشمس في السماء الرابعة، وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي: هي في الرابعة، إلينا ظهرها ولهبُها فوقُ، ويخسفها عطارد ـ فيما قيل ـ والقمرُ إذْ هُما تحتَها.

والقمر في الأولى يكسف زحلاً في السابعة، والمشتري في السادسة والمرِّيخ في الخامسة، والشمس في الرابعة، وعطارد في الثالثة، والزهرة في الثانية، ويكسف سائر الثوابت الجارية في ممرِّ الدراري هذه.

وقال بعض القدماء: الزهرة وعطارد فوق الشمس، وقال: لا يكسفانها، واعترض بأنَّهما لا يكسفانها ولو كانا تحتها، لأَنَّ شرط الكسف أن يكون

الكاسِفُ على سَمْت المكسوف. وذكر بعض أنَّه وجدت الزهرة على قرص الشمس مَرَّتيْنِ بينهما نيِّف وعشرون سنة(1).

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ السحائب.

[لغة] اسم فاعل أعْصر بالبناء للفاعل، أي: حان أن تكون ذات إعصار بالرِّيح، فتمطر. كـ«أعصرت الجارية»: حان أن تحيض، أو أن تغيث، ومنه العاصر، أي: المغيث. أو صارت ذات إعصار، أي: ذات ريح مسمَّاة إعصارًا، كـ«أيسر» صار ذا يسر.

أو «الْمُعْصِرَاتِ»: الرياح تعصر السحائب فتمطر.

وفسَّرها بعض بالرياح ذوات الأعاصير، اسم فاعل نسب إلى الإعصار (بالكسر)، وهي ريح تثير سحابًا ذا رعدٍ وبرق بإذن الله تعالى، وتؤيِّده قراءة: «وَأَنزَلْنَا بِالْمُعْصِرَاتِ» بباء السَّببِ أو الآلة، فَإِنَّهُ حينئذٍ الرياح، والله يفعل بلا آلة، بل عندها أو بدون وجودها، فنقول لهذه القراءة «مِنْ» للسببيَّة، والمتبادر أنَّها للابتداء، وأنَّ «المعصرات» السحائب.

وقيل: «المعصرات» السماوات، وفيه أنَّه لا يقال: أعصرت السماء، أي: نزل منها ماء بالعصر، وأجيب بأنَّه ينزل منها الماء للسحاب، فكأنَّ السماوات يعصرن، أي: يحملن على عصر الرياح السحاب، واعترض بأنَّه يحتاج إلى ثبوت معصر بمعنى الحامل على العصر.

---

(1) لا ننس أنَّ هذه المعلومات وأمثالها تخمينية تَتَغَيَّرُ حسب وجود وسائل الأرصاد وتطوُّرها وتقدُّم علم الفضاء، ولم يرد فيها نصٌّ من المشرِّع الحكيم، وحتَّى عدد السماوات الوارد في القرآن لم يرد بصيغة الحصر فيحتمل أن يكون عددها أكثر من ذلك ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [سورة الإسراء: 85]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة المدَّثِّر: 31].

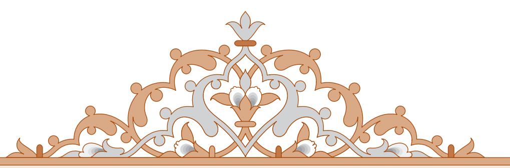
﴿**مَآءً ثَجَّاجًا**﴾ منصبًّا بكثرة، من «ثــجَّ» اللازم، وهو الأكثر ﴿**لِّنُخْرِجَ بِهِ**﴾ بذلك الماء، وذلك بصورة الآلة، وليست مرادة، ولكن لا مانع من مثل ذلك في العبارة، كما تقول: أحرق الله الكافر بالنار، وباعتبار أنَّه لا يعمل بآلة لكن يرتِّب الشيء على الشيء، قيل: معناه لنخرج عنده ماءً ثجَّاجا.

﴿**حَبًّا**﴾ تقتاتون به كالبُرِّ والشعير ﴿**وَنَبَاتًا**﴾ علف الدوابِّ، كالحشيش والتبن. وقدَّم الحبَّ مع أنَّه مؤخَّر في الوجود لشرفه، لأنَّه غالب قوت الإنسان، وللفاصلة.

﴿**وَجَنَّاتٍ**﴾ بساتين ذات أشجار تجنُّ الأرض، أي: تسترها، أو الجنَّة ما فيه النخل، والبستان ما فيه الكرم. ﴿**اَلْفَافًا**﴾ جمع لِفٍّ (بالكسر)، كجدع وأجداع، قيل: أو جمع لَفٍّ (بالفتح)، والجمهور على الأوَّل، وهو على كلِّ حال بمعنى ملفوف.

[نحو] [قلت:] ومن العجيب قول بعض المحقِّقين: إنَّه صفة مشبَّهة بمعنى مفعول، ولا نعرف الصفة المشــبَّهة في معنى مفعول به، بل في معنى فاعل. وقال الكســائيُّ: جمع لفيف بمعنى ملفوف. ودع عنــك القول بأنَّه جمع لفٍّ بمعنى ملتفٍّ بحذف الزوائد، وقيل: هو جمع لا واحد له كالأوزاع والأخياف للجماعات المتفرِّقة المختلفة.

[أصول الدين] وأفعاله تعالى المذكــورة تثبت البعث بقدرته تعالى على إنشــائه ما ذُكر بلا مثــال يحتذى، وبقــوَّة علمــه وحكمته، إذْ أبــدع هؤلاء المصنوعات مع ما فيها من منافع الخلق، فيستحيل في حكمته أن لا يجعل لها عاقبة، وباعتبار نفس الفعل كالإيقاظ بعد الإنامة، وإخراج النبات من الأرض والثمار من النبات.



﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿17﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿18﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿19﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿20﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿21﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿22﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿23﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿24﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿25﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿26﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿27﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿28﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿29﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿30﴾ ﴾

أوصاف يوم القيامة وأماراته وعذابه

وبعد إثبات البعث ذكر وقته بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ بين الخلق والحقِّ والباطل، ﴿كَانَ﴾ في علم الله أو في اللوح، أو سيكون خارجًا فعبَّر بالماضي للتحقُّق ﴿مِيقَاتًا﴾ محدودًا بوقت، لا يتقدَّم عنه باستعجالكم، كما لا يتأخَّر مطلقًا، ولا لحبِّكم تأخيره إذا جاء. والياء عن واو لأنَّه من الوقت(1). وقيل: حدًّا تنتهي إليه الدنيا، أو حدًّا للخلائق تتميَّز به أحوالهم، وصحَّح بعض أنَّ الدنيا انتهت بنفخة الموت، وقيل: انتهت بنفخة البعث.

[قلت:] وهناك حديث ـ قيل: موضوع ـ عن البراء بن عازب عن رسول الله ﷺ: «إنَّ جماعة من الموحِّدين يبعثون قردة، النَّمَّامون، وجماعة خنازير، وهم آكلو السحت، وجماعة منكَّسين، أرجلهم فوق رؤوسهم، وهم أكلةُ الرِّبا، وجماعة عُمْيًا وهم الجائرون في الحكم، والمعجبُون بأعمالهم صمًّا بكمًا، والمخالف أقوالهم أفعالهم ماضغين ألسنتهم، والمؤذون للجار مقطَّعي الأيدي والأرجل،

(1) يعني الياء في لفظة «ميقات» مقلوبة عن واو.

والساعون بالناس إلى السلطان مصلَّبين على جذوع نار، ومانعو الحقوق من أموالهم المتمتِّعون بها أَشَدَّ نتنا من الجيف، والمتكبِّرون والمفتخرون أصحاب الخيلاء لابسين جبابًا من قطران لاصقة بجلودهم»[1]. وصحَّ الحديث وفسِّر به قوله تعالى:

﴿**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَاتُونَ أَفْوَاجًا**﴾ و«يَوْمَ» بدل من «يَوْمَ»، أو بيان له، وهو تفخيم ليوم الفصل، والنفخ متقدِّم عن الفصل، وأُخِّر لأنَّ ذلك وقت ممتدٌّ، في بعضه نفخ وفي بعضه فصل، ووقت النفخ منه وهو مبدأ له.

و«الصُّور» مفرد، جسم ينفخ فيه إسرافيل وفيه الأرواح، أو هو جمع، وهو صور الموتى تحيى بنفخ إسرافيل، بل بإذن الله ﷻ، والمفرد صورة، ومرَّ كلامٌ في ذلك، والمشهور الأوَّل، ويدلُّ للثاني قراءة فتح الواو.

وفي الكلام حذف إيذانا بالسرعة، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾ [سورة الشعراء: 63]، أي: فتحيون فتبعثون فتأتون إلى الموقف أفواجًا، أي: جماعات، كلُّ جماعة بإمامهم، ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [سورة الإسراء: 71]، أو جماعات مختلفة بالسعادة والشقاوة وما يترتَّب عليهما بالأعمال.

[قلت:] ومَن بُعث مقطوع الرجلين أو منكِّسا أمْشاهُ الله بقدرته على غير الرجلين، كما أمشاه عليهما في الدنيا، وأيضًا تأتي به الملائكة مسحوبًا، ومن صلب على جذوع نار مشت به الجذوع بقدرة الله تعالى، أو جرَّها الملائكة كما تجرُّ العُمْيَ، فكلُّهم داخلون في قوله تعالى: ﴿فَتَاتُونَ﴾.

(1) العبرة في هذا الأثر أنَّ هؤلاء الآثمين يبعثون يوم القيامة على أوضاع وحالات عقابا مناسبًا لما اجترحوا من السَّيِّئَات في الدنيا، وفي ذلك عبرة لمن شاء أن يعتبر. وقد أورده **السيوطيُّ** في الدر، مج 6، ص 341. وقال: أخرجه ابن مردويه من حديث البراء بن عازب.

﴿وَفُتِّحَتِ السَّمَآءُ﴾ صيغة المضيّ للتَّحقُّق مثل نظائره. والعطف على «يُنفَخُ»، أو على «تَاتُونَ» ولو تخالفا مضيًّا ومضارعيَّة، لأنَّ «فُتِّحَت» في منزلة المضارع. أو الواو للحال بتقدير «قَدْ» أو دونه. والشدُّ للمبالغة، ومعنى التفتيح التشقيق، كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ﴾ ﴿إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ﴾.

﴿فَكَانَتَ﴾ أي: صارت ﴿اَبْوَابًا﴾ بذلك الشقّ، وهي غير الأبواب التي للملائكة في طلوعهم ونزولهم قبلُ، و[غير] شقِّها لنزول الملائكة كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَّقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَآئِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [سورة الفرقان: 25]، وإذا شُقِّقَت لا تحتاج إلى فتح الأبواب، فلا يصحُّ ما قيل: فتحت أبواب السماء فصارت كأنَّها كلَّها أبواب، وأيضًا فتح الأبواب ليس من خواصِّ يوم القيامة، ويبحث بأنَّها تفتَّح فيه للنزول للموقف، فينزلون منها ومن الشقوق.

[بلاغة] وفي الآية مبالغة بتوسيع الشقوق حتَّى كأنَّها أبواب، والأبواب على هذا غير حقيقة، بل تشبيه بليغ، ويجوز الحمل على الحقيقة بأن يَشقَّها الله ﷻ على صفة الأبواب. وقيل: تكشط كلُّها فيصير محلُّها كلُّه طرقًا، وذلك كلُّه سهل عند الله كسهولة فتح باب موجود، وسرعته فيكون هذا نكتة التعبير بالأبواب.

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ في الهواء بعد قلعها كما قال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [سورة النمل: 88]، ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ كسراب بعد تفتُّتها وتخلُّلها كالعهن المنفوش، وتكون كغبار متراكم يبسط وينشر، كما قال: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثًّا﴾ [سورة الواقعة: 5 ـ 6]، ويسوِّي الأرض كما قال سبحانه: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [سورة طه: 105ـ107]، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الاَرْضُ غَيْرَ الاَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48].

وذلك بعد النفخة الثانية، وقد قيل: انْدِكَاكُ الجبال وانصداعها بعد النفخة الأولى، وقيل أيضًا: تسييرها وصيرورتها سحابًا بعد الأولى، وهو خلاف ظاهر الآية إذا جعلت الواو للعطف كما هو المتبادر والأصل فيها.

ولو جعلت الواو للحال كان ذلك بعد الأولى، أي: فتأتون أفواجًا وقد سيِّرت الجبال قبل مجيئكم فصارت سرابًا[1]، وتسوَّى الأرض بدونها، وقيل: تنزل وتسوَّى الأرض بها، وقيل: تجري كالماء وتنزل نزوله في منظر أهل النار، فيزداد شوقهم إلى الماء، وهو خلاف الظاهر.

﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا**﴾ اسم لمكان الرصد، كالمضمار لمكان إضمار الخيل، تَرْصُدُ ـ أي: ترقب ـ فيه الملائكة الكفَّار لتعذِّبهم، أو المؤمنين لينقذوهم من فيحها، وَالكُفَّار ليعذِّبوهم، والظاهر الأوَّل. أو اسم آلة، أي: يرصد الله تعالى أو الملائكةُ بها الأشقياءَ لدخولها، والسعداءَ بالإنجاء من فيحها بأن يكون لها عمل في ذلك بإذن الله تعالى.

[بلاغة] أو صفة مبالغة، أي: عظيمة الرصد للكفرة بالأخذ، وللمؤمنين بالمباعدة عن ضرِّهم بفيحها، فإنَّ «مفعال» حقيقةٌ في مكانِ الفعلِ وزمانِه والآلةِ والمبالغةِ، ومن الزمان «ميقات». وإسناد الرصد للنار حقيقةٌ، بأن يخلق الله فيها إدراكًا وكسبًا، أو مجازٌ في الإسناد، أو تشبيهٌ. وأجيز أنَّ «مِرْصَادًا» للنسب، أي: ذات رصد، كلَابِنٍ لِذِي اللبن.

وعن ابن عباس: سبعة محابس، يُسأل في الأولى عن شهادة أن لا إله إلَّا الله، فإن جاء به سئل في الثاني عن الصلاة، فإن جاء بها تامَّة سئل في الثالث عن الزكاة، فإن جاء بها تامَّة سئل في الرابع عن الصوم، فإن جاء به تامًّا سئل في الخامس عن الحجِّ، فإن جاء به تامًّا سئل في السادس عن العمرة، فإن جاء

(1) لا فائدة من تحديد وقت حدوث ذلك في الأولى أو الثانية، فالله أدرى به، وربَّما تعيين ذلك والبحث فيه يلهينا عن العبرة منه، إذ المولى ﷻ أراد أن يكشف لنا شيئًا من هول ما يقع، ويذكر جزءا من الصور المفزعة عند انهيار نظام الكون وقيام الساعة ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: 2].

بها تامَّة سئل في الســـابع عن المظالم، فإن نجا منها دخل الجَنَّة، ويُكمَّل في ذلك كلِّه فرضُهُ بتطوُّعه[1].

﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ شامل للموحِّد الفاســق، متعلِّق بـ«كَانَتْ» أو بمحذوف خبر ثان أو نعت «مِرْصَادًا»، أو حال من قوله: ﴿مَئَابًا﴾، أو متعلِّق بـ«مِرْصَادًا» على تضمين معنى معدَّة، ومعنى «مَئَابًا» موضــع أَوْبٍ لهم، أي: رجوع، وهو خبر آخر لـ«كَانَتْ»، أو بدل من «مِرْصَادًا».

﴿لَّابِثِينَ﴾ مقيمين ﴿فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ جمع حُقُب بضمَّتين، أو بضمِّ فسكون: زمان غير محدود. وعن ابن مسعود وعليٍّ وابن عبَّاس وابن عمر وأبي هريرة موقوفًا: «الحقب ثمانون سنة، كلُّ سنة اثنا عشر شهرًا، وكلُّ شهر ثلاثون يومًا، وكلُّ يوم ألف سنة من سني الدنيا».

وعن ابن عمر مرفوعًا: «بضع وثمانون سنة، كلُّ سنة ثلاثمائة وستُّون يومًا، واليوم ألف سنة مِمَّا تعدون». وعن عبادة بن الصامت مرفوعًا: «أربعون سنة».

وقال بعض اللُّغويِّين: سبعون ألف سنة. وقيل: الحقب الواحد سبعة عشر ألف ســنة. وعن ابن مســعود: «لو علم أهل النار أنَّهم يلبثون في النار كذلك لفرحوا، ولو علم أهل الجَنَّة أنَّهم يلبثون ذلك في الجنَّة لحزنوا».

وعلى كلِّ حال المراد: أحقابًا بعد أحقاب بِلَا تَنَــاهٍ، لدلالة آيات الخلود وقولِه: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [سورة المائدة: 37].

ويروى أنَّ طائفة تخرج حتَّى تشــاهد الجنَّة وتريح ريحها، فينادى ردُّوهم إلى النار لا نصيب لهم في الجنَّة.

---

(1) يذكر في الموضوع قول الشيخ أبي نصر فتح بن نوح في نونيَّته:

وممَّا شــجاني ذكر سبع مراصد	لســبع ســؤالات فياربِّ نجِّني
فذلك أدهى ما يمــرُّ على الفتى	إذا قيل يــا عبدي تقــدَّم ولا تنِ

[قلت:] وذلك كــذب منافٍ لعموم الخلود، وعــدم الخروج، وعدم تمتُّع الشقيِّ بشيء من الجنَّة، ولا ســيما بعد دخول النار، ولا يجبر ذلك بما روي: أنَّهم يتحسَّرون بهذا الردِّ حسرة ما رجع الأوَّلون والآخرون بمثلها، إذ لا يخرج عمَّا ثبت إجماعًا بما لا حجَّة فيه، ولا يجبره أنَّ ذلك زيادة تعذيب وهو أشدُّ من تعذيب اللبث في النار.

والحقب مأخوذ من الحقيبة، وهو ما يشدُّ خلف الراكب مستتبعًا من طعام أو شــراب أو منفعة، وقيل: جمع حَقِب (بفتحٍ فكســرٍ) من حُقِبَ الرجل إذا أخطأه الرِّزق، وحقب العام إذا قلَّ مطره وخيره، أي: هم محرومون من الخير. و«أَحْقَابًا» متعلِّق بقوله: ﴿لَابِثِينَ﴾ وأجيز تعليقه بـ«يَذُوقُ».

وقيل: الأحقاب لأنواع العذاب، وقيل: متناهية ونسخ تناهيها بقوله تعالى: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمُوٓ إِلَّا عَذَابًا﴾ [الآية: 30]، ويرُّده أنَّه لا نسخ في الأخبار، لأنَّه يوجب بُدُوَّ البدوات والجهل، تعالى الله عن ذلك وعن كلِّ نقص. ولعلَّ القائل بالنسخ لم يرد النسخ المعروف بل أراد أنَّ الله قضى كذا لزمان، وقضى كذا لزمان بعده.

﴿**لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا**﴾ مستأنف، أو حال من المستتر في «لَابِثِينَ»، وهي غير قيد لمدَّة بل هم دائمًا ﴿لا يَذُوقُونَ...﴾. وقيل: قيد للَّبث، أي: لابثين فيها أحقابًا غير ذائقين إلَّا حميمًا وغســاقا، وبعد تلك الأحقاب لبث على نوع آخر من العذاب.

[نحو] وكذا إن عُلِّق «أَحْقَابًا» بـ«يَذُوقُ» فيه القولان، وفيه بُعدٌ، وهاء «فيها» للنار، وأبعَدُ منــه جَعْلُ «لَا يَذُوقُونَ» نعتًا لـ«أَحْقَابًــا» على القولين معا، وهاء «فِيهَا» للأحقاب.

﴿**بَرْدًا**﴾ شيئًا ينفِّس عنهم ما هم فيه من الكرب العظيم، ولا راحة لهم في الزمهرير، بل هو عذاب يلتجئون منه إلى النار. وقيل: البرد الشــراب البارد

المستلذُّ، فذِكْرُ الشراب بعده تعميمٌ للشـــراب النافع بعد تخصيص بأفضله. وقال الكسائي: البرد النوم، لأنَّه يبرد شدَّة العطش، وهو لغة هذيل.

﴿وَلَا شَرَابًا﴾ نافعًا ماء أو لبنًا أو عسلاً أو غير ذلك.

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ ماء شديد الحرارة، إذا أدناه من فيه سقط ما في وجهه وبقيت عظامه، كما في الحديث[1]. والاستثناء منقطع لظهور أنَّ المراد بالشرابِ النافعُ.

﴿وَغَسَاقًا﴾ الزمهرير، أو ما يقطر من جلود أهل النار من الصديد. ولا وجه لكونه مســتثنى من «بَرْدًا»، أُخِّر للفاصلة لِمَا علمت أنَّ الاســتثناء منقطع فلا خصوصيَّة له بـ«برد».

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ جُوزُوا بذلك جزاء موافقا، أي: مطابقًا لأعمالهم في الشدَّة والضعف النسبيِّ والأشدِّية.

[صرف] والمصدر بمعنى اســم الفاعل كما رأيت، أو يقدَّر مضاف، أي: مصاحب وفاق؛ أو مبالغة كأنَّه نفس الوفاق، والجملة مستأنفة؛ أو «وفاقًا» مفعول مطلق لمحذوف هو نعت «جَزَاءً»، أي: جزاء وافقها وفاقًا.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: لأنَّهم، وهو تعليل جمليٌّ لـ«جــوزوا جزاءً»، أو لـ«وافق وفاقًا»، أو لانتفاء الذوق، ولم يقل: «من ربِّــك» كما قال بعدُ لأنَّ هذا خذلانٌ لهم، وما يأتي لتربية الله ﷻ للمؤمنين وإرشاده.

﴿كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَــابًا﴾ لا يتوقَّعون حسابًا على الإشراك والمعاصي، لعدم إيمانهم بالبعث، فاستعمل المقيَّد وهو لفظ الرجاء في المطلق وهو مطلق الانتظار. أو اســتعاره للخوف لعلاقــة التضادِّ، أو علاقــة الترتُّب على مطلق الانتظار. وفسَّره بعض بـ«لا يخافون».

(1) الإشــارة إلى الحديث الذي رواه **أحمد**، رقم 21254 عن أبي أمامــة، ونصُّه: قال ﷺ: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا دنا منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه، وإذا شربه قطَّع أمعاءه حتَّى خرج من دبره».

أو المعنى: لا يرجون ثوابًا على عمل صالح لو عملوه، أو على ما عملوا من عبادة، كاستغفار وفكِّ الأسير، وإطعام اليتيم والأسير والطواف، لإنكارهم البعث، فلا يبالون أيضًا بالكفر.

﴿**وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا**﴾ أي: ما يتلى عليهم وكلِّ حجَّةٍ ﴿**كِذَّابًا**﴾ تكذيبًا مُفْرِطًا، أو مصدر فَعَّل (بالشدِّ) على فِعَّال (بالكسر).

[لغة] والشدُّ مطَّرد في كلام الفصحاء، ونسبها الفرَّاء إلى أهل اليمن، ولأهل اليمن لغة أخرى بالتخفيف.

سأل أعرابيٌّ عالِمًا [الفرَّاء] وهما على جبل المروة: الحلق أحبُّ إليك أم القِصَّار؟ (بكسر القاف وشدِّ الصاد)، أي: التقصير. وقال ابن مالك: ذلك قليل، يعني أنَّه فصيح قليل استعمالا. وقيل: هو للثلاثي.

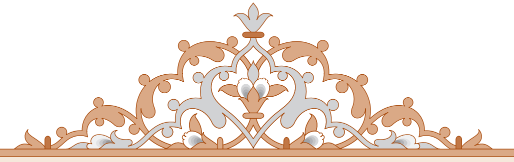
وضُمِّن «كَذَّبُوا» (بالشدِّ) معنى كذَبوا (بالتخفيف)، لأنَّ تكذيب الحقِّ كَذِبٌ. وقدَّر له بعض فعلاً ثلاثيًّا هكذا: وكذَّبوا بئاياتنا كذَبوا كذَّابًا بتخفيف الفعل الثاني، كما قيل بذلك في قراءة تخفيف كذابًا.

﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ**﴾ مطلقا، وقيل: مِمَّا يتعلَّق به الثواب والعقاب ﴿**اَحْصَيْنَاهُ**﴾ النصب على الاشتغال، وقيل: بالعطف على هاء «إِنَّهُمْ»، فـ«أَحْصَيْنَاهُ» عطف على خبر «إنَّ». ﴿**كِتَابًا**﴾ مفعول مطلق لـ«أَحْصَيْنَا» لتضمُّنه معنى كتبنا، أو تضمُّن «كِتَابًا» معنى إحصاءً، فإنَّ كلًّا بمعنى الضبط، أو «كِتَابًا» بمعنى مكتوب فهو حال.

وكَتْبُ ذلك في اللَّوح أو صحف الحفظة حقيقةً، لِحِكَمٍ تَقْصُرُ عنها العقول، ومنها أن يشاهد المكلَّفون ما فعلوا بلا زيد ولا نقص، لا لاحتياج الله تعالى إلى ذلك. وقيل: الكتب كناية عن ضبط الأمر، والصحيح الأوَّل، والأخبار جاءت به.

﴿فَذُوقُواْ﴾ بسـبب كفركم بالحسـاب، الخطاب تقريع بالتشـديد بعد الإعراض عنهم بالغيبة على طريـق الالتفات، ولو قدِّر القـول لم يكن فيه الالتفات. ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمُۥٓ إِلَّا عَذَابًا﴾ هذه الزيادة لا تنافي كون الجزاء موافقا للعمل فإنَّها من طبقه، لأنَّهم مصرُّون، حتَّى إنَّهم لو ردُّوا لعادوا، وعصيان كلِّ وقت أشدُّ قبحًا من الذي قبله، ومن نيَّتهم أن لا ينقطعوا عن ذلك. وقيل: لَمَّا كان كفرهم أشدَّ عوقبوا بأشدِّ عذاب، وهو زيادة عذاب كلَّ يوم.

وزعم بعض أنَّ الزيادة لحفظ الأصل، وأنَّه لولاهـا لألفوا العذاب، وهو ظاهر الفساد، إذ لا يُتَصَوَّرُ إلفه إلَّا إن شاء الله تعالى، ويحتاج في ذلك قائله إلى نقل من نحو حديث.



﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿31﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿32﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿33﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿34﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿35﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿36﴾ ﴾

أحوال السعداء

وشرع في ذكر حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين بقوله ﷻ:

﴿**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ المجانِبين الشرك، والإصرار على المعاصي ﴿**مَفَازًا**﴾ أي: فوزًا.

[صرف] فهو مصدر ميميٌّ بمعنى مفعول، أي: مفوزًا به، وما بعده بدل كلٍّ لا باقٍ على حاله، لأنَّ الحدائق وما بعدها ليست فوزًا. وليس اسم مكان، لأنَّ ما بعده ليس موضعًا يستقرُّون عليه، إذ لا يستقرُّون على الحدائق والأعناب والكواعب والكأس. ولا اسم زمان لأنَّها ـ أعني الحدائق وما بعدها ـ ليست أزمانًا. ويجوز إبقاؤه على أصله من المَصدَرِيَّة.

[نحو] فيكون «حَدَآئِقَ» وما بعدها بدل اشتمال على حذف الرابط بعد «دِهَاقًا»، أي: له، أي: ثوابت لذلك الفوز. وليس عدم انحصار الفوز بما ذكر موجبا لأنْ يكون بدل بعض، فإذا قلت: جاء إخوة زيد بكر وخالد وعمرو، فبدل كلٍّ باعتبار ما أريد ذكره، لا بدل بعض باعتبار أنَّ له إخوة آخرين.

﴿**حَدَآئِقَ**﴾ جمع حديقة، وهي بستان فيه أنواع الشجر المثمر، قيل: والرياحين والزهر، وقيل: بستان فيه ماء وشجر ﴿**وَأَعْنَابًا**﴾ شجر العنب أو نفس

العنب عطف علــى «حَدَآئِقَ»، قيل: أو على «مَفَــازًا»، وعلى كلِّ حال فيه ذكر الخاصّ للفاصلة على طريق الاعتناء بعد العامّ، فإنَّ الحدائق شامل للأعناب. وإذا عطف على «مَفَازًا» تبعه ما بعده، فلا يحسن عطف ما بعده على «حَدَآئِقَ»، والواضح عطف الكلِّ على «حَدَآئِقَ».

﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب، وهي التي تكعَّب ثديها واستدار مع ارتفاع يسير ﴿أَتْرَابًا﴾ مســاويات بعضهنَّ لبعضٍ، أو لأزواجهنَّ، كأنَّهنَّ أو كأنَّهم وُلِدُوا في وقت واحد في الدنيا، ولو تفاوت السنُّ في الدنيا، ولو كانت فيهنَّ الحور وهنَّ لم يولدن كأنَّهم وإيَّاهنَّ وقعوا من البطن في التراب فــي وقت واحد. أو أُريدَ التَماثُل بالترائب، وهي ضلوع الصدر.

وقيل: نساء الجنَّة كلُّهنَّ على صورة ذات ستَّة عشــر عامًا، ورجالها على صورة أبناء ثلاث وثلاثين، ولو كنَّ وكانوا طوال الأجســام وعريضها كستِّين ذراعًا طولاً وسبعٍ عرضًا[1].

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ ممتلئة عند الجمهور، وهو أصحُّ، وقيل: ممتلئة متتابعة، وهما روايتان عن ابن عبَّاس ﵄، قال: «ربَّما سمعت العَبَّاس أبي يقول: يا غلام اســقنا وأدْهق لنا، أي: املأ لنا، أو املأ وتابع لنا». وعن عكرمة: صافية، وهو قول فيه كدر.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنَّة، والظرفيَّة على ظاهرها، وقيل: في الكأس، فالمراد: في شأن الكأس أو مع الكأس، أو بسبب الكأس، كما يسمع اللغو مع كأس الدنيا إذا كانت من خمر، يشرب فيعربد ﴿لَغْوًا﴾ كلامًا ساقطًا لا نفع فيه كاللعب، أو كلامًا قبيحًا ﴿وَلَا كِذَّابًا﴾ تكذيبًا أو كذبا على ما مرَّ.

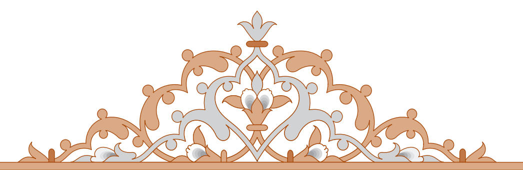
---

(1) الغيبيَّات لا يُجازف فيها بالقول دون دليل قطعيٍّ.

﴿**جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ**﴾ مفعول مطلق لمحــذوف، أي: جُوزُوا بذلك جزاء من ربِّك على أعمالهم. و«مِن» متعلِّق بجوزوا أو بمحذوف نعتٌ لـ«جَزَاءً». وفي إضافة الكاف إلى الربِّ تعظيمٌ لرسول الله ﷺ. واختار لفظ الربِّ ـ قيل ـ إشارة إلى أنَّ ذلك بتربية الله وإرشاده.

﴿**عَطَآءً**﴾ بدل مــن «جَزَاءً»، ومعناه تفضُّلاً عليهــم، ولا واجب على الله تعالى، فمعنى قوله تعالى: ﴿جَزَآءً﴾ أنَّ الله ﷻ قضى أنَّه من فعل كذا فله كذا، فَضْلاً لا على سبيل الوجوب.

﴿**حِسَابًا**﴾ مصدر بمعنى كافيًا أقيم مقام الوصف نعت «عَطَاءً»، أو يقدَّر مضاف، أي: مصاحب حساب، أي: كفاية، أو مبالغة كأنَّه نفس الكفاية، يقال: أعطاه حتَّى أَحْسبَهُ، أي: قال له حسبي. وقيل: منصوب على نزع الجارِّ، أي: على حساب أعمالهم.



﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿37﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿38﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿39﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿40﴾﴾

عظمة الله ورحمته وتأكيد وقوع يوم القيامة

[نحو] ﴿**رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ**﴾ «رَبُّ» مبتدأ و«الرَّحْمَنُ» خبر. أو خبر لمحذوف، أي: هو ربُّ، و«الرَّحْمَنُ» خبر ثانٍ، أو نعت لـ«رَبُّ» أو بدل منه.

أو «الرَّحْمَنُ» مبتدأ ثانٍ، وقوله ﷻ: ﴿**لَا يَمْلِكُونَ**﴾ أي: أهل السماوات والأرض، وقيل: المشركون ﴿**مِنْهُ خِطَابًا**﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأوَّل. أو الجملة خبر لِـ «هو» المقدَّر أو لـ«رَبُّ»، أو «رَبُّ» مبتدأ و«الرَّحْمَنُ» نعت، أو بدل، والجملة خبر «رَبُّ».

والمعنى أنَّهم لا قدرة لهم أن يتكلَّموا لله ﷻ كلَّما شاؤوا وفي كلِّ ما أرادوا من إزالة العذاب أو نقصه أو جلب منفعة، أو أن يكون لهم منه خطابٌ لهم، أو أن يأذن لهم أن يتصرَّفوا بكلام في غيرهم، أو أن يخاطبوه بمعارضة على ما فعل. و«مِنْ» للابتداء متعلِّقة بـ«يَمْلِكُ»، أو بمحذوف حال من «خِطَابًا».

[أصول الدين] وظاهريَّة الآية، وقوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [سورة هود: 37]، جواز أن يقال: خاطبت الله، ومنعه أصحابنا، صاحب السؤالات[1] وغيره، لعدم وروده، ولخروجه عن الأدب. ولا دليل في الآيتين، لأنَّ حاصلهما: لا يملكون أن يتكلَّموا، وليس فيهما إجازة أن يقال: خاطبت الله، ولو قال أبوك: لا تأمرني بكذا، لم يجز أن تقول: أجاز لي أن أقول: أمرت أبي.

﴿**يَوْمَ**﴾ يَتعلَّقُ بـ«يَمْلِكُ» قبله، أو «يَتَكلَّمُ» بعده ﴿**يَقُومُ الرُّوحُ**﴾ نوع من الملائكة أشرف من سائرهم عند الله عَجَلَّ حفظةً عليهم.

وعن ابن عباس مرفوعًا: «جند ليسوا ملائكة، يأكلون ويشربون، لهم أيد وأرجل ورؤوس». وعن ابن مسعود: «الروح ملك أعظم من السماوات والأرض والجبال، وهو في السماء الرابعة، يسبِّح الله تعالى كلَّ يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يخلق الله تعالى من كلِّ تسبيحة ملكًا، وذلك الملك الأعظم يكون صفًّا وحده».

وعن ابن عبَّاس موقوفًا: «الروح جند لا ينزل ملك من السماء إلَّا معه واحد منهم على صورة بني آدم، يقومون صفًّا والملائكة صفًّا».

وقيل: سماطان، سماط منهم وسماط من سائر الملائكة، وقيل: ملك ما خلق الله أعظم منه إلَّا العرش يقوم صفًّا والملائكة صفًّا، أو ملك يولج الأرواح في الأجساد بنفسه، وذلك بإذن الله عَجَلَّ[2].

وعن ابن عبَّاس: «جبريل، يقوم يوم القيامة ترتعد فرائسه من عذاب الله تعالى، يقول: سبحانك لا إله إلَّا أنت ما عبدناك حقَّ عبادتك».

---

(1) صاحب السؤالات هو الشيخ أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي (ق6هـ/12م) من وادي سوف ولد (قبل471هـ/1078م) لأنَّه حضر مجالس أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، وهو كثير الرواية عن أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر (ق5هـ). من مؤلفاته: كتاب السؤالات، وهو كتاب جامع لقضايا أصوليَّة ولغويَّة وتاريخيَّة خاصَّة في سير الإباضية. فرحات **الجعبيري**: البعد الحضاري، ص118.

(2) الله أعلم بصحَّة هذه الأقوال في أمور غيبيَّة يُفترضُ فيها أن تعتمد على الدليل النقليِّ القطعيِّ.

وقيل: ملك بين منكبيه ما بين المشرق والمغرب، أما سمعت قول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلآئِكَةُ صَفًّا﴾.

وقال البيهقي: أرواح الناس تقوم مع الملائكة بين النفختين، [قلت:] ولا صِحَّة له، وهو مناف للآية. وقيل: القرآن، وقيامه ظهور أثره عن تصديقه وتكذيبه.

﴿**وَالْمَلآئِكَةُ**﴾ عموم بعد تخصيص إذا فسِّر الروح بملك أو ملائكة، يُذكر الخاصُّ تشريفًا قبل العامِّ كما يذكر بعده. ﴿**صَفًّا**﴾ حال من «الرُّوح» و«الْمَلآئِكَة»، أي: مصطفِّين، فهو حال، ولا يلزم من كونهم مصطفِّين كونهم صفًّا واحد، بل هو قابل لتعدُّد الصفوف، كما أفصح به قول الله ﷻ: ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [سورة الفجر: 22]، فالملائكة صفوف متعدِّدة والروح صفٌّ.

﴿**لَّا يَتَكَلَّمُونَ**﴾ أي: أهل السماوات والأرض، ومنهم الروح، أو الروح والملائكة، قال ابن عبَّاس: أو الناس. ﴿**إِلَّا مَنَ اَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ**﴾ في الكلام أن يتكلَّم ﴿**وَقَالَ**﴾ بعد الإذن ﴿**صَوَابًا**﴾ حقًّا من الشفاعة لمن ارتضى، أي: لمن قبله الله ﷻ.

وإذا لم تَمْلك الملائكة وأشرافُهم القول إلَّا بالإذن مع الصواب فكيف يملكه غيرهم؟.

[قلت:] والملائكة من حيث إنَّهم لا ذنب لهم ومن حيث إنَّهم يأتون بالوحي ويتلقَّونه من اللَّوح المحفوظ، ويتولَّون الأمور الإلهِيَّة ولا يفترون عن العبادة أفضلُ من البشر، والبشر المؤمنون أفضل لتعبهم في العبادة وترك الشهوات والصبر على المصائب، وهذا الجانب أفضل.

[قلت:] وكثير مِمَّن ليس وزيرًا للملك ولا يباشر أحواله أفضلُ من وزرائه ومباشر أحواله، وترى خدما أخسَّاء لهم إدلال عليه والدخول على

حرمه، ولا يجد ذلك من هو أعــزُّ منهم. كما روي أنَّ عابدا رأى رجلا يدخل على أهل السلطان فسأل عنه فقالوا: خَصِّي، فقال: سبحان من وعظني فيه بترك الشهوات، ونيل المراد بتركها.

وإذا كان الأمر هكذا فكيف يملك المشرك أو كلُّ من أراد منه خطابًا، وقد قيل: ﴿وَقَالَ صَوابًا﴾ في الدنيا، وهو كلمة الشهادة مع توابعها؟.

وقيل: ﴿مَن اَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في شــأنه أن يتكلَّــم عليه غيره، والواضح ما مرَّ. و«قَالَ» عطف علــى «أَذِنَ»، وتجوز الحاليَّة، أي: وقــد قال صوابًا في الدنيا. وأظهر لفــظ «الرَّحْمَن» للإيضاح، ولأنَّ منــاط الإذن الرحمة البالغة إذ لا يستَحقُّه أحد.

﴿**ذَالِكَ الْيَوْمُ**﴾ يوم قيامهم على الوجه المذكور، واسم إشارة البعد تعظيم له، وهو مبتدأ خبره قوله ﷻ: ﴿**الْحَقُّ**﴾. أو «الْيَوْمُ» عطف بيان أو بدل، والحقُّ خبر بمعنى الثابت المتحقِّق الكائن ولا بدَّ.

﴿**فَمَن شَآءَ اَتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَئَابًا**﴾ إذا كان الأمر ما ذكر من التحقُّق فليتَّخذ المكلَّف بالتوحيد والعمل مئابًا إلى ربِّه لأنَّه من شاء اتَّخَذَه، إذ لا حجر فيه، بل فيه الدعاء إليه، وتسهيل الاتِّخاذ، أو من شاء اتَّخَذَه بالتوحيد والعمل بدون أن يتوهَّم أن يتَّخذه بغيرهما.

و«إِلَى» متعلِّق بـ«مَئَابًا» لتضمُّنه معنى رجوعًا وإفضاء؛ أو بحال محذوفة، وصاحبها «مَئَابًا»، أي: موصولاً إلى ربِّه، أي: إلى ثوابــه؛ أو يعلَّق بـ«مَئَابًا». وعلى كلِّ حال قدِّم للحصر والاهتمام والفاصلة.

[أصول الدين] وللعبد اختيار فــي الطاعة والمعصية، لا إجبار ولا طبع، وذلك الاختيار أيضًا فعل للعبد كســائر أفعاله، ولا إجبار في ذلك لوجود كلِّ عاقل من نفسه أنَّه لو شاء فعل، ولو شاء لم يفعل، فاختار أحدهما.

﴿**إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ**﴾ بما في هذه الســـورة وما نزل من غيرها ﴿**عَذَابًا قَرِيبًا**﴾ لتحقُّقه كأنَّه حضر ولو كان بعيدًا، وهو عذاب النار، ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آتٍ!. أو قريبًا عند ربِّك، ﴿وَإِنَّ يَومًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [ســورة الحج: 47]، أو البرزخ من يوم القيامة، وهو مبدأه وفيه نوعُ قرب، فالعقلاء يعُدُّون الموت قريبًا.

وعن قتادة: عقوبة الذنب، وهو أقرب العذابين، وليس كذلك، ولا قتل بدر كما زعم بعض، لأنَّه ينافيهما قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**﴾ فإنَّه يوم القيامة.

[نحو] وهو متعلِّق بمحذوف نعت لـ«عَذَابًا»، أو متعلِّق بـ«عَذَابًا». قيل: أو بدل من «عَذَابًا»، وفيه أنَّ اليوم غير العذاب وغير بعضه، وإن كان اشتمالاً فلا رابط، قيل: أو متعلِّق بـ«قريب».

و«الْمَرْءُ»: المؤمن والكافــر، أو الكافر، فذكره بعد ذلــك وضعٌ للظاهر موضع المضمر، تصريحًا بموجب العذاب. والمــرء المؤمن يرى ما قدَّم من خير، وذُكِرَ الكافِرُ بعدُ. ﴿يَنظُرُ﴾ أي: يشــاهد في صحيفته ما قَدَّمَت يداه من الأعمال، أو يشاهد جزاء ما قَدَّمَت يداه، **والمراد ما قدَّم، فعبَّر عن الكلِّ بالجزء المشهور في العمل مطلقًا وهو اليدان.** و«مَا» اسم موصول، أي: الأعمال التي قدَّمتها يداه، أو موصوف، أي: ينظر أعمالاً قدَّمتها يداه، أو استفهامية مفعول لما بعده معلِّقة للنظر.

﴿**وَيَقُولُ الْكَافِرُ**﴾ المشرك، أو العامُّ لكفر النعمة، ويقال له: كفر الجارحة، وقد مرَّ أنَّ الكفور في ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: 3]، صالح لذلك، وإذا أريد بـ«المرء» ما يعمُّ السعيد والشقيَّ كان ذكْرُ الكافر بعدُ تخصيصا لذكر بعض ذلك العامِّ.

﴿يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ كنت الآن ترابًا في هذا اليوم فلم أبعث، أو صرت ترابًا بعد البعث.

كمـا روي أنَّ الله تعالى يبعث البهائم فتتقاصُّ، حتَّـى تقصَّ الجمَّاء من القرناء. ويقول الله تعالى: ســخرتكنَّ لبني آدم فَأَطَعْتُمُنَّهُم كما أحبُّ، وَيَرُدُّها ترابًا، فيقول الكافر: يا ليتني عدت ترابًا مثلها. وكذلك يقتصُّ الصبيان بعض من بعض، ثمَّ يدخلون الجنَّة، وكذلـك المجنون من المجنون ومن الصبيِّ، والصبيُّ من المجنون.

أوالمراد: **ليتني كنت في الدنيا ترابًا لم أخلـق، أو يا ليتني كنت في الدنيا على صورة هذه البهائم ولم أكلَّف فأكون اليوم ترابًا.**

وقيل: «الْكَافِرُ»: إبليس، يرى ثواب آدم والمؤمنين وفوزهم فيتمنَّى أن يكون من التراب الذي احتقر آدم بــه، إذ قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّـارٍ وَخلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: 12]، فلا أفتخر بالنار فلا أعصي.

قال أبو هريرة: «فيقول التراب لا ولا كرامة لك، من جعلك مثلي». [قلت:] وهذا صحيح في نفسه، إلَّا أنَّه لا دليل على خصوصه في الآية، لأنَّها عَامَّة.

وقيل: المراد بالكون ترابًا الاتِّضاع بالإيمـان والعمل وترك التكبُّر، وهو صحيح، إلَّا أنَّه لا يتبادر تفسيرًا، وهو أحْسنُ من القول قبله لبقائه على العموم.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



79

تفسير سورة النازعات

مكِّـيَّة وآياتها 46 ـ نزلت بعد سورة النبأ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿1﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿2﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿3﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿4﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿5﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿6﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿7﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿8﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿9﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿10﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿11﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿12﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿13﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿14﴾﴾

التأكيد على وقوع البعث وموقف المشركين منه

﴿**وَالنَّازِعَاتِ**﴾... إلخ طوائف من الملائكة عملها واحد، فالعطف فيها تنزيل لتغاير الصفات منزل تغاير الذوات، تلويحا بأنَّ كلَّ واحدة تكفي في الإعظام تنزع الأرواح من أجساد الكفرة والمؤمنين والحيوانات.

وعن عليٍّ وابن مسعود: المراد نزع أرواح الكفرة بشدَّة، وهو رواية ابن عبَّاس، كما قال: ﴿**غَرْقًا**﴾ أي: نزعا شديدا، فهو مفعول مطلق، وهو اسم مصدر هو إغراق، أي: إغراقًا في النزع من أقاصي الجسد، كنزع السَّفُّود من الصوف المبتلِّ مع كثر شُعَب السَّفُّود، فهو نزع شديد أليق بالكفرة. وعن عليٍّ وابن

مســعود: تنزع روح الكافر من تحت كلِّ شــعرة ومن تحت الأظافر، وأصول القدمين، ثمَّ تغرقها في جســده وتنزعها حتَّى تكاد تخرج، ويردُّها في جسده مرارا حتَّى تخرج من أفواههم بالكرب.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ تخرج الروح من الأجساد كنشط الدلو من البئر، أي: إخراجها بسهولة، وهذا أنســب بروح المؤمن. والنشط: حلُّ العقدة برفق مثل عقدة التِّكَّة، قال بعض الســلف: يسُلُّون روح المؤمن ســلًّا رفيقا، ويتركونها تستريح، ثمَّ يستخرجونها بلطف.

وعلى العموم للكافر والمؤمن فالسهولة للمَلَك لا يصعب عليه إخراجها، وقيل: أرواح المؤمنين تخرج فرحة ناشطة لما رأت من السعادة.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ يسبحون في إخراجها سبح الذي يخرج من البحر شــيئا برفق لِئَلَّا يغرق، وذلك لطف ورفق بالمؤمن لِئَلَّا يشــتدَّ ألمه، فهذا في المؤمن. وعلى تعميم النشط والسبح للكافر أيضا يكون معناهما أنَّه ليس في إخراجها عمل شديد في حقِّ الملَك محسوس، كتحرُّك شديد منه وصراخ، ومع ذلك يشتدُّ في حقِّ الكافر. وقيل: الســبح نزول الملائكة من السماء مسرعة، وقيل: أرواح المؤمنين تسبح في الملكوت.

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ يشــتدُّون في المشــي بأرواح المؤمنين إلى الجَنَّة، وبأرواح الكفرة إلى النار، وقيل: تسبق المؤمنين بالعمل الصالح، وقيل: أرواح المؤمنين تســبق إلى حضرة القدس. ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ عظيما للتنكير تهيِّئ للمؤمن مَا لَهُ، وللكافر ما عليه.

و«أَمْرًا» مفعول به، وَقِيلَ: منصوب على حــذف الباء، أي: بأمر من الله تعالى. والفاء في الموضعين للاتِّصال بلا مهلة. والملائكة في تلك الحالات خارجة عن البدن كما هو ظاهر، وكما روي أنَّها ترى الملك من بعيد فتشرع

في الخروج، ولعلَّ الأحوال تختلف، إلَّا السبح فظاهر في دخول الملائكة البدن، الجواب أنَّها تسبح في داخل البدن بعملها من خارج، ولا يخفى أنَّ السبح مجاز.

وإذا جعلنا النزع لملائكة العذاب والنشط لملائكة الرحمة فالعطف لتغاير الذات كما هو الأصل.

وجواب القسم محذوف يقدَّر بعد «أَمْرًا»، أي: لتبعثنَّ، أو ذلك إقسام لقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [سورة النبأ: 40][1]، وقيل: جواب القسم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [سورة النازعات: 26]، وقيل: ﴿هَلَ اَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾، لأنَّ المعنى: قد أتاك، وقيل: ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، و«يَوْمَ» متعلِّق به، ولم يؤكَّد باللام والنون للفصل بـ«يَوْمَ»، لأنَّه يقدَّر اللام قبل «يَوْمَ»، وقيل: ليأتين يوم ترجف الراجفة، على أنَّ «يَوْمَ» فاعل لـ«يأتي» مبنيٌّ لإضافته لجملة فِعْلِيَّة، ولو كان فعلها معرَبًا.

ويجوز أن يراد بالسابحات والسابقات والمدبِّرات طوائف من الملائكة عملها واحد، وما قبل هو على معناه السابق، فهي تسبح في مضيِّها وتسرع، أو فيما أمرت به من أمر الدنيا والآخرة، أو تدبِّر أمره من كَيفِيَّة وما لا بدَّ منه. والعطف لتغاير الصفات أيضًا، أي: والملائكة الجامعين بين السبح والسبق والتدبير، وسواء ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.

ولا تتوهَّم أنَّ العطف في هذا لتغاير الذوات، بل لا يتصوَّر السبح من طائفة والسبق من أخرى في أمر واحد، وإن أريد أنَّ طائفة تسبح فيما أمرت وأخرى تسرع فيما أمرت به فمن تغاير الذات والصفة.

---

(1) يكون المقسم عليه قوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ...﴾، فيكون المعنى ـ والله أعلم ـ: إنَّ الله جلَّت قدرته أقسم بالنازعات والناشطات، لَيَقولَنَّ الكافر في ذلك اليوم: يا ليتني كنت ترابا، وذلك من هول ما يجد.

وقيل: هؤلاء الآيات في الشمس والنجوم السـيَّارة التي تنزع، أي: تسير من المشرق إلى المغرب غرقا في السـير، أي: جِدًّا فيه ـ كما يقال: نزع الفرس، أي: جرى ـ وتنشط من برج إلى برج، كما يقال: نشط الثور: خرج من مكان إلى مكان، وتسبح في الفلك فسبق بعض بعضًا لكونه أسـرع، فتدبِّر أمرا علق بها كالفصول والأزمنة، ومواقيت العبادة والمعاملة المؤجَّلة، وإسناد التدبير إلى هؤلاء النيِّرات مجاز، والأوَّل نزع لأنَّه يقهر الفلك لها بشدَّة، والثاني نشط لأنَّه بسهولة.

وقيل: ذلك الليالي والنهارات، والشمس والقمر، والمدبِّرات على ذلك كلِّه.

وقيل: الغزاة تنزع بالقِسِيِّ، وترمي بالسهام، وتمدُّ أعنَّة الخيل مدًّا قويًّا حتَّى تلصق بالأعناق من غير ارتخاء كأنَّها انغمسـت فيها، وتخرج من دار الإسلام إلى دار الكفر، وتسبح في جريها فتسبق العدوَّ، فتدبِّر أمر الظفر.

وقيل: خيل الغزاة تنزع في أعنَّتها وتغرق في عرقها، وتنشـط إلى ميدانها بسـرعة، وتسـبح في جريها وتسـبق إلى الغاية، وقيـل: النازعـات الغزاة، والناشطات السهام، والسابقات الخيل والإبل إلى الغزو[1].

وقيل: النازعات ملك الموت وأعوانه ينزعون الأرواح، والناشطات النفوس تنشـط من القدمين، والسابحات السـفن، والسـابقات نفوس المؤمنين إلى الطاعة، والمدبِّرات الملائكة يأمرهم الله تعالى بأمور يعملون فيها.

وفسَّر بعضهم السابقات بالمنايا تسـبق الآمال، وفسَّر بعضهم المدبِّرات بجبريل يدبِّر الرياح والجنود والوحي، وميكائيل القطر والنبات، وعزرائيل أمر الأرواح، وإسرافيل أمر العذاب المنزَّل عليهم والنفخ، كلُّ ذلك بإذن الله تعالى، ولم يختلف أنَّ المدبِّرات الملائكة، كذا قيل: وفيه أنَّه قيل بإسناد التدبير إلى النيِّرات كما مرَّ.

(1) وهذا التفسير يوافق ما يذكر في سورة العاديات. تأمَّل.



﴿**يَوْمَ**﴾ متعلِّق بـ«نبعث» المقدَّر جوابا للقسم، أو مفعول به لـ«اذكر»، والمعنى: اذكر لهم يوم النفختين فإنَّه وقت بعثهم ﴿**تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ**﴾ تقع الواقعة التي تتحرَّك، أي: تحصل، أو النفخة التي ترجف الأجرام عنها، وأسند الرجف إلى النفخة لأنَّ النفخة سببها، أو «الرَّاجِفَةُ» المحرِّكة، وهي النفخة الأولى، ورجف يتعدَّى ويلزم.

وقيل: المراد الأجرام الساكنة تشتدُّ حركتها حينئذ كالأرض والجبال، كما قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْاَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [سورة المزَّمِّل: 14]، وسمِّيت راجفة على اعتبار الأول.

﴿**تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ**﴾ واقعة ثانية، أو نفخة ثانية، أو الأجرام التابعة، وهي: السماء والكواكب تنشقُّ وتنثر. وبين النَّفختين أربعون عامًا أو أربعون يومًا.

﴿**قُلُوبٌ**﴾ مبتدأ ولَوْ نكرة لأنَّها للتَّنويع، أو للتكثير ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿**وَاجِفَةٌ**﴾ أي: مضطربة لشدَّة الفزع اضطرابا مسرعًا، كقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [سورة الحشر: 6]، وقيل: زائلة عن مكانها، وهو كالأوَّل، لأنَّ زوالها عنه لاضطرابها لشدَّة الفزع.

وعن ابن عبَّاس: خائفة، بلغة همدان، وذلك كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ اِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: 22 ـ 23]، ﴿**اَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ**﴾ ذليلة من الخوف.

والمراد أبصار الوجوه، أضيف الأبصار إلى ضمير الوجوه لأنَّها فيها، قُدِّر أبصار أهلها، والذلُّ لأهلها، وأسند للأبصار لظهور أثره عليها. وأجيز أنَّ الأبصار البصائر، أي: بصائر القلوب ذليلة لا تدرك شيئًا، فعبَّر بذلِّها عن عدم إدراكها، وعزَّة البصيرة إنَّما هي بالإدراك، وهي لا تدرك يوم القيامة إدراكًا تامًّا لشدَّة الذهول والتحيُّر. والجملة خبر ثان لـ«قُلُوبٌ».

﴿**يَقُولُونَ**﴾ في حياتهم الآن إنكارًا للبعث ﴿**أَ.نَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ**﴾؟ مردودون إلى الحياة بعد الموت كما يردُّ الماشي فيما حفرت قدماه بالمشي إذا ردَّ إلى الوراء. والاستفهام للإنكار، هذا هو الظاهر، وقيل: يقولون ذلك إذا بعثوا وشاهدوا فيكون الاستفهام للتعجُّب والاستغراب.

[صرف] والحافرة الطريقة التي جاء فيها فحفرها بمشيه، فاعلة بمعنى مفعولة، كما هو وجه في ﴿مَآءٍ دَافِقٍ﴾ [سورة الطارق: 6]، أو للنسب، أي: ذات حفر، أو إسناد الحفر إليها مجاز عقليٌّ، والعلاقة المحلِّيَّة، والحافرة حقيقة القدم.

ثمَّ إنَّ تأثير القدم ليس حفرا بل شبيه به، ويجوز جعل الحافرة القدم على حذف مضاف، أي: في أثر القدم الحافرة. و«ال» للجنس، لا كما قيل: «الْحَافِرَة» جمع حافر، وذلك على معنى ما مرَّ.

وقيل: على معنى لمردودون أحياء نمشي على أقدامنا، وهذا لا يظهر من الآية. وعن مجاهد: الحافرة: القبور المحفورة، أي: لمردودون أحياء في قبورنا، على أنَّ فاعلاً بمعنى مفعول، أو للنسب. وعن زيد بن أسلم: الحافرة النار، وهو ضعيف.

﴿**إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً**﴾ بالية، وهو صفة مبالغة متعلِّق بـ«مَرْدُودُونَ» خارج عن الشرط والصدر، و«إِذَا» هذه تعيِّن أنَّ قولهم: «أَ.نَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ» صدر عنهم في الدنيا، وليس هذا آخر الآية لعدم التأسيس فيه، وما قبل وما بعد مؤسِّس، وآخرها «خَاسِرَة». ومن قرأ: «نَاخِرَةً» (بالألف) كان عنده آخر الآية، لأنَّ فيه تأسيسا.

[صرف] ولفظ «نَاخِرَةً» ـ وهو اسم فاعل ـ حروفه أكثر من حروف «نَخِرَةً» بإسقاط الألف، ومعناه أقلُّ، وقولهم: زيادة الحروف تَدُلُّ على زيادة المعنى أغلبيٌّ لا لازم، أو يخصُّ بما إذا اتَّحد النوع، وهنا مختلف، فإنَّه بدون الألف صفة مبالغة، وبها اسم فاعل.

[صرف] ونقول: مفعال وفعَّال (بالشـــدِّ)، وفعول أبلغ من فَعِلٍ (بفتح فكســـر)، وكفرَّح بالشـــدِّ للمبالغة لا للتعدية أزْيَدُ معنًى من فَرِحَ (بالكسر والتخفيف).

[لغة] وقال ابن العلاء[1]: النخرة التي بليت، والناخرة التي لَمَّا تنخر. وقال الفرَّاء: هما ســـواء في المعنى، فلعلَّه أراد أنَّهما جميعًا لِمَا وقع بلاهُ، لا يكُون ناخرة (بالألف) لما سينخر كما قال ابن العلاء، أو أراد أنَّه بالألف اسم فاعل وبدونه صفة مشبَّهة، فلم يتَّحدا نوعا، وقيل: كلاهما من معنى الصوت، يقال: نخر العظـــم، أي: بلي، وكان أجـــوف إذا مرَّت به الرِّيح ســـمع له نخير، أي: صوت.

﴿**قَالُواْ**﴾ استئناف في ذكر كفر آخر لهم متفرِّع على السابق، ﴿**تِلْكَ**﴾ الكرَّة أو الرَّجفـــة ﴿**إِذًا**﴾ إذ كان الأمر ما ذكر من كون العظام نخرة ﴿**كَرَّةٌ خَاسِـــرَةٌ**﴾ فاعلة للنسب، أي: ذات خسر، أو على حذف مضاف، أي: خاسر أصحابها، أي: فنحن خاسرون، لتكذيبنا بها، والعبارة عبارة ظنٍّ، وهم جازمون في قصدهم، وذلك استهزاء، وعن الحسن: ضائعة، أي: لا تكون.

﴿**فَإِنَّمَا هِيَ**﴾ أي: الكرَّة، وقيل: الراجفة ﴿**زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ**﴾ أي: كذَّبوا وأخطأوا في إنكارهم، لأنَّ تلك الكرَّة صيحة واحدة، أي: موجبها صيحة واحدة، سهلة لا علاج لنا فيها، يصيحها إسرافيل فتحصل بصيحته، وهي النفخة الثانية أخبر بها عن الكرَّة، كأنَّ تلك الكـــرَّة هي نفس الصيحة مبالغة فـــي كمال الاتِّصَال

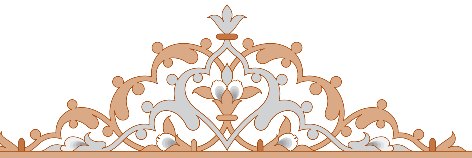
(1) هو أبو عمرو بن العلاء بن عمَّار بن العريان التميميُّ البصريُّ، شيخ القرَّاء والعربيَّة، اختلف في اسمه، قيل: زبَّان، وقيل: العريان، ولد حوالي سنة 70هـ. أخذ العلم وحدَّث عن أنس بن مالك ومجاهد وعكرمة وغيرهم. اشتغل بتدريس اللغة العَرَبِيَّة، واشتهر بالفصاحة والصدق وســـعة العلم. ووثَّقه يحيى بن معين، وحدَّث عنه شـــعبة والأصمعيُّ وغيرهما. تُوُفِّيَ ســـنة 154هـ. **الحمصي**: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 241.

والترتُّب عليها. ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ أحياء على وجه الأرض بعد أن كانوا أمواتا في بطنها.

[لغة] والساهرة: وجه الأرض المستوية لا نبت بها، لأنَّ السراب يسهر فيها، أي: يجري، وعين ساهرة: جارية الماء، والجريان للسراب مجاز، وأسند لمحلِّه تجوُّزا آخر؛ أو لأنَّ سالكها لا ينام خوف الهلكة على التجوز في الإسناد. وقيل: أصل الساهرة الأرض التي يكثر المشي فيها، حتَّى كانت كحيوان منع من النوم للعمل عليه لا ينام وهو يُعمل عليه.

وقيل: أرض القيامة، وهي أرض من فِضَّة لم يُعصَ اللهُ تعالى فيها؛ وقيل: أرض مَكَّة؛ وقيل: الأرض السابعة، تبدَّل بها هذه الأرض فيحاسبون عليها؛ وعن وهب بن منبِّه: جبل بالشام يمدُّه الله تعالى؛ وقيل: أرض قرب بيت المقدس؛ وقيل: صحراء على شفير جهنم؛ وعن قتادة: جَهَنَّم إذ لا نوم فيها.

وسلَّى الله تعالى رسوله ﷺ، وهدَّد قومه بتكذيب موسى عليه السلام وإهلاك فرعون في قوله:



﴿هَلَ اَتٰيكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ إِذْ نَادٰيهُ رَبُّهُۥ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٦ اِذْهَبِ اِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغٰى ١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَّكّٰى ١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشٰى ١٩ فَأَرٰيهُ الْاٰيَةَ الْكُبْرٰى ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصٰى ٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعٰى ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادٰى ٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْاَعْلٰى ٢٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْاٰخِرَةِ وَالْاُولٰىٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشٰىٓ ٢٦﴾

التذكير بقصَّة موسى عليه السلام مع فرعون

﴿**هَلَ اتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىا**﴾؟ اللفظ استفهام والمراد التحقيق، أي: قد أتاك حديث موسى قبل هذا فتذكَّره، فقد أُهلِكُ مكذبيك كما أَهلكتُ مكذبي موسى، أو المراد الاستفهام التقريري، أي: أليس قد أتاك حديث موسى فما لك يضيق صدرك؟ وإن لم يأته حديثه قبل هذه الآية، قيل: وهو خلاف المتبادر، قلت: هو وجه حسن يستعمل في مقام التحقُّق إذا تحقَّق أمر عند صاحبه قال: ألم يكن كذا؟ يخاطِب به من لا علم له به، كقوله:

ألم تریاني كلّما جئت زائرا وجدت بها طيبا ولم تتطيَّب؟[1]

فالاستفهام ترغيب له في استماعه، وتوسيع لقلبه بأحدوثة طريفة يمال إليها ويستراح بها، أي: هل أتاك حديث أخبرك به؟ وكأنَّه قال: بلى، أخبرني.

﴿**إِذْ**﴾ مفعول به لـ«اذكر»، بل متعلِّق بـ«حَدِيثُ»، لتضمُّنه معنى التحدُّث ﴿**نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ**﴾ المحترم المطهَّر، وحذفت ياء الوادي لالتقاء

---

(1) البيت من الطويل وهو لامرئ القيس في ديوانه ص 41 من الشواهد. انظر: **إميل يعقوب**: معجم شواهد اللغة، ج 1، ص 501.

الساكنين، وحذفت من الخطّ تبعا للّفظ ﴿طُوًى﴾ اسم للوادي فهو عطف بيان، ومنع الصرف للعلميّة وتأنيث البقعة، أو للعلَميّة والعدل عن فاعل، أي: طاوية بمعنى أنَّه مشتمل على خير.

﴿اذْهَبِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ محكيٌّ بـ«نَادَى» مفعول به له، كأنَّه قيل: إذ قال له ربُّه: اذهب إلى فرعون، أو يقدَّر القول، أي: إذ ناداه ربُّه يا موسى قائلاً: «اذهب...» إلخ. ويجوز تقدير «أن» التفسيريَّة لتقدُّم معنى القول وهو النداء، لمعونة قراءة: «أَنِ اذْهَبْ» بأَنْ، وهي تفسيريَّة لا مصدريَّة، لأنَّ ما بعدها أمر لا إخبار.

﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ لأنَّه طغى ﴿فَقُلْ﴾ له إذا أتيته ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَّكَّىٰ﴾ هل لك ميل إلى التزكّي، أي: التطهُّر من الشرك والمعاصي، فـ«لَكَ» خبر، وقيل: مبتدأ لا فاعل لـ«لك»، لأنَّ الفاعل لا يحذف إلَّا في مواضع مخصوصة كالتقاء الساكنين، والأصل تتزكّى أبدلت التاء زايا وأدغمت في الزاي، وفي الاستفهام جلب وتنزيل عن العتوّ، كما قال الله ﷻ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [سورة طه: 44]. وقدَّم التزكّي لأنَّه تخلية والهداية تحلية.

﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أرشدك ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى معرفة ربّك سبحانه، ولا إله إلَّا هو ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ فتخشاه، ولا خشية بالشيء إلَّا بعد المعرفة به، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَآءُ﴾ [سورة فاطر: 28]، وهي خوف مع إجلال، وهي عمدة الأمر.

[قلت:] **من خشي الله تعالى أتى منه كلُّ خير، ومن لم يخش اجترأ عن كلِّ شرٍّ**، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل**»[1] ﴿فَأَرَاهُ الايَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ عطف على محذوف، أي: فذهب إليه فأمره

(1) رواه **أبو نعيم** في الحلية، ج 8، ص 377، و**القضاعي** في الشهاب، ج 1، ص 250، رقم 289، مع زيادة: «ألا إنَّ سلعة الله غالية، ألا إنَّ سلعة الله الجنَّة» كما في الجامع الصغير، رقم 6222، عن عبد بن حميد من طريق العقيلي.

بالتوحيد فعاند فطلب الآية ﴿فَـأَرَاهُ الايَةَ الْكُبْرَىٰ﴾، وهي العصا، أي: أظهرها له، واحتجَّ بها عليه، أو صيَّره عارفًا بأنَّها حقٌّ مــن الله تعالى، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: 14]، قال بلسانه: إنَّها سحر إظهارًا للتجلُّد وعدم العجز والانقياد.

والعصا أصلُ آيِ موسى وأكبرُها، وغيرُها تبعٌ له. وعن مجاهد: الآية الكبرى العصا واليد البيضاء هما كالآية الواحدة، وعبَّــر عنهما بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿اذْهَبَ اَنتَ وَأَخُوكَ بِئَايَاتِي﴾ [ســورة طه: 42]. وقيل: يجوز أن يراد الآية الكبرى الجنس، فتشمل آياته كلَّها، أعني التي قبل انفلاق البحر المغرق.

والفاء لتعقيب أوَّلها أو مجموعها باعتبــار أوَّلها، والتفضيل باعتبار آيات الرســل قبله، أو «الْكُبْرَى» خارج عن التفضيل، أي: فأراه الآية الكبيرة، ويردُّه قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ﴾ فإنَّ حشره السحرة إنَّما كان بعد العصا واليد، وأمَّا باقي الآيات التسع فإنَّما هي بعدما غلب السحرة على طول في نحو عشرين سنة.

﴿**فَكَذَّبَ**﴾ موسى، وسمَّى العصا واليد سحرًا ﴿**وَعَصَىٰ**﴾ عصى اللهَ تعالى، دام على العصيان وادِّعاء الأُلُوهِيَّة وإنكار الله ﷻ. [قلت:] وما ذكرته أولى من قول بعض: فكذَّب موسى وعصاه، لأنَّه أَشَدُّ ذمًّا ولو كان عصيانه موسى عصيانا لله ﷻ. ﴿**ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْــعَىٰ**﴾ زاد إدبارا أعظم، كما دلَّ عليه «ثُمَّ»، فإنَّ حشــره ونداءه فيه العصيان المذكور، وزيادة السعي والعلاج في إبطال الحقِّ.

وليس لفظ «ثُمَّ» ـ كما قيل ـ يفيد أنَّ تَقَضِّي الإبطال يستدعي زمانا طويلاً، وذلك إدبار عقليٌّ.

[قصص] ويجوز أن يكون حسِّــيًّا بأن أدبر عن المجلس ساعيا في إبطال أمر موســى، أو هاربا عن الثعبان إذ ألقى عصاه فصارت ثعبانا أشعر فاغرًا فاه، بيــن لحيَيْه ثمانــون ذراعًا، لحيه الأســفل في الأرض، والأعلى على ســور

القصر، وأحدث فرعون في ذلك اليوم سبعين مرَّة، ومات من قومه في هروبهم خمسة وعشرون ألفًا[1]. أو انقلبت حيَّة، وارتفعت في الهواء قدر ميل، وانحطَّت نحو فرعون، تقول: مرني يا موسى بما شئت، وفرعون يقول: أنشدك يا موسى الذي أرسلك إلَّا أخذتها، فأخذ الثعبان أو الحيَّة فصار عصا.

وبحث بعض بأنَّه إن كان هذا بعد حشر السحرة للمعارضة فلا تصحُّ إرادته هنا إن أريد بالحَشْرِ في قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ﴾ حَشْرُ السحرة، وإن كان بعد التكذيب وقبل حشرهم فلا يظهر تراخيه عن الأوَّلين، إلَّا إن قيل: «ثُمَّ» لاستبعاد إدباره مرعوبا مع دعوى الأُلُوهِيَّة.

وقيل: «أَدْبَرَ» أَقْبَلَ، من قولهم: أقبل يفعل، أي: أنشأ يفعل، لكن جعل الإدبار في موضع الإقبال، لأنَّ إقباله في ذلك إدبار له وتدمير، كما تقول: شرع فلان يخزي نفسه، إذا شرع في فعل يدَّعيه خيرًا له وهو هلاك له.

﴿فَحَشَرَ﴾ جمع السحرة، كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ﴾ [سورة الشعراء: 53]، وقوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [سورة طه: 60]، أي: ما يكيد به من السحرة وآلاتهم، أو جمع جنوده أو أهل مملكته ﴿فَنَادَىٰ﴾ بلسانه، كما هو الأصل والمتبادر، وكما يدلُّ له قول تعالى عنه:

﴿فَقَالَ﴾ أي: في الحاضرين، ليعلموا وينشروا قوله: ﴿أَنَاْ رَبُّكُمُ الَاعْلَىٰ﴾ إذ لو نادى غيره لقال: يقول فرعون: أنا ربُّكم الأعلى، فيكون قد قام فيهم خطيبًا فقال ذلك في جملة خطبته. وإن قال غيره، فقد قال: يقول فرعون: أنا ربُّكم الأعلى، والأرباب كلُّها دوني ومربوبة لي، مثل الأصنام يدَّعيها آلهة تحته، أو

---

(1) سبق التعليق على مثل هذه القصص الخيالية، وقد أولع القدامى بإيرادها. وتناقلوها عن بعضهم، إذ نجدها عند الطبري والثعلبي والخازن والزمخشري والرازي وأبي حيان والبيضاوي والسيوطي والآلوسي، وغيرهم... (المراجع).

يقول: كلُّ كبيرٍ إلهٌ على مَنْ تَحتَهُ، حتَّى الأب أنَّه إله ولده، أو أراد تفضيل نفسه على غيره.

﴿**فَأَخَذَهُ اللهُ**﴾ أهلكه أو عذَّبه ﴿**نَكَالَ الَاخِرَةِ وَالأُولَىٓ**﴾ الدنيا، عذابا ينكل بسماعه، أي: يتأخَّر عن موجبه.

[نحو] وهو مفعول مطلق لمحذوف مؤكِّد، أي: نكل الله به نكال الآخرة والأولى، أو مفعول مطلق لـ«أَخَذَهُ».

والمراد بالأخذ النكال، ونكال الدنيا الإغراق والإذلال، ونكال الآخرة عذاب النار، وقيل: العذاب الذي تَستَحِقُّه الكلمة الآخرة التي هي: «أَنَاْ رَبُّكُمُ الَاعْلَىٰ»، والعذاب الذي تَستَحِقُّهُ الكلمة الأولى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرِي﴾ [سورة القصص: 38]، أو بالعكس وبين الأولى والآخرة أربعون سنة، وقيل: الأولى كفره وعصيانه، والآخرة: «أَنَاْ رَبُّكُمُ الَاعْلَىٰ»، وقيل: أوَّل معاصيه وآخرها.

﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من قصَّة فرعون وما فعل، وما فُعل به ﴿**لَعِبْرَةً**﴾ عظيمة ﴿**لِّمَنْ يَّخْشَىٰٓ**﴾ من شأنه الخشية، أو كتب الله أن يخشى.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿27﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿28﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿29﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿30﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿31﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿32﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿33﴾﴾

الاستدلال على البعث بخلق السماوات والأرض والجبال

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أَيُّهَا المقسم عليك بالنازعات لتبعثنَّ ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ عطف على «ءَأنتُم» مقدَّم في التقدير على «أَشَدُّ»، لا بدَّ أن يقولوا: السماء أَشَدُّ لعظم وسعها وغلظها وانطوائها على بدائع لا يدركها العقل، قدر على خلقها فكيف لا يقدر على بعثكم وقد كنتم من قبل؟ ولا يصعب عليه تعالى شيء. وفصَّل خلقها بقوله:

﴿بَنَاهَا﴾ إلى ﴿... ضُحَاهَا﴾، وأضمر في «بَنَى» و«رَفَعَ» و«سَوَّى» و«أَغْطَشَ» و«أَخْرَجَ» تعظيما له بأنَّه معلوم بهذه الأفعال، لا يُشارَك فيها ولا يُتوهَّم غيره. ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ رفع رفعها، وذلك مبالغة في ارتفاعها، حَتَّى إِنَّ بينها وبينكم خمسمائة عام لو كان ذلك الجوُّ مبسوطا على الأرض، أو يعدُّ قطع المسافة بالطيران، كقوله: أظلَّ الله ظلَّك، ورفع ارتفاع درجتك، في المبالغة. أو رفع السطح الذي يلي السماء الثانية على السطح الذي يلي الأرض، وذلك غلظها خمسمائة عام[1] ﴿فَسَوَّاهَا﴾ لم يجعل فيها نتوًّا ولا

---

(1) العلم الحديث يثبت أبعاد ما توصَّل إليه بملايين السنين الضوئية. فكيف بما لم يتوصَّل إليه بعدُ؟!. سبحانك اللهمَّ ما أعظم شأنك وأعزَّ سلطانك!.

عوجا، ولا زاوية ولا خشونة ولا حفيرة، ولا تختلف بذلك، وقيل: **تسويتها إكمال خلقتها على وجه حسـن**، وقيل: تزيينها بالكواكب والقمرين. وهي بسيطة، وشُهِرَ أنَّها كُريَّة. وهل التسوية من أَوَّل؟ قيل: نعم، وقيل: بعدُ، وهو الوارد في الخبر[1].

﴿**وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا**﴾ أظلمه الله، مِنْ غَطَشَ الليلُ (بالرفع)، والفعل لازم تعدَّى بالهمزة، ويقال أيضا: غطشه الله بتعدٍّ بنفسه. ﴿**وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا**﴾ أبرز نهارها، سَمَّى النهار باسم جزئه الأعظم وهو الضحى، وهو وقت انبساط الشمس، وهو شباب النهار، ويدلُّ على إرادة النهار كلِّه به مقابلة الليل به.

وقيل: الضحى الضوء، فيقدَّر مضاف، أي: ضحى شمسـها، ولا شك أنَّ الضوء ـ ولا سيما شباب الزمان ـ أطيب لامتعاش الأرواح في الدنيا به، فناسب الاحتجاج به ردُّ الأرواح إلى الأجساد بالبعث.

وأضاف الليل والضحى إلى السماء لأنَّهما يحدثان بطلوع الشمس وغروبها وهي سـماويَّة، أو لأنَّهما يحصلان بسـبب حركتها على القول باتِّحادها مع الفلك، أو لأنَّهما يحصلان بحركة الشـمس في فلكها فيها على تغاير الفلك والسماء، وأنَّ المتحرِّك إنَّما هو الكواكب كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سـورة يس: 40]، ولأنَّهما أوَّل ما يظهران منها، فإنَّ أوَّل الليل بإقبال الظلام من المشرق، وأوَّل النهار بطلوع الفجر.

﴿**وَالَارْضَ**﴾ منصوب على الاشتغال، وقيل: منصوب بـ«تذكَّرْ» أو «تدبَّر» أو «اذكروا» محذوفا ﴿**بَعْدَ ذَالِكَ**﴾ المذكور من خلق السماء، وإغطاش الليل،

---

(1) ما تثبته وسـائل العلم الحديـث أنَّ تكوُّن الأجرام السَّـمَاوِيَّة، ومـن ضمنها الأرض، ورُسُـوَّها في مداراتها كان في حقب طويلة لا يعلم مداهـا إلَّا الله، والآية الكريمة في سياقها ترشد إلى ذلك.

وإخراج النهار ﴿دَحَاهَآ﴾ بسطها للسكنى والانتفاع بها، من الدحو أو الدحي، فألفه عن واو أو عن ياء. وقيل: دحاها: سوَّاها، والأكثر على الأوَّل.

ودحْيُها أو تسويتها بعد خلقها أو معه قولان، والأوَّل عن ابن عبَّاس، قال الحسن: كانت يوم خلقت على هيئة الفهر، وحصل الجمع بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ﴾ [سورة فصّلت: 11]، بأنَّ خلق الأرض متقدِّم عن خلق السماء، ودحوها مُتَأَخِّر عن خلق السماء. وقيل: «بَعْدَ» بمعنى مع، كما قيل في قوله تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [سورة القلم: 13]، أي: مع ذلك.

والذي يظهر لي أنَّ المراد بالبعديَّة في الآية بعديَّة الإخبار، كما تقول: أكل زيد رطل لحم صبحا، وأكل بعدُ في ليلته رطلين، أي: أخبرك بكذا بعدما سمعت كذا.

قال ابن عبَّاس: خلق الله تعالى الأرض ثمَّ السماء ثمَّ دحا الأرض، واعتُرض بأنَّه يستحيل الجسم العظيم أن يكون بلا دحو لظاهره، وأجيب بِأَنَّ خلق الأرض السابق خلق مادتها، واعترض كون الأرض يوم خلقت كالفهر بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الَارْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ﴾ [سورة البقرة: 29]، وخلق ما فيها إنَّما هو بعد الدحو، وأجيب بأنَّ «خَلَقَ» بمعنى: قدَّر أو أراد الخلق. وقيل: «ثمَّ» للتراخي الرتبي.

وخلق السماء أعجب من خلق الأرض. ويروى أنَّ الله تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخلق السماوات وما فيها في يوم الخميس والجمعة، وفي آخر يوم الجمعة

كمل خلق آدم[1]، واختار قوم تقدُّم خلق السماء على الأرض، وخلق ما فيها بعد خلق الأرض.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ المخزون فيها بتفجيره عيونا ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ رِعْيَهَا (بكسر الراء) أي: ما يرعى من نباتها.

[بلاغة] وأصله مصدر ميميٌّ بمعنى مفعول، أطلق على ما يَعُمُّ ما يأكل الآدميُّ تجوُّزًا، لعلاقة الإطلاق والتقييد. وهذا أعمُّ فائدة بأن يفسَّر بما ترعى الحيوانات خَاصَّةً وهو حقيقة، ومن أن يراد ما يأكل الآدميُّ خَاصَّةً بذلك التجوُّز المذكور، أو على الاستعارة، وحكمتها تشبيه منكري البعث بالبهائم التي لا يُهِمُّهَا إلَّا الأكل.

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أثبتها، والنصب على الاشتغال، أو «اذكروا» أو «تذكَّروا» أو «تدبَّروا» ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ النصب على التعليل، و«مَتَاعًا» بمعنى تمتيعًا، والناصب محذوف، أي: فعلنا ذلك تمتيعا لكم.

ولو نصب بـ«أَرْسَى» أو بـ«أَخْرَجَ» أو بغير ذلك وهما أقرب لبقي غير ذلك بلا تعليل فنحتاج إلى التقدير، أو نقول: تعليل لإخراج الماء والمرعى، وفيه كفاية، وتعليل غيره معلوم، وفي إرساء الجبال تمتيع، إذ لو تركها تميد لم يستقم قرار الحيوان والإنسان عليها، والأظهر تعليل لإخراج الماء والمرعى، ولا يعارض بالفصل، ولا سيما إن جعلنا الواو للحال، أي: وقد أرسينا الجبال. والخطاب لمنكري البعث يعظهم بما نعته منه تعالى عليهم وحجَّة على البعث.

---

(1) غيبيَّات لم تثبت بالقطع. وقد سبق التعليق على مثلها في ج 12، ص 426.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿34﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿35﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿36﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿37﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿38﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿39﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿40﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿41﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿42﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿43﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿44﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿45﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿46﴾﴾

التذكير بالجزاء يوم القيامة وتفويض علم الساعة لله

﴿**فَإِذَا جَآءَتِ**﴾ الفاء للترتيب على ما قبلُ ﴿**الطَّآمَّةُ**﴾ الداهية العظمى، من طمَّ على الشيء وطمَّه، غلبه واستولى عليه ﴿**الْكُبْرَىٰ**﴾ تأكيد في المعنى، لأنَّ الأكبريَّة من معنى الطامَّة، وليس تفسيره بكونها غالبة على الخلائق لا يقدرون على دفعها مُخرِجًا لها عن الأعظميَّة، فيكون وصفها بـ«الْكُبْرَىٰ» مخصِّصا كما قيل. وقيل: كونها طامَّة أكبر من كلِّ طامَّة إنَّما هو باعتبار ما عرفوه من الدواهي، وكونها أكبر هو على الإطلاق يؤخذ من لفظ «الْكُبْرَىٰ» فيكون مخصِّصًا.

أو جرِّد عن بعض معناه، فيكون معناه الكبيرة، فيوصف باسم التفضيل بعد، وهو «الْكُبْرَىٰ» تأنيث الأكبر، فهو مخصِّص، ولا يخفى أنَّها يوم القيامة، وهو معدود في أسماء يوم القيامة، وهو أعظم الدواهي لما فيه.

وقيل: النفخة الأولى، وهو رواية عن ابن عبَّاس والحسن. وأخرج ابن أبي شيبة أنَّها الساعة التي يساق فيها أهل الجنَّة للجنَّة وأهل النار للنار. وعن مجاهد: أنَّها الساعة التي يساق فيها أهل النار للنار.



[نحو] ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الِانسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ «يَوْمَ» بدلٌ من «إِذَا»، بَدَلَ كلٍّ، على اعتبار أنَّ وقت المجيء ووقت التذكُّر مراد به وقت واحد لا مختلف. وإن أريد بـ«يَوْمَ يَتَذَكَّرُ» وقت التذكُّر الذي هو بعض من يوم القيامة فَبَدَلُ بعضٍ، وظهور المعنى مغنٍ عن الرابط، أو بَدَلٌ من «الطَّامَّة» مبنيٌّ في محلِّ رفع، بُنِيَ لإضافته للجملة ولو كانت فِعْلِيَّة فعلها معرب.

ولا نحتاج إلى تفسير «الطَّامَّة» بالتذكُّر والبروز، كما قيل بالاحتياج، لأنَّ التذكُّر والبروز غير زمان و«يَوْمَ يَتَذَكَّرُ» زمان. ويجوز تعليقه بـ«جَآءَت» على أنَّ الطامة دخول النار أو الجنَّة على ما مرَّ.

والتذكُّر يُتَصَوَّرُ بالنسيان، فالإنسان ينسى ما عمل لكثرته، ولعدم الاعتناء، ولطول العهد، وشدَّة الهول، قال الله تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾ [سورة المجادلة: 6]، فإذا رآه في صحيفته تذكَّره، أو يحضره الله تعالى بقدرته في قلبه زيادة على النظر في صحيفته، والمراد الخير والشرُّ.

[نحو] و«مَا» اسم، أي: ما سعاه، أو مَصدَرِيَّة، أي: سعيه، ولا يجوز أن يقدَّر: يوم يتذكَّر الإنسان فيه سعيه، لأنَّه لا يرجع الضمير إلى الظرف في الجملة التي أضيف إليها الظرف.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَّرَىٰ﴾ عطف على «جَآءَت»، وقيل: على «يَتَذَكَّرُ». و«بُرِّزَتْ» أظهرت إظهارا بيِّنا لكلِّ ذي بصر، وخصَّه بعض بالكافر، وهو ضعيف.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ جواب «إِذَا»، كقولك: إذا جاء القوم فمن أحسن منهم فأكرمه، ومن أساء فعاقبه، وإذا جاء زيد فإن أذعن فأكرمه وإلَّا فأهنه، وغير ذلك مِمَّا فيه جواب للشرط شرط آخر وجوابه، ولا إشكال في ذلك.

وقيل: جواب «إِذَا» محذوف، أي: وقع ما لا يضبطه كلام بتفصيل، وأشار إليه بإجمال بقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾، وقيل: تقديره: ظهرت الأعمال بالصحف،

ولا حاجة إلى تقديره: «انقسموا قسـمين فَأَمَّا مَن طَغَى»؛ لأنَّ قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ...﴾ يغني عنه.

ومعنى «طَغَى» تمرَّد وجاوز الحدَّ. ﴿**وَءَاثَرَ**﴾ اختـار ﴿**الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا**﴾ القريبة الزوال، أو الخسيسـة، فاطمأنَّ إليها كَأَنَّهَا حسنة تدوم، فلم يستعدَّ للحياة الدائمة الحسنة بالطاعة وترك المعصية ﴿**فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ**﴾ لا غيرها، فهذا حصر ﴿**الْمَأْوَىٰ**﴾ مأواه، أو هي المأوى له، حذف الرابط أو ناب عنه «ال» للفاصلة.

﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ**﴾ المقام للإنسان لا لله تعالى، أي: خاف قيامه عند الله للحساب، وهو مصدر، أو مكان، أو زمان. أو «مَقَامَ» لله تعالى بمعنى شأنه تعالى، مستعار من اسم المكان، أو «مَقَامَ» مقحم للتفخيم، ومرجع هذا إلى الذي قبله. ﴿**وَنَهَى النَّفْسَ**﴾ نفسـه أو النفس له، و«ال» في الأوَّل عوض وفي الثاني للعهد، وهكذا قُلْ في «الْمَـأْوَى»، وكذا في قوله: ﴿**عَنِ الْهَوَىٰ**﴾ وما أشبه ذلك [بمعنى] زَجَرَهَا فلم يغلبها الهوى.

والهوى: ما تهواه، أي: تحبُّه وتميـل إليه لزهرته وزينته، علما منه بأنَّ السمَّ في الدسـم، فإذا دعته إلى المعصية تذكَّر الحسـاب عند الله تعالى فيتركها، وَسُمِّيَ [بالهوى] لأنَّه يهوي بصاحبه إلى النار، **فهو يُؤَدِّي في الدنيا إلى كلِّ واهية وفي الآخرة إلى الهاوية**. ويطلق الهوى على الميل إلى مباح وإلى طاعة أيضًا، فإنَّ أصله مطلق الميل ﴿**فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾ مأواه، أو المأوى له.

والآيتان على العموم ولو خصَّ سـبب النزول. قيل عـن ابن عبَّاس: نزل ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ في أبي جهل، وقيل: في النضر وابنه الحارث، ونزل ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ﴾ في مصعب بن عمير ﵁. وقيل: هذه الآية فيه، و﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ في أخيه أبي عزيز بن عمير.



[سيرة] وقى مصعب بن عمير ﵁ رسول الله ﷺ يوم أحد يوم تفرَّق الناس عنه حتَّى نفذت السهام في بطنه، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ متشحِّطا في دمه قال: احتسبك عند الله تعالى، وقال: لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما، وإنَّ شراك نعليه من ذهب، وأُسِرَ أخوه أبو عزيز ولم يشدَّ وثاقه إكرامًا لمصعب فقال: «ما هو لي بأخي شدُّوا أسيركم، فإنَّ أمَّه أكثر أهل البطحاء حليًّا ومالاً». وروي أنَّ مصعبا قتل أخاه المذكور.

﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ**﴾ سؤال إنكار وتعجيز ﴿**أَيَّانَ**﴾ اسم استفهام بمعنى متى، خبر مقدَّم، ﴿**مُرْسَاهَا**﴾ مبتدأ، مصدر ميميٌّ، أي: إرساؤها، أي: إثباتها، والذي يرسيها هوالله ﷻ، كما قال: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [سورة النازعات: 32]. ومن الثلاثيِّ الجبال الرواسي، أي: الثوابت.

[نحو] والجملة مفعول به لـ«يَسْأَلُ» علِّق هو عنها بالاستفهام. ويجوز أن يكون «أَيَّانَ» ظرف مكان مجازا، و«مُرْسَاهَا» اسم مكان مجازا، أي: أين موضع انتهائها، بأن ينزل يوم القيامة كشخص سائر لا يوصل إليه ما لم يستقرَّ في موضع.

﴿**فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا**﴾ يا محمَّد، بالتعيين والتفصيل، إنَّما لك إثباتها والإخبار بقربها وأمارتها، لست تعلمها ولا يعلمها إلَّا الله تعالى، ﴿يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [سورة الأعراف: 187]، أي: لا شيء لك من ذكرها لهم لأنَّك لا تعلمها متى هي. والاستفهام إنكار للياقة سؤالهم إيَّاه عنها.

[نحو] و«فِيمَ» خبر، و«أَنتَ» مبتدأ، و«مِنْ» متعلِّق بمتعلَّق «فِي» فيما قيل، ويقدَّر مضاف، أي: من ذكرى وقتها، ولا يَصِحُّ ذلك، إذ لا معنى لذلك التعليق، ولعلَّها تُعَلَّقُ بمحذوف نعت لاسم الاستفهام، كما تقول: أيُّ راكبٌ جاءك؟ برفع «راكب» نعتا لـ«أي» وتنوين «أيٌّ»، وتكون للبيان. واسم الاستفهام بمعنى شيء، أيْ: في أيِّ شيء هو ذكراها أنت؟. أو «فِيمَ» خبرٌ لمحذوف، أي: فيم سؤالهم وأنت من ذكراها؟ مبتدأ وخبر، أي: أنت من علاماتها، لأنَّك آخر الأنبياء.

ويقال: كان يكثر ذكرها ويسأل عنها حَتَّى نزلت الآية على صورة التعجُّب من كثرة ذكرها، وكان يكثر ذكرها للحرص على جوابهم إذا سألوه عنها.

ويجوز أن يكون ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ بدلا من قوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: يسألونك في أيِّ مرتبة أنت من علمها؟. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لا إلى غيره ﴿مُنتَهَاهَآ﴾ انتهاء علمها بالتوقيت والتفصيل، ولا علم لأحد إلَّا بأمارة، وهذا معنى صحيح على التفسيرين في قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ ولا يَخْتَصُّ بالثاني كما قيل.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَنْ يَّخْشَاهَا﴾ يُؤَثِّرُ إنذارك فيمن يخشاها بإثباتها وذكر أمارتها وقربها، وقد قال الله ﷻ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [سورة القمر: 1]، وقال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[1].

[بلاغة] والحصر إضافيٌّ، حصر موصوف في صفة، وصحَّ مع أنَّه يُنذَر بها المؤمن والكافر، لأنَّ الإنذار هنا بمعنى تأثير الإنذار، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [سورة يس: 11]، ومعنى كون الحصر إضافيًّا أنَّه باعتبار أنَّه لا شيء له في بيان وقتها، أي: لك الإنذار بها لا تعيينها.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يشاهدونها، مُتَعَلِّق بمحذوف حال من الهاء.

[نحو] وَصَحَّ الحال الزمانيُّ من اسم الجثَّة لأنَّه أفاد هنا كما قال الأندلسيُّ[2] في الخبر:

ولا يكون اسم زمان خبرا عن جثَّة وإن يفد فأَخبرا

(1) تقدَّم تخريجه ج 5 ص 255.

(2) المراد بالأندلسي صاحب الألفية في النحو وهو: محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله. أحد الأيمة في علوم العربية. ولد في جيان الأندلس سنة 600هـ. ثم انتقل إلى دمشق وتوفي بها سنة 672هـ. ومن أشهر كتبه الألفية في النحو وعليها عدة شروح، ولامية الأفعال وغيرها. وللشيخ شرح على اللامية ذكره مرارا في تفسيره هذا. **الزركلي**: الأعلام، ج 6، ص 233.

وصحَّ مِمَّا هو مبتدأ في الأصل، لأنَّ في «كَأَنَّ» حدثا قَوِيًّا، وهو التشبيه البليغ، كأنَّه قيل: أُشَبِّهُهم حال كونهم في يوم يرونها بمن لم يلبث إلَّا ساعة.

﴿**لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً اَوْ ضُحَاهَا**﴾ أي: لم يلبثوا بعد الإنذار بها أو بعد الوعيد إلَّا قليلاً، وأضاف «ضحى» لضمير العشيَّة لأنَّهما يجمعهما يوم واحد.

وكان ﷺ يكثر السؤال عن الساعة خوفا منها وحرصا على جواب قومه المكثرين للسؤال عنها تعنُّتا حَتَّى نزل: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ﴾ فانتهى عن السؤال، وقد قيل: قوله ﷻ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ تعجيب من كثرة سؤاله ﷺ عنها.

والله أعلم، وهو المستعان.

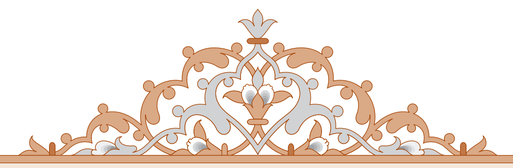
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



80

تفسير سورة عبس

مكِّـيَّة وآياتها 42 ـ نزلت بعد سورة النجم



﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ ﴾

المسلم أولى بالاحتفاء به

﴿عَبَسَ﴾ هو، أي: محمد [ﷺ] في حضرة الأعمى، وعبَّر بالإضمار له ﷺ إجلالاً بأنَّه يعلم ولو لم يذكر، وللعلم به من وقوع القصَّة ومشاهدتها، ولإيهام أنَّ من صدر منه ذلك غيره، لأنَّه لم يصدر منه مثله قبلُ ولا يصدر بعد.

[بلاغة] والخطاب في مواضع بعد ذلك تأكيد في العتاب، كما تلوم أحدًا بأسلوب الغيبة، ثمَّ يزداد قصدك في العتاب ويشتدُّ فتقبل عليه بالخطاب فيه. أو الخطاب بعد ذلك إيناسٌ وإقبالٌ بعدَ إيحاشٍ وإعراضٍ، ويناسب الأوَّل رفع شأن الضعيف الراغب في الإسلام، والثاني سعة رحمته تعالى له ﷺ، فكيف يشدِّد عليه بستِّ خطابات آخرها «كَلَّآ» بعد تشديدين بطريق الغيبة؟.

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أعرض عن الأعمى الطالب لدين الله تعالى، مقبلاً على أصحاب الدنيا ﴿أَن جَآءَهُ الْاَعْمَىٰ﴾ لأنْ جاءه الأعمى، تنازعه «عَبَسَ» و«تَوَلَّى»، لأنَّ المراد عبس لأن جاءه الأعمى، وتولَّى لأنْ جاءه الأعمى، فأعمل الثاني وأضمر للأوَّل، أي: عبس له، أي: لمجيء الأعمى.

وهو ابن أمِّ مكتوم ابن خال خديجة ﵂، واسمه عمرو بن قيس بن زائدة بن جندب بن هرم بن رواحة بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي القريشيُّ، وقيل: عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصمِّ بن زهرة بن رواحة القريشيُّ الفهريُّ من بني عامر بن لؤي.

وأمُّ مكتوم كنية أمِّه، واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزوميَّة، وليست جدَّته كما قيل، وقيل: ابن أمِّ مكتوم اسمه عبد الله بن عمرو، وقيل: عبد الله بن شريح بن مالك بن أبي ربيعة الفهري، والأوَّل هو الصحيح وعليه الجمهور. وكان يبصر ثمَّ عمي، وقيل: ولد أعمى. أسلم قديما بِمَكَّةَ وكان من المهاجرين الأوَّلين.

[سبب النزول] روي أنَّه كان عند رسول الله ﷺ أكابر قريش: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل، والعبَّاس بن عبد المطَّلب، وأميَّة بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام، ويرجو أن تسلم العَامَّة بإسلامهم، فجاء ابن أمِّ مكتوم وقال: يا رسول الله، اقرأ لي وعلِّمني مِمَّا علَّمك الله تعالى، وكرَّر ذلك، ولم يعلم تشاغله بهؤلاء، فكره رســول الله ﷺ قطْعه لكلامه مع هؤلاء وعبس وأعرَضَ، فنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ...﴾.

[سيرة] فكان إذا رآه أكرمه، وقال: «**مرحبا بمن عاتبني فيه ربِّي، هل لك من حاجة؟**» وذلك في مَكَّة، واستخلفه النبيء ﷺ بعد الهجرة، وَصَلَّى بالناس ثلاث عشــرة مرَّة، وهو من المهاجرين الأوَّلين، هاجر قبل النبيء ﷺ، ومات بالقادسيَّة شهيدا يوم فتح المدائن أَيَّام عمر ﵁، ورآه أنس يومئذ وعليه درع وله راية سوداء، وقيل: رجع إلى المدينة ومات بها.

وذكره بالأعمى زيادة في العتاب، إذ من شأن من هو ضعيف أن يقبل عليه أيًّا كان، ولا سيما أنَّه جاء يطلب دين الله ﷻ.

﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰٓ**﴾ يتطهَّر مِمَّا هو فيه من الإثم بما يسمع منك ﴿**أَوْ يَذَّكَّرُ**﴾ يتَّعظ ﴿**فَتَنفَعُهُ الذِّكْرَىٰٓ**﴾ تذكيرك وموعظتك ولو علمت ذلك ما فرط ذلك منك. والترجية متعلِّقة إلى النبيء ﷺ، قيل: أو إلى «الأعمى»، ورجاء تزكِّيه أو تذكُّره يمنع من العبوس والتولِّي عنه.

و«لَعَلَّهُ يَزَّكَّى...» معمول لـ«يُدْرِي» قائم مقام مفعولين علِّق عنهما بـ«لَعَلَّ»، وقيل: مستأنف، والتقدير: وما يدريك أمره ما هو؟.

والمراد بالتزكِّي التزكِّي التامُّ، وبالتذكُّر التذكُّر التامُّ، لأنَّه قد حصل أصل التزكِّي وأصل التذكُّر بإسلامه قبلُ. و«أو» لمنع الخلوِّ أو بمعنى الواو، والمراد: فتنفعه موعظتك إن لم تبلغ درجة التزكِّي التامِّ، وقيل: التذكُّر بتعلُّم ما هو نفل، والتزكِّي بما هو فرض، والتزكِّي تخلية ولو كان التامَّ.

وقيل: هاء «لَعَلَّهُ» للكافر، والترجِّي عائد إلى رسول الله ﷺ، أي: إنَّك طمعت في تزكِّيه بالإسلام وتذكُّره بالموعظة، ولذلك أعرضت عن الأعمى، وما يدريك أنَّ ما طمعت فيه يقع؟

﴿**أَمَّا مَنِ اِسْتَغْنَىٰ**﴾ عَمَّا عندك من علوم القرآن وغيره بما عنده من الضلال. وقيل: وأمَّا من كان غنيًّا بمال، واعترُض بأنَّه لو كان كذلك لذكر الفقر، مثل أن يقول: أن جاءه الفقير الأعمى، أو يقول بعدُ: وأمَّا من جاءك فقيرا يسعى... إلخ، وأجيب بأنَّه ذَكَر الغنى هنا ليدلَّ على الفقر فيما بعدُ، وذكر المجيء والخشية ثانيا ليدلَّ على ضدِّهما هنا، وذلك تكلُّف.

[صرف] ﴿**فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ**﴾ تَتَصَدَّدُ، قلبت التاء صادًا وأدغمت في الصاد والدال الثالثة [قلبت] ألفا، كتتَقَضَّى أصله تتقضَّض.

والمعنى: تتعرَّض له وتُقْبِلُ عليه اهتماما بإرشـــاده. وفي ذلك تنفيرٌ عن الرشادِ، لِتُوهِمَ هؤلاء والناسَ اعتبارَ غناهم ورئاسَتِهِم بالذات، وعن الأعمى الجائي يسعى لفقره وعدم رئاسته.

[لغة] أو المعنى: تجعله صددك، وهو ما اســتقبلك، وتشتغل به، أو من الصدى وهو العطش، أي: تتوجه إليه كتوجه العطشان إلى الماء، أو من الصدى وهو الصوت، أي: تَتَكَلَّمُ إليه أو تصغى إلى كلامه.

[بلاغة] وقدَّم أنت هنا وفيما بعد لأنَّه ﷺ هو متعلِّق الإنكار.

﴿**وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ**﴾ ما عليك انتفــاء تزكِّيه، أو ما عليك بأس في أن لا يزَّكَّى، بل انتفاء تزكِّيه عليه يعاقب به هو لا أنت، والعقاب به عليه لا عليك، ﴿**إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾ [سورة الشورى: 48].

[نحو] فـ«ألَّا يزَّكَّى» في التأويل مبتدأ لـ«عَلَيْكَ»، أو فاعل له، و«مَا» نافية، ويجوز أن تكون استفهاميَّة إنكاريَّة، و«عَلَيْكَ» خبرها، أي: أيُّ شيء عليك في أن لا يتزكَّى؟ لا شـــيء عليك. وأنت خبير بأنَّ واو الاستئناف لا تثبت، فهذه الواو للحال إذا جعلنا «مَا» نافية، وإن جعلناها استفهاميَّة فالعطف على «أمَّا من استغنى...» عطف قِصَّة على أخرى، وإنشاء على إخبار، أو على «مَا يُدْرِيكَ».

﴿**وَأَمَّا مَن جَـــآءَكَ**﴾ مريدا للهدى، وهو الأعمى ﴿**يَسْــعَىٰ**﴾ حال من ضمير «جَاءَ»، والمراد الســعي بالقلب وهو الرغبة والاجتهاد لا بالقدمين ﴿**وَهُوَ يَخْشَىٰ**﴾ الجملة الكبرى حال ثانية من ضمير «جَاءَ»، أو متداخلة من ضمير «يَسْعَى».

ومعنى «يَخْشَـــى» يخاف العقاب معظِّما لله تعالى، ومَنْ هذا شـــأنه يجب الإقبال عليه، ولا يُعرَضُ عنه لرتبته في الدين عند الله تعالى. وقيل: يخشى أذى الكفرة في الإتيان إليك وهو أعمى ســـهل لأن يُقتل أو يضرب أو يؤذى بأذى

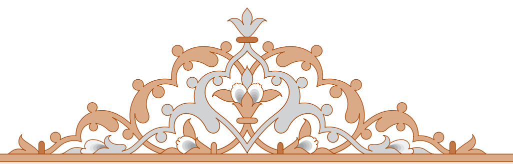
ما، ومن بذل نفسه فيك لوجه الله ﷻ حقيق بأن تقرِّبه وتحسن إليه لا أن تعرض عنه، وكذا ما قيل: يخشى الكبوة أو الوقوع في حفرة أو شوك أو أذى مَّا، ولا قائد له.

﴿**فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ**﴾ تتشاغل، تتلهَّى: تلهو لهوا عظيما عنه، وكذا التفعُّل في ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ للتعظيم، وذلك أنَّه أعرض عنه إعراضًا تامًّا، ولو قال له: امكث حتَّى أتفرَّغ لك، أو جِئْ وقتا آخر، لكان دون ذلك، والعلم لله ﷻ.

[بلاغة] وقدَّم «لَهُ» و«عَنْهُ» للفاصلة، وللتهميم[1]، ولأنَّهما منشأ العتاب، قيل: وللحصر الإضافيِّ، أي: تصدَّى له لا لابن أمِّ مكتوم، وتلَهَّى عنه لا عمَّن استغنى، وفيه أنَّه لا يأمره الله بالتلهِّي عَمَّن استغنى لحضوره مع الشروع في تذكيره، ولأمر الله تعالى بتذكيره، فإنَّ العتاب على الاهتمام بمن استغنى لا على قصده بالإرشاد، فإنَّ الإرشاد غير ممنوع عن الكُفَّار، والعتاب إنَّما هو على الاشتغال عَمَّن جاء يسعى، وذكر التلهِّي دون عدم التصدِّي مع أنَّه هو المقابل للتصدِّي إشعارًا بأنَّ العتاب ليس للاشتغال بالكفَّار.

(1) كذا في النسخ. ويبدو أنه يقصد بالتهميم: إثارة اهتمام النبيء ﷺ بالموضوع، كالتحضيض. وفي الطبعة العُمانيَّة: «وللتعميم»، وهو احتمال بعيد.





﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿11﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿12﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿13﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿14﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿15﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿16﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿17﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿18﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿19﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿20﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿21﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿22﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿23﴾﴾

القرآن موعظة وتذكرة، وعظيم نعم الله على الإنسان

﴿كَلَّآ﴾ مبالغة في النهي عن معاودة مثل ذلك. فما عبس بعد ذلك في وجه فقير أو ضعيف، ولا تصدَّى لاحترام ذي جاه أو غنيٍّ حتَّى مات ﷺ، والفقراء في مجلسه ﷺ أمراء بعد ذلك[(1)]، [قلت:] وينبغي التأدُّب به ﷺ في ذلك. كما نسب فعل ذلك إلى سفيان الثوريِّ.

نزل أوَّل السورة إلى قوله: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ بعد انقضاء كلامه ﷺ مع هؤلاء الكفرة ووصوله إلى بيته، وقيل: في مجلسه قبل انقضاء كلامه.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: السورة، أو هؤلاء الآيات، أو القرآن، وعليه فالتأنيث لتأنيث الخبر، والأوَّلان أقرب لموافقة التأنيث، ولأنَّ العود إلى الجزء الحاضر أولى لحضوره من العود إلى أجزاء بعدت مع ما قرب، والثاني أولى من الأوَّل لحصول مرجع الضمير، بخلاف العود إلى السورة فإنَّها لَمَّا تكمل عند عود الضمير، وعدم الكمال أيضًا متصوَّر عند العود إلى القرآن. لَكِنَّ الهاء في «ذَكَرَهُ» تناسب القرآن للتذكير، ويجاب بعودها إلى الله ﷻ، وبعودها إليه ينحلُّ

(1) راجع: في ظلال القرآن لشهيد الدعوة الإسلاَمِيَّة سَيِّد قطب، ج 30، ص 467 وما بعدها فقد ذكر له ﷺ عِدَّة أمثلة.

استشكال عودها إلى السورة أو الآيات، وقد قيل: بعودها إلى السورة والآيات لتأويلهنَّ بالذكر، أو القرآن.

وقيل: «هَا» للمعاتبة، والهاء في «ذَكَرَهُ» لها أيضًا، لأنَّها بمعنى العتاب. وقيل: الضميران للدعاء إلى الإسلام، وتأنيث الأوَّل لأنَّ الدعاء بمعنى الدعوة، أو هما للدعوة وتذكير الثاني بمعنى الدعاء أو الوعظ.

﴿فَمَن شَآءَ﴾ من الناس ﴿ذَكَرَهُ﴾ اتَّعظ به، قد علمت أنَّ «مَنْ» واقعة على الإنسان، وكذا الضمير في «ذَكَرَ»، والهاء للقرآن، أو السورة، أو الآيات، أو التذكرة للتأويل بمذكَّر، كقرآن ووعظ وتذكير، أو الهاء لله عز وجل.

﴿فِي صُحُفٍ﴾ نعت لـ«تَذْكِرَةٌ»، أو خبر ثانٍ لـ«إِنَّهَا». والمراد: الصحف التي تكتبها الملائكة من اللوح المحفوظ. وقيل: المراد اللوح المحفوظ لتضمُّنه صحفًا، واشتماله عليها، وقيل: الصحف المنزَّلة على الأنبياء كصحف إبراهيم، وصحف موسى، وصحف آدم، وصحف شيت، ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [سورة الأعلى: 18 ـ 19]، ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الاَوَّلِينَ﴾ [سورة الشعراء: 196]، وقيل: مصاحف المسلمين بعد رسول الله ﷺ، وأوَّلها مصحف الصدِّيق، وبعده الإمام وهو مصحف عثمان، فيكون ذلك إخبارًا بالغيب أنَّه سيكون مكتوبًا في صحف، وقبل ذلك كتب في الجلود والخشب والألواح ونحوها.

﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله عز وجل ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ في السماء السابعة كما قال يحيى بن سلَّام، وقيل: **مرفوعة القدر**، فالرفع على الأوَّل حسِّيٌّ، وعلى الثاني عقليٌّ. ولا إشكال في كونها في السماء السابعة مع أنَّها صحف الأمَّة، لأنَّ ما فيها هو عين ما في السماء السابعة. ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ عن أن تمسَّها الشياطين أو تنظر فيها، وعن كلِّ دنس فليس فيها كذب، ولا شبهٌ، ولا تناقض.

﴿بِأَيْدِي﴾ نعت «صُحُفٍ» ﴿سَفَرَةٍ﴾ ملائكة كتبة من اللوح المحفوظ، فهي بعيدة عن مسِّ الشياطين ونظرها، والمفرد: سافر، أي: كاتب، أو هو جمع سافر بمعنى سفير، وهو المتوسّط بين اثنين، فهم الملائكة المرسلون إلى الأنبياء.

أو هم الأنبياء، لأنَّهم وسائط بين الله ﷻ وعباده، أو لأنَّهم يكتبون الوحي، وفيه أنَّ كتب الله نزلت مكتوبة، ووظيفة الأنبيـاء التبليغ والتعليم لا الكتابة لا مُجَرَّد التوسُّط، إلَّا القرآن فنزل غير مكتوب.

والنبيء ﷺ لا يكتب ولا يقـرأ كتابة، وعن وهب بـن منبّه: أصحاب رسول الله ﷺ، لأنَّهم وسائط بينه وبين الأمَّة، ولأنَّ بعضهم يسفر إلى بعض في الخير والتعليم، وهذا قول عجيب، وأعجب منه أنَّهم القرَّاء كنافع!.

﴿كِرَامٍ﴾ أعزَّة عند الله تعالـى، من الكرم بمعنى العِزَّة والشـرف، أو أسخياء على المؤمنين بالاستغفار والإرشاد، والإلهام، والوحي، من الكرم ضدَّ اللؤم والشحِّ.

﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء مطيعين لله تعالى و ﷯، من البرِّ بمعنى الإحسـان، **فهم محسنون بالطاعة والتقوى، والله يحِبُّ المحسنين،** أحسنوا لأنفسهم، والله تعالى غنيٌّ عن غيره.

أو معناه: صادقون، من برَّ في يمينه، وليس خارجا عن معنى الإحسان، فإنَّ عدم الحنث إحسان، والحنث خلاف الأصل ومكروه، إلَّا فيما هو من المباح أو المعصية إلى الخير[1].

[صرف] والمفرد برٌّ (بفتح الباء)، وأمَّا أبرار فمفرده بَرٌّ، كَرَبٍّ وأرباب، وبَارٌّ، كصاحب وأصحاب، والبررة في القرآن ولسان رسول الله ﷺ: الملائكة، والأبرار: الناس المتَّقون، لأنَّ الأبرار جمـع قلَّة ولو أريدت الكثـرة، والمؤمنون أقلُّ من

(1) أي الحنث عن المعصية إلى فعل ضدِّها وهو الخير والطاعة.

الملائكة. قيل: والبررة أبلغ من أبرار، لأنَّه جمع بَرٍّ، وبَرٌّ أبلغ من بَارٍّ، أي: باعتبار أنَّه مصدر في الأصل، كزيد عدل فإنَّه أبلغ من عادل، وفيه أنَّ أبرار يكون جمعا لِبَرٍّ كما يكون جمعا لِبَارٍّ. وأمَّا كون الملائكة أبلغ في العبادة فظاهر، لأنَّهم كالمطبوع عليها، ولا تختلُّ بوجه مَّا، ولم يوصفوا بعصيان قطُّ، بخلاف الأنبياء.

[صرف] وقيل: الأبرار أبلغ من البررة، لأنَّ البررة جمع بَرٍّ فقط، والأبرار جمع بَرٍّ وبارٍّ، فنحمله على أنَّه جمع بارٍّ، وبارٌّ كان أبلغ من برٍّ لزيادة حرف فيه، وفيه أنَّه لا يَتَعَيَّنُ أن يحمل على أنَّه جمع، بل الجواب أنَّه لا يطَّرد جمع فاعل على أفعال، فلذلك منع بعض النحاة أنَّه جمع بَارٍّ، وفيه أيضا أنَّه إذا اعتبر أنَّ أصله مصدر كان أبلغ من بارٍّ، الجواب: أنَّا لا نسلِّم أنَّ أصله مصدر، بل هو وصف وضعا، ثمَّ إنَّه لا شَكَّ أنَّ المؤمن أبلغ من المَلَك لأنَّه عصى الهوى والشهوات والدعاوي، وصبر على المشاقِّ، ولا شيء من ذلك في الملائكة، وفي الحديث: «**الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأه وهو عليه شاقٌّ له أجران**»[1].

﴿**قُتِلَ الِانسَانُ**﴾ ذمٌّ بصورة الدعاء باللعن أو القتل، أو أمر بالدعاء، أي: قل يا محمَّد، أو يا من يصلح للقول: «قُتِلَ الِانسَانُ...». وقيل: المراد أنَّه سيقتل الكُفَّار بإنزال آية القتال [سورة الحج آية 39]، والماضي للتحقُّق، وهو ضعيف.

والإنسان جنس الكافر، أو الكفرة المذكورون المستغنون الذين اشتغل ﷺ بهم عن ابن أمِّ مكتوم.

وقد قيل: نزلت في عتبة بن أبي لهب، غاضب أباه فأسلم، فأرضاه أبوه بمال فارْتدَّ، وجهَّزه إلى الشام، فبعث إلى رسول الله ﷺ: أنَّه كافر بربِّ النجم إذا هوى، فقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ ابعث عليه كلبك حَتَّى يفترسه**» فكان أبوه يندبه

(1) رواه **أبو داود** كتاب باب ثواب قراءة القرآن، رقم 1242. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الأدب، باب ثواب القرآن، رقم 3769. من حديث عائشة.

وينوح، ويقول: ما يقول محمَّد شيئًا إلَّا كان، فلمَّا كان في أثناء الطريق في أرض مسبعة ذكر دعاء النبيء ﷺ فجعل لمن معه ألف دينار إن أصبح حيًّا فجعلوه وسط الرفقة والمتاع فجاء أسد فقتله ومزَّقه.

وقيل: نزلت في أميَّة بن خلف، وقيل: في قتلى بدر.

﴿**مَآ أَكْفَرَهُ**﴾ تعجيب من إفراطه في الكفر، ولا كافر غير مفرط في الكفر، لأنَّ أدنى كفر إفراط ولو تفاوتُوا. وقيل: «مَا» استفهاميَّة إنكاريَّة، أي: أيُّ شيء صيَّره كافرا مع ما يشاهد من الدلائل؟ ولم يسمع قبل نزول القرآن: «قُتِلَ الِانسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ»، ولا يَصِحُّ ما نسب لامرئ القيس هكذا:

يتمنَّى المرء في الصيف الشتاء ... فإذا جاء الشتا أنكره

فهو لا يرضى بحال واحد ... قتل الإنسان ما أكفره

[الإشادة بمخطوط ووصفه] بل ذلك شعر موضوع اقتبس من الآية: ﴿قُتِلَ الِانسَانُ...﴾ فإنِّي لم أره في نسخ ديوانه، ولا في شرحه، ولا سيما نسخة عتيقة مجوَّدة صحِّحت عند أبي عليٍّ الشلوبين في أندلس، ولم أجد فيها ذلك، وأَذِنَ الشلوبين لتلميذ له في روايته وذلك أكثر من خمس مائة عام ولم يَتَغَيَّر كأنَّه كتب الآن، وكأنَّه صنعت أوراقه الآن.

﴿**مِنَ اَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾؟ استفهام تقرير، أمرهم أن يقرُّوا بأصل خلقتهم، وذلك يتضمَّن التحقير، ﴿**مِن نُّطْفَةٍ**﴾ وعلقة ومضغة واقتصر على المبدأ ﴿**خَلَقَهُ**﴾ جواب لذلك الاستفهام مستأنف.

وقيل: بدل على تقدير الهمزة، أي: «أَمِنْ نطفة خلقه؟» والتحقير بالنطفة وبتنكير «شيء».

﴿**فَقَدَّرَهُ**﴾ جعله على قدر مخصوص يصلح به ويليق، من الأعضاء والأشكال، وهذا تفصيل لإجمال ﴿مِنَ اَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾.

أو المعنى: خلقه على قــدر مخصوص من رأس وأذنيــن وعينين ويدين ورجلين ومنخرين، أو هيَّأه لما يصلح له.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ﴾ ســبيل خروجه من البطن ﴿يَسَّرَهُ﴾ بأن فتح فم الرَّحم ومدَّ الأعصاب في طريقه، ونكَّل رأســه لأســفل بعد أن كان في جهــة العلو فيقع برأسه، ولذلك يقال لموضع الولادة مسقط الرأس.

وقيل: السبيل **طريق النظر الصحيح المودِّي إلى إدراك الحقِّ والعمل به،** وقيل: الهدى، وقيل: الهدى والضلال، بأن ســهَّل له الضلال أيضا ليكون متمكّنا مــن فعله، حتَّى إذا تركــه باختياره أثيب، فتيســيره نعمة من هذه الجهة، ولو جعل غير متمكّن منه أو مستحيلا لم يُمْدح على عَدم فعله إلَّا على نية أنَّه لو استطاعه لم يفعله، أو سهَّل العلم بالحقِّ والباطل، أو يسَّر له ما قدَّر له.

[نحو] والنصب على الاشتغال، والاشــتغال أبدا من باب التوكيد لما فيه من التكرير، فالهاء للســبيل لا للإنسان، كســائر الهاءات، ولا لبس في ذلك، وقيل: للإنســان، على تقدير اللام فلا اشــتغال، أي: ثمَّ يسَّر السبيل للإنسان. و«ال» للعموم، ولو قال: «ثمَّ سبيله يسَّره» لأوهم أنَّ لكلِّ إنسان سبيلاً يخصُّه، والدنيا طريق، والمقصد غيرها للثواب والعقاب.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ جعله ذا قبر بأن ألهم ابن آدم الدفن، ولم يتركه على الأرض، وذلك تكريم له فلا يســتقذر ولا تأكله الدوابُّ والطير. ودفن غير الآدميِّ جائزٌ، ويُقصَد دفع نَتْنِه.

والنعمة في دفن الإنسان لا في إماتته، أو فيها أيضا، لأنَّها سبيل إلى دخول الجنَّة لمن أطاع، وسبيل الطاعة عامٌّ غير محجور عن أحد فقوله: ﴿مِنَ اَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ...﴾ تعديد للنعم في حياته وموته، وتقبيح لكفرها.

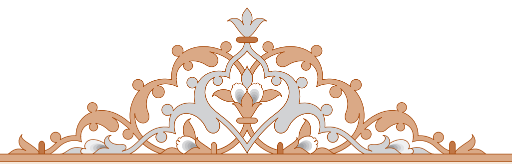
﴿**ثُمَّ إِذَا شَآءَ**﴾ إنشَارَهُ ﴿**أَنشَرَهُۥ**﴾ أخرجه حيًّا من قبره، لا معرفة لأحد بتحقيق الوقت لذلك، ولا لما بينه وبين زمان حياته، بخلاف الإماتة والإقبار فقد يعتبر فيهما المعتاد من الأعمار.

﴿**كَلَّا**﴾ ارْتدعْ أيُّها الإنسان عن الكفر للنعم وإنكار البعث والجزاء ﴿**لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ**﴾ الهاء وضمير «يَقْضِ» للإنسان، وضمير «أَمَرَ» لله تعالى، والرابط محذوف، أي: لَمَّا يقض الإنسان ما أمره الله به.

أو الهاء للموصول، وضمير الإنسان محذوف، أي: لَمَّا يقض ما أمره إيَّاه، وليس مَنْفِيُّ «لَمَّا» لا بدَّ أنَّه سيقع، فالإنسان لم يقض ما أمره به إلى أن مات، ولا قضاء بعد الموت، أو من لدن آدم إلى الآن.

والمراد جميع ما أمره الله به، فمنهم من لم يقض شيئًا، ومنهم من قضى بعضًا، ومن قضى كثيرًا لم يخلُ من تقصير، وعدم القضاء صادقٌ بذلك، فدخل الكافر بعدم قضائه شيئا وبعدم قضاء بعض دون بعض.

وقيل: المراد في الآية: لم يقض شيئا مَّا، على أنَّ الكلام في الإنسان المبالغ في الكفر.



﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿24﴾ إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿25﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿26﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿27﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿28﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿29﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿30﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿31﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿32﴾ ﴾

إنعام الله على الإنسان بما يحتاج إليه

﴿ **فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ** ﴾ مطلقا، أو الكافر، أو ذلك المبالِغُ في الكفر إذ لم يقض إلى الآن ما أُمر به، فلينظر إلى طعامه لعلَّه يقضي ﴿ **إِلَىٰ طَعَامِهِ** ﴾ كيف خلقه الله تعالى وجعله سببا لحياته؟ وكيف يسَّر دخوله وخروجه؟ وذلك ذكر للنعم الخَارِجيَّة.

أو الأولى نعم خَاصَّة، وهذه نعم عَامَّة، أو تلك متعلِّقة بالحدوث وهذه مُتَعَلِّقَة بالبقاء، والمراد بالطعام ـ أي: المطعوم ـ ما يشمل المشروب، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ [سورة البقرة: 249].

﴿ **إِنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا** ﴾ عجيبا، والجملة مستأنفة بيان لوجه النظر المأمور به إلى الطعام، كأنَّه قيل: كيف أحدث ذلك؟ فقال: إنَّا صببنا الماء صبًّا عجيبا.

وظاهر الصبِّ يقتضي الماء بالغيث، والكلام فيه كما قال ابن عبَّاس، ويحتمل العموم، فإنَّ كلَّ ماء في الأرض من السماء خُزِّنَ فيها، وأمَّا ما قيل: إيصال الله تعالى الماء إلى أصول النبات صبٌّ فبعيد.

﴿ **ثُمَّ شَقَقْنَا الاَرْضَ** ﴾ بالنبات ﴿ **شَقًّا** ﴾ بديعا لائقا بما يشقُّها من النبات في صغر أو كبر أو هيئة.

وقيل: شققناها بآلة الحرث وبالحفر لنحو النخلة والشجر، وفيه أنَّ إسناد الشقِّ بهذا المعنى إلى الله ﷻ مجاز لعلاقة السَّببِيَّة التي هي الإقدار، بخلاف شقِّها بالنبات فإنَّه حقيقة لله تعالى، وإسناد الفعل حقيقة لمن قام به لا لمن أوجده، كشَقِّ الأرض بالسكَّة فقد قام بالشقِّ [لا] بالإنبات.

وأيضا الشقُّ بنحو السكَّة يأباه لفظ «ثُمَّ»، ولفظ الفاء في قوله: ﴿فَأَنبَتْنَا﴾ إذ لا ترتيب بينه وبين الإمطار أصلاً، ولا بينه وبين إنبات الحبِّ بلا مهلة، وأيضًا مساق الآية ذِكْرُ النعم التي مِنَ الله تعالى بلا علاج أحد.

وقيل: المراد شقُّها بالعيون، على أنَّ المراد بصبِّ الماء الأمطار، واعتُرض بتراخي «ثُمَّ»، وبعدم ملاءمة ترتُّب الإنبات على مجموع الصبِّ والشقِّ بالعيون، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلنا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ...﴾ [سورة النبأ: 14]، لإشعاره باستقلال الصبِّ في ذلك.

﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كَبُرٍّ وشعير، وذُرة وسُلْتٍ، ﴿وَعِنَبًا﴾ هو طعام وشراب وفاكهة ﴿وَقَضْبًا﴾ رطبا، لأنَّه يقضب من النخل مَرَّة بعد أخرى ليؤكل، والقضب: القطع، كما يناسب ذلك ذكرُه مع العنب، وهو مصدر بمعنى مفعول.

وعن ابن عباس: هو ما أنبتت الأرض مِمَّا يأكل الناس والدوابُّ، وقيل: كلُّ ما يقطع من شجرة ليؤكل غضًّا، وعن ابن عبَّاس الفِصْفِصَة [وتسمَّى الفصَّة أيضا]، وقيَّدها الخليل بالرَّطْبَة، وقال: إذا يبست فهي القتُّ، وَسُمِّيَت بالقضب لتكرُّر قطعها حتَّى كَأَنَّهَا نفس القطع، وقيل: القضب: العلف مِمَّا لم يزرع.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَآئِقَ﴾ بساتين ﴿غُلْبًا﴾ عظاما، مفرده أغلب وغُلباء، أصله: الأعناق الغلاظ استعير للبساتين، وفيه تجوُّز آخر، لأنَّ الغلظ للشجر لا للبساتين، إلَّا أن يراد بالحدائق الأشجار، وهو أنسب لـ«أَنبَتْنَا» و«نَخْلاً»، أو أريد بالأغلب: الغليظ مطلقا، فاستعمل منه الشجر تجوُّزًا إرساليًّا، وقيل: «غُلْبًا»: طوالا، كما هو رواية عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

﴿وَفَاكِهَةً﴾ الثمار كلُّها. وذكر الزيتون والنخل لمزيَّتهما، أو أريد ما عداها وقدِّما لمزيَّتهما. ﴿وَأَبًّا﴾ كلأً، لأنَّه يُؤَبُّ للرَّعي، أي: يُقصد، أبَّه بمعنى قصده، وأَمَّه بمعنى قصده، أو هو مِنْ أَبَّ لكذا، أي: تهيَّأ له، لأنَّ النبات متهيِّئٌ للرَّعي، أي: بلغ حدًّا يستحقُّ أن يُرعى فيه.

وعن الضحَّاك: أنَّه التبن خَاصَّةً، وقيل: يابس الفاكهة، لأنَّه يهيَّأ للشتاء يؤكل فيه، وأنشد ابن عبَّاس: ترى به الأبَّ واليقطين مجتمعا.

وقال بعض الصحابة في مدح النبيء ﷺ:

له دعوة ميمونــة، ريحُها الصَّبا بها ينبت الله الحصيدة والأبَّا[1]

ما يأكله الآدميُّ: الحصيدة الفاكهة، وما يأكله الدوابُّ: الأبُّ.

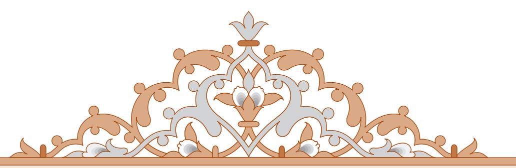
وقرأ عمر الآية على المنبر وسأله ابنه عن الأبِّ فقال: «يا ابن عمر ما عليك أن لا تدري ما الأبُّ، اعملوا بما علمتم، واتركوا ما لم تعلموا إلى الله تعالى». وكذا سئل الصدِّيق عن الأبِّ فقال: «أيُّ سماء تظلُّني، وأيُّ أرض تقلُّني إن قلت في كتاب الله تعالى ما لا أعلم». وفي البخاري عن أنس أنَّ عمر قرأ ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: ما الأبُّ؟ ثمَّ قال: ما كُلِّفنا، أو قــال: ما أُمرنا، وقال بعد هذا في رواية غير البخاري: «اتَّبعوا ما بيِّن لكم هذا الكتابُ، وما لا فدعوه»[2].

﴿مَّتَاعًا﴾ اســم مصدر بمعنى التمتيع، مفعول من أجله، أي: فعلنا ذلك تمتيعا لكم، ولم أقدِّر: «فَعَلَ ذلك تمتيعا لكم» ليناســب «أَنبَتْنَا». أو مفعول مطلق، أي: متَّعناكم تمتيعا، أو تمتَّعتم بذلك تمتُّعا. ﴿لَّكُمْ﴾ عائد لـ«فَاكِهَةً» ﴿وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ عائد لـ«أَبًّا». والخطاب بعد الغيبة لتكميل الامتنان.

---

(1) البيت لابن ريطة، حرب الســلمي، صحابيٌّ. ينظر: **الصفــدي**: الوافي بالوفيات، ج 11، ص 255ـ256. ط.دار إحياء التراث.

(2) رواه **الحاكم** في المستدرك (80) باب تفسير سورة عبس وَتَوَلىَّ، رقم 3897 (1035) من حديث أنس.



﴿فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾

أهوال يوم القيامة، وأحوال أهلها

﴿**فَإِذَا**﴾ الفاء إيذان بقرب متاع الدنيا من الفناء واتِّصالها بالآخرة، وجواب «إِذاَ» محذوف يقدَّر بعد قوله: ﴿وَبَنِيـــهِ﴾، أي: كان ما لا يفي بتفصيله الكلام، وقيل: هو قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ...﴾ مع فعل يقدَّر، أي: كان كلُّ امرئ... إلخ، وهو ضعيفٌ. ﴿**جَآءَتِ الصَّآخَّةُ**﴾ الصيحة التي تصخُّ الأذن، أي: تصمُّها لشدَّتها، كما قال الخليل وابن العربي. وقيل: تكاد تصمُّها، وهو مراد من ذُكر. أو تَصُمُّها حقيقةً، ثمَّ إذا أراد الله تعالى أسْمعه. أو الداهية العظيمة، مِن صاخ بمعنى استمع، والأمر العظيم يستمع له الناس. أسند الاستماع إليها تجوُّزا في الإسناد.

أو الصائخة مجاز. أو مِن صَخَّهُ بالحجر مجازا، كأنَّها تدقُّ الناس بالحجر، والمراد في كلِّ ذلك النفخة الثانية.

﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ**﴾ بدل من «إِذَا»، أو من «الصَّاخَّة»، وهذا على بنائه، كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّـــرُ﴾. يفرُّ بقلبه، أو بإعراضـــه لا برجليه، إذ لا يجد أهلُ المحشر الذهاب حيث شاؤوا.

﴿**مِنَ اَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ**﴾ زوجـــه ﴿**وَبَنِيهِ**﴾ قيل: المراد الهروب مِمَّن كان يقرب منه، ويتعزَّز به في الدنيا.

وقوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ استئناف لبيان سبب الفرار، لكلِّ أحد شأن يغنيه عن الاشتغال بشأن غيره.

قالت سودة بنت زمعة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان**» قلت: يا رسول الله واسوأتاه؟ ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «**شُغِلَ الناس عن ذلك**»[1] وتلا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ...﴾ الآية.

وفي هذا ما أُبهم في رواية الترمذي عن ابن عبَّاس عن النبيء ﷺ: «**يحشر الناس حفاة عراة غرلا**» فقالت امرأة: «أيبصر أحدنا ـ أو يرى بعضنا ـ عورة بعض؟» قال: «**يا فلانة ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه﴾**»[2]. وعن سهل بن سعد قيل له ﷺ: ما شغلهم؟ قال ﷺ: «**شغلهم نشر الصحائف، فيها مثاقيلُ الذرِّ ومثاقيلُ الخردل**»[3]، والمراد بالمرء ما يشمل المرأة.

والفرار لخوف الطلب بتباعة، يقول الأخ: لم تواسني بمالك، والأبوان: قصَّرت في حقِّنا، والصاحبة: أطعمتني الحرام، وفعلت وفعلت، ولم توفِّني حقِّي، والبنون: لم تُعلِّمنا ولم ترشدنا.

وعن قتادة: ليس شيء أشدَّ على الإنسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يطلبه بمظلمة، وقرأ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ...﴾.

---

(1) رواه **الحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير (80) باب تفسير سورة عبس وَتَوَلَّىَ، رقم 3998 (1036) من حديث سودة بنت زمعة. كما أورده **السيوطيُّ** في الدر، ج 6، ص 353. وقال: أخرجه عبد بن حميد والترمذيُّ والحاكم وصحَّحاه وابن مردويه والبيهقيُّ في البعث. من حديث ابن عبَّاس. وَأَوَّلُ الحديث عنده قوله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة...».

(2) رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفسير (73) باب ومن سورة عبس، رقم 3338. من حديث ابن عبَّاس.

(3) أورده **الطبرانيُّ** في الأوسط، ج 1، ص 462، رقم 837. من حديث أمِّ سلمة. و**الهيثميُّ** في كتاب البعث (4) باب كيف يحشر الناس؟ رقم 18319. من حديث سهل بن سعد.

ويقال: أوَّل من يفرُّ هابيل من أخيــه قابيل، والنبيء من أمِّه، وإبراهيم من أبيه، ولوط من زوجه، ونوح من ابنه، وفي ذلك هروب الفاضل من المفضول.

[قلت:] **والمتبادر ما مرَّ من فرار الظالم مــن المظلوم**، وكيف يَصِحُّ فرار النبيء ﷺ مع أنَّه لم يدركها بالغًا؟ وكذا أبوه، ولا حقَّ لهما عليه، وكأنَّه أريد أنَّ الفاضل يهرب من أن ينفع العاصي. ويقال: نوح أوَّل من يهرب من زوجه كلوط.

﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ**﴾ مضيئة لسعادتها، قال ابن عبَّاس: إسفاره من قيام الليل، وقال الضحَّــاك: من أثر الوضوء، وهــذا لهذه الأُمَّــة، أو مع الأنبياء، والإطلاق أولى من التقييد بقيام الليل أو من أثر الوضوء. وقيل: مســفرة من الغبار في سبيل الله ﷻ، ولعلَّ ذلك كلَّه تمثيل والمراد العموم.

﴿**ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ**﴾ مسرورة بما تشاهد من النعيم المقيم الدائم ﴿**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ**﴾ غُبار وكدورة ﴿**تَرْهَقُهَا**﴾ تغشاها ﴿**قَتَرَةٌ**﴾ سواد وظلمة.

وقيل: القترة الغبار حقيقةً والغبرة ما يغشــاهم من العبوس بالهمِّ، وعبارة بعضٍ: هما علــى حقيقتهما، والمعنــى: أنَّ عليها غبارًا وَكــدورة فوق غبارة وكدورة. وقال زيد بن أسلم: الغَبَرَةُ ما انحطَّت إلى الأرض، والقترة ما ارتفع إلى السماء، يصلهم الغبار من فوقهم ومن تحتهم.

﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ أصحاب الوجوه البعداء المغبَــرَّة المقترة ﴿**هُمُ الْكَفَرَةُ**﴾ بالله ورســوله والآيات ﴿**الْفَجَرَةُ**﴾ في أعمالهم فيما بينهــم وبين الله تعالى وبين الخلائق. جمع الله عليهم الغبرة والقترة كما جمعوا بين الكفر والفجور، ولعلَّ الغبرة للفجور والقترة للكفور.

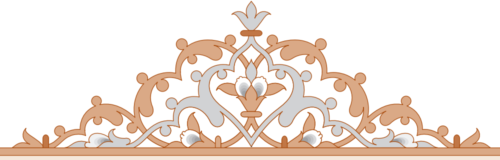
والله أعلم

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

81

تفسير سورة التكوير

مكِّـيَّة وآياتها 29 ـ نزلت بعد سورة المسد



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿1﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿2﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿3﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿4﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿5﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿6﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿7﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿8﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿9﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿10﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿11﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿12﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿13﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿14﴾ ﴾

أحوال القيامة وأهوالها

﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾ لُفَّت، ولفُّها عبارةٌ عن إفنائها، أو إفناء ضوئها، كما روي عن ابن عبَّاس تفسيره بـ«أظلمت»، وذلك كما يخسف القمر.

وقيل: أُلقيت عن فلكها، يقال: كوَّرته بضربة أي طرحته على الأرض مجتمعًا، وقيل: تلفُّ وتلقى في جَهَنَّم يعذب بها عبَّادها، وفيه خبر يروى.

ويروى أنَّها تلقى في البحر مع القمر والنجوم، وتضربه ريح الدبور فيصير نارًا، يوسع الله البحر حتَّى يسعها أو يصغِّرها كذلك، والله قادر. كما روي: أنَّها تدنو من أهل المحشـــر حتَّى تكون قدر ميل فيلجمهم العَـــرَقُ، فإمَّا أن تدنو

بلا نور مع بقاء حرارتها أو مع نورها، ويزول بعد ذلك فتلقى في النار لتعذيب عابديها، ولا يلزم أن لا بحر، ألا ترى إلى قول من قال: تلقى في البحر فيكون نارًا؟ لكن لا حجَّة لذلك صحيحة.

وعن أبي صالح[1] ﴿كُوِّرَتْ﴾ نكِّست. وعن ابن عبَّاس: تكويرها إدخالها في العرش، وقيل: تلفُّ كما يلفُّ الثوب حقيقة.

واعترض بأنَّها كريَّة مستديرة، فلا تقبل اللَّفَّ لحصوله معها، وأجيب بأنَّه لا مانع من كونها غير كريَّة، قيل: وبأنَّها كريَّة تبسط ثمَّ تكوَّر، وفيه تكلُّف، وبأنَّه يزاد في ضمِّها وتكويرها حتَّى تكون أصغر عمَّا كانت عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ﴾ [سورة الأنبياء: 104]، وهو على ظاهره، أو عبارة عن إفناء السماء.

قال رسول الله ﷺ: «**من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأي عين فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ﴾**»[2] يعني السور الثلاث، ووجه السُّور أن يرى أمرًا غريبًا أُخْروِيًّا، وهو في الدنيا.

﴿**وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ**﴾ سقطت عن الأرض ونزلت، كما يقال: انكدر البازي إذا نزل بسرعة على ما يأخذ. وعن الكلبيِّ وعطاء: تمطر السماء يومئذ النجوم، فلا يبقى فيها نجم، وتسعها الأرض مع كثرتها وعظمها بأن يصغِّرها الله تعالى، أو ليست كبيرة كما في علم الهيئة بل هي كما تُرى، أو أكبر بقليل، وهذا هو الصواب، ألا ترى إلى تقاربها وإدراك العين لما لا يحصيه إلَّا الله ﷻ؟ ويجمعها مقدار من الأرض تحيط به العين. وقد قيل: «إنَّها بأيدي الملائكة تحت السماء الدنيا كالقناديل، وإذا ماتوا سقطت» وليست في أفلاك.

---

(1) تقدَّم التعريف به ج 4 ص 45.

(2) رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفسير، باب ومن سورة التكوير، رقم 3333، من حديث ابن عمر.

وقيل: انكدرت: تغيَّرت بزوال نورها كتغيُّر الماء، فاستعار الانكدار لزوال الضوء. ويقال: تسقط وتلقى في النار مع الشمس والقمر لتعذيب عبادها بها لحرارتها، وقيل: هي شـــاملة للشـــمس والقمر فذكر الشمس تخصيص قبل تعميم لمزيَّتها.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أزيلت عند النفخة عن أماكنها، شبِّهت الإزالة عن أماكنها بالتسيير لجامع التحويل، أو سيِّرت تحقيقًا بعد رفْعِها في الهواء، كما قال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [سورة النمل: 88]، ثمَّ صيِّرت هباء منبثًّا.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ النوق اللاتي أتى عليهنَّ عشرة من حين حملن، ويعلم ذلك بحين إرسال الفحل عليها، وذلك اســـمها حتَّى تضع، والمفرد عُشَرَاءُ (بضمٍّ ففتح) كنِفَاس جمع لنفســـاء، ﴿عُطِّلَتْ﴾ تركت مهملة بلا طلب لها ولا رعي وهي أعزُّ مال عند أهلها قبل هذا الوقت المذكور.

وقيل: العشار مطلق النوق ولو لم تحمل، فتكون عطِّلت عن إرسال الفحل فيما قيل، ذلك عند قرب الساعة جدًّا لما يرون من الهول كنفخة الفزع، وفيه أنَّ الكلام قبل وبعد في يوم القيامة فهـــذا التعطيل فيه بل تبعث الحيوانات كلُّها، وفيها العشار، ولا يعبؤون بها لما هم فيه من الهول ولعدم الحاجة إليها حينئذ.

وقيل: تمثيل لشـــدَّة الهول بأنَّه لو كانت هناك عِشـــار لم يعبأ بها. وقيل: العشار السحابات تشبه النوق الحوامل يرجى إمطارها كما يرجى ولادة النوق، وتعطيلها منعها عن الإمطار، أو مجاز عن عدم ارتقاب إمطارها، لأنَّهم في شغل عنه، وفيه أنَّه يحتاج إلى ثبوت السحاب يوم القيامة.

وقيل: الدور تعطَّل عن السكنى، وفيه أنَّه لا تبقى دار مبنيَّة يوم القيامة، لأنَّ الأرض تسوَّى. وقيل: الأرض التي يؤخذ عشـــر زرعها، وتعطيلها ترك زرعها، ولا يخفى بُعده، وأيضا الســـورة مَكِّيَّة قبل أن تفـــرض الزكاة، ولو

فرضت لم تحقَّق إلَّا في المدينة قريبا من الهجرة، ولا عهد للجاهليَّة في أخذ عشُرِ زرع الأرض.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ﴾ الحيوانات التي لا تأنس ببني آدم، وإذا كانت تحشر فالحيونات الإنسيَّة أولى بالبعث، وقيل: المراد ما يشملها على التجوُّز للإطلاق والتقييد ﴿حُشِرَتْ﴾ جمعت من كلِّ موضع، فيحشر كلُّ حيٍّ حتَّى الذباب، وانظر الحوت هل يحشر في البرِّ بلا ماء، والله قادر كما أحيَى الناس بلا طعام ولا شراب، وهو الظاهر؛ فَتَقْتَصُّ الحيوانات بعض من بعض، حتَّى الجمَّاء من القرناء، والذرَّة من الذرَّة، كما جاء في الحديث: «**لتؤدَّنَّ الحقوق إلى أهلها حتَّى تقتصَّ الجمَّاء من القرناء، والذرَّة من الذَّرَّة، ثمَّ تكون ترابا**»[1]، والحوت بعضه مع بعض في الضرِّ كذلك يؤذي بعض بعضا.

وقيل: ذلك كناية عن العدل التامِّ[2]، وقيل: ذلك قبل النفخة الأولى، تخرج نار يفرُّ الناس منها والحيوانات حَتَّى تجتمع في الموقف وتموت فيه، وتبعث، ولا حجَّة لهذا، وكذا القول بأنَّها تجمع إليه، وأنَّه لا يبعث إلَّا الثقلان، وهو إن ثَبَتَ أَبْعَدُ، كما قيل عن ابن عبَّاس: حشْرُها جمعها بالموت ولا تبعث هي، ولا ما مات منها.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أزيل ماؤها وأحميت بالنار وصارت دار العذاب كما جاء في الخبر: «إنَّ البحر غطاء جَهَنَّم». وقيل: ملئت، بأن خلط بعضها ببعض حَتَّى الماء العذب وجعلت بحرا واحدا، والحشر في لغة خثعم الجمع.

(1) رواه **أحمد** في مسند أبي هريرة، رقم 6906.

(2) وهذا القول هو الذي يطمئنُّ إليه القلب، وهو الأنسب بالحكمة الإلهيَّة، فيكون حشر الوحوش على هذا في الآية تجمُّعها وانضمام بعضها إلى بعض شأن الحيوانات عندما تخاف وتهرب من خطر.

وقيل: ملئت نارًا لتعذيب أهلها. وقيل: ملئت ترابًا لتستوي مع أرض الموقف. وقيل: منعت من الفيض على الأرض لشدَّة الهول، كما يمنع الكلب بالساجور[1].

ويقال: تقول الجنُّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فينطلقون إلى البحر فإذا هو نار تتأجج ثمَّ تنصدع الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة، وإلى السماء السابعة، ثمَّ تجيء ريح تميمتهم، فنقول: كيف يهمل نفخ إسرافيل؟ فهذا لا يَصِحُّ، إلَّا أن يقال: تميتهم مع نفخه.

قال أبو العالية: ستٌّ في الدنيا والناس في أسواقهم ينظرون: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ...﴾ إلى ﴿... سُجِّرَتْ﴾، وستٌّ في الآخرة: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ...﴾ إلى ﴿... أُزْلِفَتْ﴾، وقيل: الستُّ الأولى بين النفختين نفخة الموت ونفخة البعث، وقيل: قبل النفخة الأولى إلى الثانية، ومرادي بالنفخة الأولى نفخة الموت.

وعن أُبَيِّ بن كعب: ستُّ آيات في الدنيا بينما الناس في أسواقهم: إذ ذهب ضوء الشمس، ثُمَّ انكدرت النجوم، ثمَّ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت الأرض واضطربت، واختلط الجنُّ والإنس، والوحش والطير والدوابُّ، فتقول الجنُّ: نأتيكم بالخبر، فذهبوا إلى البحر فإذا هو نار، ثمَّ انشقت الأرض فجاءت ريح فماتوا.

﴿**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**﴾ قرنت كلُّ نفس بشكلها، الرجل الصالح بالصالح في الجنَّة، والطالح بالطالح في النار، كما جاء عن عمر موقوفًا، وعن النعمان مرفوعًا[2].

---

(1) الساجور: القلادة أو الخشبة التي توضع في عنق الكلب. **ابن سيده**: المحكم، ج 7، ص 267. (سجر).

(2) ونص الحديث: «قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: هم الغرباء، كلُّ رجل مع كُلِّ قوم يعملون عمله». أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، مج 10، ص 66، وقال: أخرجه جماعة، منهم الحاكم وصحَّحه، من حديث النعمان بن بشير.

وقيل: تقرن الأنبياء في المحشـــر بعض مع بعض، والرسل مع الرسل، والعبَّاد مع العبَّاد، والعلماء مع العلمـــاء، والأولياء مع الأولياء، والغزاة مع الغزاة، وهكذا في أهل الشرِّ.

وعن مقاتل: يقرن المؤمنون بأزواجهم في الجنَّة، وَالكُفَّار بالشياطين في النار. وقيل: كلُّ عامل بصاحب عمله في الخير والشرِّ، العالم بالعالم، والزاني بالزاني، وهكذا. وقيل: اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى. وقيل: كلُّ نفس بكتابها، وقيل: بعملها. وقيل: كلُّ نفس بخصمهـــا إن كان لها خصم. وقيل: الأرواح تقرن بأجسادها عند البعث.

﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ**﴾ البنت المثقلة بالتراب بدفنها حيَّة حتَّى تموت.

[فقه] يقال: وأده (بتقديم الواو على الهمزة): أثقله، وأَوَدَهُ (بتقديم الهمزة على الواو) بمعنى: أعوجه أو ثقَّله، والمثقَّل بالحمل يعوَجُّ لثقل ما حمله عليه [ﷻ عن صفات الخلق][1].

وكان [أهل] الجَاهِلِيَّة يدفنون بناتهم خوف الفقر أو لوجوده، كما قال الله ﷻ: ﴿خَشْـيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [سورة الإسـراء: 31]، وقال: ﴿مِنِ اِمْلَاقٍ﴾ [سـورة الأنعام: 151]، والمراد فقرهم، وهو الأظهر، أو فقرهنَّ أيضًا بَعْدَهُمْ فَيَلْمَمْنَ بعيب، كما روي أنَّهم يدفنونهنَّ لخوف صدور عيب مِنهُنَّ، كزنى وسرقة وقيادة، فمن كره بنتا قتلها إلحاقا به.

وكانت المرأة تلد على حفـرة، فإن ولدت بنتا دفنتها فيهـــا بأمر أبيها أو برضاه، وإن لـــم يفعل بها ذلك تركـــت حتَّى إذا كانت سداســية حفر لها في صحراء، وقال لأمِّها: زينيها نزر بها أحماءهـــا، ويقول لها: انظري في الحفيرة فيدفعها فيها من خلفها، ويدفنها ويسوي الأرض، وإن أراد حياتها ألبسها جبَّة صوف أو شعر، واسترعاها الإبل والغنم.

(1) هذه العبارة زيادة من (أ). يشـير بها الشـيخ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ (سورة البقرة: 255). ينظر تفسيرها في ج 2، ص 127.

﴿ **بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ** ﴾ استفهام إنكار للياقة قتلها، وتهديد لقاتلها بلا خطاب له لشدَّة الغضب عليه، وحطِّه عن درجة الخطاب، وبعث لها على القيام بِحَقِّ نفسها والنصرة لها، ومثل ذلك قوله: ﴿ءَآنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ...﴾ [سورة المائدة: 116].

وعن عمر رضي الله عنه: جاء قيس بن عاصم التميميُّ إلى رسول الله ﷺ فقال: وأدت ثماني بنات، فقال ﷺ: «**أَعتِقْ عن كلِّ واحدة رقبة**»، قال: إنِّي صاحب إبل، فقال: «**أَهدِ عن كلِّ واحدة بدنة**»[1]، وذلك ندب لا إيجاب، لأنَّ الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

ومن العرب من يستقبح ذلك، كجدِّ الفرزدق: صعصعة بن ناجية، قال: يا رسول الله عملت أعمالاً في الجَاهِلِيَّة، هل لي أجر؟ أحييت ثلاثمائة وَسِتِّينَ من الموؤودة، كلٌّ بناقتين عشراوين وجمل، فقال ﷺ: «**لك أجر إذْ منَّ الله عليك بالإسلام**»[2]، وافتخر به الفرزدق ـ وحقَّ له أن يفتخر ـ إذ قال:

وجدِّي الذي منع الوائدات   فأحيى الوئيد فلم تؤد

فنقول لهذا الحديث: حسنات المشرك حال شركه تقبل، وسيِّئاته تغفر إذا أسلم.

[فقه] وأجاز ابن عمر، وابن عبَّاس، وأبو سعيد الخدريُّ، وجابر بن عبد الله، العزل، وهو أن يصبَّ النطفة خارج الفرج لِئَلَّا تحمل، وكذا ابن مسعود، واستدلُّوا بقوله تعالى: ﴿فَاتُواْ حَرْثَكُمُۥٓ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ﴾ [سورة البقرة: 223]، ولا دليل فيه، لأنَّ معناه في القبل من جهة البطن أو الظهر، ومعنى: ﴿قَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ...﴾: اتِّخَاذ الولد من النكاح.

وعن جابر بن عبد الله: «كُنَّا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل ولم

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، مج 10، ص 67. وقال: أخرجه البزار والحاكم في الكنى، والبيهقيُّ في سننه، من حديث عمر بن الخطَّاب.

(2) رواه **الطبرانيُّ** في الكبير، رقم: 7412، ج 8، ص 76 ـ 77. من حديث صعصعة.

ينهنا». قيل: كان اليهود يكرهون العزل ويقولون: إنَّه الوأد الصغير، فنزلت الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَاتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، ولا يَصِحُّ ذلك.

[قلت:] **والصحيح: تحريم العزل، لأَنَّ فيه قطع النسل، إلَّا لموجب، مثل تلاحق حمل على حمل فتضرَّر هي والجنين، أو أحدهما**، وجاء الحديث: «**إِنَّ الْعَزْلَ وَأْدٌ خفيٌّ**»[1] وهو حرام مطلقا، لأنَّه قطع للنسل، ومشبَّه بالقتل، ولو كانت المرأة حرَّة ورضيت.

وقال الشافعيُّ: لا يحرم العزل في السُّرِّيَّة أو الزوجة الأمَة ولو لم ترض، بل يكره ولو رضيت، لأنَّه يمنع من بيعها إن ولدت، وذلك في مذهبهم، ولأنَّ ولده من زوجه الأمَة عبد.

[قلت:] والحقُّ أنَّ الزوجة الأَمَة لا يعزل عنها بِمُجَرَّدِ إذن مالكها، لأنَّ لها حقَّ الزَّوجِيَّة فيحتاج إلى إذنها وإذن مالكها. وقالوا: إن أذنت الحُرَّة لم يحرم، وإلَّا فالأصحُّ أن لا يحرم.

ولا يعارض ما مرَّ من تشبيه الوأد بالقتل والشرك بالرياء من حيث إنَّه شبِّه بالشرك مع أنَّه ليس له حُكمه، لأنَّا نقول: للمرائي حكم المشرك في العقاب.

[فقه] والاستمناء باليد كالوأد، وأباحه بعض لمن خاف الزنى، لكن إذا كان يستحضر في قلبه من ليست زوجة له ولا سُرِّيَّة حَرُم.

[أصول الدين] والآية دليل على أنَّ الكافر مخاطب بفروع الشرع.

وأولاد الأشقياء وولد الزنى والبالغ مجنونا من الطفوليَّة إلى أن مات وأبوه مشرك في الجَنَّة خدمًا لأهلها، وحديث: «**الوائد والموؤودة في النار**»[2]

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب النكاح، باب جواز الغيلة، وهي وطء المرضع وكراهة العزل، رقم 1442. من حديث جدامة بنت وهب.

(2) رواه **أبو داود** في كتاب السنة باب ذراري المشركين، رقم 4717. من حديث عامر.

موضوع، فإن صحَّ فالمراد أنَّ المــوؤودة في النار بلا ألم تعــذِّب مَنْ وَأَدها كالزبانية، وكذا حديث سؤال خديجة عن ولدين ماتا في الجَاهِلِيَّة؟ فقال: في النار، موضوع، أو أرادت بالغين قريبي العهد بالطفوليَّة، إذ لا يستَحقُّ النار بلا عمل ذنب، ولا ذنب لهم إذ لم يكلَّفوا، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [سورة الإسراء: 15]. ولا نســلِّم أنَّ قوله ﷺ: «**الله أعلم بما كانوا عاملين لو كانوا عاملين**»[1]، بمعنى: أنَّهم من أهل النار، لأنَّه ليــس المعنى: الله يعلم أنَّهم لو بَلَغُوا لَكَفَرُوا، بل معناه الوقف.

وَلَمَّا جاءه أَنَّ الله أعطــاه إِيَّاهُم عَلِمَ أنَّهم من أهل الجَنَّة: «**ســألت ربِّي في اللاهين فأعطانيهم خدمًا لأهل الجنَّة**»[2]، وهم أطفال المشركين والمنافقين، وفي حديث الإســراء: «رأى ﷺ أولاد الناس وأولاد المشركين حول إبراهيم عليه السلام». ولا يصحُّ ما قيل: إنَّهم بين الجنَّة والنار، ولا يَصِحُّ ما قيل: توضع لهم نار من لم يقتحمها جرَّ إلى النار ومن اقتحمها دخل الجنَّة، لأنَّ الآخرة ليست دار تكليف[3]، وأخطأ من قال: يصيرون ترابًا.

وأطفال من آمنوا يكونون مع آبائهم في الجنَّة إكرامًا لهم، وأمَّا زجره ﷺ عائشة عن جزمها في صبيٍّ من الأنصار أنَّه من أهل الجَنَّة، وقوله: «**الله أعلم بما كانوا عاملين لو كانوا يعملــون**»[4] فقبل أن يعلم أنَّ ولــد المؤمن تبع له في الجَنَّة، وأنَّ أولاد الأشقياء في الجنَّة خدم لأهلها.

---

(1) رواه **البخاريُّ** في كتاب الجنائز (91) باب ما قيل في أولاد المشــركين، رقم 1317 و1318. من حديث أبي هريرة. بالاقتصار على الفقرة الأولى منه.

(2) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج8، ص 146.

(3) انظر ج 7 ص 36 وما بعدها من التفسير «أحاديث موضوعة».

(4) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ، وحديث عائشــة عند مســلم وغيره بلفظ مختلف. كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم: 6938.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ﴾ صحف الأعمال، ﴿نُشِرَتْ﴾ لتقرأ فيحاسب بما فيها، وقد كانت قبل ذلك وبعد موت أصحابها منشورة، وجاء الحديث بذلك، والمشهور أنَّها بعد الموت تطوى.

وقيل: نشرت بين أصحابها، كما قال مرثد بن وداعة: «إذا كانوا يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن في يمناه مكتوبًا عليها في جنَّة عالية، وصحيفة الكافر في يسراه مكتوبًا عليها في سموم وحميم»، وهي غير صحف الأعمال.

﴿وَإِذَا السَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أزيلت، استعارة من كشط الجلد عن الشاة، أي: سلخه ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أوقدت إيقادًا شديدًا، والتشديد للمبالغة، كما يقال من الثلاثيِّ: مسعورة وسعير، وقد قرأها الإمام عليٌّ بالتخفيف، قال قتادة: سَعَّرَهَا غضبُ الله، وخطايا بني آدم.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قرِّبت من المتَّقين، قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [سورة ق: 31].

كرِّرت «إذا» لأنَّ كلَّ واحدة ما بعدها حجَّة كافية، وجاء التكرير في كلام العرب للتأكيد ولحِكَمٍ أخرى، ومضى كلام في ذلك في سورة المرسلات [عند تفسير الآية ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾] ومن ذلك قول مهلل يرثي كليبًا بعد أبياتٍ:

على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ما ضِيمَ جيران المجير
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا رَجَف العِضَاهُ من الدبور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا خرجت مخبَّأةُ الخدور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ما أُعلنت نجوى الأمور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا خيف المخوف من الثغور

على أن ليس عــدلا من كليب غــداة تـأثُّـل الأمــر الكبير
على أن ليس عــدلا من كليب إذا ما خــار جأشُ المســتجير

ومن ذلك قول بعض العرب المولَّدين مِمَّن لــو احتُجَّ به لجاز من عرب حضرموت(1) في درجة أبي نواس أو المتنبِّي [من حيث الأدب واللغة]:

أبا الفضل إنِّي لم أقم لرئاســة وفخر، ولا والله شــأن الْمُفاخِرِ
أبا الفضل، إنَّ الفضل أفضلُه الذي يكون لوجــه الله، فانصر ووازر
أبا الفضل مات الدين وانطمس الهدى وصارت بيوت الله مأوى المزامر
أبا الفضل شهر الصوم صار نهاره لشرب الخمور، واعتناق شواطر
أبا الفضل، أركان الحجيج تعطَّلت وعطِّــل ذكر الله عند المشــاعر
أبا الفضل، رايَاتُ الأخاير نُكِّست وأضحت سلاطينُ الوغى في المنابر
أبا الفضل مَن تَروَى من النوم عينه وقد أحدث الغاوُون سبْيَ الحرائر؟

وقول ذلك البعض:

طُوبى لســاكنها إذ صار مغتبطا فيها بهــا وبما فيها مــن الخير
طوبى لســاكنها إذ صار مغتبطا فيها بمقعد صــدق عند مقتدر
طوبى لســاكنها إذ صار مغتبطا بالخلد في نعــم تبقى بلا كدر
طوبى لســاكنها إذ صار مغتبطا فوق الرفارف، ذا ملك وذا خطر
طوبى لســاكنها طابت له سكنا طوبى له، وله الطوبى مع البشر
طوبى لساكنها، طوبى لقاطنها طوبى لواطنهــا، طوباه بالظفر

(1) يعنى به الإمام المجاهد إبراهيم بن قيس بن سـليمان أبو إسـحاق الحضرمي، اسـتعان بالخليل بن شـاذان إمام عُمان. تَوَليَّ إمامة حضرموت، وأقرَّه الإمــام عليها، ثمَّ تقلَّد أمر الإمامة بعد ذلك، وكان شجاعا جلدا على احتمال المشــاقِّ، له غزوات إلى الهند، وكان من الشراة، ومن الدعاة إلى إقامة دين الله. له مُصَنَّفات، منها: مختصر الخصال، وله ديوان شعر (السيف النقَّاد). تُوُفِّيَ حوالي سنة 475هـ. **الزركلي**: الأعلام، ج 1، ص 58.



وقول ذلك البعض:

ذاك الذي جلَّـى عَمَانَا بعد ما	واراهـم غيـم الطغـى بذيول
ذاك الذي يخطو خُطا من صار في	وادي القرى وآسـك، ونخيل
ذاك الذي أبدى لنا ما قد مضى	من راشد، والصلت وابن رحيل
ذاك الـذي لما يزل مسـتلئما	لله فـي المسـتلئمين عـدول
يا خير خِلٍّ في الإله أجب أجب	نـاداك إخـوان، بوجـه قبول
يا خير خِلٍّ خرِّبـت أوطاننـا	واسـتعبد السـفَّاه كلَّ نبيـل
يا خير خِلٍّ لم نُطِقْ دفْعَ الأذى	عن أخذ مكنـون، وجذِّ نخيل
يا خير خلٍّ لو تـرى من نحونا	من شقشقات البغي بعد صهيل
يا خير خلٍّ هـل لنا من راحة؟	مِمَّـا لدينا مـن دنـاة غفول؟
يا خير خل مـن بقي من بعدنا	أضحى لدى المحراب ضرب طبول
يا خير خلٍّ غالنـا مـا غالكم	فيما مضى، مـن ديلم، وعقيل
يا خير خلٍّ أصبحت أسـواقنا	أسواق سحت، واعتدا ومحول
يا خير خل حسـبنا أنَّ الفتـى	يجزي الفتى كيـلا بصاع مكيل

وقول ذلك البعض:

والسـيف والله الذي لـولاه ما	قامـت قنـاة الدِّين والإِسـلامِ
والسـيف والله الـذي عزَّت به	أعناق أهـل الدِّيـن والأَحكامِ
والسـيف والله الـذي في حدِّه	وعظٌ غَـداةَ الهـرْجِ والغَمْغَامِ
والسيف والله الذي لا خير في	مَـن لا يراه سـيرة الحُـكَّامِ[1]
والسيف يُغني الهامَ عن أجسادها	والعزُّ في الداريـن قَطْفُ الْهَامِ

(1) بطبيعة الحال حينما يقتضي الشرع استعماله. ولا يخفى أنَّ الشيخ اطفيَّش حين ساق هذه الأبيات كان في مقاومة جريئة ضدَّ الاحتلال الفرنسي للجزائر. (المراجع).

والسيف دينٌ مستقيمٌ قيّم ... والسيف يَجلُو كُرْبَةَ الهَمْهَامِ
والسيف أُنْسُ المرءِ في أيَّامه ... أدنى من الأَخوال والأَعمامِ
والسيف سيف باطل إِلاَّ إِذَا ... وافاه كفُّ الفاتِكِ المقدامِ
والسيف مهر الحور في إِلقائه ... فوق الطَّلَى في قَسْطَلٍ قَتَّامِ[1]
أيـن الأَبيُّ اليومَ أو أين الذي ... لم يختطم بالذلِّ والإِرغام؟
أين الذي لا يلتوي في أنفه ... قَسْرًا زِمَام الذُّلِّ كالأَنعامِ؟
أين الذي يَحمِي حِمَى دِين الهُدَى ... أين الذي يحمِي حِمَى الأَيتامِ؟
أين الذي لو قيل يومًا في الوغى: ... مَنْ للنِّزال؟ انقضَّ كالضِّرْغَامِ؟
أين الذي يصبو إلى صوت النَّدَى ... جُودًا بلا حَقْرٍ ولا إلزام؟
أين الذي تعلو على لَذَّاته ... هِمَّاتُهُ، أين الكَمِيُّ[2] الحامي؟
أين الذي يختار ما دامت له الـ ... ـخيرات فيها أرجح الأَقسام؟
أين الذي يَبْغِي شِـرَا شيْءٍ بِلا ... شـيْءٍ قبيل الموت والإِعدام؟
أين الذي يَزْوَرُّ عن دار الفَنَا ... والبؤسِ والتنقيصِ والأَسقام؟
من لي بقومٍ عاهدوني أنَّهم ... يَصِلون حَبْلِي فِتْيَةَ الأَقوام؟
مَنْ لي بقوم واعدوني أنَّهم ... يُجلُون غَمَّاءَ الوَغَى قُدَّامِي؟
من لي بقوم أهلِ آداب بها ... نَاظَرْتُهُم في مجلس الأَعلام؟
من لي بقوم قد نَأَتْ أنسابهم ... مَاحَضْتُهُمْ في الواحد العَلاَّمِ؟
من لي بقوم لم أقُمْ حتَّى جَرَتْ ... مِنِّي إِليهم بَيْعَةُ الكَتَّامِ؟

(1) «الطَّلَى: الأعناقُ، قال الأصمعي: واحدتها طُلْيَةٌ وطُلاةٌ». و«القسْطَلُ والقَصْطَلُ، بالسين والصاد: الغُبارُ، والقَسْطالُ لغةٌ فيه». (الصحاح للجوهري). «القَتَامُ كَسَحابٍ: الغُبارُ. والقُتْمَةُ بالضم: لَوْنٌ أغْبَرُ... والأَقْتَمُ: الأَسْوَدُ كالقاتِمِ... وقَتَمَ الغُبارُ قُتومًا: ارْتَفَعَ» (القاموس للفيرزآبادي).

(2) «الكَمِيُّ: الشُّجَاعُ لأنَّه تَكَمَّى في سِلاحِه: أي تَغَطَّى به. وقيل: لأنَّه يَكْمي بَأْسَ قِرْنِه: أي يُبْطِلُه ويَذْهَبُ به. وقيل: لأنَّه يَتَكَمَّى الأقْرَانَ: أي يَتَعَمَّدُهم ويَقْصِدُهم». (المحيط للصاحب بن عباد).

من لي بقــوم فارقونــي خِيفَةً	من غير بُغضٍ من ذَوِي الأَرحام؟
من لي بقوم هَمّهُــم هَمِّي وقد	كُنَّا معًــا في مكتــب الأَقلام؟
من لي بقــوم جاوَرَتْنِي دارُهُم	مَا لِي لهم أصبحــتُ كاللَّوَّامِ؟
من لي بقوم أبصَروا في الدَّهر ما	أبصرْتُــهُ فــي دينِنــا القَــوَّامِ؟

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كلُّ نفس، فالعموم مــن المضاف المحذوف لدلالة المقام، لا من النكرة في الإثبات، أو أفادت [العموم] لتضمُّن «عَلِمَتْ» معنى النفي، أي: ما جهلت نفس، أو لم تجهل نفس، لأنَّ الحكم بالعلم يستلزم نفي الجهل، وهكذا الحكم بالشيء يوجب نفي ضدِّه، كذا قيل.

[نحو] وفيه إن كان هذا على إطلاقه في النكرات كانت النكرات في الإثبات للعموم، وإن كانت على التخصيص فَأَيُّ دليل على التخصيص في بعض؟ ولا يوجد إلَّا المقام، وما أُفِيدَ بالمقام لم تفده النكرة بل المقام.

ويجوز أن يجعل العموم بدليًّا تبعا للشرط، على معنى: إذا الشمس كوِّرت على نفس، وكذا فيما بعد، فقــد قُصدت كلُّ نفس على حــدة. وقيل: النكرة تستعمل للعموم الشموليِّ مع الإثبات في بعض المواضع، وهذا منها.

وللعموم وجه آخر هو أن يُفرَضَ نفسٌ من النفوس تعلم، وَكُلُّ من ســمع هذا يخطر له أنَّه لا يخرج عن هذا[1] النفس، بل يُقصَد فيها، أو يخطر أنَّه المراد فيُصْلِحُ عَمَلَهُ، ولا ســيما أنَّه قد اتَّضَحَ أنَّه لا مزيَّــة لواحدة على الأخرى في التخلُّص من ذلك، بل عمَّهنَّ الكلام بالمعنى.

﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ مِنْ عمل خيرٍ وشــرٍّ، تعلمه بقراءته في صحيفته، وبنطق جوارحه، تعلم ذلك تفصيلاً ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَــادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً اِلَّآ أَحْصَاهَا﴾ [سورة الكهف: 49].

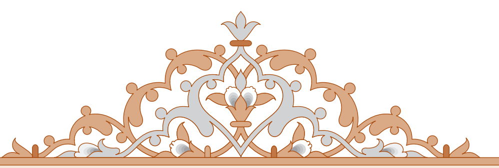
---

(1) النفس تذكَّر وتؤنث. قال ســيبويه: «وقالوا: ثلاثــة أنفس لأن النفس عندهم إنســان...». الكتاب، ج 3، ص 562. ط. الخانجي.

وأجاز قومنا أن يكون المعنى: يعلمها مشخَّصة مجسَّمة، تصوَّر الحسنات بصورة حسـنة، عكس ما فـي الدنيا إذ كانت بمشـقَّة وكراهة فـي الجملة، والسيِّئات بصورة قبيحة، عكس ما في الدنيا إذ كانت فيها مزيَّنة لموافقة الهوى، وهو كلام لا يتبادر.

بقي أنَّ الشيء إذا أُحضِر فلا بدَّ لِمُحْضِره أنَّه عالم به، لأنَّ إحضاره علم به، الجواب: إنَّ معنى إحضاره التسـبُّب في إحضاره، ولـزوم إحضاره بعمله في الدنيا إيَّاه، والمحضر الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا...﴾ [سورة آل عمران: 30].

وجملة «عَلِمَتْ» جواب «إِذَا» الأولى كافٍ للثانية وما بعدها لمكان العطف عليها، وذلك زمان ممتدٌّ يقع في بعضه كذا وفي بعضه كذا، مبدأه قبل النفخة الأولى، ومنتهاه فصل القضاء، وليس المراد: علمـت ما أحضرت إذا كوِّرت الشمس، وتعلمه إذا انكدرت النجوم، وهكذا... بل المراد: إذا تمَّ ذلك علمتْ.



﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾

إثبات الوحي القرآني من الله، ونبوءة الرسول ﷺ

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ إذا كان الأمر كذلك فلا تتهاونوا، أو فلا تكفروا، أو فلا تعملوا سوءا يحضركم. واستأنف «أُقْسِمُ»، أو لأنا أقسم، أو لا أقسم لظهور الأمر، أو نحو ذلك مِمَّا مرَّ.

وإذا قيل: لا أقسم لظهور الأمر أشكل بأنَّه قد أجاب بأنَّه ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فقد أقسم، الجوابُ: إنَّ المراد لا يليق بكم ألَّا تؤمنوا إلَّا إن أقسمت.

﴿بِالْخُنَّسِ﴾ الكواكب كلِّها، فذلك من عموم السلب، مع تقدُّم أداة السلب على أداة العموم وهي «ال»، أو المراد الجنسُ، مِنْ خَنَسَ إذا انقاد واختفى ﴿الْجَوَارِ﴾ المارَّات بسرعة، ولا نسلِّم أنَّ أصله للماء وما يجري بجريه ﴿الْكُنَّسِ﴾ من كَنَسَ الوحشُ إذا دخل كناسه، وهو بيت يَتَّخِذُه من أغصان الشجر، والمفرد كانس، كذلك الكواكب تخنس نهارا، تغيب عن العيون لا تبدو للعيون، فكأنَّها ذَلِيَت[1] وخفيت للعيون إذا طلعت الشمس،

(1) «ذلي، اذلولى اذليلاءً، أي: انطلق في استخفاء». **الجوهري**: الصحاح، ج 6، ص 2347. (ذلى).

وإذا غابت النجوم كنست، أي: دخلت كناسها واختفت في الضوء، وأيضًا يغيب عنها ليلاً.

وعن عليٍّ: تكنس تطلع في أماكنها، بمعنى: أَنَّها نهارًا كالظبي الغائب عن كناسه، وإذا جاء الليل وجدت في أماكنها وأحست، كما يثبت الظبي في كناسه، وعنه: المراد خمسة أنجم، زحل، وعطارد، والمشتري، وبهرام، أي: المرِّيخ، والزهرة.

ونقول: تجب معرفة هؤلاء الخمسة على من يختبر الليل بالنجوم للصوم لِئَلَّا يوافق تأخُّرهنَّ فيأكل أو يشرب أو يفعل ما ينقض الصوم وقد طلع الفجر.

و«الْخُنَّس»: الرواجع، مِنْ خَنَسَ إذا تأخَّر، تجري مع الشمس وترجع حتَّى تختفيَ تحت ضوء الشمس، فخنوسها رجوعها بحسب الرؤية، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها. وَتُسَمَّى المتحيِّرة لاختلاف أحوالها في سيرها في رأي العين، ولها استقامة ورجعة وإقامة، فبينما هي تجري إلى جهة إذا هي راجعة إلى خلاف تلك الجهة، وبينما تجري إذا هي مقيمة، وذلك أنَّها في حوامل تدور مختلفة الحركة، وهنَّ مع الشمس والقمر من السيَّارات السبع، وسيرهنَّ بالحركة الخَاصَّة، بخلاف النجوم الثوابت(1). ولا خنوس ولا كنوس للشمس والقمر.

وعن ابن مسعود وابن عبَّاس: إنَّها بقر الوحش، وعن ابن عبَّاس: إنَّها الظباء.

﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ**﴾ أدبر ظلامه، أو أقبل، روايتان عن ابن عبَّاس، وذلك من الأضداد، أو المشترك المعنويِّ، قولان، وذلك في طرف الليل. وقيل: هو هنا بمعنى أقبل وأدبر معا، في مبدأ الليل ومنتهاه.

[صرف] وأصله عسس، أبدلت السين الثانية من جنس فاء الكلمة وهي العين، كنظائره إلحاقًا بنحو دحرج للتأكيد.

---

(1) القرآن وعلم الفلك يقرِّران أَنَّ الكلَّ في فلَكَ يسْبَحون.



ويناسب التفسير بالإقبال ذكر الصبح بعده بالإقبال، معبَّرًا عنه بالتنفُّس فيطابقه بالأوليَّة. ورجَّح بعض تفسيره بالإدبار بِأَنَّ فيه الجوار بإدبار الليل وإقبال النهار.

[بلاغة] ﴿**وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**﴾ ظهر ضوؤُه، شبَّه ظهوره بعد العدم بالتنفُّس بعد كونه في البطن، ففيه اســتعارة تبعيَّة. اختار بعض الْمُتَأَخِّرِينَ أنَّ التبع في التشبيه لا في استعارة المصدر، لأَنَّهُ لم يتلفَّظ به، وقد يرجَّح مذهب الجمهور بأنَّه يكفي في ذلك قصدها ولو لم يتلفَّظ به، كما أنَّ التشبيه لم يلفظ به.

أو شبَّه الصبح بإنسان تعب بالســعي بحيث يخرج له التنفُّس، ورمز إلى ذلك باللازم وهو التنفُّس، فإثباته أو هو نفسه تخييل، أو استعارة أيضًا.

أو شــبَّه الريح الرقيق الحاصل صبحا بتنفُّس الإنســان على الاســتعارة، وإسناده للصبح مجاز عقليٌّ للجوار، أو النهار بتغلُّب الليل كالمكروب يتنفَّس من كربته، فالنهار يتنفَّس بالصبح، أو كالمقتول، فذكر التنفُّس دلالة على الحياة.

أو «تَنَفَّسَ»: توسَّع، وذلك تحرُّز عن المستطيل الذي يكون أعلاه أضوأ، كما أنَّ المنحبس إذا خرج بشــدَّة يكون أوَّله أقوى، ويقال: ثمَّ يعــدم وتعقبه ظلمة، ويقال: يتناقص حتَّى ينغمس في الثاني، ويقال: يختلف حاله تارة وتارة، بحسب الأزمنة والعروض، ويقــال: إنَّ ذلك الضوء لضعفه يبطــل بالأقوى، وهو الفجر المستطير، كما سُمِّيَ عارضا لأنَّه يعرض للمستطيل، وأطلق بعضهم العارض على المستطيل، وقال: إنَّه يعرض للصادق، وهو الموجود في حديث: «**لا يغرنَّكم أذان بلال ولا هذا العارض لعمود الصبح حَتَّى يســتطير**»[1]. والتنفُّس إنَّما هو بقرب الشمس إلى الأفق الشرقيِّ بثمانية عشر جزءًا.

والتقدير: لا **أقسم بعظمة الليل إذا عسعس، وبعظمة الصبح إذا تنفَّس**، قيل: أو أقسم بالليل كائنا إذا عســعس، فإن جعل الظرف معمولا لفعل القسم فسد

(1) رواه **مســلم** في كتاب الصيام، باب بيــان أنَّ الدخول في الصوم يحصــل بطلوع الفجر... رقم 1832. من حديث سمرة بن جندب ﷺ.

المعنى، لأنَّ التقييد بالزمان غير مراد حالا ولا استقبالا، وَمَرَّ كلام يتخرَّج به عن الإشكال، وفي وجه الحاليَّة تقييد القسم بالزمان.

﴿**إِنَّهُ**﴾ أي: القرآن الناطق بتلك الدواهي والحشر والنشر، وقيل: الهاء للإخبار بها، بمعنى: إنَّه إخبار بحقٍّ من الله تعالى لا من مُجَرَّد نفسي، واختاروا الأَوَّل.

﴿**لَقَوْلُ رَسُولٍ**﴾ هو جبريل عليه السلام عند الجمهور، نسب إليه لأنَّه أتى به عن الله عز وجل ونطق به، وقوَّته حسِّيَّة، كما روي أنَّه رفع مدائن قوم لوط وقلبها، كما يأتي إن شاء الله تعالى.

وقيل: المراد سَيِّدنَا محمَّد صلى الله عليه وسلم وقوَّته قُوَّة شرف، كما هو المراد بالصاحب، وبحث بأنَّه خلاف الظاهر، ولو أريد صلى الله عليه وسلم لقيل: وما هو بمجنون. ﴿**كَرِيمٍ**﴾ ذي شرف عند الله، وقيل: ذي جود على المؤمنين متعطِّف عليهم.

﴿**ذِي قُوَّةٍ**﴾ في جسمه، رفع مدائن قوم لوط الأربع ـ وفي كلِّ واحد أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري ـ من الأرض السفلى، حتَّى سمع أهل السماء صوت الدجاج والكلاب وقلبها.

وقيل: ذي قُوَّة بالطاعة وتبليغ الوحي من أوَّل الدنيا إلى آخرها، وقيل: قُوَّة في الحفظ لا ينسى ولا يخلط، فقوَّته على القولين عَقلِيَّة.

﴿**عِندَ ذِي الْعَرْشِ**﴾ سبحانه وتعالى، متعلِّق بقوله: ﴿**مَكِينٍ**﴾ أو بمحذوف نعت لـ«رَسُولٍ»، أي: كائن عنده كينونة رتبة، والأوَّل أولى. والمكانة الرفعة، أي: رفيع عند ذي العرش.

[صرف] والميم زائد، والياء بدل من الواو، ولأنَّ اللَّفظ من الكون، وأصله: «مكْوِن» بإسكان الكاف وكسر الواو، ونقل كسرها إلى الكاف وقلبت الواو ياء للكسر قبلها، وكثر استعماله حتَّى ظنَّ أنَّ الميم أصل والياء زائد، وأنَّ وزنه «فعيل»، وهو مصدر بمعنى الوصف.

أو المراد بالكون الوجــود، أي: ذي الوجود، ولكمالــه صار كأنَّه نفس الوجود ﴿مُّطَاعٍ﴾ يصدر الملائكة عن رأيه ﴿ثَمَّ﴾ أي: عند الملائكة المقرَّبين، متعلِّــق بـ «مُطَاعٍ» وهو أولى مــن تعليقه بقوله: ﴿أَمِيــنٍ﴾ أي: مأمون على الوحي. سأله رسول الله ﷺ عن هذه الأمانة فقال: «**أمانتي أنِّي لم أومر بشيء فعدوته إلى غيره**»[1] وكذا أمانة رســول الله ﷺ، حتَّى إنَّه ﷺ روي أنَّه يدخل الحجب بلا إذن.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ محمَّد رسول الله ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما تكذبون عليه وتبهتونه. وقد مرَّ أن الوليد بن المغيرة قال: لا تقولوا مجنون، فهل رأيتموه يخنق؟.

وفي لفظ «صاحب» إيماء إلى ذلك بأنَّه بين أظهركم نشــأ، وصاحبتموه في الحضر والسفر، ولو كان مجنونا لظهر لكم جنونه، وقد علمتم أنَّه أكملكم عقلاً.

[قلت:] ومن الخطأ ادِّعاء الزمخشريِّ فضل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بمدح جبريل دونه، ووجه الخطأ أنَّ مدح أحد دون أحد لا يَدُلُّ على عدم فضل من لم يُمدح، بل يحتمل العكسَ والمساواةَ، وأنَّ المقام ليس مقام مدح له ﷺ، ومع أنَّ المقام ليس لمدحه هو مدح له إذا أرسل إليه من هو أعزُّ عليه، فالمرسَلُ إليه أفضل من المرسَل، ولا ينقض ذلك بأنَّ الأُمَّة ليست أفضل من الرسول، لأنَّ الكلام فيما لم يَتَبَيَّن، وَالأُمَّة قد تبيَّن أنَّها دون نبيئها، بل مؤمنوها ونبيئها أفضل من جبريل عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ رَءاهُ﴾ رأى صاحبُكم محمدٌ جبريلَ عليه السلام بعينيه على كرســيٍّ بين السماء والأرض، بصورة صغيرة، أو بالصورة التي خلقها الله تعالى عليها، له

---

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفســيره، ج6، ص357. وقال: أخرجه ابن عساكر، وأوَّل الحديث قوله: «قال ﷺ لجبريل: ما أحســن ما أثنى عليك ربُّك ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ فما كانت قوتك وما كانت أمانتك؟...». من حديث معاوية بن قرَّة.

ســتُّمائة جناح، وأقدره الله تعالى على إحاطة عينيه به كلِّه، أو صغَّر الله تعالى جسمه كما أنَّه يتضاءل إذا شاء الله تعالى[1].

وعن ابن عبَّاس: سأل رســول الله ﷺ جبريل أن يراه على صورته، فقال: لا تقدر، فقال: بلى، فقال: في أيِّ موضع؟ قال: في الأبطح، قال: لا يسعني، قال: في منى، قال: لا يســعني، قال: فبعرفات، قال: لا يسعني، قال: بحراء، قال: إن يســعني، فواعده فخرج للموعد فإذا جبريل أقبل من عرفات وجبالها بخشخشة ملأ ما بين السماء والأرض ورأسه في السماء، فغشي عليه، فتحوَّل عن صورته وضمَّه إلى صدره فقــال: يا محمَّد، لا تخــف، فكيف لو رأيت إسرافيل ورأســه تحت العرش ورجلاه تحت الأرض السابعة والعرش على كاهله؟!. وإنَّه يتضاءل أحيانًا حتَّى يصيــر كالوصع، أي: العصفور، ما يحمل العرش إلَّا عظمة ربِّك[2].

﴿**بِالأُفُقِ الْمُبِينِ**﴾ هو الأفق الأعلى من ناحية المشرق نحو أجياد، كما رواه مجاهد عن رسول الله ﷺ، وأجياد مشــرق مَكَّة، وذلك مطلع رأس السرطان على مطالع أهل مَكَّة، وقيل: أفق المغرب، وهو قول ضعيف. وعن ابن عبَّاس: الأفق الأعلى، جهة سدرة المنتهى.

﴿**وَمَا هُوَ**﴾ صاحبكم محمَّد ﷺ ﴿**عَلَى الْغَيْبِ**﴾ الوحي وغيره، ﴿**بِضَنِينٍ**﴾ ببخيل، فيقصِّر في التبليغ، حاشاه مطلقًا، أو حتَّى يأخذ أجرا كالكاهن.

---

(1) روى **مسلم** في كتاب الإيمان (77) باب معنى قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ...﴾ رقم 287، من حديث عائشة، ما يفيد أنَّ الرســول ﷺ قد رأى جبريل عليه السلام مَرَّتيْنِ على صورته التي خلقه الله عليها.

(2) حسبُنا أن نؤمن بما جاء في القرآن الكريم، وما في سواه من تفاصيل ـ الله أعلم بصحتها ـ لا يجب الإيمان به. (المراجع).

[فقه] [قلت:] ومن أبدل الضاد بالظاء أو الظاء بالضاد أو كان ينطق بهما بلفظ واحد فسدت صلاته إن تعمَّد وقدر على التمييز تهاونا كما شاهدنا، وإن لم يتعمَّد فقولان، وإن لم يقدر فلا بأس كأكثر النساء، وقد أسلم بربر وفرس وغيرهم من العجم زمان الصحابة والتابعين، فنقول: علَّموهم، فمن لم يتعلَّم لعدم القدرة فلا بأس. وأمَّا أن نقول: لَمَّا لم يُنْقَلْ [إلينا] التعليم علمنا أنَّه لا يلزم الفرق بينهما فخطأ.

[مخرج الضاد والظاء] والضاد شبيهة بالزاي المفخَّمة؛ ولذلك بدَّلوا خطأً ضاد «مضاب» بالزاي، اسم رجل سُمِّيَت به بلادنا هذه، سمعوا من يقرأ مضاب من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس يمينا أو يسارًا أو منهما فتوهَّموه زايا، وذلك مخرجها. ومخرج الظاء طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [سورة الشرح: 13].

وقيل: «هُوَ» في الموضعين بعدُ له ﷺ، ليوافق هذا، أي: وما هو ملتبس بقول الشيطان.

ومضاب بلادنا هذه، وقد ذكره ابن خلدون، وفي أواخر المغرب الأوسط قرية تُسَمَّى: مضابة، قريبة من قرية تُسَمَّى: سعيدة، وسألهم بعض أهل بريش فقالوا: نحن بنو مضاب. وبريش في لغة قديمة هو: باريز.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ يرجم عند مجيئه ليسترق السمع فيلقيه على الكهنة، وليس رسول الله ﷺ كاهنا ولا متكهِّنا كما نسبوه، ولا يأخذ عن شيطان، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ...﴾ إلخ [سورة الشعراء: 210ـ211]. ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟ سمَّى الاعتقاد والقول ذهابا، أنكر عليهم اعتقادهم، وقولهم في القرآن بغير الحقِّ، فقال: إنَّكم ضالُّون كمن ضلَّ عن طريق الأرض. قال الجنيد: «أين تذهبون عنَّا». وقيل: أين تسلكون؟.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ تذكير ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ كلِّهم، من حضر ومن غاب، ومن سيجيء إلى قيام الساعة، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ الجارُّ والمجرور بدل من «لِلْعَالَمِينَ»، الجارُّ والمجرور قبله بدل بعض.

[نحو] ولعلَّ من لا يُدخل في الإبدال حرف الجرِّ يقول هنا: «مَن شَاءَ» بدلاً من «الْعَالَمِينَ» راعى أنَّ حرف الجرِّ توكيد لفظيٌّ للحرف الآخر قبله الذي في معناه، وليس كذلك، لتقييد كلٍّ بمدخوله، ولو قيل: جاء أخوك أخوكم الكريم، لقيل: أخوك الثاني بدل من الأوَّل، لا توكيد لفظيٌّ، لتقييده بمدخوله.

﴿أَنْ يَّسْتَقِيمَ﴾ بالإيمان والعمل الصالح، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامة النافعة ﴿إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إلَّا أن يشاء الله استقامتكم النافعة، أو يشاء مشيئتكم أن تستقيموا، فمشيئته مترتِّبة على مشيئته تعالى.

[نحو] والباء مقدَّرة سَبَبِيَّة، أي: إلَّا بأن يشاء الله تعالى، قيل: أو تقَّدر للمصاحبة، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا فلا تقدَّر الباء، أي: لكن مشيئته.

والله الموفِّق

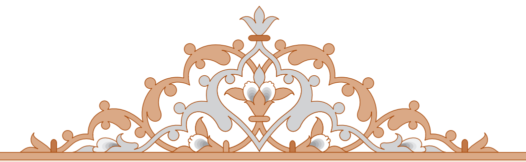
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



82

تفسير سورة الانفطار

مكِّـيَّة وآياتها 19 ـ نزلت بعد سورة النازعات



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝1 وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝2 وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝3 وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝4 عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝5 يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝6 الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝7 فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝8 ﴾

صور لما يقع يوم القيامة من أهوال، وتوبيخ الإنسان على جحود النعم

﴿**إِذَا السَّمَآءُ**﴾ السماوات كلُّها، فالإفراد بعدُ بتأويل الجماعة، أو السماء الدنيا، ﴿**انفَطَرَتْ**﴾ مطاوِع فطَرها، أي: شـقَّها فانشـقَّت لنزول الملائكة ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ ونُزِّلَ الْمَلَآئِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [سورة الفرقان: 25].

﴿**وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ**﴾ تساقطت على الأرض متفرِّقة، وتسعها الأرض لصغرها، لا كما زعموا أنَّ النجم الواحد أكبر مـن الأرض(1) وتفنى، أو ذلك عبارة عن زوالها وفنائها بلا وصول إلى الأرض.

[بلاغة] وَلَمَّا كانت الكواكب [تبدو لنا] أشـياء حسنة مضيئة مركَّبة في

---

(1) بل كِبَر النجوم بالنسبة للأرض صار اليوم من حقائق علم الفلك. (المراجع).

أماكنها صحَّ أن ندَّعي أنَّها شبِّهت بجواهر قُطِعَ سِلْكُها فتفرَّقت، ورمز إلى ذلك بلازم الجواهر، وهو الانتثار، ففي ذلك استعارة بالكناية، وإثبات الانتثار تخييل، أو ندَّعي أنَّه عبَّر عن إزالتها بالنثر، أو عن زوالها بالانتثار، ففي «انتَثَرَتْ» استعارة تبعيَّة.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فتحت كتفجير العين بعضها إلى بعض، ملحها وعذبها فصارت الأرض كلُّها بحرا واحدا [قيل:] ثمَّ تنشفها الأرض فتصير بلا ماء، وتسوى مع أرض البحور، بدفنها أو برفع أرضها، أو بخفض الأرض حَتَّى تستوي مع قعر البحور، حتَّى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، وذلك مناف لما يقال: إنَّ البحور نار يوم القيامة، إلَّا أن يقال: تغلي كالنَّار ثمَّ تزول.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ قلب ترابها لتخرج الموتى، والبعثرة تبديد التراب ليخرج ما تحته، فهو تبديد وإخراج معا، ويستعمل أيضا بمعنى الإخراج فقط، كقوله تعالى: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [سورة العاديات: 9]، أي: أُخرج، وقيل: وُضع للنَّبش، وهو التبديد المذكور، ووضع للإخراج، ومنه البعث؛ وعليه فالآية من استعمال المشترك في معنييه.

[بلاغة] ولكن لا مانع من كون «بُعْثِرَتْ» بمعنى أخرجت فقط، فإمَّا على حذف مضاف، أي: بعثر موتاها، أو على المجاز العقليِّ بالتجوُّز في الإسناد إلى الظرف، أو بمعنى: نُبِشت وبدِّدت، كناية عن إخراج موتاها.

[صرف] وقد قيل: إنَّ الكلمة من باب النحت، وهي تركيب كلمة من بعض حروف كلمتين أو ثلاث، أو بعض كلمة وكلمة تَامَّة، وهو سماعيٌّ، وتكون بوزن مقبول عربيٍّ، وما خرج عن ذلك قليل أو معرَّب. ومن ذلك: بسمل، وحمدل، وحوقل، أو حقول، ودمعز، بمعنى قال: بسم الله، وقال: الحمد لله، فهذا مِنْ حَمِدَ ولامِ الجرِّ، وهي كلمة تَامَّة، وقال: لا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله، وقال: أدام الله عِزَّك، وذلك بوزن فعلل كـ«دحرج».

﴿**عَلِمَتْ نَفْسٌ**﴾ علمت كلُّ نفس وهذه نكرة مفردة عمَّت في الإيجاب عمومًا استغراقيًّا لا عموما بدليًّا، أي: علمت النفوس، ومرَّ كلام في ذلك[1]، والمراد: علمت على حصول تلك الأمور، لا عند كلِّ واحد، وذلك وقت واحد، أوَّله ما قبل نفخة الموت، أو أوَّله نفخة الموت، كما في السورة قبل هذه. وإنَّما كرِّرت «إِذَا» للتهويل بكلِّ ما بعد كلِّ واحدة.

﴿**مَّا قَدَّمَتْ**﴾ من خير أو شرٍّ، ﴿**وَأَخَّرَتْ**﴾ من خير أوصت به، أو سنَّتْه أن يُعمل به بعدها، كعلم وكتاب ووقف، أو من شرٍّ كذلك، كأصحاب البدع.

أو «مَا قَدَّمَتْ» من طاعة «وَأَخَّرَتْ» من معصية، تركها زجرا لهواه، وهذا مدح فقط. وعن ابن عبَّاس: ما قدَّم من معصية وأخَّر من طاعة، وهذا والأوَّل مرويَّان عن ابن عبَّاس.

وقيل: ما عمل مِمَّا كلِّف به، وما لم يعمل منه، وهذا في معنى القول الأخير وفي معنى القول الأوَّل. وقيل: ما قدَّم من ماله لوجه الله تعالى، وما أخَّر لورثته.

[قلت:] ولو نوى أن يكون ماله صدقة لورثته كان له أجرُ ما ترك إن أخرج الحقوق في حياته، وكسب من حلال، والدرهم في الحياة أفضل من سبعين بعد موته.

أو ما عمل بنفسه من خير أو شرٍّ، وما خلَّف بعده من خير أو شرٍّ جار بعده له وعليه، كقوله ﷺ: «**من سنَّ سنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سنَّ سنَّة سَيِّئَة فعليه وزرها ووزر من عمل بها**»[2] من دون أن ينقص ذلك عَمَّن عمل به، وكما حضَّ على الصدقة الجارية.

---

(1) في ص 87ـ88، من هذا الجزء.

(2) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 12، ص 17.

وقيل: أوَّل عمله وآخره، ومعنى علمه به علمــه تفصيلا، على حدِّ ما مرَّ. و«مَا» منسحبة على الجملتين، كأنَّه قيل: علمت كلَّ ما عملت مقدَّما أو مؤخَّرا. ويقدَّر موصول للثانية، أي: وما أخَّرت.

﴿يآ أيُّهَا الاِنسَانُ﴾ خطاب في الدنيا للكافر على العموم، وعن عكرمة: أَنَّهُ أبيٌّ بن خلف، وعليه فيحمل غيره عليه حملا، وليس من باب خصوص السبب وعموم الحكم، لأنَّه كأنَّه قيل: يا فلان.

نعم، إن قيل: هي عَامَّة سبب نزولها أبيٌّ بن خلف كان من ذلك، والعموم من أوَّل بلا حملٍ أولى، لأنَّ الكلام قبلُ وبعدُ على العموم، ووقع بين المجمل وهو: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ وتفصيله بـ﴿إِنَّ الَابْرَارَ﴾ و﴿إِنَّ الْفُجَّارَ﴾.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: في أبي الشريق، وهو أسيد بن كلدة، وقيل: اسمه كلدة بن خلف، ضرب النبيء ﷺ ولم يعاقبه[1].

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّــكَ﴾؟ الباء للبدليَّة، إذ المعنــى: ما غرَّك بدلا من ربِّك الكريــم، أو بمعنى «عن»، وضمِّــن «غَرَّكَ» معنى صرفك عــن طاعته إلى معصيته.

﴿الْكَرِيمِ﴾ الذي يعفو عن السيِّئات، ويثيب على الحسنات ومَن هذا صفته يجب شكره ومجانبة الاجتراء على معصيته.

ومقتضى الظاهر: ما غرَّك بربِّك القاهر أو الشديد العقاب، ولكن جعل بدله الكريم تلويحًا بأنَّه لا يليق لعاقل مَّا أن يعصي مَن شــأنُه الكَرَمُ، ومن أنعم بالنعم العظام.

قال بعض: أقول: غرَّني عفوك وكرمك وسترك. وعن الفضيل بن عياض: إن سألني قلت: غرَّني سترك المرخى، أو ستورك المرخاة. وعن يحيى بن معاذ:

(1) هذه الفقرة انفردت بها نسخة ج.

غرَّني بِرُّك سالفًا وآنفًا. وقال أبو بكر الورَّاق[1]: غرَّني كرم الكريم. وقال قتادة: غرَّه عدوُّه المسلَّط عليه. وعن الحسن: غرَّه شيطانه. وعن عمر: غرَّه حمقُه. وقرأها ﷺ فقال: «**غرَّه الجهل**»[2]. وقرأها عمر فقال: إنَّه كان ظلوما جهولا.

وَكُلُّ ذلك صحيح لا يتناقض، إلَّا أنَّ بعضًا راعى سعة الرحمة وتمنَّاها، وجرى على ذلك حَتَّى قيل على سبيل الانبساط: هذا تعليمٌ من الله الجواب لنا في الدنيا، ويقال: «يُعرَف حسنُ الخلق والإحسانُ من قلَّة الأدب في الغلمان»، وبعضا راعى الإجلال.

وعن ابن مسعود: يخلو الله بكلِّ أحد ويقول: يا ابن آدم ما غرَّك بي؟ ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟.

﴿**الذِي خَلَقَكَ**﴾ أنشأك من النطفة ثمَّ من علقة... إلخ ﴿**فَسَوَّاٰكَ**﴾ جعلك مستوي الأعضاء تامَّها، تصل بها إلى منافعها، من قبض وبسط، ونطق وسمع، وشمٍّ وأكل، وسائر الأعمال.

والتسوية تطلق على إكمال الشيء بحيث يحصل المقصود، حتَّى إنَّهُ يقال: سوَّى الطعام بمعنى طبخه على وجه مطلوب، وعلى جعل الأشياء على سواء، قيل: وهو الأصل، فالأعضاء سويَّة سليمة معدَّة لمنافعها.

﴿**فَعَدَّلَكَ**﴾ جعل أعضاءك معتدلة متماثلة، ليس يد أطول من أخرى، أو عين أوسع من أخرى، وهكذا... أو يد إنسان ورجل بعير أو نحو ذلك. أو «عَدَّلَكَ»: صرفك عن الخلقة التي لا تليق، وجعلك منتصبا لا منكبًّا كالبهيمة. والعدل عن كذا الصرف عنه، والتشديد للتأكيد، وقد قرأ الجمهور بالتخفيف.

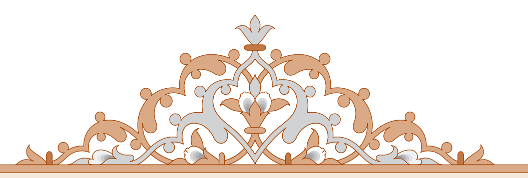
---

(1) أبو بكر الورَّاق: (293 ـ 373هـ) هو محمَّد بن إسماعيل بن العَبَّاس البغدادي، الإمام المحدِّث، سمع أبان والبغويَّ وغيرهما، وروى عنه الدارقطني والبرقاني، وقال: ثقة ثقة. وقال عبيد الله الأزهريُّ: حافظ ليِّن الرواية. **الحمصي**: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 2، ص 203.

(2) أورده **القرطبي** في تفسيره، ج 19، ص 245، وقال: رواه غالب الحنفي.

﴿**فِي أَيِّ صُورَةٍ**﴾ متعلِّق بـ«رَكَّبَكَ»، أو حال من الكاف الِاسمِيَّة ﴿**مَّا شَآءَ**﴾ صلة للتأكيد، أو للتعميم، وهي حرف، أو نكرة غير موصوفة، وهي نعت بمعنى عجيبة، ﴿**رَكَّبَكَ**﴾ أي: ركَّبك في أيِّ صورة شاء تركيبك عليها، من طول وقصر، ورقَّةٍ وغلظ، وحمرة وبياض، والحسن والقبح، والذكورة والأنوثة، وشبه أب أو أمٍّ أو عمٍّ أو خال أو عمَّة أو خالة، وإن شاء خلقك على صورة بعير أو بقرة أو ظبي، ونحو ذلك.

[نحو] و«أيُّ» بمعنى الصفة، ولم تعطف الجملة لأنَّها بيان لـ«عَدَّلَكَ»، وقال بعض: «أيُّ» موصولة صلتها «شَاءَ»، أي: شاءها و«مَا» صلة، وذلك قول ابن عصفور بجواز إضافة «أيِّ» الموصولة إلى النكرة، وأجاز بعض أنَّها شرطيَّة، كما تقول: «بمن تَمْرُرْ أَمْرُرْ». و«رَكَّبَكَ» بمعنى المستقبل. وأجيز تعليق «فِي» بـ«عَدَّلَكَ»، و«مَا» مفعول مطلق اسم شرط، أي: أيَّ تركيب شاء ركَّبك.



﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝١٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝١٩﴾

غرور الإنسان، وتسجيل الملك لما يعمله، وهول يوم الجزاء

﴿**كَلَّا**﴾ ردع عن الاغترار بكرمه تعالى، فيجعل كرمه ذريعة إلى المعاصي. قبَّح الله قائلا:

تكثَّر ما استطعت من الخطايا ستلقى في غدٍ رَبًّا غفورًا
تعضُّ ندامةً كفيْك مِمَّا تركت مخافة الذنب السرورا[1]

والسرورَ: مفعول لـ«تركتَ»، ومخافة: تعليل.

﴿**بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّين**﴾ ترشيح، قيل: لِقُوَّة اغترارهم بإيهام أنَّ اغترارهم أسوأ حالاً من التكذيب، أو الخطاب في: ﴿يآ أيُّهَا الِانسَانُ...﴾ إلخ للعموم كما هو الصحيح، فيكون قد خوطب الكلُّ بما في بعضهم.

والإضراب انتقاليٌّ، والكلام من الله حقٌّ كلُّه. أو إبطاليٌّ، أي: لا مقتضى هنا لغرورهم، بل حَملهم تكذيبُهم على ما هم عليه، أو لا تستقيمون على ما يوجبه إنعامي عليكم من الشكر بل تكذِّبون، أو ليس الأمر كما تزعمون

(1) البيتان لأبي نواس. ينظر: **ابن خلِّكان**: وفيات الأعيان، ج 2، ص 97ـ98.

من انتفاء البعث لكن لا تقرُّون بذلك بل تكذِّبون، ولا ترتدعون بهذا الردع بل تكذِّبون. و«الدِّين» دين الإسلام إجمالاً، أو الجزاء.

﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ**﴾ ملائكة حافظين لأعمالكم، لتجازوا عليها ﴿**كِرَامًا**﴾ ذوي شرف عندنا ﴿**كَاتِبِينَ**﴾ لأعمالكم ﴿**يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ أيُّها الكفرة والمؤمنون.

ولا يكتبون عمل المجنون إلَّا إذا عقل، ويكتبون حسنات الطفل على الصحيح، وهو الحقُّ، وقيل: لا يكتبونها لأنَّه لا يعاقب، وفيه أنَّ الله يَمُنُّ بالرحمة ولا يضيِّع عملا، وقيل: لا يكتبونها لأنَّه يبعث ويصير ترابًا وهذا القول خطأ، ومخالفة للقرآن والحديث.

ولا يفارقون الإنسان إلَّا عند قضاء الحاجة والجماع والعري للاغتسال أو غيره، ومع ذلك لهم خبرة بإذن الله تعالى بما فعل في تلك الأحوال من طاعة ومعصية، ويجعل الله علامة لما يفعل الإنسان في قلبه فيكتبونه، وقيل: لا.

و[قيل:] يكتبون حتَّى أنين المريض وصراخ الصارخ جزعًا، ولا يكتبون ما لا ثواب ولا عقاب فيه، وقيل: يكتبونه ويسقط يوم القيامة. ويقومون على قبر من وكِّلوا عليه يستغفرون له ويسبِّحون ويهلِّلون ويكبِّرون إلى يوم القيامة، وله ثواب ذلك إن كان مؤمنا، ويلعنونه إن كان كافرًا.

لكلِّ أحد ملكان: ملك الحسنات على العاتق الأيمن، وهو أمير على ملك السَّيِّئَات وغيرها، ولا يكتب إلى أن تمضي سبع ساعات ـ وقيل: ستٌّ ـ ولم يتب، ولم يكفِّرها بشيء، وذلك أنَّه يمكن أن يعصي ولم ينوِ الإصرار ويعمل مكفِّرًا لها، ولم يستحضر التوبة، هذا وجه.

وعن الإمام عثمان مرفوعا: «إنَّ لكلِّ أحد عشرين ملكا»، ويقال أربعمائة ملك من حيث كان نطفة إلى أن يموت. ولا يتبدَّل ملائكة الكتابة، وقيل: كاتب

الحسنات يتبدَّل. وهؤلاء الكاتبون غير المعقِّبات في قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [سورة الرعد: 11]، وغير الحفظة عن الجنّ، وما شاء الله تعالى من الأسواء.

﴿إِنَّ الَابْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ عظيمة ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ عظيمة، أي: دار العقاب الشاملة للزمهرير ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ نعت جحيم، أو حال من ضمير الاستقرار، أي: مقاسين لحرِّها ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء الذي يكذِّبون به استقلالاً، ولو لم يكن لهم إلَّا تكذيبهم، وقيل: يصلونها لشركهم ومعاصيهم كلِّها، وهو الصحيح.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ ولو لحظة عين، وذهابهم إلى الزمهرير غير خروج، وغير غيوبة عن الدار المسمَّاة الجحيم، ومعنى «يَصْلَوْنَهَا» يصلون نارها أو حرَّها، وصلْيُ حرِّها لا ينافي عذاب زمهريرها، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [سورة المائدة: 37]، وقيل: ﴿وَمَا هُمْ عَنهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أنَّهم فيها من حين ماتوا، قال رسول الله ﷺ: «**القبر روضة من رياض الجَنَّة، أو حفرة من حفر النار**»[1]، تعذَّب روح الكافر في النار، أو يؤتى إليه منها بما يحرق في قبره بقدر ما لا يَضُرُّ غيره.

[نحو] والجملة الِاسمِيَّة هذه معطوفة على الفِعلِيَّة قبلها، أو حال، و«غَائِبِينَ» للاستقبال، وهي مقارنة، لأنَّهم حال صليها غير غائبين عنها. وإن أريد بنفي الغيبة عنها الإخبار بأنَّهم أبدًا لا يغيبون فهي مقدَّرة، أي: ناوين أنَّهم لا يغيبون عنها، وإن أريد نفي غيبتهم عنها حين كانوا في قبورهم فَمَحْكِيَّةٌ.

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم المزني: ليت شعري ما لنا عند الله تعالى؟ فقال: اِعْرِضْ عملك على كتاب الله تعالى فإنَّك تعلم ما عند الله تعالى، فقال: أين أجد ذلك في كتاب الله تعالى؟ فقال: عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَابْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ فقال: فأين رحمة الله؟ قال: فـ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: 56].

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 3، ص 84.

﴿**وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ**﴾ اســتفهام تفخيم، وأكَّده بقوله ﷻ: ﴿**ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ**﴾؟ ولا ســيما مع «ثُمَّ» الدَّالَّــة على تراخي الرتبة، أخبر بعظمته، ثمَّ أخبر أنَّ له عظمةً أكبر.

وعن ابن عبَّاس: كلُّ ما في القرآن من ﴿مَآ أَدْرَاكَ﴾ فقد أدراه به، وكلُّ ما فيه من ﴿مَا يُدْرِيكَ﴾ فإنَّه لم يخبره به.

ولم يقل: وما أدراك ما هو، ثمَّ ما أدراك ما هو؟ أو ما أدراك ما يوم الدين، ثمَّ ما أدراك ما هو؟ بل أظهر للتفخيم. والخطــاب لكلِّ من يصلح له، وقيل: لرسول الله ﷺ، وقيل: للكافر زجرًا له.

﴿**يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا**﴾ مَّا من الأشياء أو من الأعمال الصالحة، أو من الأعمال النافعة، كإزالة ضُرٍّ أو جلب نفع، والمراد: ما عدا الشــفاعة لأهلها من أهلها.

[نحو] والنصب بـ«أُذْكُرْ» محذوف، كما إذا علَّمت الناس علما ثمَّ صرفتهم بالوعظ إلى العمل بما علَّمتهم، وهذا أولى من أن يجعل ظرفا لمحذوف، أي: يدنون إليهــا، أي: يدخلونها، لأنَّ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يغني عنه، وكذا تقدير: يشــتدُّ الهول يَوْمَ لَا تَمْلِكُ. وأولى من ظرفيَّته لمحذوف جعله بدلا من «يَوْمَ» أو خبرا لمحذوف، أي: هو يوم، مبنيًّا على الفتح، على قول الكوفيِّين، وقد مرَّ ذكره.

﴿**وَالْاَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ**﴾ والأمر يوم إذ بعثوا لله تعالى، و«الْاَمْرُ» واحد الأمور، أو ضدُّ النهي، لا يكون لغير الله ولا لغيره معه، بل له وحده، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [سورة غافر: 16].

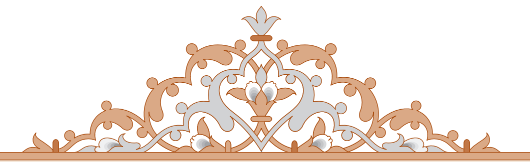
اللهمَّ ببركة هذه السورة المختومة بلفظ الجلالة اغفر لنا ذنوبنا، واقض حوائجنا، وسَهِّل لنا يوم الموت والبرزخ والحشر والموقف.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

83

تفسير سورة المطفِّفين

مكِّـيَّة وآياتها 36 ـ نزلت بعد سورة العنكبوت، وهي آخر سورة نزلت بمكَّة



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿1﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿2﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿3﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿4﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿5﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿6﴾ ﴾

وعيد المطفِّفين يوم الجزاء

[قراءته ﷺ في الصلاة] روى الطبريُّ عن ابن مسعود أنَّه كان رسول الله ﷺ يُصَلِّي بالذاريات والطور والنجم والقمر والرحمن والواقعة ونون والحاقَّة والمزَّمّل ولا أقسم بيوم القيامة وهل أتى على الإنسان والمرسلات وعمَّ يتساءلون والنازعات وعبس وويل للمطفِّفين وإذا الشمس كوِّرت والدخان.

[قلت:] وفيه تسمية السورة «الرحمن»، وهو خطأ فيما أظنُّ من بعض الرواة؛ لأنَّ «الرحمن» لا يُسَمَّى به غير الله سبحانه، والصواب «سورة الرحمن»، وكذا يجتنب تسمية السورة بما لا يحسن مثل البقرة، والنمل والله أعلم وأعزُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل يقال: سورة البقرة، وسورة النمل، ولو كان المراد مفهوما بلا ذكر للفظ سورة.

وأجمعت مصاحف الأمَّة من زمان الصحابة إلى الآن شـرقا وغربا على كتابة سورة كذا وكذا على عهده ﷺ، ومن سور قراءته ﵇ سورة الكافرون، وسورة الإخلاص.

﴿**وَيْلٌ**﴾ هلاك أو شـدَّة الشـرِّ، أو العذاب الأليم، أو تحسُّر، وعن الإمام عثمان عنه ﷺ: «**جبل في جَهَنَّم**»[1] وعن أبي سـعيد الخدريِّ: «**واد في جَهَنَّم يهوي فيه الكافر أربعيـن خريفًا قبل أن يبلغ قعره**»[2]، وظاهر ذلك أنَّه اسـم للوادي أو للجبل بعينه، تسـميةً للخاصِّ باسم العامِّ، كما يسمَّى الرجل حارثا على العَلَمِيَّة، لأنَّه يحرث، وكلُّ من يحرث يستَحقُّ هذا الاسم لكن بلا علميَّة، ويجوز أن يكون المراد: هلاك ـ أو نحوه مِمَّا مرَّ ـ يكون في ذلك الجبل، أو في ذلك الوادي، وكذا من قال: هو واد من قُيُوح.

﴿**لِّلْمُطَفِّفِينَ**﴾ الذين يأخذون مال الناس بالكيل إذا اكتالوا أو وزنوا من مال الناس لأنفسهم أو لمن نابوا عنه زادوا في الكيل، وإذا كالوا أو وزنوا من مالهم أو مال من نابوا عنه نقصوا، فهذا الذي نقصوه مال الناس أمسكوه ولم يعطوهم إيَّاهُ، وإمساكُه أخذٌ له.

فأنت خبير بأنَّ التطفيف البخس في الكيل والوزن، والطفيف الشيء الحقير، ومع أنَّ التطفيف يقع بالشـيء الحقير يكون لفاعله العقاب الكبير، فالتشـديد للمبالغة بكثرة الكيل والوزن مع بخس ذلك، لا لكثرة المأخوذ من حقِّ الغير.

﴿**الذِينَ إِذَا اَكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمُۥٓ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾ صفة كاشـفة لكيفيَّة التطفيـف الذي اسـتحقُّوا به الويـل، أو صفة مخصِّصة للمطفِّفين الذين نزلـت فيهم الآية، وهم أهل المدينة قبل الإسـلام، كانوا من أخبث الناس كيلاً ووزنًا، وَلَمَّا نزلت الآية وأسلموا أحسنوا الكيل والوزن.

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج30، ص67. وقال: أخرجه ابن جرير عن عثمان مرفوعًا بسند فيه نظر.

(2) رواه **الترمذيُّ** في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سـورة الأنبياء، رقم 3088. من حديث أبي سعيد الخدريِّ.

واختيار «اكْتَالُوا» على كالوا، و«عَلَى» بدل «مِنْ» لتأكيد ذمٍّ من نزلت فيهم من أهل المدينة.

[سيرة] قدم رسول الله ﷺ المدينة، وفيها رجل يقال له: أبو جهينة، له صاعان يكيل من ماله بالناقص، ويكيل من مال الناس بالأكمل، وَلَمَّا نزلت الآية تاب وعدل.

ومعلوم أنَّ من يبخس الكيل والوزن أقلَّ مِنْ بَخْسِهِم مذمومٌ أيضًا، ولكن ذمُّهم زاد بشدَّة كيلهم في البخل، كما هو شأن افتعل، وعبَّر بـ«عَلَى» الدَّالَّة على الضرِّ، وعلى الإطلاق وعدم خصوص من نزلت فيه.

[قلت:] فالبخس ولو أقلَّ قليل معصية شديدة، ومضرَّة، بقي أنَّه لا عيب على مَنْ أَخَذَ حَقَّه وافيًا فيكف ذمَّهم على الاستيفاء؟ الجواب: إنَّهم يبالغون في الاستيفاء حتَّى يأخذوا بعضًا من حقِّ غيرهم، أو الذمِّ منصب على قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ...﴾ إلخ كما يقال في الذمِّ: فلان يأخذ حقَّه وافيا، ويعطي حقَّ غيره ناقصا، وذلك يتضمَّن الردع عن أن يختار نفسه مطلقًا، فإنَّه لو قيل: يشتدُّ في حقِّ نفسه ولا يشتدُّ في حقِّ غيره لكان ذمًّا، ولو لم يأخذ من حقِّ غيره شيئًا.

و«عَلَى» متعلِّق بـ«اكْتَالُوا» ويجوز تعليقها بـ«يَسْتَوْفُونَ» فقدِّم للفاصلة لا للحصر، لأنَّه لا يتصوَّر أن يضُرُّوا غير الناس فضلاً عن أن يحصر الضرَّ فيهم، نعم يَصِحُّ الحصر بأنَّهم يضرُّون الناس خاصَّة بالزيادة من أموالهم، ولا يضرُّون أنفسهم بأخذ أقلّ من حقِّهم.

[نحو] والهاءان مفعول به، فإنَّ الكيل والوزن يتعدَّيان بأنفسهما وبالحرف، يقال: كالَهُ وكالَ لَهُ، وقيل: كالـه نُصِبَ على نزع الخافض، ولا خلاف في تعدِّيهما بلا حرف إلى المكيل والموزون، يقال: كال الحبَّ ووزن الدِّرهم.

وقد يقال: الهاءان [«هُمْ»] ضمير رفع مؤكِّدٌ للواو و[مؤكِّد لكلمة] «عليهم»، فلم تكتب الألف [بعد واو الجماعة في «كالوا» و«وزنوا»] على طريق شذوذ خطِّ المصحف. وكان عيسى بن عمر وحمزة يقفان وقفة خفيفة على الواو بيانًا لذلك، إلَّا أنَّ الأصل عدم مخالفة خطِّ المصحف لقاعدة الخطِّ، إلَّا ما تَبَيَّنَ أنَّه خالفها. فالهاء مفعول به ضمير نصب مُتَّصِل لا ضمير رفع منفصل تأكيد للواو، بدليل عدم الألف.

ولم يذكر الوزن في الاكتيال على الناس لأنَّ من نزلت فيهم الآية لا يزيدون على حقِّهم في الوزن من أموال الناس لأنفسهم، أو لأنَّهم يكتالون ما يوزن كما يكتالون ما يكال ليتمكَّنوا من أخذ الزائد، وإذا أعطوا من مالهم كالوا أو وزنوا لتمكُّنهم من البخس في الكيل والوزن جميعًا، كذا قيل.

وفيه أنَّ الأمر سواء إذا حضر من له حقٌّ ومن عليه، لا يكون في أحدهما يصل إلى الأخذ أكثر مِمَّا يصل في الآخر، وكذا إن غاب أحدهما، وقيل: لأنَّه يتوصَّل إلى شيء كثير بأدنى حيلة في الوزن، والتطفيف في الكيل يكون بقليل لا يعبأ به غالبًا، وهو قول لا يعبأ به، ولا يدفع الإشكال.

ويقال: ما يوزن أكثر قيمة مِمَّا يكال، فإذا كانوا يبخسون في القليل بالكيل فأولى أن يبخسوا في الكثير بالوزن، وقيل: التقدير إذا اكتالوا أو اتَّزنوا على الناس... إلخ، فحذف الاتِّزان بدليل ذكره في القرينة. وقيل: كانوا يشترون بالكيل فقط، وبعد ذلك يبيعون للناس شيئًا فشيئًا ويَزِنُون.

[فقه] والكيل والوزن حقٌّ على من عليه المكيل والموزون، إلَّا إن رضي أن يكيل أو يزن من له الحقُّ، وسواء في الآيتين البيع والشراء والقرض وغيرهما.

﴿**أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ**﴾ الهمزة لإنكار لياقة انتفاء الظنِّ، وللتعجيب، و«لَا» نافية، والظنُّ على بابه. والإشارة لبُعد مرتبتهم في الشرِّ، ولتعليق الحكم باستيفائهم وإخسارهم، فإنَّ الإشارة إلى المشتقِّ كالتعبير بالمشتقِّ تؤذن بالعلَّة، كأنَّه قيل:

«أَلَا يَظُنُّ المستوفون المخسرون»، فالتخطئة لاستيفائهم وإخسارهم، ولو أضمر لهم لم يفد الضمير ذلك بنفسه بل بمرجعه.

﴿**أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ**﴾ للجزاء، ولو ظنُّوا لارْتدعُوا بعض ارتداعٍ عن الاستيفاء والإخسار، فكيف لو زادوا على الظنِّ [ووصلوا] إلى العلم. وقيل: الظنُّ بمعنى العلم هنا، والأوَّل أولى لزيادة أنَّ الترجيح كاف في الِارتداع، و[قيل:] هم أسوأ من الكُفَّار، لأنَّه ﷻ أثبت لِلْكُفَّارِ ظَنًّا إذ قال: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [سورة الجاثية: 32]، ويوم القيامة لوزن الأعمال وَزْنَ بيان لا وزنا بآلـة، وانتفوا منه في الدنيا ظلما للعباد، وضمُّوا الإشراك إلى ذلك الظلم.

وقد صحَّ أنَّه «لا خير أفضل من الإيمان ونفع عباد الله تعالى، ولا شرَّ من الإشراك وضُرِّ العباد»، وإن كان فيهم ظنٌّ فبمنزلة العدم، وكونه كالشكِّ فصَحَّ الإنكار.

﴿**لِيَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ لعظم ما فيه من الحساب، واللام للتوقيت، أو بمعنى في، ويجوز أن تكون للتعليل على حذف مضاف، أي: لحساب يوم عظيم.

والميزان: قانون العدل الذي قامت به السماوات والأرض، وفي الطبرانيِّ عن ابن عبَّاس عن رسول الله ﷺ: «**خمس بخمس**» قيل: يا رسول الله ما خمس بخمس؟ قال: «**ما نقض قوم العهد إلَّا سلَّط الله عليهم عدوَّهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله تعالى إلَّا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلَّا فشا فيهم الموت، وما طفَّفوا الكيل إلَّا منعوا النبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلَّا حبس الله عنهم القطر**»[1]. وكان ابن عمر يَمُرُّ بالبائع فيقول: «اتَّق الله تعالى وأوف بالكيل، فإنَّ المطفِّفين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن، حَتَّى إنَّ العرق يلجمهم إلى أنصاف آذانهم».

---

(1) رواه **البيهقيُّ** في شعب الإيمان، كتاب الزكاة، باب التشديد على من منع زكاة ماله، رقم 3311. من حديث ابن عبَّاس، مع اختلاف في اللفظ.

وفي مسلم عن مقداد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تدنو الشمس يوم القيامة من رؤوس الخلائق حَتَّى تكون كمقدار ميل** ـ وكذا في الترمذيِّ، إلَّا أنَّه زاد: «ميلين»، قال سالم بن عامر من رواة الحديث: لا أدري ميل الأرض أو ميل الاكتحال ـ **فيكون الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من عرقه إلى كعبه، ومنهم من عرقه إلى ركبتيه، ومن عرقه إلى حقوه، ومن عرقه إلى فيه يلجمه**»[1].

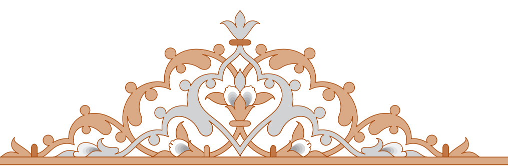
وعن عكرمة: «أشهد أنَّ كلَّ كيَّال أو وزَّانٍ في النار»، فقيل: إنَّ ابنك كيَّال ووزَّان! فقال: «أشهد أنَّه في النار»، يعني أَنَّ كلَّ كيال ووزَّان في عمل يكون سببًا للنار، إلَّا إنْ عصمه الله، وليس المراد المبالغة، وأنَّ الغالب فيهم التطفيف كما قيل، لأنَّه قد عاين ابنه منهم.

وعن أبيٍّ: «لا تلتمس الحوائج مِمَّن رزقه في رؤوس المكاييل وألسن الموازين». وكان قتادة يقول: «أوف يا ابن آدم كما تحبُّ أن يُوفَى لك، واعدل كما تحبُّ أن يعدل لك». وعن الفضيل: «بخس الميزان سواد يوم القيامة». والله تعالى أعلم.

﴿**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أي: يقومون من قبورهم، أو يذعنون لحكمه تعالى، أو يقفون على أرجلهم في الموقف.

[نحو] و«يَوْمَ» بدل من «يَوْمٍ» في محلِّ جرٍّ بُنِيَ لإضافته للجملة على ما مرَّ عن الكوفيِّين، ويدلُّ له قراءة أبي معاذ بالجرِّ. قيل: أو هو معْرَبٌ منصوب متعلِّق بـ«مَبْعُوثُونَ»، وهو مَعَارَضٌ بقوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. ويجوز نصبه بـ«اذكُرْ» على المفعوليَّة، وكونه مرفوعا مبنيًّا خبرٌ لمحذوف، أي: ذلك اليوم العظيم هو يوم يقوم الناس لربِّ العالمين، ويدلُّ له قراءة زيد بن عليٍّ ـ من آل البيت ـ برَفْعِهِ.

(1) رواه **مسلم** في كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها (15) باب صفة يوم القيامة... رقم 2864. من حديث المقداد بن الأسود. ورواه **أحمد** في مسند الشاميِّين، رقم 16798. من حديث عقبة من عامر الجهني.



﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾

مقرُّ ديوان الأشرار وأرواحهم

﴿**كَلَّآ**﴾ ارتدعوا عن التطفيفِ وإنكارِ البعث والحساب ﴿**إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ**﴾ أي: مكتوب الفجَّار، أي: ما يكتب من أعمالهم، كذا قيل، وهو غير ظاهر، لأنَّ أعمالهم ليست في سجِّين بل في صحفهم، لكن ورد في الحديث ما يدلُّ على ظاهره.

روى ضمرة بن حبيب عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الملائكة يكثِّرون عمل العبد ويزكُّونه، حتَّى إذا بلغوا موضعا أوحى الله ﷻ إليهم، أنا الحافظ على ما في قلب عبدي لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجِّين، ويستقلُّون عمل العبد، فيوحي الله تعالى إليهم أنا الحافظ على ما في قلب عبدي قد أخلص لي عمله فاجعلوه في علِّيِّين**»[1].

وقيل: كِتَابَة الفُجَّارِ، أي: كتابة عمل الفجَّار، وهو غير ظاهر، لأنَّ الكتابة ليست تقع في سجِّين بل في أوراقهم في الدنيا، أو في السماء. ولعلَّ معنى

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج 6، ص 364. وقال: أخرجه ابن المبارك، من حديث ضمرة بن حبيب. مع اختلاف طفيف في اللفظ.

الآية أنَّ شأنهم في سجِّين، وأنَّهم مكتوبون من أهل سجِّين، وكذا الكلام في قوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الَابْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾.

والفجَّار المشركون والموحِّدون الفسَّاق الذي ماتوا غير تائبين، كالموحِّد المطفِّف ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ صفة كَسِكِّير، أو عَلَمٌ لديوان جامع لأعمال الفجرة من الجنِّ والإنس، كما يدلُّ له قوله تعالى: ﴿**وَمَآ أَدْرَاٰيكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ**﴾ أي: هو كتاب مرقوم، فـ«كِتَابٌ مَّرْقُومٌ» خبر لمحذوف، وليس بدلا من «سِجِّينٌ» إذ لا يقال: ما أدراك ما كتاب مرقوم، مع أنَّه لم يتقدَّم كتاب مرقوم. وعادة القرآن أن يُذكر شيءٌ ثمَّ يقال: ما الشيء؟ مثل ﴿الْحَآقَّةُ مَا الْحَآقَّةُ﴾ [سورة الحاقَّة: 1].

وهو كما مرَّ وصفٌ من السَّجن (بفتح السِّين) بالمعنى المصدريِّ، لقِّب به الكتاب لأنَّه سبب السجن، ومعناه فاعل، أي: ساجن، أو مفعول ألقي تحت الأرض كالمسجون.

ولا يلزم من جعله عَلَمًا لِمَا ذُكِرَ كونُ الكتاب ظرفًا للكتاب، على أنَّ «كِتَابَ الْفُجَّارِ» بمعنى ما يكتب من أعمالهم، أو بمعنى كتابتها على ما مرَّ، ولا إشكال على ما ذكرت أيضًا من تفسير كتاب الفجَّار بأنَّهم من أهلها، فإنَّ كونهم من أهلها كتاب، أي: ذو كتاب مرقوم، أي: هو مِمَّا تضمَّنه الكتاب المرقوم، أو هو كتاب مرقوم، أي: كتاب مكتوب بالتكرير للتأكيد، أو كتاب معلَّم عليه أنَّه كتاب فلان، أو أنَّه كتاب سوء. أو مبيِّن الكتابة موضَّحها.

وقيل: مطويٌّ، وقيل: هو بلغة حِمْيَر، بمعنى: مختوم. وليس مستحيلاً أن يكون كتاب في كتاب تحقيقًا، أو يكتب ما في أحدهما في الآخر. أو ذلك من ظرفيَّة الكلِّ للجزء. وبعض قدَّر: «وما أدراك ما سجِّين موضع كتاب مرقوم»، فسجِّين موضع لا كتاب.

وعن البراء بن عازب عن رســـول الله ﷺ: «**سجِّين أســـفل سبع أرضين، وعلِّيُّون في الســـماء الســـابعة تحت العرش**»[1]. وعن ابن عمر: «ســـجِّين هي الأرض السابعة السفلى، وفيها أرواح الكُفَّار».

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الفلق جبٌّ في جهنَّم مغطًّى، وسجِّين جبٌّ فيها مفتوح**»[2] فهو شرُّ موضع في جَهَنَّم، تحت الأرض السابعة، وجهنَّم تحت الأرض السابعة في قول.

قال: كعب الأحبار رضي الله عنه: «إذا قبضت روح الكافر رفعت إلى السماء فلا تفتح لها فدفعت إلى ملائكة العذاب، أروه ما شاء الله أن يروه من الشرِّ، ثمَّ يهبطون به إلى الأرض السفلى وهي سجِّين، وهي آخر سلطان إبليس، فأثبتوا كتابه فيها»، وهو صريح في أنَّ الأرض الســـابعة هي ســـجِّين، وأنَّ الكتاب يوضع فيها.

ولا يبعد أن يكون «سجِّين» عَلَمًا للكتاب وعَلَمًا للموضع أيضًا، وفيه جمع بين الآية والحديث، أو علما للموضع ويقدَّر مضاف، أي: وما أدراك ما كتاب ســـجِّين، وعليه فـ«كِتَابٌ» خبر ثانٍ لـ«إنَّ»، أو خبـــر لمحذوف، أي: هو، أي: كتاب الفجَّار كِتَابٌ مَّرْقُومٌ.

ويجوز أن يكون «سِـــجِّينٌ» عبارة عن الخســـار، كما تقـــول: فلان تحت الأرض، أو مدفون، أو في موضع متسفِّل، بمعنى الخمول. وقيل: النون بدل من اللام، وأصله: سِجِّيلٌ، فليس من السجن.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يـــوم إذ يقوم الناس لربِّ العالميـــن ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ باليوم الذي يقوم الناس فيه لربِّ العالمين.

(1) رواه **البغويُّ** بإسناده في تفسيره، ج 8، ص 363.

(2) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج 6، ص 362. وقال: أخرجه ابن جرير، من حديث أبي هريرة.

﴿الذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء، وهو يوم يقوم الناس فيه لربِّ العالمين، وهو نعت أو بدل، وهو كاشف لما قبل، أو المراد ويل يومئذ للمكذِّبين بالحقِّ.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ﴾ بيوم الدين ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ مجاوز للنظر الصحيح، معرض عنه إلى الغلوِّ في التقليد، حتَّى نسب الله سبحانه وتعالى إلى العجز عن إحياء الموتى، وعن علم الأجزاء المتفرِّقة وجمعها ﴿اَثِيمٍ﴾ كثير الذنوب وعظيمها، قاسي القلب بالشهوات المشغلةِ له عن اللَّذات التَّامَّة الدائمة.

وقوله عز وجل: ﴿اِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْاَوَّلِينَ﴾ نعت آخر لـ«مُعْتَدٍ» أو لمنعوته المحذوف، أي: كلُّ إنسان معتد أثيم قائل أساطير الأوَّلين إذا تتلى عليه آياتنا.

[لغة] و«أَسَاطِيرُ» جمع أُسطورة (بِضَمِّ الهمزة)، أو جمع أسطار الذي هو جمع سطر. وهو خبر لمحذوف، أي: هي أساطير الأوَّلين، أي: أمور كتبها الأوَّلون وآمنوا بها، ولا حجَّة لنا على صدقها، فلا نؤمن بها.

ودعاهم إلى هذا أنَّهم يسمعون مثلها من أهل الكتاب وغيرهم، أو أمور كتبها الأوَّلون فلم يؤمن بها آباؤنا فلا نؤمن بها كما لم يؤمنوا بها، فلسنا أوَّل مُكذِّب بها، ولا عجَّلنا في التكذيب إذ سبقنا آباؤنا إليه، وسبب النزول النضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة وغيرهما مِمَّن قال أو رضي.

﴿كَلَّا﴾ ارتدعوا عن التكذيب ﴿بَلْ رَّانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ ليس في آياتنا ما يقبل التكذيب ولا ريبة، بل تغلَّبَ عليهم ما كانوا يكسبونه من المعاصي، وصار كوسخ متركِّب على شيء، ومثل الصدأ على المرآة.

بيَّن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الحقَّ فكذَّبوا، ومازال تكذيبهم ينمو حَتَّى كان حجابًا قويًّا، ولو كذَّبوا أوَّلاً ثمَّ تابوا وتفكَّرُوا لَمْ يكن ذلك.

[لغة] والران في الأصل: الصدأ، وأيضًا الغلبة في المعقولات، يقال: ران عليه النوم، وران الخمر على عقله، وران الغَشْــي علــى عقل المريض، وران الرجل إذا وقع في أمر لا يستطيع التخلُّص منه.

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ العبد إذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حَتَّى تغلق قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في القرآن ﴿كَلَّا بَلۡ رَّانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِــبُونَ﴾**»(1) رواه الترمذيُّ وابن ماجه عن أبي هريرة.

وذكر مجاهد أنَّ الرين عندهم الطبع، وأســبابه في قوله ﷺ: «**أربع خصال مفسدة للقلوب: مجاراة الأحمق، فإن جاريته كنت مثله، وإن سكتَّ عنه سلمت منه، وكثرة الذنوب مفســدة للقلوب، وقــد قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَــلۡ رَّانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِــبُونَ﴾ والخلوُّ بالنســاء، والتمتُّع بهنَّ، والعمل برأيهنَّ، ومجالسة الموتى**»، قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: «**كلُّ غنيٍّ قد أبطره غِناه**»(2).

﴿**كَلَّآ**﴾ ارتدعوا عمَّا يرين على القلب، أو حقَّ ما أقول لكم حقًّا ﴿**إِنَّهُمۡ**﴾ أي: المكذِّبين ﴿**عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ**﴾ أي: يوم يبعثون، والظرفان متعلِّقان بقوله: ﴿**لَّمَحۡجُوبُونَ**﴾ قدِّم للفاصلة، أي: ممنوعون عن رحمته.

[أصول الدين] وليس منها رؤيته تعالى لاستحالتها، وأيًّا ما كانت رؤيته في جميع وجوه مثبتها فهي موجبة لانكشافه، وإثباتُ انكشافه تشبيهٌ محضٌ، وفيه تحيُّزٌ وحلُول، وغيبة عن المواضع الأخرى.

﴿**ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ الۡجَحِيمِ**﴾ داخلوها، أو مقاسو حرِّها.

---

(1) تقدم تخريجه، انظر: ج 2، ص 198.

(2) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج 6، ص 363، وقال: أخرجه عبد بن حميد من طريق خليد بن الحكم عن أبي المجبر.

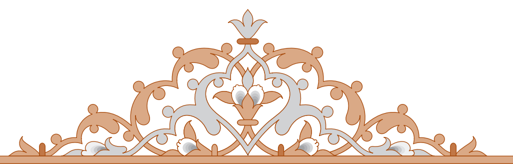
[صرف] والأصل: «صالِيُو» (بكســر اللام) نقلت ضَمَّة الياء إليها لثقلها، فحذفت الياء للســاكن بعدها، وهو الواو، ثمَّ الواو للساكن بعدها وهو اللام، وثبتت في الخطِّ.

و«ثُمَّ» للتراخي في الزمان أو في الرتبة فإنَّ عذاب النار أمر عظيم أشدُّ من مجرَّد انتفاء الرحمة، ومن أجاز اســتعمال الكلمة في حقيقتها ومجازها أجاز حملها على التراخي.

﴿**ثُمَّ يُقَالُ**﴾ يقول الملائكة خزنة النار، أو أهل الجنَّة توبيخًا لهم قبل دخول النار، و«ثمَّ» للترتيب الذكريِّ أو بعده فهي لترتيب الزمان.

وقد يدَّعي المدَّعي أنَّ توبيخ أعدائهم وهم أهل الجنَّة أشدُّ عليهم من العذاب، وليس كذلك إلَّا أن يشاء الله أن يجعله كذلك، وعلى أنَّ ذلك بعد الدخول والبعد فيها يكشف الله تعالى بينهم، ويصلهم الخطاب من أهل الجنَّة.

﴿**هَذَا**﴾ أي: هذا العذاب ﴿**الذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾ في الدنيا حضر لكم الآن فذوقوه.



﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾

مقر ديوان الأخيار وأحوالهم

﴿كَلَّآ﴾ ارتدعوا الآن في الدنيا عن التكذيب به لتنجوا منه، أو تكرير لـ«كَلَّا» قبله، أو للتي في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ ليعقب وعد الأبرار كما عقب وعيد الفجار إيذانًا بأنَّ التطفيف فجور، أو بمعنى حقَّ وعد الله حقًّا.

﴿إِنَّ كِتَابَ الَابْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ديوان كتبت فيه أعمال الملائكة والمؤمنين من الإنس والجنِّ، وهو مفرد، سمِّي لأنَّه سبب الارتفاع إلى أعالي الجنَّة، أو لأنَّه فوق السماء السابعة، أو فيها، أو عند قائمة العرش اليمنى[1] مع الملائكة المقرَّبين تعظيمًا له.

[صرف] علِّيُّون منقول من جمع عَلِيٍّ بوزن فَعِيل من العلوِّ، كسَجِين من السجن. وقيل: «عِلِّيِّينَ» المواضع العلِّيَّة، جمع عِلِّيٍّ (بشدِّ اللام والياء)، أصله: علية، حذفت التاء وعوّض عنها الجمع بالواو والنون رفعًا، والياء والنون جرًّا ونصبًا، جمع المؤنث وغير العاقل بذلك شذوذًا قياسًا، مع الفصاحة استعمالاً، وقيل: هم الملائكة، على القياس، جمع عِلِّيٍّ بلا تاءٍ.

(1) تصوير العرش بأنَّ له قوائم يتنافى مع القول بتأويله. (المراجع).

وعن ابن عبَّاس: علِّيُّون لوح من زبرجدة خضراء معلَّق تحت العرش كتبت فيها أعمالهم. وقيل: قائمة العرش اليمنى. وعن ابن عبَّاس علِّيُّون الجنَّة. وقيل: سدرة المنتهى. وقيل: علوٌّ بعد علوٍّ وشرف بعد شرف. وقيل: مراتب عالية محفوفة بالجلالة. وقال الفرَّاء: هو اسم مفرد موضوع على صيغة الجمع نحو: عشرين وثلاثين.

﴿**وَمَآ أَدْرَايكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ نعت آخر لـ«كِتَابٌ». و«يَشْهَدُهُ»: يحضره، و«الْمُقَرَّبُونَ»: الملائكة، وحضوره كناية عن تعظيمه وحفظه، أو «يَشْهَدُهُ»: يشهد به يوم القيامة المقرَّبون، وحذفت الباء.

وعن كعب الأحبار: «إذا قبضت روح المؤمن دفعت لملائكة الرحمة فأروه ما شاء الله تعالى أن يروه من الخير، ثمَّ عرَجوا بروحه إلى السماء، فيشيِّعه من كلِّ سماء مقرَّبوها، حتَّى ينتهوا إلى السماء السابعة، فيضعوه بين أيديهم، ولا ينتظرون به صلاتكم عليه، فيقولون: اللَّهمَّ هذا عبدك فلان قبضنا نفسه ـ ويدعون له بما شاء الله تعالى أن يدعوا له ـ فنحن نحبُّ أن تُشهِدَنَا اليوم كتابَهُ، فينشر كتابه من تحت العرش فيثبتون اسمه فيه، وهم شهود على ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾».

﴿**إِنَّ الَابْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**﴾ أي: لفي دار نعيم عظيم، أو في بمعنى مع، وفي العبارة مبالغة، كأنَّهم مظروفون للنعيم، والنعيم ظرف لهم، والنعيم ما يتنعَّم به، ومن شأن ما يتنعَّم به أن تكون فيه نعومة ووضاءة، وهو مقابل لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الْجَحِيمِ﴾.

وقد لهج بعض بالاستئناف البيانيِّ، فكأنَّه في كلِّ موضع أمكن ولو لم يتبادر ولم تَدْعُ إليه حاجة، فيقول هنا: كأنَّه قيل: هذا حال كتابهم فما حالهم؟ فأجيب بأنَّ الأبرار لفي نعيم ﴿**عَلَى الَارَآئِكِ**﴾ الأسرَّة في بيوت مزخرفة، أو

الأسرَّة التي عليها ستور زينة ﴿يَنظُرُونَ﴾ في ملكهم الواسع ولو ألف عام، لا يَرُدُّهم البعد عن النظر فيه ولا الستور والبيوت، وفي ما شاء الله تعالى من الجنَّة المباحة، وإلى أعدائهم في النار، والتشفِّي من العدوِّ لذَّة عظيمة، وإلى أحبابهم في الجنَّة.

ولِمَا ذكرت من اللذَّة في التشفِّي ذكره مرَّتين: هنا إجمالاً، وفي آخر السورة تخصيصًا، وقد يقال: ما هنا لا يشمله لكون ما في آخر السورة تأسيسا، وما ذكرته أولى.

[نحو] و«عَلَى الأَرَائِكِ» في الموضعين مُتَعَلِّق بما بعده، أو حال من واو ما بعده، أو خبر ثان لـ«إنَّ» هنا، وللمبتدإ فيما يأتي، أو متعلِّق بما قبله.

﴿**تَعْرِفُ**﴾ يا محمد، أو يا من يصلح للمعرفة، وهو أولى إن لم يَتَعَيَّن ﴿**فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ**﴾ بهجته، ومن العجيب تفسير [بعضهم] النظر بأنَّهم لا ينامون، ونضرة الوجوه بأنَّها لا تَتَغَيَّرُ بالنوم لانتفائه في الجنَّة.

﴿**يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ**﴾ خمر أجود، أو شراب مطلق لا غشَّ فيه، خمر أو لبن أو ماء أو غيره، لا صداع فيه ولا سكر، ولا وسخ يبقى أسفل الإناء، ولا وجع به ولا فضلة.

﴿**مَّخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ**﴾ مغطَّى أوانيه وأكوابه بالمسك مكان الطين، وطين الجنَّة مسك لا يَتَغَيَّرُ بالمشي عليه ولا بقدمه، وكأنَّه كلَّ يوم جديد، وذلك تلذيذ لهم بمشاهدة ما ألف في الدنيا، وإلَّا فلا غبار في الجنَّة ولا ذباب، ولا شيء مِمَّا يُغَيِّرُ الشراب أو الطعام.

وقد يقال: ليس ذلك على الحقيقة بل كناية عن خلوصه عن كلِّ مغيِّر.

وقيل: المعنى: نهايتُه رائحة المسك، يستغرقون في التلذُّذ في الشرب حتَّى لا شعور لهم بالرائحة الموجودة، وإذا تمَّ عقبه لذَّة الرائحة.

وفيه أنَّ الأولى أن يتلذَّذوا دفعة بشراب ورائحته، إلَّا أنَّه يناسبه قراءة عن الكسائيِّ: «خَاتِمَتُه» (بألف وكسر التاء) وهو بمعنى: آخره رائحة المسك، إلَّا أنَّ له قراءة: «خَاتَمُهُ» (بألف وفتح التاء) كقالب وطابع، وهو ما يربط به على الشيء، وهو المعنى المفسَّر به أَوَّلاً. والجملة نعت لـ«رَحِيقٍ».

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور البعيد المرتبة في الشرف من الكون في الجنَّة ومن الرحيق، وما ذكر من النعم إجمالاً وتفصيلاً قدِّم على متعلَّقه بطريق الاهتمام، وللحصر، والفاصلة، أي: في ذلك لا في غيره من لذَّات الدنيا المكدَّرة، المباحة والمحرَّمة.

[نحو] ﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾ الفاء صلة لا تمنع تعلُّق ما قبلها بما بعدها، وقيل: في مثل ذلك: إنَّ الفاء في جواب شرط قُدِّم معموله عن الفاء ليكون عوضًا عنه، كما قدِّم معمول جواب «أمَّا» عليه في نحو: أمَّا زيد فأكرم، لِئَلَّا يَتَّصِلَ أداة الشرط بفاء الجواب، والأصل: وإن أريد التنافس فَلْيَتَنَافَسْ في ذلك.

[لغة] ﴿الْمُتَنَافِسُونَ﴾ التنافس المغالبة على الشيء النفيس، والمراد هنا عن طريق الرغبة والغبطة لا الحسد. وأصله: من نَفْسِ الإنسان مثلا، لعزَّة نفسه عليه، وهي روحه أو جسده، حتَّى قيل: إنَّ المعنى: يبذل نفسه في تحصيل ذلك المرغوب فيه.

وذلك التنافس في الدنيا بالتوحيد والعمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [سورة الصافات: 61].

﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ نعت آخر لـ«رَحِيقٍ» بواسطة العطف. و«تَسْنِيم»: عين في الجنَّة، كما روي عن ابن مسعود، وزاد حذيفة أنَّها من عدن، وَسُمِّيَت لأنَّ ماءها لا يزال يموج إلى فوق، وسنم الشيء رفعه، ومنه سنام البعير.

أو لأنَّ شرابها أرفع شراب في الجنَّة، وعليه فالرفعة عَقلِيَّة، أو لأنَّها تأتيهم من فوق، أو لأنَّها تجري في الهواء متسنِّمة فتنصبُّ في أوانيهم، أو سُمِّيَت لرفعة من يشرب بها، وليس تسميتها عينا واجبة، أو أولى من غيرها، لأنَّ حاصله: ماء، أو سائل، أو جار، أو واد، أو موضع، فلا يقال: لِمَ صُرِّفَ مع العَلَميَّة والتأنيث، ولا سيما أنَّ تأنيث العين غير واجب. و«مِنْ» للبيان، أو للتبعيض، أو للابتداء. والمزاج: ما يخلط بالشيء.

وسئل ابن عبَّاس عن «تَسْنِيم» فقال: هو من قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [سورة السجدة: 17].

[نحو] ﴿**عَيْنًا**﴾ حال من «تَسْنِيم» ولو كان جامدًا، لنعته بجملة فِعْلِيَّة، والفعل مشتقٌّ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة يوسف: 2]، بنصب «قُرْءَانًا» على الحال ولو كان جامدا لنعته بما هو كالمشتقِّ، وهو الاسم المنسوب، أو «قرءَانًا» بمعنى مقروءًا، كما يؤوَّل «عَيْنٌ» بجارية، ولا تتساهل في اشتقاق الحال بلا تأويل بوجهٍ مَّا وجدت. وقيل: نصب «عَيْنًا» على المدح.

﴿**يَشْرَبُ بِهَا**﴾ الباء صلة في المفعول به، أي: يشربها، أي: يشرب ماءها، أو بمعنى «مِنْ» الابتدائيَّة، أو باقية على أصلها لتضمُّن «يَشْرَبُ» معنى يروي، أو يلتذُّ. أو يقدَّر هذا المضمَّن، أي: يشرب المقرَّبون راوين بها، أو ملتذِّين بها، أو تعلَّق بحال محذوف، أي: يشرب الرحيق ممتزجا بها المقرَّبون، أو يشرب المقرَّبون مكتفين بها، لكن في بعض هذه الأوجه بقاءُ «يَشْرَبُ» بلا مفعول به.

﴿**الْمُقَرَّبُونَ**﴾ قيل: الأبرار والمقرَّبون في هذه السورة بمعنى واحد، وهم كلُّ من في الجنَّة، وإلَّا فعن ابن مسعود وابن عبَّاس: يشرب بها المقرَّبون صرفًا، وتمزج للأبرار، وهذا لا يناسب تقدير: يشرب الرحيق ممتزجا بها المقرَّبون.

والجمهور على أنَّ الأبرار: أصحاب اليمين، وهم دون المقرَّبين، والمقرَّبين: هم السابقون، كان شرابهم نفس التسنيم لا ما يمزج بالتسنيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾

سوء معاملة الكفَّار للمؤمنين في الدنيا، ومقابلتهم بالمثل في الآخرة

﴿**إِنَّ الذِينَ أَجْرَمُواْ**﴾ كأبي جهل، والوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل ﴿**كَانُواْ**﴾ في الدنيا، أي: يقال يوم القيامة بمسمع الكفَّار المذكورين: ﴿إِنَّ الذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ...﴾ إلى قوله: ﴿... يَفْعَلُونَ﴾، وَيَدُلُّ لذلك قوله: ﴿فَالْيَوْمَ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

﴿**مِنَ الذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ**﴾ استهزاءًا بهم لإيمانهم وفقرهم، كعمَّار وصهيب، وبلال وخبَّاب.

[سبب النزول] وذكر أبو حيَّان أنَّ الإمام عليًّا مرَّ هو وجماعة من المؤمنين بجماعة من الكُفَّار فضحكوا استهزاءًا، فنزل: ﴿إِنَّ الذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ إلى آخر السورة، قبل أن يصل عليٌّ إلى رسول الله ﷺ، وذلك في مَكَّة.

وقيل: المراد المنافقون في المدينة، وقالوا: ربُّنا اليوم الأصلع، أي: سَيِّدنَا الرجل الأصلع، يعنون عليًّا.

وقد قيل: إنَّ السورة مَكِّيَّة إلَّا ثمان آيات في آخرها ﴿إِنَّ الذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ وقيل: إنَّها مَدَنِيَّة إلَّا ستّ آيات من أوَّلها.

والمشهور أنَّ ما نزل بعد الهجرة وقبل الوصول إلى المدينة مدنيٌّ، فقيل: نزلت السورة بعد الهجرة وقبل الوصول، ليصلح الله تعالى أهل المدينة بإزالة التطفيف ونحوه قبل الوصول، ووصلتهم الســـورة قبل وصوله. وفي البيهقيِّ: «أوَّل ما نزل بالمدينة سورة التطفيف».

[بلاغة] وقدَّم الجارَّ والمجـــرور للفاصلة وطريق الاهتمام بهم، قيل: وللحصر، أي: لا يستخفُّون إلَّا بالمؤمنين وهم أهلٌ لأن يعظَّموا.

﴿**وَإِذَا مَرُّواْ**﴾ أي: الذين أجرموا، كما أنَّ الضمائر قبلُ وبعدُ لهم ﴿**بِهِمْ**﴾ بالذين آمنوا، أو واو «مَرُّوا» للمؤمنين، وهاء «بِهِـــمْ» للذين أجرموا، ويقوِّيه سبب النزول. ﴿**يَتَغَامَزُونَ**﴾ يغمز بعض الذين أجرموا بعضا بأعينهم وأيديهم، استهزاءً بالمؤمنين.

﴿**وَإِذَا انقَلَبُواْ**﴾ أي: الذين أجرموا من مجالسهم، أي: التبسوا بالانقلاب في الطريق ﴿**إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَاكِهِينَ**﴾ متلذِّذين بذكر المؤمنين، مستهزئين بهم بعد تفكُّههم أيضًا قبل الانقلاب في مجالسهم.

أو ذلك صريح في الانقلاب وبالتغامز في حضرة المؤمنين، أو مرورهم أو مرور المجرمين، ولا يظهر ما قيل من أنَّ المراد الإشارة إلى أنَّهم يعدُّون صنيعهم ذلك من أحسن ما اكتسبوا في غيبتهم عن أهلهم، أو إلى أنَّ له وقعًا في قلوبهم، ولم يفعلوه مراعاة لأحد، بل لحظِّ أنفسهم.

﴿**وَإِذَا رَأَوْهُمْ**﴾ أي: رأوا المؤمنين حيثما أمكن ﴿**قَالُواْ إِنَّ هَؤُلَآءِ**﴾ المؤمنين مطلقًا لا خصوص من رأوهم، أو المراد خصوصهم في العبارة، وعلَّة الإيمان شاملة لغيرهم في قصدهم.

﴿**لَضَآلُّونَ**﴾ عن الحقِّ الذي نحن عليه من عبادة الأصنام وســـائر ما نفعل ونقول، مِمَّا يظهر لعقولهم أنَّه لا بأس به ﴿**وَمَآ أُرْسِلُواْ**﴾ الواو للحال من واو

«قَالُوا» ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين ﴿حَافِظِينَ﴾ يحفظون أحوالهم، ويشـــهدون عليهم بضلال أو رشد، وذلك من وظائف رسل الله تعالى وهم ليسوا برسله.

[بلاغة] وذلك تهكُّم بهم، أي: إن كنتم يا كُفَّار رُسُلاً فالله لا يرسلكم بذلك.

ويجوز أن تكون الواو عاطفة على «إِنَّ هَؤُلَآءِ لَضَالُّونَ»، أي: قال المجرمون: إنَّ المؤمنين لضالُّون، وإنَّ المؤمنين لم يرســـلوا حافظيـــن علينا بأن نؤمن بالله تعالى، وبمحمَّد ﷺ. وجعل «عَلَيْهِمْ» بدل علينا فيكون واو «أُرْسِلُوا» للمؤمنين، و«عَلَيْهِمْ» للمجرمين، كما تقول قال زيد: ليفعلن كذا إن شـــاء الله، تريد قال: لأفعلنَّ كذا إن شاء الله ﷻ.

﴿فَالْيَوْمَ الذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ الفاء عاطفة و«الْيَوْمَ» مُتَعَلِّق بـ«يَضْحَكُ» وكذا «مِنَ الْكُفَّارِ». وقدِّما للفاصلة لا للحصر، إذ لا يَصِحُّ أن يقال: الذين آمنوا لا يضحكون من الكُفَّار إلَّا اليـــوم، ولا يضحكون إلَّا من الكُفَّار، وأيضًا لا يحصر على شيئين بلا عطف.

وقول بعضهم: هم اليوم من الكُفَّار يضحكـــون لا الكُفَّار منهم حصرٌ ليس في الآيـــة، وإنَّما حصر الآية: لا يضحكون إلَّا مـــن الكُفَّار، وهو غير مراد، اللهمَّ إلَّا أن يراد: يضحكون من الكُفَّار فقط لا على غيرهم، كما كانوا يضحكون في الدنيا على غير الكُفَّار لأمْر، أو يراد: لا يضحكون الضحك التامَّ أو الضحك المتأهِّـــل إلَّا على الكُفَّار، وذلك جزاء على ضحكهم في الدنيا من المؤمنين.

ويقال: يفتح باب لأهل النار إلـــى الجنَّة فيقال: هلمُّوا، فـــإذا جاءوا انغلق دونهم، وذلك مرارًا حتَّى يقال: هلموا فلا يجيئون، والمؤمنون يضحكون عليهم في رجوعهم، وهذا إن صحَّ فقبل دخولهم النار، لأنَّهم بعد دخولهم لا يخرجون، وأيضًا يحتاج إلى صحَّة دخول المؤمنين الجنَّة قبل الكُفَّار النار.

﴿عَلَى الْاَرَآئِكِ﴾ مرَّ إعرابه ﴿يَنظُرُونَ﴾ حال من واو «يَضْحَكُونَ»، أو خبر آخر. ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾ مفعول به لـ«يَنظُرُ» معلَّقًا عنه بالاستفهام. ومعنى «ثُوِّبَ» أثيب، أي: جوزي، وهما في الخير والشرِّ، وغلِّب في الخير، وهو هنا له على التهكُّم، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ [سورة الانشقاق: 24]، وقوله تعالى: ﴿ذُقِ اِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: 49]، إلَّا أنَّ التهكُّم هنا ليس مواجهة، وفائدته استخفاف المؤمنين بأعدائهم فالأولى أنَّ الإثابة في الآية على الشرِّ.

﴿مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ «مَا» اسم مفعول ثان لـ«ثُوِّبَ»، كما يقال: جازاه خيرًا، أو جازاه شرًّا.

وقدَّر بعض: ينظرون قائلين: هل ثوِّب، وبعضٌ: هل ثوِّب الكُفَّار بما كانوا، ولا بدَّ من مضاف، أي: جزاء ما كانوا يفعلون.

والله أعلم.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



84

تفسير سورة الانشقاق

مكِّيَّة وآياتها 25 ـ نزلت بعد سورة الانفطار

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (14) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15) ﴾

أهوال يوم القيامة، وانقسام الناس فريقين

﴿إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ﴾ مطاوع شقَّ: توجَّهت إرادة الله إلى شقِّها فانشقَّت، ومثله: انفطرت، أي: انشقَّت بالغمام، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ﴾ [سورة الفرقان: 25]، يسلَّط عليها فتنشقُّ به.

وقيل: تنشقُّ لهول يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: 16]، ولا مانع أن يكون الهول هو تسلُّط الغمام، فذلك قول واحد، أمَّا انشقت السماء عن الغمام فلا مزاحمة له مع انشقاقها لهول القيامة بلا إشكال، فهي تنشقُّ عن الغمام للهول.

وعن عليٍّ: تنشقُّ من المجرَّة وهي نجوم صغار متقاربة(1)، وَتُسَمَّى: طريق التبَّانين، أي: حاملي التبن يتساقط التبن في الأرض، وتشبَّه بتلك الأرض. وفي بعض الآثار: إنَّها باب السماء، ويقال: هي سرَّة السماء، ويردُّ ما ذكر من انشقاق السماء منها أنَّها غير سماء، بل تتحرَّك والسماء لا تتحرَّك على الصحيح، تستقبل القبلة فتستدير معك، وتستقبل المغرب فتستدير معك.

﴿**وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا**﴾ سمعت، والمراد: طاعته في الانشقاق الذي أراده منها، كأنَّها عاقل أُمر فأطاع، شبِّهت به ورمز إليه بلازمه وهو الطاعة، فذلك استعارة بالكناية، ذلك كقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصّلت: 11]، أو خلق لها حياة وإرادة فأوحى إليها أن تنشقّ فطاوعت.

﴿**وَحُقَّتْ**﴾ جعلها الله ﷻ حقيقة، بالانقياد إلى الانشقاق.

وقيل: المعنى حقَّ الله عليها، أي: حكم بالانقياد فانقادت، وقيل: المعنى **وحقَّ لها أن تنشقَّ للهول.**

﴿**وَإِذَا الَارْضُ مُدَّتْ**﴾ بسطت بإزالة بنيانها وشجرها وجبالها وتسوية ما انخفض منها بما ارتفع، فصارت ﴿قَاعًا صَفْصَفًا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: 106 ـ 107]، وقيل: زيدت سعة.

والمدُّ: الزيادة، كما أنَّه البسط، وهي زيادة على ظاهرها، أو تسوية ما ارتفع منها وما انخفض، كالبحر بعد إزالة مائه، فإنَّ ما ارتفع منها وما انخفض كأنَّه ليس منها إذ كان لا يعامل، فلو كان في أرضك ما انخفض أو ما ارتفع فأصلحته قيل: زدت في أرضك.

(1) ليست صغيرة بل بعضها أكبر بكثير من المجموعة الشمسيَّة، وتبدو لنا صغيرة لبعدها. وقد تقدَّم أنَّ المعلومات التي يذكرها القدماء عن الفلك لا يقرُّها كلّها علم الفضاء في عصرنا هذا، لِمَا توفَّر لنا من الوسائل.

قال جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ: «**تمدُّ الأرض يوم القيامة مدَّ الأديم، ثُمَّ لا يكون للإنسان منها إلَّا موضع قدميه**»[1]، فأهل الموقف قائمون لا قاعدون.

﴿**وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا**﴾ من موتى الإنس والجنِّ والحيوان كلِّه. وقيل: من الموتى كذلك والكنوز. فالمؤمن يفرح إذ قدَّم للآخرة ما يُكْنَز فلم يكنزه فانتفع به، ففرح بالنفع وبأنَّها لو كنزها لم ينتفع من كنزها بل ضاعت، والكافر أو مَن مَنَعَ حقوقها تشتدُّ حسرته إذ هلك بها وهي غير نافعة له يومئذ.

ولا ينافي خروج الكنوز من الدجَّال، لأنَّها لا تخرج له كلُّها، بل بعضها في بعض أرض الدنيا، ويخرج الباقي ـ وهو الأكثر ـ يوم القيامة، وأيضا ما خرج للدجَّال يعاد كنزه.

﴿**وَتَخَلَّتْ**﴾ خلت خلوًّا شديدا، من الموتى والكنوز على ما مرَّ، ومفيد المبالغة صيغة التفعُّل. فعن ابن عمر عن النبيء ﷺ: «**أنا أوَّل من تنشقُّ عنه الأرض فأجلس في قبري، وإنَّ الأرض تحرَّك بي فقلت لها: ما لك؟ فقالت: إنَّ ربِّي أمرني أن ألقي ما في جوفي فأتخلَّى، فأكون كما كنت إذ لا شيء فيَّ**»[2] وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.

وقيل: تخلَّت مِمَّا على ظهرها من الأحياء بأن يموتوا فذلك في نفخة الموت، وقيل: تخلَّت مِمَّا على ظهرها من جبال وبناء وشجر وبحار، وهما قولان ضعيفان تردُّهما الأخبار.

﴿**وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا**﴾ انقادت في إلقاء ما فيها ﴿**وَحُقَّتْ**﴾ جُعِلت حقيقة بإلقائه أو بالطاعة، وحقَّ لها أن تلقي، هذا مثل ما مرَّ، ويجوز أنَّ الله ﷻ خلق لها حياة وإدراكا، وأوحى إليها بالإلقاء فألقت.

---

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج 6، ص 366. وقال: أخرجه الحاكم بسند جَيِّد. من حديث جابر.

(2) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج 6، ص 366. وقال: أخرجه أبو القاسم الختامي في الديباج. من حديث ابن عمر.

[سبب النزول] ﴿يَآ أَيُّهَا الِانسَانُ﴾ المراد العموم بالإجماع لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنُ اوتِيَ...﴾ إلخ وليس كذلك، فقد قال مقاتل: المراد الأسـود بن هلال المخزومي أنكر البعث، فقال له أخوه أبو سلمة: والذي خلقني لتركبنَّ الطبقة ولتوفينَّ العقبة، فقال له: وأين الأرض والسـماء؟ وما حال الناس؟ فنزل: ﴿يَآ أَيُّهَا الِانسَانُ﴾ خطابا له ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾

وقيل: المراد أبيٌّ بن خلف، كان يكدح في طلب الدنيا، وإيذاء رسول الله ﷺ، والإصرار على الكفر، فنزل ذلك خطابا له، ولا شكَّ أنَّ غيرهما مثلهما.

وقيل ـ قولا بعيدا ـ: المراد النبيء ﷺ، يكدح في التبليغ والإرشاد والصبر على الأذى فقيل [له]: أبشر فإنَّك تلقى الله تعالى بذلك وتثاب عليه.

والكدح: السعي قدر الطاقة في خير أو شرٍّ، حتَّى يوثِّر في الجسد بخدشه.

ومعنى «إِلَىٰ رَبِّكَ» طول حياتك إلى لقاء ربِّك بالموت. ﴿**فَمُلاقِيهِ**﴾ ملاقي الله ﷻ بالبعث ولا بدَّ، أي: ملاقي جزائِه على عملك «**إنَّما هي أعمالكم تردُّ إليكم فأحسنوها ما استطعتم**»[(1)].

وقيل: ملاقي الكدح، والمراد جزاء الكدح خيرا أو شرًّا، أو لقاء الكدح لقاء كتاب فيه ذلك الكدح.

﴿**فَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**﴾ «أَمَّا» وشرطها وجوابها جواب «إِذَا» الأولى، وما بعدها بواسطة العطف. وقيل: الجواب محذوف للتهويل، أي: كان ما كان، وذكر بعض تفاصيله بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنُ اوتِيَ...﴾ إلخ.

أو يقدَّر: يرى الإنسـان الثواب والعقاب. وقيل: الجواب ﴿يَآ أَيُّهَا الِانسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ ويـردُّه أنَّه لم يقرن بالفاء. وقيل: «أَذِنَـتْ» والواو زائدة ويردُّه أنَّ الأصل عدم الزيادة.

---

(1) تَقَدَّمَ تخريج ما يشبهه لفظا، انظر: ج 7، ص 465.

والحساب اليسير: ما لا مناقشة فيه، وفسَّره رسول الله ﷺ بالعرض، قال رسول الله ﷺ: «**ليس أحد يحاسب إلَّا هلك**» فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله جعلني الله فداءك، أليس الله تعالى يقول: ﴿فَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال: «**ذلك العرض يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك**»[1].

وروي أنَّها سمعته ﷺ يقول في بعض صلاته تعني في صلاة من صلواته: «**اللَّهُمَّ حاسبني حسابا يسيرا**» وَلَمَّا انصرف قالت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: «**أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه**»[2].

﴿**وَيَنقَلِبُ إِلَىا أَهْلِهِ مَسْرُورًا**﴾ يتوجَّه إليهم بعد عدم كونه معهم، وهم أزواجه في الجنَّة الآدميَّات والحور والولدان، كما قال مجاهد، وهو أصحُّ. وقيل عنه: إنَّ المراد خاصَّته من الناس المؤمنين، ومن له من الولدان والأزواج. وقيل: أهله المؤمنون مطلقا إذا اشتركوا في الإيمان.

﴿**وَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ**﴾ أي: بشماله من وراء ظهره، تغلُّ يمناه إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره فيؤتى كتابه بها. وقيل: تدخل في صدره وتخرج من وراء ظهره، ويأخذ كتابه بها، كما دلَّت الآية الأخرى التي فيها الأخذ بالشمال، وذلك شامل للمشركين والفسَّاق. وقيل: الفاسق يؤتى كتابه بشماله بلا إدخال في صدره، والمشرك بالإدخال[3].

---

(1) رواه **البخاريُّ** في كتاب التفسير (1) باب قوله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، رقم 4939. **والتبريزي** في المشكاة، كتاب صفة القيامة (3) باب الحساب والقصاص والميزان، رقم 5549 (1) من حديث عائشة.

(2) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج 6، ص 367. وقال: أخرجه أحمد وابن جرير والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه عن عائشة. مع زيادة لفظ: «إنَّه من نوقش الحساب هلك» في آخره.

(3) الله أعلم بصحَّة هذه الأقوال في أمور غيبيَّة يُفترض فيها الاعتماد على النصِّ القطعي. (المراجع).

﴿**فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا**﴾ يقول: يا ثبوراه هذا أوانك أَقْبِلْ، وهو كلام يقوله الهالك جزعا لا حقيقة، لأنَّه يقوله وهو في الهلاك لا في إقباله، أو يقوله قبل الوقوع فيه وليس يجب أن يقع. والثبور مطلق المكاره.

﴿**وَيُصَلَّىٰ سَعِيرًا**﴾ يُدخَل قهرا في نار شديدة تستعرُ، توقد، أي: مسعورة، كامرأة كحيل، أي: مكحولة.

﴿**إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ**﴾ حال حياته في الدنيا ﴿**مَسْرُورًا**﴾ باللذَّات والاستهزاء بالمسلمين وغيبتهم والنقص منهم، وسائر المعاصي، معرضا عن التقوى والآخرة.

﴿**إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَّحُورَ**﴾ الجملة استئناف كالتي قبلها، وتعليل لها، أي: ظنَّ أنَّه لن يرجع إلى الله بالبعث للحساب، واسم «أَنَّ» المخفَّفة ضمير «الإِنسَان» كالذي قبله، أو ضمير الشأن. أو ظنَّ أنَّه لن يرجع إلى العدم السابق قبل وجوده بالموت، على تشبيه كمال إعراضه عن أمر الله تعالى بظنِّ عدم الموت فلا يستعدُّ، كما يقال: مات من ظنَّ أنَّه لا يموت.

﴿**بَلَىٰٓ**﴾ ليس لا يحور، بل يحور ﴿**إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا**﴾ عالما بأحواله، لا يخفى عنه شيء منها ولا ينساه، ولا يغلب عن الجزاء به.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ ۩ ٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾

تأكيد وقوع القيامة وما يتبعها من الأهوال

﴿**فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ**﴾ الحمرة في أفق المغرب عند الغروب، وذلك قول الجمهور، وأصل الكلمة الرقَّة فيما قيل، كما يقال فيمن رقَّ قلبه: أشفق، وقيل: البياض الذي يلي تلك الحمرة بعد زوالها، وبه قال أبو حنيفة.

والجمهور على أنَّه لا يُسَمَّى ذلك البياض شفقا، وجاء عنه ﷺ: «**الشفق الحمرة**»[1]. وعن مجاهد: الشفق النهار كُلُّهُ، ونسب أيضًا للضحَّاك وعكرمة، ولعلَّهم تأنسوا له بعطف الليل، فيكون قد أقسم بالليل والنهار اللذين فيهما معاش الحيوان وحركته وسكونه، وفيه إطلاق الشفق على البياض، وكذا في رواية عن عكرمة أنَّه بَقِيَّة النهار.

[نحو] والفاء عاطفة، وقيل: في جواب شرط، أي: إذا تحقَّقْتَ الحور بالبعث، أو إذا عرفْتَ هذا فلا أقسم بالشفق.

(1) رواه **البيهقي** في الكبرى، كتاب الصلاة، باب دخول وقت العشاء، رقم: 1816، من حديث ابن عمر.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: والأشياء التي جمعها، ويجوز أن تكون «مَا» مَصدَرِيَّة.

[لغة] والوسق: الأصواع المجتمعة، وهو سِتُّونَ صاعا، والوسق: حمل بعير لاجتماعه على ظهره، ووسقت الشيء: جمعته، والليل يجمع المنتشر من الناس والحيوان إلى منازلهم، وتعقد فيه الشرور والخيور، فهو يضمُّها ويشتمل عليها.

وقيل: ما جمع من الظلام، وقيل: «وَسَقَ»: سَتَرَ بظلمته، وقيل: «وَسَقَ»: عَمِلَ، فأسند العمل إلى الليل لوقوعه فيه، كما أسند الجمع إليه لأنَّه زمانه، ومن الوسق بمعنى العمل قوله:

يوما ترانا صالحين، وتارة   تقوم بنا كالواسق المتلبِّب(1)

فيكون المراد ما عمل فيه من عقود الخير والشرِّ، أو التهجُّد في العبادة.

وقيل: «وَسَقَ»: طرد، أي: طرد الحيوانات إلى أماكنها، وإسناد الطرد إليه لأنَّه مكانه، وقيل: طرد ضوء النهار، ومنه الوسيقة للإبل المسروقة المطرودة.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ اجتمع نوره وكمل وصار بدرًا ليلة أربعة عشر ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ خطاب للإنسان المذكور أوَّلاً، إذ المراد به الجنس، وعلى القول بأنَّ المراد الفرد فهذا الخطاب للكلِّ، لأنَّ الحكم واحد. والطبق: الحال، أي: حالاً عن حال.

[بلاغة] وركوب الأحوال ملاقاتُها مجازًا، شبَّهها بالركوب فعبَّر عنها به، أو هو على حقيقته والتجوُّز في الحال إذ شبَّهها بالدابَّة ورمز إليها بلازمها وهو الركوب. وذكر الحال مرَّتين عبارة عن الكثرة، كأنَّه قيل: أحوالاً بعد أحوال. و«عَنْ» للمجاوزة، ولذلك تراهم يقولون: حالاً بعد حال، لأنَّ مُجَاوِزَ الشيء هو بعده.

---

(1) البيت من الكامل، وهو بلا نسبة في لسان العرب. مَادَّة: «وسق». انظر: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة العَرَبِيَّة، ج 1، ص 384.

[نحو] و«طَبَقًا» مفعول به، و«عَنْ» متعلِّق بـ«تَرْكَبُ»، وقيل: بمحذوف نعتا لـ«طَبَقًا»، وهو مفرد، أو جمع طبقة، أو اسم جمع، أو اسم جنس، والمراد: أحوال شديدة: الموت والبرزخ، وأهوال القيامة بعضُها أشدُّ من بعض.

وقيل: الأحوال كونهم نطفًا وعلقا، وسائر الأطوار والولادة، وما يكون بعد الولادة من رضاع وفطم وغلمة وشباب وكهولة وشيوخة وغير ذلك إلى الموت، وما بعد الموت، ويردُّه أنَّه خطاب للمكلَّفين بعد الولادة والبلوغ، فالأولى ترك ما قبل التكليف، وتعميم ما بعده من أحوال الدنيا والآخرة.

والمضارع ينافي ما مضى من ذلك كنطفة وما بعدها إلى التكليف، ولا داعي إلى خطاب المجموع من النطف وما بعدها مع من يصلح للخطاب.

ويناسب التفسير بالموت وما بعده التفريع بالفاء في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ على قوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾.

وقيل: معنى الطبق الموت المطابق للعدم السابق، والإحياء بعد الموت المطابق للإحياء السابق من النطفة، فذلك إقسام على البعث.

وعن مكحول: تكونون في كلِّ عشرين سنة على حال لم تكونوا عليها قبل، وعنه: تُحْدِثون في كلِّ عشرين عاما أمرًا لم تكونوا عليه قبل.

فإمَّا أن يكون الطبق في اللغة اسما لعشرين عاما وإمَّا أن يكون بيانا لحدوث الأمر أنَّه يكون في تلك المدَّة. وقيل: الطبق القرن من الناس، ومعنى ركوب القرن حصوله بهم، أو لتركبنَّ سنن من قبلكم قرنا بعد قرن.

والصحيح ما ذكر أوَّلا. وقيل: ذلك أنَّ السماء تنفطر ثمَّ تحمرُّ وتكون كالمهل، وتكون وردة، وتكون واهية.

وعلى قول: إنَّ الإنسان النبيء ﷺ فالجمع تعظيم له، والأحوال ما يعانيه

من الكفرة، أو فتح بعد فتح ونصر بعد نصر، وقيل: ســماء بعد سماء في ليلة المعراج ودرجات القرب.

وقيل: المــراد قوله ﷺ: «**لتركبنَّ ســنن من قبلكم حَتَّى لــو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه، أو ركبوا متن ضباة لركبتموه**» ولفظ الصحيحين عن أبي سعيد الخدريِّ مرفوعًا: «**لتتَّبعنَّ سنن من قبلكم وأحوالهم شبرا بعد شبر، وذراعًا بعد ذراع، حتَّى لو دخلوا جحر ضبٍّ لتبعتموهم**»، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟**[(1)].

﴿**فَمَا لَهُمْ لَا يُومِنُونَ**﴾؟ اســتفهام تعجيب وإنكار، ترتيبًا على أحوال يوم القيامة، أي: ما منعهم من الإيمان مــع تلك الأهوال التي يركبونها يوم القيامة ولا بدَّ؟ أو أيُّ شيء يمنعهم من الإيمان بالبعث مع علمهم بقدرته على الشفق والليل وسائر الآيات العلويَّة والسفليَّة.

وجملة «لَا يُومِنُونَ» حــال، وكذا قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قُــرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْــجُدُونَ**﴾ حال ثانية بواســطة العطف، أي: ما لهم غيــر مؤمنين وغير ساجدين وقت قراءة القرآن عليهم؟ والمراد بالســجود الخضوع للقرآن، أي: الإذعان له بالإيمان به، أو لله بالقرآن الذي أنزل.

وقيل: المراد الصلاة، عبَّر عنهــا بما هو أعظم في الخضوع منها، قرنت بالإيمان إعظامًا لقدرها، وقد قيل: «أفضل الأعمال بعد التوحيد الصلاة».

وقيل: سجود التلاوة، تنزل آية السجود ويسجد النبيء ﷺ والمؤمنون ولا يسجد الكفرة إن حضروا.

روي أنَّه ﷺ قرأ يومًا ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [ســورة العلق: 19]، فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفِّق فوق رؤوســهم، وتصفِّــر، فنزلت هذه الآية، وذكر ابن حجر أنَّ هذا الحديث لم يثبت.

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 12، ص 298.

وروي أنَّه ﷺ سجد عند قراءة هذه الآية، وأقول: لعلَّه سجد نصرة للقرآن ومضادَّة للكفرة الذين لا يسجدون، لا لكونها من آيات السجود.

وفي مسلم والترمذيِّ وأبي داود وابن ماجه والنسائيِّ والبيهقيِّ أنَّ رسول الله ﷺ سجد في هذه الآية، وفي ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إلَّا أنَّ في البخاريِّ عن أبي رافع: «صلَّيت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد، وقلت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حَتَّى ألقاه ﷺ»[1]، ولا يلزم قول أبي هريرة للتأويل المذكور، ولا الردُّ به على ابن عبَّاس إذ قال: «ليس في المفصَّل سجدة»، والمفصل من سورة محمَّد ﷺ، أو من سورة الفتح، أو من الحجرات وعليه الأكثر.

﴿**بَلِ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ الأصل: بل هم، ولكن أظهر ليصفهم بالكفر الموجب لعذابهم ﴿**يُكَذِّبُونَ**﴾ بالقرآن، وذلك زيادة في العناد على عدم سجودهم عند سماع آية السجود، أو تصريح بالتكذيب به بعد انتفاء إذعان قلوبهم له، قيل: للانتقال إلى ذكر ذلك عنهم بعد ذكر عدم السجود.

﴿**وَاللَّهُ**﴾ لا غيره ﴿**أَعْلَمُ**﴾ أي: عالم، أو اسم التفضيل على بابه، وبعض الناس ـ أو كثير ـ يُعلَم بظاهر أحوالهم بعضُ ما في قلوبهم وليس ذلك من علم الغيب، أو ليس المراد أنَّ غيره لا يعلم، فإنَّ مَنْ شَهِدَ كُفْرَهُم عَلِمَ كُفْرَ قلوبِهِم، لكن المقصود بالعلم الجزاءُ كنايةً عنه.

﴿**بِمَا يُوعُونَ**﴾ الباء للإلصاق المجازي. و«يُوعُونَ» يضمرون في قلوبهم من الكفر والحسد والبغضاء، وأصل الإيعاء جعل الشيء في وعاء، فلا مانع من أن يكون المعنى: بما يجعلونه في أوعيتهم، وهي قلوبهم من السوء وإضمار السوء، ويكون في المشركين المصرِّحين بالإشراك، كما يكون في المنافق الذي نفاقه إضمار الشرك، فلا ينافي إضمار السوء كون السورة مَكِّيَّة.

(1) رواه **البخاريُّ** في كتاب الصلاة (100) باب الجهر في العشاء، رقم 766. من حديث أبي رافع.

وفسَّر بعضهم «يُوعُونَ» بـ«يجمعون»، وهو راجع إلى ما ذكر، لأنَّ جعل الأشياء في وعاء جمع لها فيه، ويجوز أن يراد: بما يجمعون في صحفهم من الأعمال، تسميةً للصحف بالأوعية، وهي تسمية حَقِيقِيَّة لا مجازيَّة.

ويجوز أن يكون المعنى: يكذِّبون بألسنتهم والحال أنَّ الله يعلم ما في قلوبهم من التصديق لظهور الأَدِلَّة ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: 14].

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ تبشيرا مرتَّبًا على إخباري لك بما يوعون، أو على تكذيبهم، أو إذا كان ذلك حالهم فبشِّرهم بعذاب أليم.

[بلاغة] وعبَّر بالتبشير بدل الإنذار تهكُّما، فإنَّ التبشير الإخبار بما يسرُّ والعذاب لا يسرُّهم، أو نزَّل إنهماكهم في المعاصي منزلة الرغبة في جزائها من العذاب الأليم، كأنَّهم عصوا ليحصل لهم العذاب فيبشِّرهم.

﴿إِلَّا الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطع من هاء بشِّرهم، أو متَّصِل، أي: إلَّا من سيؤمن منهم، فيكون «آمَنَ» للاستقبال كما رأيت، أو يكون المراد: مضى أنَّه من أهل الإيمان في علم الله تعالى أو في اللوح المحفوظ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمُۥٓ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أنسب بأنَّ إيمانهم مراد به الإيمان الخارج، لا الإيمان الموعود به عند الله. و«غَيْرُ مَمْنُونٍ» غير مقطوع، بل هو دائم في الجنَّة، أو بمعنى أنَّه لا يذكر لهم ذلك الأجر بطريق العلوِّ عليهم به [والمنِّ به].

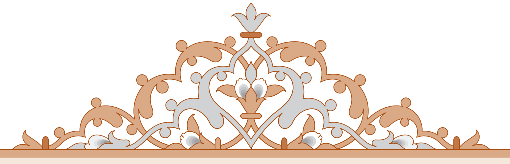
والله أعلم.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

85

تفسير سورة البروج

مكِّـيَّة وآياتها 22 ـ نزلت بعد سورة الشمس



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) ﴾

القسم بأشياء عظام على لعنة أصحاب الأخدود

﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ**﴾ الِاثني عشـر المعروفة في فنِّ الفلك، المشبَّهة بأبراج الحراسة لظهورها، ولنزول النجوم فيها، كما ينزل الإنسان فيها. وأصل البرج الظهور، كما سُمِّيَت التي تظهر زينتها متبرِّجة.

[بلاغة] فالبروج في الآية استعارة تصريحيَّة، ولا مكنيَّة معها، أو شبَّه السماء بالمدينة أو سورها ورمز إلى ذلك بذكر لازم المدينة أو السور، وهو البروج، فذلك استعارة مكنيَّة، وإثبات البروج تخييل باق على أَصله، أو لفظ «الْبُرُوجِ» استعارة.

[فلك] وتلك البروج منازل القمر إذ قسِّـمت إلى ثمانية وعشـرين منزلة، والبروج الاثنى عشر: الحمل وهو الكبش، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد

والسنبلة والميزان، والعقرب والقوس والجدي، والدلو والحوت، كلُّ برج ثلاثون درجة، والدرجة سِتُّونَ دقيقة، والدقيقة سِتُّونَ ثانية، والثانية سِتُّونَ ثالثة، وكذا إلى العاشرة، ولكلِّ برج منزلتان وثلث، وأيَّامه ثلاثون وعشر ساعات ونصف.

وفلك البروج هو الثامن، وعليه الكواكب الثوابت، وهو فلك الأفلاك السبعة، تحته: فلك زحل، ثمَّ فلك المشتري، ثمَّ فلك المرِّيخ، ثمَّ فلك الشمس، ثمَّ فلك الزهرة، ثمَّ فلك عطارد، ثمَّ فلك القمر، وكلُّ ما كان فوق الشــمس فهو أبطأ من الشمس، وكلُّ ما تحتها أسرع منها، وهي الوسطى، فوقها ثلاثة وتحتها ثلاثة.

وأسرع الكواكب القمر. وأسرع سير زحل تســع دقائق في كلِّ يوم وليلة، وأوسطه خمس وأقلُّه أربع، ويكون مستقيم الســير ثمانية أشهر وثمانية أَيَّام، يقطع في هذه المدة تســع عشــرة درجة، ويكون راجعًا أربعة أشــهر وثمانية وعشرين يومًا، ويقطع في كلِّ رجوعه سبع درجات يقيم في برج ثلاثين شهرًا. وقيل: أحدًا وثلاثين.

وأسرع سير المشتري في اليوم والليلة ثلاث عشرة دقيقة، وأوسطه إحدى عشرة دقيقة، وأقلُّه تسع ويكون مستقيم السير سبعة أشهر ويومين، ويقطع في استقامته عشر درجات، ويسير راجعًا أربعة أشهر يقطع فيها درجتين يقيم في كلِّ برج سنة.

وأسرع ســير المريخ ثلاث وعشرون دقيقة وأوســطه خمس عشرة دقيقة، وأقلُّه عشر دقائق، ويكون مستقيم السير أحد عشر شهرا، يقطع فيها ثلاث عشرة درجة، ثمَّ يسير راجعا شهرين ونصفا، ويقطع في رجوعه ثماني عشرة درجة، يقيم في كلِّ برج خمسة عشر يوما.

وأسرع سير الشمس درجة وأربع دقائق، وأوسطها تسع عشرة دقيقة، وأقلُّه سبع عشرة دقيقة، ولا رجوع لها ولا استقامة، ويقال: رجعت بمعنى انتقالها من الجنوب إلى الشمال، وبالعكس، وليس ذلك رجوعا، وتقيم في كلِّ برج شهرا.

وأسرع سير الزهرة درجة وأربع دقائق، وأوسطه درجة ودقيقتان، والأقلُّ درجة، وتكون مستقيمة سنة ونصف سنة، وتقطع من الدرج ثلاثا، وسيرها راجعة يومان، وتقطع فيه خمس عشرة درجة، وتقيم في كلِّ برج سبعة عشر يوما مستقيمة، وإذا رجعت أقامت في البرج الذي رجعت إليه خمسة أشهر، وإذا ظهرت في المغرب فهي مستقيمة وإذا ظهرت في المشرق فراجعة.

وأسرع سير عطارد درجة وخمس عشرة دقيقة، وأوسطه درجة ونصف وربع، وأقلُّه درجة ونصف، ويستقيم ثمانية أشهر، ويقطع فيها ثلاثين درجة، وإن كان سيره بطيئًا كان مائة وعشرين درجة، ويقيم في كلِّ برج تسعة أَيَّام.

وأسرع سير القمر خمس عشرة درجة في اليوم والليلة، والأوسطُ ثلاث عشرة درجة، والأقلُّ إحدى عشرة درجة أو عشرًا ونصفا، ويقيم في كلِّ برج يومين وثلثا[1].

وعن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ: «**البروج الكواكب**»[2]، أي: كلُّها ولو تفاوت الظهور، كما قال مجاهد وقتادة والحسن وعكرمة، وعن أبي صالح: البروج النجوم العظيمة الضوء.

وقيل: البروج أبواب السماء، لأنَّ النوازل تخرج مع الملائكة، كقصور العظماء النازلة أوامِرُهم منها، أو لأنَّها مبدأ الظهور. والأفلاك غير السماوات وغير العرش والكرسيِّ.

﴿**وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ**﴾ يوم موت الناس وذوات الأرواح كلِّهم، أو يوم البعث الذي أنكره المشركون، ويدلُّ له قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الَاجْدَاثِ سِرَاعًا﴾، إلى قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [سورة المعارج: 43ـ44]، أو يوم طيِّ السماء كطيِّ السجلِّ للكتاب، كما قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [سورة الأنبياء: 104].

(1) راجع التعليق في معرض تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ﴾ في هذا الجزء.
(2) لم نقف على تخريجه مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

وقيل: يوم شفاعة النبيء ﷺ في المقام المحمود الموعود له ﷺ، وذلك كلُّه في يوم القيامة، إلَّا أنَّه إمَّا أن تفسَّــر الآية به إجْمالاً، أو تفسَّــر بوقت مخصوص كما رأيت.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أي: ومن يشهد ذلك اليوم، أي: يحضرُه، وما يشهد فيه من الأهوال، أقسم الله تعالى بيوم القيامة وما فيه إرْهابًا لمنكريه. والتنكير للتعظيم أو للتكثير.

[بلاغة] ومن أجاز اســتعمال الكلمة في معنييها أجازهما ولكن لا تظهر فائدة في تكثير الشاهد، بل في كلِّيته بمعنى أنَّ كلَّ من يمكنه الحضور يحضره لا يبقى أحد غير مبعوث، فإذا أريد التكثير المستغرق صحَّ، وكذلك ليس كلُّ من يحضره عظيم الشأن، ولا كلُّ من هو محضور فيه عظيمه.

وإنَّما التعظيم في قول من قال: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، كما روي عنه ﷺ، وعن جماعة من الصحابة منهم عليٌّ، ونسب للجمهور.

وروي عنه ﷺ: «**الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة، والمشهود يوم القيامة**»[1]، وفيه إطلاق الشــاهد على اثنين كإرادة الجنس الصادق بشــيئين، وعن عليٍّ: الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر، وبه قال عبد الله بن عمر وابن الزبير.

وعن سعيد بن المسيّب: الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة، وقيل: يوم الاثنين ويوم الجمعة، وفي هذا ونحوه وقوع الزمــان في الزمان، أجازه بعض وذلك على أنَّ الشهادة قاليَّة لا حاليَّة.

(1) رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (77) باب ومن ســورة البروج، رقم 3339. مع زيادة عبارة: «اليوم يوم القيامة» في أوَّله، وإضافة: «وما يوم طلعت الشــمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلَّا اســتجاب الله له، ولا يستعيذ من شرٍّ إلَّا أعاذه الله منه». و**الحاكم** في مســتدركه كتاب التفســير (85) باب تفســير سورة البروج، رقم 3915، 1053، من حديث أبي هريرة.

وعن الحسن بن عليٍّ: «الشاهد جدِّي رســـول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [سورة النساء: 41]، والمشهود يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَومٌ مَّشْهُودٌ﴾ [سورة هود: 103]»، وكذا روي عن ابن عبَّاس، وقيل: الشاهد الله والمشهود يوم القيامة.

وعن عطاء بن يسار وعكرمة ومجاهد: الشاهد آدم وذرِّيَّته، على إرادة الجنس إذ جمعته الشـــاهديَّة، والمشـــهود يوم القيامة، وكذا في رواية الترمذيِّ: الشاهد الحفظة والمشهود الناس، أي: المشهود عليه بإرادة الجنس فيهما.

وقيل: الشـــاهد الأنبياء والمشـــهود ـ أي: له ـ النبيء ﷺ، تشهد له الأنبياء بالرسالة في الدنيا والآخرة. وقيل: الشاهد رسول الله ﷺ، والمشهود ـ أي: عليه ـ أمَّته، على إرادة الجنس في الثاني. وقيل: الأنبياء وأممهم على إرادة الجنس في الثانـــي، والمراد مشـــهود عليه، وكذا قول ســـعيد بن جبير: الشـــاهد الجوارح والمشـــهود أصحابها، بإرادة الجنس فيهما، ﴿يَوْمَ تَشْـــهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِـــنَتُهُمْ﴾ [ســـورة النور: 24]، وكذا من قال: الليالي والأيَّام وبنـــو آدم، كلُّ يوم يقول: «أَنَا يومٌ جَدِيدٌ، على ما يُعْمَلُ فيَّ شهِيدٌ، فاغْتَنِمْنِي فلو غابت شمسِي لم تُدْرِكْنِي».

وقيل: الشاهد الملائكة المتعاقبون، على إرادة الجنس، والمشهود قرآن الفجر ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [سورة الإسراء: 78]، وقيل: النجم والليل والنهار، وقيل: الحجر الأسود يشهد لمن صافحه والحجيج.

وقيل: أُمَّة النبيء ﷺ وسائر الأمم، لأنَّهم يشهدون على سائر الأمم، والشهادة في بعض الأقوال الحضور، وفي بعضها الشهادة بالشيء أو عليه.

وجواب القَسَم قوله تعالى: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ**﴾ على الإخبار، على حذف اللام و«قد»، لأنَّه لا يجاب بالماضي المثبت المتصرِّف الذي لم يتقدَّم معموله بدونهما، إلَّا أنَّه يجوز حذفهما للفصل، أي: «وَالسماء ذات البروج لقد



قتل أصحاب الأخدود بالإحراق ﴿ﷺ﴾» ولم تردَّهم إرادة الإحراق عن إيمانهم، فكيف لا تصبرون أيُّها المؤمنون على أذى الكُفَّار بما هو أهون من ذلك؟.

لَكِنَّ الحقَّ والصواب الذي لا يُخالَف أنَّ أصحـاب الأخدود الكُفَّار لا المؤمنون، فالقتل: اللعن، وكالنصِّ على هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُومِنِينَ شُهُودٌ﴾.

وقيل: الجواب ﴿إِنَّ الذِينَ فَتَنُواْ﴾ وقال المبرد: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، وهو قول ابن مسعود. وقيل: الجواب محذوف، أي: إنَّ الكافرين بك يا محمَّد لمقتولون، أو لَيُقتَلَنَّ الكافرون بك، فيكون يوم بدر تصديقًا لذلك ومعجزة.

واستظهر بعض أنَّ الجملة دُعائيَّة، أو على صورة الدعاء، وأنَّ أصحاب الأخدود هم الذين أحرقوا من آمن لا المؤمنون، وأنَّ القتل بمعنى اللعن، وأنَّ التقدير: إنَّ كُفَّار قريش لملعونون، أحقَّاء أن يقال فيهم بطريق الدعاء «قتلوا»، أي: لعنوا، ودلَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ أي: لعنوا.

وقدَّر بعض: «لتبعثنَّ» مناسبة لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾.

وقدَّر بعض: «ليقتلنَّ كما قتل أصحاب الأخدود»، وفيه أنَّه لا يتَّضح أن يقال: يقتل الكافرون بك كما قتل المؤمنون في الأخدود، إلَّا أن يريد: كما قتل الله الذين أحرقوا المؤمنين، وفيه أنَّه لم يذكر في السورة أنَّ الله قتلهم إلَّا في هذا اللفظ، فيكون المعنى: إنَّ الله يقتل الكُفَّار كما قتل الكُفَّار الذين أحرقوا المؤمنين، على أنَّ معنى الآية: قتل اللهُ أصحابَ الأخدود القاتلين للمؤمنين.

وما قاله الربيع بن أنس[1] والكلبيُّ وأبو العالية وأبو إسحاق من أنَّ الله بعث على المؤمنين ريحا ماتوا بها فانقلبت النار على الكُفَّار الذين حول النار فأحرقتهم **لا صحَّة له، وهو مخالف للأخبار التي عليها** الجمهور.

(1) تقدَّم التعريف به، انظر: ج 8، ص 408.

وإنَّما يتِمُّ لو روي أنَّ النار أحرقت المؤمنين في الأخدود وخرجت وأحرقت هؤلاء الكفرة، ويردُّه أيضًا قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾، وتأويل يفعلون بإرادة الفعل خلاف الظاهر، وخلاف الأخبار الواردة من وقوع الفعل.

[قصص] والأخدود حفير مطلقا، والواقع في الآية [قيل:] أربعون ذراعا عمقا واثنا عشر في عرض، كان لملك من الملوك كاهن قال له: انظروا لي غلامًا فَهِمًا أُعلِّمه علمي لئلَّا يضيع، ففعلوا فكان الغلام اسمه عبد الله بن تامر يسأل راهبا في طريقه إلى الكاهن، فشكا الكاهن بُطْئَه، فزجره عن البطء، فقال له الراهب: إذا سألك فقل كنت عند أهلي، وإذا سألوك فقل كنت عند الكاهن.

ومرَّ بجماعة حبسهم أسد، فأخذ حجرًا فقال: اللهمَّ إن كان قول الراهب حقًّا فاقتله، فرماه فقتله، فقال له أعمى: إنْ رددتَّ لي بصري فلك كذا، فقال لا: بل آمن بالله تعالى، فشفاه الله تعالى فآمن.

فنشر الملك الراهب وقتل الأعمى، وقال: ألقوا الغلام من فوق جبل كذا فصعدوا به فتساقطوا وماتوا، فقال أغرقوه فغرقوا ونجا، فقال: لا تصِلُ إلى قتلي إلَّا أن تصلبني وتقول باسم ربِّ هذا الغلام، وترميني، ففعل فمات، فآمن الناس بربِّه، فحفر الأخدود، وملأه نارًا، فكلُّ من آمن ألقاه فيه.

وروي أنَّ هذا الغلام وُجد في خلافة عمر، وإصبعه على صدغه كما وضعها حين رُمِيَ على صدغه. وجاءت امرأة قهرًا بابن لم يتكلَّم ورقَّتْ لهُ، فقال الابن: ادخلي النار ولا تكفري.

[قصص] وروي أنَّ الله بعث نبيئًا من الحبشة فجعل الملك يلقي من آمن به في الأخدود بعد أن قتل أصحابه بلا نار، وأوثقه فانفلت.



وروي أنَّ المجوس كانوا أهل كتاب، وحلَّ لهم الخمر، فسكر ملكهم، ووطئ ابنته وأخته فندم، فقالت: قل للناس بأنَّ الله ﷻ أحلَّ البنت أو الأخت، فلم يقبل الناس عنه، فأمرته بـ[استعمال] السوط ثمَّ السيف، ولم يقبلوا، وأمرته بالأخدود والنار يلقى فيه مَنْ لم يقبل. قيل: وَلَمَّا هزم أهل اسفنديار سأل عمر عليًّا ما الحكم فيهم، وهم مجوس ليسوا بأهل كتاب؟ فأخبره عليٌّ بأنَّهم أهل كتاب، وذكر له قِصَّة شرب الخمر المذكورة.

وعن عليٍّ: نبيء أصحاب الأخدود حبشيٌّ بعث من الحبشة إلى قومه وقرأ: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ...﴾ الآية [سورة غافر: 78].

[قصص] وقيل: دخل رجل مِمَّن كان على دين عيسى عليه السلام نجران فأجابوه، فسار إليهم ذو نواس اليهوديُّ بجنود من حمير، فخيَّرهم بين النار واليهوديَّة، فأحرق في الأخاديد اثني عشر ألفًا، وقيل: سبعين ألفًا.

فالأخدود بأرض الحبشة أو في نجران، وقيل: إنَّه في مذراع اليمن، لكن نجران من اليمن، فقيل: إنَّ أصحاب الأخدود الذين قتلوا من آمن من النبط، وقيل: من الحبشة، وقيل: من بني إسرائيل.

ويقال: الأخاديد ثلاثة واحد بنجران في اليمن لذي نواس يوسف اليهودي، وأنَّه الذي نزل به القرآن، لأنَّ قصَّته هي المعروفة عند أهل مَكَّة، والآخر بالشام لبطلموس الرومي، والآخر بفارس لبختنصر، زعم بعض أنَّه في أصحاب دانيال.

ويقال: ذو نواس ملك من ملوك حمير، وأنَّه ابن شرحبيل بن شراحيل، في الفترة قبل مولد النبيء ﷺ بسبعين سنة، ويجوز حمل الآية على ذلك كلِّه فتكون «ال» في الأخدود للجنس فيشتمل تلك الأخاديد كلَّها.

[نحو] ﴿النَّارِ﴾ بدل اشتمال، والرابط محذوف، أي: النار فيه أو له، و«فيه» أو «له» حال، أو نابت عنه «الْ»، أي: ناره، والهــاء للأخدود لأنَّه مفرد، وهذا أولى من جعله بدل كلٍّ على حذف مضاف، أي: أخدود النار.

﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ صاحبة الوقود، أي: ما به ارتفاع اللَّهب ـ وهو الحطب ـ لا تفارقه.

[بلاغة] وهذه مبالغة في اتِّقادها، أو مالكة الوقود، كنايةً عن زيادته زيادة مفرطة لِقُوَّة حطبها وكثرته. والوقود نفــس الحطب لأنَّه بفتح الواو، ولو ضُمَّ ـ كما هو قراءةٌ ـ لكان مصدرًا. و«ال» فيه للاســتغراق مجازًا، أو للاستغراق العادي. ولا يخفى ما في جعلها مالكة للحطب الكلِّي من المبالغة في الاتِّقاد، وهكذا تقول في ذي كذا وذات كذا إذا صَلُحَ المقام لذلك لا في كلِّ موضع، فـ«ذُو» أبلغ من صاحب، وليس من ذلك «ذو النون».

﴿إِذْ﴾ متعلِّق بـ«قُتِلَ»، أي: لعن وقتل، على أنَّ النار خرجت عليهم من الأخدود فأحرقتهم، لكن هذا ضعيف كما مرَّ.

﴿هُمْ﴾ أصحاب الأخدود الكفرة الموقِدون ﴿عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ على حذف مضاف، أي: على حافاتها، أو جوانبها، أو سُمِّيَ ما حولها نارا مجازا للجوار، أو القعود على النار كناية عن مُلْك أمرها.

ولا يصحُّ أن يقال: أصحاب الأخدود المؤمنون الذين ألقوا في النار، وإنَّ القتل على ظاهره، وإنَّ القعود على النار هو كونهم فيها وهي من تحتهم، سمِّي كونهم فيها قعود عليها مجازا، لأنَّ ذلك تكلُّف.

وأيضًا يردُّه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُومِنِينَ شُهُودٌ﴾ بالإضمار وإظهار المؤمنين، فإنَّ الضمير لا يرجع إلــى المؤمنين بل لِلْكُفَّارِ الذين هم



أصحاب الأخدود، ودعوى أنَّ الضمير عائد إلى الكُفَّار المعلومين من المقام وأنَّ أصحاب الأخدود هم المؤمنون **تَكَلُّفٌ بارد.**

وقول صاحب العقيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ أصحاب الأخدود من أهل الجنَّة، وإنَّهم المؤمنون المقتولون بالنار أخْذٌ من الآية لا تفسير لها[1].

وشهادة على ما يفعلون بالمؤمنين من الدعاءِ إلى الكفر وإلقاءِ مَنْ أَبَى في النار شهادةُ بعضٍ لبعضٍ عند الملك أنَّهم قد أنفذوا ما أمرهم به من إحراق من أبى الكفر، أو سيشهد بعض على بعض يوم القيامة بذلك الإحراق، أو يشهدون بذلك على أنفسهم بنطق جوارحهم به.

وقيل: «**عَلَى**» **بمعنى مـع، أي: هم مع ما يفعلون حضور لا ترقُّ قُلوبهم،** ويرُدُّه أنَّه لا يحتاج الكلام إلى ذكر حضورهم مع قوله: «يَفْعَلُونَ»، ولو قيل: أنا فعلت كذا مع حضوري لكان كلامًا فاسدًا، أو لم يستَحقَّ أن يستحضر مع كلام العقلاء. والمراد بالمؤمنين ما يشمل المؤمنات.

﴿**وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمُۥٓ**﴾ من المؤمنين، و«مِنْ» بمعنى على، أو للابتداء على حدِّ ما قالوا في: رأيته من ذلك الجبل، والرائي ليس في الجبل بل فيه المرئي، أي: تحصَّلَتْ لي رؤيته من الجبل، إذْ لو لم يكن فيه لم أره فيه، متعلِّقة بـ«نَقَمُوا»، أو متعلِّقة بمحذوف نعتا، أي: شيئًا ثابتا عنهم، أو بشيء ثابت منهم.

[لغة] يقال: نقمت عليه بشيء ونقمت عليه شـيئًا، أي: عبته عليه أو أنكرته عليه.

﴿**إِلَّآ أَنْ يُّومِنُواْ بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ إلَّا إيمانُهم الذي استقبلوه وأصرُّوا عليه وهم يُحرَقون.

---

(1) الشيخ عمرو بن جُمَيع: عقيدة العَزَّابَة، ص 26.

[نحو] وجملة «مَا نَقَمُواْ...» إلخ فِعْلِيَّة عطفت على الِاسـمِيَّة قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿هُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُومِنِينَ شُهُودٌ﴾ وهو جائز كثيرًا، ولا سيما أنَّ الفِعلِيَّة ماضويَّة والاسميَّة وقعت في حيِّز «إذْ»، لأنَّها عطفت على مدخول «إذ» الماضويَّة.

أو عطفت جملة «مَا نَقَمُواْ مِنْهُم» على مدخول «إِذْ»، وَكَأَنَّ الِاسمِيَّة فِعْلِيَّة ماضويَّة لوقوعها بعد «إِذْ»، وأجيز أن يقدَّر: وهم ما نقموا... إلخ، فيكون عطف اسْمِيَّة على اسْمِيَّة، وإنَّما لم يقل ﷻ: إلَّا أنْ آمنوا لأنَّ انتقامهم على استمرار المؤمنين على الإيمان، لا على الإيمان الماضي.

والانتقام هو الإنكار بالعقوبة، ولو كفروا لم يعذِّبوهم على الإيمان الماضي، وليست الآية من تأكيد المدح بما يشبه الذمَّ، لأنَّ الإيمان ليس حسنا عند الكُفَّار، كما أنَّ فلول السيوف من ضرب العداء بها مستحسن في قوله:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بِهِنَّ فلول مـن قراع الكتائب(1)

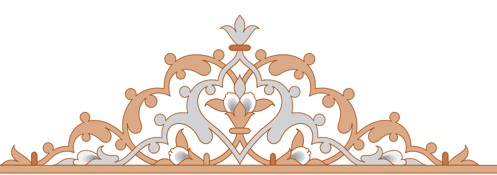
وكون الإيمان حسنا عند الله لا ينزل منزلة حسنة عندهم لو كان حسنا عندهم، والمراد: إلَّا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد وحده، ولـو آمنوا به وبمعبوداتهم لم ينكروا عليهم. ويحتمل أن يراد الانتقام على الإيمان بالله العزيز الحميد ولو آمنوا بغيره معه، والأوَّل أظهر.

[بلاغة] وذَكَرَ الله ﷻ عزَّته وحَمْدَه ومُلْكَه السـماوات والأرض ذمًّا لهم على اجترائهم على من هو غالب على كلِّ شيء يُخافُ عقابه، ومن يرجى ثوابه وإنعامه، ومن له ملك كلِّ شيء لا مالك معه كما قال:

﴿الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ ومدحا للمؤمنين بمعرفتهم عزَّته وحمده وملكه ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ﴾ وعيد لأصحاب الأخدود، ووعد بخير للمؤمنين، وشهادته تعالى علمه، وعلمه شامل له لصفات الجلال والجمال، فهو يجزي كلًّا بما يستحقُّه.

---

(1) البيت للنابغة وهو يمدح غسَّان. **المفضل الضبيِّ**: أمثال العرب، ص 170.



﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16)﴾

عقاب الكفَّار وثواب المؤمنين

﴿إِنَّ الذِينَ فَتَنُواْ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ﴾ ضَرُّوهم على الإيمان، وقهروهم على الكفر، وهذا على عمومه، ويشمل أصحاب الأخدود بالأولى، وهذا أولى من أن يراد أصحاب الأخدود.

وقيل: المراد كفَّار قريش الذين عذَّبوا من آمن برسول الله ﷺ، ورجَّحه بعض بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ لأنَّ أصحاب الأخدود مضوا لا تمكن توبتهم، وهو ظاهر في قوم تُمْكِنُ توبتهم.

وقد يجاب بأنَّ أصحاب الأخدود في زمانهم يستحقُّون أن يقال فيهم: إن لم تتوبوا فلكم عذاب جهنَّم... إلخ، قيل: وأيضًا لو أريد كُفَّار قريش لقيل: ولم يتوبوا ـ بالواو لا بـ«ثمَّ» ـ وهو باطل، ولا يقال في الردِّ: إنَّ في قريش من تاب فناسب أن لا تكون فيهم، لأنَّ الخصم يقول إنَّها فيمن لم يؤمن منهم.

والمراد: ثمَّ لم يتوبوا من كفرهم عمومًا، وفَتْنِهِم خصوصا، لأنَّه لو كان المراد من فَتْنِهِم لاستحقُّوا أن لا يعذَّبوا إن لم يفتنوا ولو كانوا مشركين، وقد

يقال: المراد أَنَّهم إن لم يفتنوا عذِّبوا عذابًا واحدًا، وإن ماتوا وهم فاتنون عذِّبوا عذابًا آخر أيضًا.

﴿**فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ**﴾ بالنار والزمهرير. والفاء في خبر «إِنَّ» لشبه اسمها باسم الشرط في العموم، فهي ترجِّح أنَّه ليس المراد خصوص كُفَّار الأخدود.

﴿**وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾ عذاب النار فقط، وهو عطف خاصٍّ على عامٍّ، أُخِّر الحريق للفاصلة.

ويجوز أن يكون المراد: لهم عذاب جهنَّم لكفرهم وعذاب آخر منها لفتنهم، أو عذاب جَهَنَّم لفتنهم، أو عذاب جهنَّم لِفَتْنِهم وعذاب آخر لعدم توبتهم. وقيل: عذاب واحد وُصِفَ بأنَّه في موضع بعيد، كما يقال للبئر البعيدة القعر: جَهَنَّم، وبأنَّه عذاب هو الحريق، والإضافة بيانيَّة.

وقيل ـ على ما مرَّ ـ: عذابان، عذاب جَهَنَّم في الآخرة، وعذاب نار الأخدود انقلبت إليهم، والمؤمنون [ماتوا] بريح من الله ﷻ، وهو بعيد كما مرَّ. ولو قيل: أحرقت النار المؤمنين كما هو ظاهر الآية والأخبار، وانقلبت إلى الكُفَّار فأحرقتهم أيضًا لكان قريبًا، لكن لا سبيل إلى القول بلا حجَّة.

﴿**إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ عمومًا، فدخل فيه من أحرقوا في الأخدود بالأولى ﴿**لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ**﴾ على حذف مضاف، أي: من تحت أشجارها، والجنَّة أرض الشجر مع الشجر، وإن أريد بالجنَّة الشجر فلا حذف.

﴿**ذَالِكَ**﴾ أي: ثبوت الجَنَّات لهم، وقيل: الإشارة إلى الجَنَّات، والإفراد والتذكير ـ إذ لم يقل: هؤلاء ـ لتأويل ما ذكر ﴿**الْفَوْزُ**﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: المفوز به، أو بولغ بأنَّ الجنَّات نفس الفوز. وإن جعلنا الإشارة إلى الحَوْزِ أو النَّيْل (مصدرُ نَالَ) فالفوز باقٍ على المَصدَرِيَّة بمعنى الظفر.

[قلت:] ومن خصائص الجنَّة أنَّ أهلها لا يكرهون من طعامها كلِّه شيئًا، ولا يملُّون منه شيئًا، وكذا شرابها وسائر نعمها[1]. ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي لا فوز إلَّا وهو دونه، وإن شئت فـ«ال» في الموضعين للكمال والإشارة البعديَّة على كلِّ حال للشرف والعلوِّ.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أخْذَه عَجَّلَ قومَك الكافرين بك يا محمَّد بالعقاب بطش شديد، والبطش: الأخذ بشدَّة، ووصفه بالإخبار عنه بأنَّه شديد، فقد تركَّبت شدَّته، يصيب قومك كما أصاب مَن قبلهم.

﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ الهاء لله تعالى أو للشأن، والأوَّلُ أولى. وقوله: ﴿هُوَ﴾ عائد إلى الله تعالى، و«يُبْدِئُ» يخلق، و«يُعِيدُ» يحيي الموتى.

أو يُبدئ كلَّ ما أراد، ويعيد ما أراد، لا حظَّ لأحد معه في ذلك، ومن كان كذلك يشتدُّ بطشه في الانتقام من العاصي.

أو يبدئ البطش بالكفرة في الدنيا، ويعيده في الآخرة، أو تأكلهم النار حَتَّى يصيروا فحمًا ثمَّ يعيدهم، وهكذا... وَعَلى كلِّ حال الجملة تعليل لشدَّة البطش يشتدُّ بطشه لأنَّه «هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ».

[لغة] ويقال: بدأه وأبدأه بمعنى واحد، وقرئ شاذًا بفتح الياء من الثلاثي، والرباعيُّ أنسب بـ«يُعِيدُ»، ولم يسمع بـ«يُبْدِئُ وَيُعِيدُ» إلَّا في الآية. أو لَمَّا كانت الإعادة للجزاء تضمَّنت البطش.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ للتائبين، لأنَّ المصرَّ معاند لا يتأهَّل للمغفرة، إنَّه لغفَّار لمن تاب، وكلٌّ من «غفور» و«غفَّار» صفة مبالغة. وكلُّ مَنْ غفر الله تعالى له من أكبر أهل المعاصي أو أدناهم في المعصية فالله غفور غفَّار في شأنه، ومغفرته كلُّها عظيمة كثيرة، ولو في أعظم الناس عبادةً وولايةً لله تعالى.

---

(1) راجع كتاب الجُنَّة في وصف الجَنَّة للشيخ، ومقابسات أبي حيَّان التوحيدي.

﴿**الْوَدُودُ**﴾ كثير الحبِّ أو عظيمه للمطيع، والمراد لازم الحبِّ وهو الإحسان والإنعام، وهو صفة مبالغة كـ«غفور» كما رأيت، وقيـــل: بمعنى مودود، يحبُّه عباده الصالحون لجلاله ولغفرانه وإحسانه.

وزعم بعض أنَّه بمعنى لا ولد له، وهو مذهب عقيم لا يلد، وكأنَّه لم يجر على ســـمعه قطُّ أنَّ الودَّ [هو] الحبُّ، ولا مناسبة له بـ«غفور»، وأنشد للودود بمعنى لا ولد له قائلٌ:

وأركـــب فـــي الــروع عريانــة ذَلول الجماح لقاحــا ودودا[1]

وفسَّره بأنَّه لا ولد لها تحنُّ إليه، وفيه أنَّ الشطر الثاني لا يعرف، وعلى صحته لعلَّ المراد أنَّ لها حنَّة إلى الولد إذا رأته، والصواب ما مرَّ.

[صرف] وكون «ودود» صفة مبالغة أولى من كونه بمعنى مودود، لأنَّ اسم الفاعل أصل لاسم مفعول، وصفة المبالغة من باب اسم الفاعل، ولأنَّه يناسب «غَفُور» وما قبل وما بعد في أنَّه من الله تعالى، بخلاف «مودود» فإنَّ الحبَّ فيه من غير الله تعالى له.

﴿**ذُو الْعَرْشِ**﴾ خالقه ومالكه وهو أعظم المخلوقات أوسع من الجنَّة، وقد مرَّ لك أنَّه لو مسحت الجنَّة بماء البحور كلِّها لم يعمَّها. ويروى عن عليِّ بن أبي طالب: لو جمعت مياه الدنيا ومسح بها سطح العرش الذي يلينا ما استوعب منه إلَّا قليلاً، وهو أحســـن ما خلق صفة وتركيبًا لم يخلق جسما أبهر منه وأجمل، ويليه الكرسيُّ.

---

(1) ويعرف البيت لامرئ القيس هكذا:

وأركــب فــي الــروع خيفانــة كســا وجههــا ســعف منتشــر

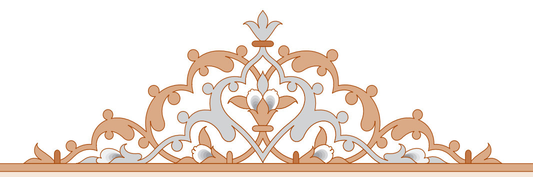
والبيت الأول أورده **المبرد** في الكامل ونسبه للقاضي إسماعيل بن إسحاق. ابن منظور: لسان العرب، ج 6، ص 286، مادة «س.ع.ف».

أو العرش: المُلْك بطريق الكناية. أو ذو العرش: المَلِكِ (بكسر اللام) لأنَّ العرش لا يكون إلَّا للمَلِك، ولأنَّ المَلِك لا يكون إلَّا ذا عرش.

﴿**الْمَجِيدُ**﴾ العظيم صفة وفعلاً ﴿**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ لا يتخلَّف ما أراده عن إرادته كائنا مَّا كان من أفعاله وأفعال عباده والتروك. و«ما» للعموم.

[أصول الدين] وَعِصْيان العاصي مرادٌ له لا يتخلَّف عن الوقوع. وزعم المعتزلة أنَّ عصيان العاصي وطاعة المطيع مرادان له ويتخلَّفان، وأخطؤوا، وإنَّما ذلك أمره ونهيه، يأمر بشــيء ولا يفعله المأمور، وينهى عن الشــيء ويفعله المنهيُّ، لا إرادته ومشيئته.

[نحو] وتلك الأسماء المرفوعات كلُّها أخبارٌ متعدِّدة، ولا دليل على تقدير المبتدآت، وأجيز أن يكون «الْوَدُودُ» نعتا واللام تقوية.



﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ٢٢﴾

كمال القدرة الإلهيَّة

﴿هَلَ اَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ خبر هلاكهم لكفرهم وتكذيبهم، فلقومك هلاك لكفرهم وتكذيبهم، فهذه تسلية لرسول الله ﷺ، وتهديد لمن كفر به، ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللهِ﴾ [سورة إبراهيم: 5].

[لغة] والجند يطلق على صنف من الخلق، تقول: الجراد جند من جنود الله، والريح جند له، ويطلق على كلِّ مجتمع، فيطلق على العسكر لاجتماعه للقتال، والجنود هنا الجماعات الذين تحزَّبوا على أنبياء الله تعالى بالتكذيب، ويطق على الأعوان وهم متعاونون على التكذيب.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أي: جنود فرعون، أو «فرعون» اسم على أتباعه وعليه، كما أنَّ ثمود عَلَم قبيلة وعَلَى من هو اسم له في الأصل.

[نحو] و«فِرْعَوْنَ» بدل كلٍّ من الجنود باعتبار ما عطف عليه، وزعم بعض أنَّ البدل المجموع، ولا وجه له في الصناعة وإن أراد المعنى صحَّ.

﴿بَلِ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ من قومك، أو على العموم ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ عَمَّا أفاده ما قبله من التهديد، أي: لا ينفعهم التهديد بمن قبلهم، فإنَّهم مكذِّبون بهذا التهديد.

وقيل: إضراب انتقال عن مماثلتهم لهم، وبيان أنَّهم أشـــدُّ مِمَّن قبلهم كما هو ظاهر من قوله: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ بدل «يكذِّبون» لأنَّ «فِي» تَدُلُّ على الرسوخ والمظروفيَّة للتكذيب، وكونهم مغمورين.

[قلت:] وفيه أنَّه لا نسلِّم أنَّ هؤلاء الكفرة أشدُّ كفرًا من فرعون وثمود، بل فرعون وثمود أشـدُّ فالتفسـير الأوَّل أصحُّ، اللهمَّ إلَّا أن يقال: إنَّ التكذيب بالقرآن الذي هو أفضل الكتب وأظهرها حجَّةً، وبأفضل الأنبياء الذي هو نبيء الأنبياء، ورســول إليهم، وكتابه قاض على كتبهم، أعْظَـمُ من التكذيب بما دونهما فهو أعظم، وإنَّ التكذيب بها تكذيب بهما وتكذيب بالأنبياء والكتب قبلهما لاشتمالهما على كلِّ ما قبلهما.

وقيل: المراد أنَّه ليست جنايتهم مجرَّد عدم التذكُّر والاتِّعاظ بما سمعوا من حديثهم، بل هم مع ذلك في تكذيب عظيم للقرآن الناطق بذلك، وبكونه قرآنًا من الله تعالى مع ظهور أمره.

﴿**وَاللَّهُ مِنْ وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ**﴾ لا يجدون مسلكًا إلى النجاة من العذاب، لا يعجزون الله تعالى ولا يفوتونه، وذلك اسـتعارة تمثيليَّة، أو شبَّهَ توجيه العذاب إليهم بحيث لا يتخلَّف بالإحاطة على شـيء بالبناء أو نحوه مِمَّا لا يطاق.

﴿**بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ**﴾ ما يجيئكم به محمَّد ﷺ من الآيات المتلوَّة، كلام يُقْرَأُ شريف عند الله تعالى على كتب الله ﷻ، لا يحقُّ أن يكذَّب.

[بلاغة] و«بَلْ» إبطال لتكذيبهم، أو إضراب وانتقال عن الإخبار بشدَّة كفرهم إلى وصف القرآن بأنَّه لا ريب فيه، وقيل: الإضراب الأوَّل عن قِصَّة فرعون وثمود إلى جميع الكُفَّار، أي: جميع الكُفَّار في تكذيبهم.

ولا نبيء إلَّا مكذَّب، ولا يهمل الله مكذِّبًا، فهذه تسلية له ﷺ، وتهديد لقومه، وعليه فإردَافُه بهذا الإضراب الأخير بمنزلة قوله: إنَّك صادق وكتابك حقٌّ، كُذِّب الأنبياء الأوَّلون أو لم يُكذَّبوا.

﴿فِي لَوْحٍ﴾ نعت آخر أو خبر آخـر، ولا بأس بتقديم النعت الظرفيِّ والجمليِّ على الإفراديِّ ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ من أن تصله الشـياطين. قيل: وهو لوح من درَّة بيضاء تحت العرش معقود بالعرش، وقيل: عن يمين العرش سـعته أكثر من السماوات، ويقال: طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب، ويقال: دفَّتاه ياقوتة حمراء، ويقال: قلمه نور. ويقال: أصله في حجر ملك يقال له: ساطريون[1].

ويقال: لله ﷻ كلَّ يوم ثلاثمائة وَسِتُّونَ لحظة، يحيي ويميت، ويعزُّ ويذلُّ، ويفعل ما يشـاء. ويُقال: «كُتِبَ في أوَّلِه: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، دينُه الإسلام، ومحمَّد عبده ورسوله»، فمن آمن بالله ﷻ وصدَّق بوعده واتَّبَعَ رسله أدخله الله الجَنَّة[1].

والله أعلم.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

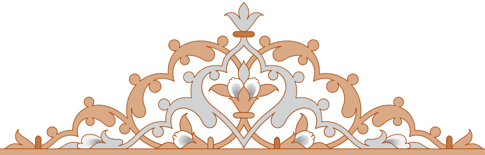


(1) كلُّ هذه الأقوال نقلها الشيخ عن سابقيه من المفسِّرين، لا سيما **الآلوسي** في روح المعاني، ج 30، ص 94. وليت شعري من أين لهم هذه المعلومات الغيبيَّة من دون وحي قطعي؟!. (المراجع).

86

تفسير سورة الطارق

مكّيّة وآياتها 17 ـ نزلت بعد سورة البلد



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿1﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿2﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿3﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿4﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿5﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿6﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿7﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿8﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿9﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿10﴾ ﴾

التأكيد على إثبات البعث بالقسم على مظاهر من القدرة

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ السماء الدنيا، أو جنس السماء، أو السماوات كلُّها، ويضعف ما قيل من أنَّ المراد هنا المطر، كقوله:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابًا[1]

أراد المطر، وَرَدَّ إليه الضمير على معنى النبات.

[لغة] ﴿وَالطَّارِقِ﴾ اسم فاعل طرقه، أي: ضربه بشدةٍ ضربًا يُسمع له صوت، ومنه المطرقة والطريق، لأنَّ الماشي يضربها بقدميه، أعني يمشي عليها

(1) البيت من الشواهد، ونسبه صاحب لسان العرب لمعاوية بن مالك، وللفرزدق في تاج العروس بلفظ «إذا سقط..». انظر: المعجم في شواهد اللغة، ج 1، ص 99.

مشيًا يشبه الضرب، فغلب الطارق على السالك فيها حتَّى صار حقيقة فيه، ثمَّ نقل إلى الآتي ليلاً، لأنَّه يجد الأبواب مغلقة فيطرقها، ثمَّ استعمل في كلِّ ما يأتي ليلاً ولو رؤيا أو خيالاً أو سحابًا أو نجما.

[نحو] ﴿**وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الطَّارِقُ**﴾ تقدَّم إعراب مثله، ولا بأس بذكر بَعْضٍ، فنقول: «مَا» الأولى مبتدأ، والثانية مبتدأ عند سيبويه، والصحيح أنَّها خبر، «الطَّارِقُ» معرفة فهو المبتدأ، ولأنَّ المعنى الطارق ما هو؟ لا أيُّ شيء يقال هو الطارق؟ وكلتاهما استفهاميَّة لتفخيم شأن الطارق، ولذلك لم يقل: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والنجمِ الثاقبِ، إن كلُّ نفس». وجملة «مَا الطَّارِقُ» سدَّت مسدَّ مفعولي «أَدْرَى» الثاني والثالث.

﴿**النَّجْمُ الثَّاقِبُ**﴾ أي: هو النجم الذي ينفذ ضوؤه الظلمة والأفلاك، وقال الفرَّاء: المرتفع، يقال: ثقب الطائر، أي: ارتفع، ولعلَّه لأنَّه نفذ الهواء، فعن الحسن: المراد النجوم، لأنَّها كلَّها مضيئة ومرتفعة. وعن ابن عبَّاس: الجدي. وقيل: **الثريَّا لشهرتها عند العرب باسم النجم**. وقيل: زحل، وهو أبعد السيَّارات لأنَّه في السابعة ويثقب الأفلاك كلَّها فهو الثاقب الكامل، والجدي والثريا أبعد منه، وليسا من السيَّارات بل من الثوابت، وهنَّ في الفلك الثامن[1].

وقال الفرَّاء: القمر لأنَّه أكمل ضوء في الليل، ولأنَّه آية الليل، ويردُّه أنَّه لا يعرف ذكره على حدة باسم النجم، ولو كان قد يدخل في عموم النجوم، وقيل: المعروف بكوكب الصبح. ويجوز عند بعض أن يراد بها الشُّهُب، وخرقها الظلمة أظهر، لأنَّه يرى مستطيلاً.

[سبب النزول] انحط نجم [يومًا] وأنار كثيرا فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ، وقد أتى إلى رسول الله ﷺ، فأتحفه رسول الله ﷺ بلبن وخبز: ما هذا؟ فقال: آية من آيات الله، فعجب أبو طالب، فنزل: ﴿وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ﴾.

(1) علم الفلك اليوم صحَّح كثيرًا من معتقدات السابقين.

ولا يلزم من هذا أن يكون الطارق هو الشـــهب لجواز أن يراد به في الآية مطلق ما يطرق ليلاً من المضيئات. وقولك: نَجَم بمعنى ظهر كثير مستعمل.

وقد زعم ابن عطيَّة وهو من علماء أندلس[1] أنَّ الطارق ما يطرق من الأمور والأجســـام، فيعمُّ النجم الثاقب، وزاد أنَّ «ال» للكمال في «مَا الطَّارِقُ»، أي: ما الطارق الكامل؟ وهو قول لا يقبله القلب الثاقب.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ جواب القسم وهو الظاهر، مناسب لقوله تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٌ﴾ [ســورة البروج: 22]، وقيل: الجواب قوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ ليكون أنسب بإنكارهم البعث الذي تضمَّنه القرآن المجيد الذي هم في تكذيبه.

[نحو] و«إِنْ» نافية و«لَمَا» حرف استثناء تختصُّ باستثناء الجمل التفريغي، أو اللام بمعنـــى إلَّا، و«مَا» زائدة، أو «إنَّ» مخفَّفــة. أو اللام للفرق بين النفي والإثبات، و«مَا» زائدة، وهو مذهب البصريِّين، ولا بدَّ من تقدُّم النفي لفظا أو تقديرا، أو تقدُّم القسم وما أشـبهه، نحو: أقسمت عليك لَمَا فعلت، أو عزمت عليك لَمَا فعلت أو سألتك لَمَا فعلت.

والحافظ الله ﷻ، والتنكير للتعظيم، أي: حافظ عظيم، لا يفوته شيء، كما عمَّ بـ«كُلُّ». والنكرة بعدها كافية في التعميـــم لتقدُّم النفي لو لم تذكر «كُلُّ»، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [سورة الأحزاب: 52].

وقيل: الحافظ الملك الذي يحفظ الأعمال، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [سورة الانفطار: 10ـ11]، والحفظ على النفس لا يَخْتَصُّ بعمل الشرِّ.

---

(1) تقدَّم التعريف به، انظر: ج 11، ص 267.

والمحافظة عليه أن لا يضيع عمله عن الكتابة، لا كما قال ابن سيرين وقتادة: إنَّ الآية في المكلَّفين، والصحيح أنَّ حسنات الصبيِّ تكتب، وذكروا أنَّ حسنات المشرك في شركه تقبل إذا أسلم. وقيل: «حَافِظٌ» دافع لشرِّ الشياطين، كما قال الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ اَمْرِ اللهِ...﴾ [سورة الرعد: 11].

روى أبو أمامة عن رسول الله ﷺ: «**وكِّل بالمؤمن مائة وَسِتُّونَ ملكا يمنعون عنه الشياطين، كما يمنع الذباب عن العسل، ولولاهم لخطفته الشياطين**»[1] والكافر كذلك، وخصَّ المؤمن بالذكر لمزيَّته، ولتذكيره بنعم الله ﷻ، وفي روايةٍ: «ابن آدم» بدل لفظ: «المؤمن».

و«عَلَيْهَا» خبر لـ«حَافِظٌ». والجملة خبر «كُلُّ». وقيل: الحافظ العقل يرشد صاحبه إلى ما هو خير، ولا يخفى بعده، لأنَّ المتبادر أنَّ الحافظ خارج عن الإنسان، لأنَّه قال: ﴿عَلَيْهَا﴾ والعقل داخل في الإنسان، والأصل في الرقيب على الشيء أن يكون خارجا عنه.

﴿**فَلْيَنظُرِ الِانسَانُ مِمَّ خُلِقَ**﴾ والفاء سَبَبِيَّة، أي: فليعرفْ ـ بسبب كون الله أو الملك حافظا ـ أصلَهُ ومرجعه ويستعدُّ له.

وعلى أنَّ الحافظ العقل فالمعنى: فلينظر ـ لِجَعْلِ العقل له ـ ممَّ خلق، فيؤمن بالبعث. وجملة «مِمَّ خُلِقَ» مفعول به، لـ«يَنظُر» معلَّقا عنها بما فيها من الاستفهام، والأصل: مم خلقه الله؟ وأضمر تفخيما، إذ لا يتوهَّم أنَّ غيره خالق، وكذا في ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾ أي: إنَّ الله.

﴿**خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ**﴾ هذا على صورة الجواب لقوله: ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾، وهذا أولى من أن يقدَّر استفهام، كأنَّه قيل: مم خلق؟ فقال: خلق من ماء دافق.

---

(1) أورده **الزبيدي** في الإتحاف، ج 7، ص 288. **والعراقي** في المغني، ج 3، ص 38. من حديث أبي أمامة.

والماء: النطفة، وأصله دم ينفصل وفيه بَقِيَّة حياة ثمَّ يموت[1]، ألا ترى أنَّه يتحرَّك للخروج، ويخرج مشتدًّا لا كخروج البول. وخروج البول كخروج ماء من أنبوبة الإبريق، وليست النطفة كذلك...

والدفق: الصبُّ بسرعة، وشهر أنَّ دافق بمعنى مدفوق، ويدلُّ له قراءة زيد بن عليٍّ بن أبي طالب: «مِن مَّاءٍ مَدْفُوقٍ» ولعلَّ ذلك منه قراءة تفسير لا قراءة تلاوة.

[صرف] وقال الخليل وسيبويه: هو للنسب، كـ«تَامِر» و«لَابِن»، أي: ماء صاحبِ دفقٍ له من غيره، أي: يدفقه الإنسان، أي: يجري منه، كما تقول: فلان ضارب بمعنى أنَّه ذو ضرب، أي: انتسَبَ له الضرب من غيره، ويبحث بأنَّ فاعلا بمعنى النسب يختصُّ بما ليس مفعولا كتامر ولابن، أي: ذي تمر وذي لبن مِمَّا لا فعل له، أو له فعل لازم.

[بلاغة] ويجوز أن يكون على ظاهره بمعنى فاعل على التجوُّز في الإسناد، أسند إليه الدفق لأنَّه لصاحبه، لعلاقة السَّبَبِيَّة والمسبَّبية، أو شُبِّه الماء بالإنسان ورمز إليه بلازمه وهو الدفق، ويجوز أن يشبَّه مزاحمة بعض الماء لبعض بالصبِّ، كأنَّه يصبُّ بعض بعضا، كما يقال: تدفَّق الوادي، أي: يركب ماؤه بعضه بعضا ويدفقه، فهو اسم فاعل متعدٍّ.

وقال الليث: «دافق» مِنْ دَفَقَ اللازم بمعنى مندفق، لا كما قيل: الدفق لماء الرجل خَاصَّةً، فهو اسم فاعل على ظاهره، إلَّا أنَّه لم يحفظ الناس دفق بمعنى اندفق.

والمراد بالماء الدافق جنسه، فشمل ماء الرجل وماء المرأة، لأنَّ ماءها أيضا يدفق إلى رحمها، وهما بالامتزاج ماء واحد. و«الإِنسَانُ» ـ غير عيسى عليه السلام ـ يخلق من ماءين ماء الرجل وماء المرأة.

(1) العلم الحديث صحَّح كثيرًا من معلومات السابقين، سواء هنا أو فيما سيأتي.

﴿**يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ الصُّلْبِ**﴾ بين أجزاء صلب الرجل، أي: ظهره ﴿**وَالتَّرَآئِبِ**﴾ بين أجزاء ترائب المرأة، أي: عظام صدرها، فهو من ماء الرجل وماء المرأة.

[لغة] والمفرد تريبة، والتريبة يطلق على مجموع عظام الصدر وعلى كلِّ عظم منها، وهو ظاهر الآيــة إذ جُمِع، ويحتمل الجمع اعتبــارا لتعدُّد المرأة، لكلِّ امرأة تريبة، أي: عظام الصدر، والمجموع لهنَّ ترائب.

و«الصلب» كالجمع، لأنَّ «ال» للجنس وأنت خبير أنَّ البينيَّة تمَّت في الصلب وتمَّت في الترائب، أي: بين جزء الصلب وجزئه الآخر، وبين جزء الترائب وجزئه الآخر، والذي يظهر أنَّ البينيَّة تمَّت بالصلب والترائب معا، أي: حصل من الصلب والترائب، كما تقول: يخرج من بين زيد وعمرو خَيْرٌ، أي: يحصل بهما.

أو ينزل الرجل والمرأة منزلة شخص واحد له صلب وترائب، ولا يختصُّ الترائب بالمرأة، بل عظام صدر الرجل أيضا ترائب، إلَّا أنَّ ماء المرأة من صدرها فهي أحنُّ على الولد، وماء الرجل من ظهره فهو دونها في الحنَّة.

وعن الحسن وقتادة: إنَّه يخرج من صلب الرجل والمرأة وترائبهما.

وعبارة بعض: الترائب ما بين الثديين، وقيل: ما بين المنكبين، وقيل: أربع أضلع يمين الصدر، وأربع يساره، وأعظم الأعضاء معونة في توليد المنيِّ الدماغ، وخليفته النخاع في الصلب وشعب نازلة إلى الصدر والنخاع والقوى الدماغيَّة والقلبيَّة والكبديَّة تتعاون في المنيِّ ألا ترى أنَّ الصلع يحصل لمن يكثر الجماع وذلك لتأثُّره في الدماغ[1]. فالترائب يشمل القلب والكبد، وشموله للقلب أظهر فلم ينبَّه عليهما لظهور فهم ذلك، أو لم يذكر الكبد لظهور أنَّها دم نضيج أقرب إلى الاستحالة نطفة، فنبَّه على ما ليس كذلك، وهو الصلب والترائب.

(1) ينبغي عرض هذه المعلومات على الطب الحديث.

أو الصلب والترائب كناية عن البدن كلِّه عبَّر بأحدهما عَمَّا أدبر كلِّه، وبالآخر عَمَّا أقبل كلِّه، ويجوز أن يراد صلب الرجل وترائبه لأنَّ أكثر الماء منه، وفيه أنَّ الحديث جاء بأنَّه قد يكون الغالب ماء المرأة فيشبهها الولد، وقد يقال: غلبة مائها قليل[1].

﴿إِنَّهُ﴾ إنَّ الله تعالى ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾ رجع الإنسان، أي: ردِّه حَيًّا يوم القيامة ﴿لَقَادِرٌ﴾ ظاهر القدرة بحجَّة الخلق الأوَّل من النطفة، فخلقه منه حجَّة لقدرة بعثه.

ومن العجيب تفسير بعضهم الرجع بردِّه إلى الضعف بالكبر، كما ضعف أوَّلا، وأعجب منه تفسيره بالردِّ إلى الشباب مع أنَّه لم يجر للكبر ذكر، وتفسيره بالردِّ من الكبر إلى الشباب ومن الشباب إلى الصبا ومن الصبا إلى النطفة وتفسيره بالردِّ إلى الإحليل أو الصلب!.

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾ متعلِّق بـ«رَجْعِ» أو بـ«قَادِرٌ» وليس حصرًا لقدرته باليوم المذكور، ولا يوهم الحصر، وإنَّما ذكر لأنَّه وقت الرجع.

[نحو] وكره كثير أن يعلَّق به خوف التوهُّم، ولا مانع من التعلُّق بالمصدر المفصول بأجنبيٍّ لتوسُّعهم في الظروف، ولا سيما أنَّه في نية التأخير، وإنَّما قدِّم للفاصلة وعلَّقه بعض بـ«يرجع» محذوفا، وعلى الرجع للإحليل أو للصلب أو للشباب أو للضعف ينصب على أنَّه مفعول به لـ«اذكر» [المقدَّر].

وابتلاء السرائر معاملتها بالإظهار وهي جمع سريرة، بمعنى مسرورة، أي: فعلة مسرورة وأفعال مسرورات، أفعال الجوارح وأفعال القلوب، أو يميِّز صالحها وفاسدها.

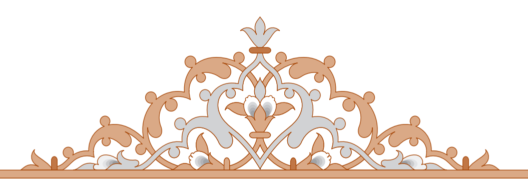
(1) لقد طرأ في إطار البحث العلمي في الطبِّ ما هو أقرب إلى الصواب مِمَّا ذكر. راجع كتاب «خلق الإنسان بين الطبِّ والقرآن» للدكتور محمَّد علي البارّ، ط. دار السعودية، ص 114 وما بعدها. باحمد بن محَمَّد ارفيس: مراحل الحمل بين الشريعة والطب المعاصر.

ويجوز أن يفسَّـر «السَّـرَائِرُ» بالقلوب، يقول المرء: صلَّيت ولم يصلِّ، وصمت ولم يصم، واغتسلت ولم يغتسل، فيوم القيامة يظهر الله تعالى ذلك، قال عبد الله بن عمر: «يبدي الله تعالى يوم القيامة كلَّ سرٍّ فيكون زينا في وجوه، وشينا في وجوه» يعني زينا في وجه من أدَّى الفرائض، وشينا في وجه من لم يؤدِّها أو نقص منها.

وأخرج البيهقيُّ في شـعب الإيمان عن أبي الدرداء: قال رسـول الله ﷺ: «**ضمَّن الله تعالى خلقه أربعا: الصلاة والزكاة وصوم رمضان وغسـل الجنابة، وهنَّ السرائر التي قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾**» وضمَّ إليها التوحيد، بل لا كلام فيه وإنَّما الأربع بعده، ولعلَّ المراد بالأربع في الحديث التمثيل. وتأتي المرأة يوم القيامة وفي صحيفتها صوم النفل وما صامته لكن رغبت فيه بقلبها ومنعها زوجها منه، وكذا كلُّ راغب يقصد عبادة منع منها.

﴿**فَمَا لَهُ**﴾ للإنسان ﴿**مِن قُوَّةٍ**﴾ يمتنع بها من الحشر إلى الموقف، أو من الحسـاب والجزاء ولا تقل يمتنع بها من الإحياء، لأنَّ الميِّت لعدم شعوره وانتصابه لشيء لا يقال فيه مثل ذلك.

﴿**وَلَا نَاصِرٍ**﴾ ينصره عالما بذلك الناصر، ولا غير عالم به، قاصدا إليه أو غير قاصد، ويصدق نصر الميِّت عَمَّا يكرهه لو كان حَيًّا مع أنَّه لا شعور له فيصدق هنا أنَّه لا ينصره ناصر بمنع إحيائه.



﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾

القَسَم على صدق الرسالة، وتهديد الكائدين لهما

﴿**وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ**﴾ المطر سمِّي بالمصدر، وأصله مصدر «رجع» المتعدِّي، وقد يكون للَّازم على غير قياس، سُمِّيَ بالرَّجع لأنَّ الله تعالى يرجعه حينا فحينا، أو لأنَّه يرجع بالرزق كلَّ عام، أو تفاؤلا بالعود، أو لأنَّ السحاب يحمله من بحار الأرض ثمَّ يرجعه إلى الأرض وهو صحيح، لكن ليس كلُّ مطر كذلك.

والذي يرجعه منها الله تعالى، وإسناد الرجع إلى السماء في الآية مجاز، لكن يجوز أن يقال: ذات رجع الله تعالى، كما مرَّ في «دَافِقٍ» أنَّه بمعنى ذي دفق الإنسان. والمراد بالسماء السماء الدنيا لَمَّا كان من جهتها نسب إليها الرجع.

وعن ابن عباس: السماء: السحاب، والرجع: المطر. وقيل: السماء سماء الدنيا والرجع رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حال، ومن منزلة إلى منزلة، وقيل: رجوعها نفسها في كلِّ دورة إلى الموضع الذي تتحرَّك منه، على أنَّ السماء والفلك واحد، وأنَّها تتحرَّك فيكون مرتفعها منخفضًا، ومنخفضها مرتفعا. وعلى القولين «الرجع» مِنْ «رَجَعَ» اللازم، أو يراد ذات رجع الله تعالى، والحقُّ أنَّ السماء لا تتحرَّك وأنَّها غير الفلك.

وقيــل: «الرجع»: الملائكة، لأنَّهــم يرجعون بأعمال العباد إلى الســماء، ترجعهم الســماء مجازًا، ويرجعهم الله، أو يرجعون أنفسهم إليها، أو يرجعون إليها، أو ذات رجع الله تعالى إياهم، أو ذات رجْعِهِم أنفسَهم، أو ذات رجوعهم.

﴿**وَالْاَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ**﴾ أي: ذات انشقاقها بالنبات، من الصدع اللازم، أو ذات شقِّ الله إيَّاها بالنبات من الصدع المتعدِّي. أو الصدع بمعنى النبات مجازا تسمية بالمصدر، أو مصدر بمعنى مفعول، أي: ذات مصدوع به، وهو النبات.

وقيل: تشقُّقها بالعيون، واعترض بأنَّ وصف السماء والأرض عند الإقسام بهما على كون القرآن حقًّا ناطقًا بالبعث بالرجع، والصدع إنَّما هو للإيماء إلى أنَّهما في أنفسهما من شــواهده، وهو حكمة التعبير عن المطر بالرجع، وذلك في تشقُّق الأرض بالنبات المشابه للبعث لا في تشقُّقها بالعيون.

ويبحث بهذا في قول مجاهد: الصدع ما في الأرض من الانشقاق وأودية وخنادق، وتشقَّق بحرث وبالمشي عليها، ويبحث بذلك في القول قبل هذا. وقيل: الصدع الموتى تنشقُّ عنهم الأرض.

﴿**إِنَّهُ**﴾ أي: القرآن الشامل لمبدإ الإنســان ومعاده، وقيل: الهاء عائدة إلى ما تقدَّم من الإخبــار بالقدرة على إحياء الموتى، والأوَّل أولى لشــموله ذلك وزيادة، فيدخل ذلك بالأولى، ووجه الثاني أنَّ ردَّ الضمير إلى مخصوص تامٍّ قريبٍ أشدُّ استحضارًا لمضمونه من استحضاره من كلام عامٍّ، وهو القرآن.

﴿**لَقَوْلٌ فَصْلٌ**﴾ فاصل جدًّا بين الحقِّ والباطل، حتَّى كأنَّه نفس الفصل، وقيل: قول مقطوع به لحســنه وصوابه، وفيه أنَّ هذا يغنــي عنه قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ**﴾ كلام باطل لا فائدة فيه، معصية أو غير معصية.

قال ﷺ: «**ستكون فتنة**» قيل: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كتاب الله، فيه نبأ مــن قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكــم، هو الفصل وليس**

بالهزل، من تركه من جَبَّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ فيه الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس فيه الألسن، ولا يخلق من الردِّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجنُّ لَمَّا سمعته عن أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [سورة الجن: 1 ـ 2]**، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن هدى به هدي إلى صراط مستقيم»**[1].

﴿**إِنَّهُمْ**﴾ أي: كُفَّار مَكَّة ﴿**يَكِيدُونَ كَيْدًا**﴾ عظيما، أي: يحتالون في إطفاء نور الله تعالى، وهو القرآن وشريعته بكلِّ ما أمكنهم، كقولهم: أساطير الأوَّلين، وسحر، وجنون، وإنَّه يعلِّمه بشر، وردِّ الناس عن الإيمان وإيذائهم عليه.

﴿**وَأَكِيدُ كَيْدًا**﴾ أجازيهم على كيدهم، وذكر الجزاء بهذا اللَّفظ للمشاكلة، وفيه أيضًا استعارة تمثيليَّة وذلك كقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة القلم: 44]، أو المراد نقابلهم بمضادة مرادهم وهي: إعلاء القرآن والشريعة من حيث لا يعلمون، أو المراد قتلهم يوم بدر، **وعلى كلِّ حال كيد الله متين لا يطاق.**

ولم يعطف «إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ» لأنَّه مستأنف في مقابلة كيدهم، قد قيل: إنَّه في جواب قول القائل إذا كان حال القرآن ما ذكر فما حال هؤلاء الذين يقولون فيه ما يقولون؟ ولئلَّا يتوهَّم عطفها على جواب القسم مع أنَّها غير مقسم عليها.

﴿**فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ**﴾ لا تستعجل عليهم بالانتقام أو الدعاء بالهلاك، فإنَّه لا بدَّ لهم من الهلاك فانتظره غير مستعجل به، وهذا تسلية له ﷺ، وتهديد لهم، والأصل: «فمهِّلهم»، وأظهر ليصفهم بالكفر الجامع للخبائث، وللإشعار بالوعيد.

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، رقم: 2906. من حديث عليٍّ. بإسناد مجهول. وقال بعض الْمُحَقِّقِينَ: هذا أثر لعبد الله بن المبارك وليس حديثا.

﴿**أَمْهِلْهُمْ**﴾ توكيد لـ«مَهِّلِ الْكَافِرِينَ» لفظيٌّ، على أنَّ قوله: ﴿**رُوَيْدًا**﴾ كلام مع محذوف مستأنف، أي: أَرْوِدْهم إروادًا، أو هو مفعول مطلق، أو اسم فعل بمعنى أمهل.

[نحو] وإن جعل نعتا لمصدر محذوف عامله «أَمْهِلْهُمْ» المذكور كان «أَمْهِلْهُمْ» توكيدا معنويًّا، لتقييده بـ«رُوَيْدًا» بمعنى قريبًا، أو بمعنى قليلاً، أو بمعنى مرودا، على أنَّه حال في هذا الأخير فقد قيل: إنَّه مصدر أرود صُغِّر تصغير ترخيمٍ باق على معنى المصدر، أو بمعنى اسم الفاعل.

ويوم بدر قريب، ويوم الموت قريب، ويوم القيامة قريب، وعذاب الدنيا قليل، والمعذَّبون في الدنيا قليل، وإنَّما يعمُّهم عذاب الآخرة.

والله أعلم.

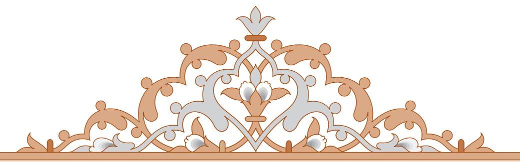
وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



87

تفسير سورة الأعلى سبحانه وتعالى

مكِّـيَّة وآياتها 19 ـ نزلت بعد سورة التكوير



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (8) ﴾

بعض صور قدرة الله تعالى، وبشارة النبيء ﷺ بتحفيظه القرآن

[سيرة] روى الترمذيُّ والنسائيُّ عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «كان النبيء ﷺ يقرأ في الوتر بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْاَعْلَى﴾، و﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ في ركعة الوتر»، وَرَوَيَاهما وأبو داود عن عبد العزيز بن جريج: سألنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: بِأَيِّ شيء من القرآن كان يوتر رسول الله ﷺ؟ قالت: «كان يقرأ في الأولى بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْاَعْلَى﴾، وفي الثانية بـ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وفي الثالثة بـ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين».

﴿**سَبِّحِ اِسْمَ رَبِّكَ الْاَعْلَى**﴾ نَزِّهْ أسماء ربِّك الأعلى، الإضافة للاستغراق، نَزِّه أسماءه كلَّها التي اخْتَصَّ بها عن أن تُسمِّي بها غيره كلفظ الجلالة ولفظ الرحمن، وأن تذكرها حين الاستنجاء بالحجارة أو بالماء أو في الخلاء أو عند كشف العورة، وأن تفسِّرها بما لا يجوز كتفسير الرحمن بما يتضمَّن رقَّة القلب، وككثرة

الحلف بها، ولا يجوز أن تكتب في شـيء نجس أو بشـيء نجس. قيل: وأن تذكرها وقلبك غير حاضر، وأن تكتب بريق. وكما يُنَزَّهُ الله تعالى تُنَزَّهُ أسماؤه.

وَلَمَّا نزل ﴿فَسَبِّح بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [سورة الحاقَّة: 52]، قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم، ولمَّا نزل ﴿سَبِّحِ اِسْمَ رَبِّكَ الاَعْلَىٰ﴾ قال: اِجعلوها في سُجودكم**»[1] رواه أبو داود عن عقبة بن عامر.

[فقه] وكان ﷺ إذا قرأ قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اِسْمَ رَبِّكَ الاَعْلَى﴾ قال: «سبحان رَبِّي الأعلى»، وكان عليُّ بن أبي طالب إذا قرأه في الصلاة قال: «سبحان رَبِّي الأعلى» فقيل: أتزيد في الصلاة؟ قال: أُمرتُ بشيء ففعلتُه، ولعلَّ ذلك في صلاة النفل، لكن في الفروع جواز زيادة الذكر في النفل ومنعُه، قولان، والثالث جوازه في النفل والفرض، وذلك على حدِّ ما فعله ﷺ والإمام عليٌّ.

[قلت:] وفي الحديث المذكور وكلام عليٍّ الأمر بأداء ما أُمر بقوله مثل: أن تقول يوما في غير الصلاة «هُوَ اللهُ أَحَدٌ...» إلخ و«أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ...» إلخ و«أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...» إلخ ونحو ذلك مِمَّا يتَّجه أن نقوله، لا ما لا يتَّجه أن نقوله مثل: «أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّه اسْتَمَعَ...» إلخ.

[قلت:] وأمرنا أن ننزِّه أسماء الله تعالى لكن لا نقول: سبحان اسم رَبِّي الأعلى، ولا نقول: سبحان اسم الله، وما أشبه ذلك.

[قلت:] وإذا كان الإمام يطيل القيام قبل الإحرام فللمأموم إذا وجَّه أن يكرِّر، «سبحان الله» أو «سبحان رَبِّي الأعلى»، أو «الله أكبر»، فإذا كبَّر الإمام للإحرام كبَّر عقبه.

---

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم 736. ورواه **ابن ماجه** في كتاب إقامة الصلاة والسنن فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم 877. من حديث عقبة بن عامر.

وكان رسول الله ﷺ يحبُّ هذه السورة وَيُسَمِّيها أفضل المسبِّحات، وعن عائشة رضي الله عنها: «كان النبيء ﷺ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى: ﴿سَبِّح﴾، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ والمعوّذتين»[1] وعن النعمان بن بشير: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين ويوم الجمعة ﴿سَبِّحِ اِسْمَ رَبِّكَ الَاعْلَى﴾، و﴿هَلَ اَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا». وعن عبد الله بن الحارث: «آخر صلاة صلّاها رسول الله ﷺ المغرب فقرأ في الركعة الأولى: ﴿سَبِّحِ اِسْمَ رَبِّكَ الَاعْلَى﴾، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾».

و«الَاعْلَى» صفة لـ«رَبِّكَ» ولا دليل على أنَّه نعت لـ«اِسْمَ»، ولو جاز في الحكم. وعلى كلِّ حال المراد علوُّ الشأن، إذا كان نعتا لله تعالى فالمراد ذلك والقدرةُ والغلبةُ. وعن ابن عبَّاس: «صلِّ باسم ربِّك».

[قلت:] وَمِمَّا يناسب الآية ما ذكره في السؤالات[2]، من أنَّه: إذا أردت ذكر الصواب وغير ما هو الصواب فاذكرْ ما هو صواب من نفي أو إثبات، ثمَّ اذكرْ غيره بنسبته إلى قائله بتعيين، أو بغير تعيين، مثل: أن تقول: لا تَصِحُّ الرؤية عندنا وأثبتها الأَشعَرِيَّة، والقرآن مخلوق عندنا، وقال الأشعريُّ بقدمه، وصفاته تعالى هو وقال الأشعريُّ: غيره. ولا تقتصرْ على ذكر ما للاشعري وتنسبه إليه، لأنَّ ذلك لا يكفي لأنَّه لاحصر في ذلك.

---

(1) رواه **الترمذيُّ** في كتاب الصلاة (340) باب ما جاء فيما يقرأ به في الوتر، رقم 463. و**البيهقيُّ** في كتاب الصلاة (650) باب ما يقرأ في الوتر بعد الفاتحة، رقم 4851 من حديث عائشة.

(2) صاحب كتاب السؤالات هو أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي من وادي سوف، ولد قبل سنة 471هـ، وهو كثير الرواية عن أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني صاحب كتاب السيرة وأخبار الأَئِمَّة، وكذلك عن أبي العَبَّاس أحمد بن محمَّد بن بكر. رحل إلى وارجلان وإلى بلاد الجريد وإلى طرابلس. وكتاب السؤالات كتاب جامع لقضايا أصوليَّة ولغويَّة وتاريخيَّة خَاصَّةً في سير الإِبَاضِيَّة، يقوم بتحقيقه حاليا بعض الأساتذة. انظر: فرحات **الجعبيري**: البعد الحضاري، ص 118.

[أصول الفقه] وذكرُ الاســم ذكرٌ للَّقب. ولا مفهوم للَّقب على الصحيح المشهور، إذا قلت: جاء زيد لم يفد أن غيره لم يجئ، وإذا قيل: لا يُجالس وَرِعٌ في البلد فسالبة تصدق بنفي الموضوع بأنَّه لا ورع فيه فضلاً عن أن يُجالس.

﴿**الذِي خَلَقَ**﴾ كلَّ شيء، من الأجسام والأفعال وسائر الأعراض.

[نحو] وهذا مِمَّا يقــوي أنَّ «الَاعْلَــى» نعت لـ«رَبِّكَ»، فإنَّ الاســم لا يَتَّصِفُ بأنَّه خالق، ولا يجوز: رأيت غلام هند العاقل الحَسَــنةِ، بنصب عاقل نعتا لغلام وجرَّ الحسنة نعتا لهند، فلو جعل «الَاعْلَى» نعتا لـ«اِسْمَ» كان مثل هذا. والأصل في النعــت أن يكون نعتا لما يليــه، وفيه ردُّ الضمير لأقرب مذكور إلَّا لأمر مُرجِّح أو مُوجب أن يكون نعتا لما قبله.

[أصول الدين] وحذف مفعــول «خلق» للعموم. والله خلق كلَّ شــيء، وأخطأت المعتزلة في دعوى أنَّ الفاعل خالق لفعله، وما يغني عنهم قولهم: إنَّ الله تعالى أقدر الفاعل على خلق فعله، وهو شبيه بقول النصارى: إنَّ الله حاشاه أعطى عيسى بعض الأُلُوهِيَّة، أو أعطاه إيَّاه كلَّها ثمَّ استردَّها.

﴿**فَسَوَّىٰ**﴾ كلَّ ما خَلَقَ على ما اقتضَتْهُ الحكمةُ ذاتًا وصفةً، أو جَعَلَ الأشياء سواءً في الحِكَمِ والإتقان.

وعن الكلبيِّ: خلق كلَّ ذي روح فسوَّى بين يديه وعينيه وأذنيه ورجليه، وهكذا... وعن الزجَّاج: خلق الإنســان فعدَّل قامتَه ولم يجعله منكوسًــا كالبهائم، ولعلَّهما أرادَا التمثيل فإنَّه خلق كلَّ شيء وَسَوَّاهُ، والفعل مُسَوًّى كغيره.

﴿**وَالذِي قَدَّرَ**﴾ جعل لِكُلِّ شــيء قدرًا في ذَاتِهِ وصفتِه وفعله وأَجَله وكلِّ ما لَهُ، وجعل رزقًا لمن يأكلُ، وجعل ذكورة وأنوثة.

﴿فَهَدَىٰ﴾ كلَّ واحدٍ إلــى ما يصلح له طبعًا واختيــارًا، وطلبِ الأرزاق، ويسَّرهُ لِمَا خلق له، ونَصَبَ له الدلائل، وألْهمه مَصالِحَه، ومن ذلك رضاع الولد ثِدْي أُمِّه، ومعرفة الذكر من كلِّ نوع كيــف يأتي الأنثى، والجنين كيف يخرج بعدَ ما قدَّر له في البطن تسعة أشــهر أو أقلَّ أو أكثر، والإنسان كيف يستخرج المنافع مِمَّا قدَّرها الله فيه، ونسب لعليٍّ قوله:

دواؤك فيــك ومــا تشــعر ... وداؤك منــك ومــا تبصــر

وتزعــم أنَّــك جــرم صغيــر ... وفيك انطــوى العالَــم الأكبر

وقيل: قدَّر السعادة لأقوام والشقاوة لأقوام، وهَدَى كلَّ فريق إلى ما يعمل على الاختيار لا الجبر. وقيل: قدَّر الخير والشرَّ وهدى إليهما وقدَّر بعضًا فهدى وأضلَّ آخر، على أنَّ الهداية هداية توفيق، أو «هدى» بيَّن الهُدى، و«أضلَّ» بيَّن الضلال. ﴿وَالذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ ما تأكله الدوابُّ والطير من النبات.

[لغة] ﴿فَجَعَلَهُ غُثَـآءً﴾ يابسًا شبيهًا بما يلقيه السيلُ على جانب الوادي من حشيش ونبات. قيل: وأصل الغثاء ما اجتمع من أجناس، والعرب تسمِّي الناس المجتمعين من قبائل شــتَّى غُثاءً، ولا دليل على ذلك، ولعلَّهم سمَّوْهم غثاءً تشبيهًا بغثاء السيل. ﴿اَحْوَىٰ﴾ شديد الحُمرة يميل إلى السواد، وقيل: أسْوَدَ.

[نحو] وهو نعــت «غُثَاءً». وأجاز بعض أنَّه حال مــن «الْمَرْعَى»، على أن يكون بمعنى شديد الخضرة حتَّى مال إلى السواد، ويردُّه أنَّه ليس المرعى من أوَّل أمره أسْــود ولا كلُّه بعد ذلك، ولا خُضرتُه تشبه السواد بخلافه بعد كونه يابسًا فقد يَسْودُّ. و[يردُّه أيضا] أنَّ الأصل عدم الفصل بين الحال وصاحبها، ولو كان الفاصل هنا ليس أجنبيًّــا مَحْضًا، لأنَّ الجعل غثاء يعاقب الإخراج لأوانه، وهو أوانٌ مخصوصٌ يتمُّ فيعْقُبُه الجعلُ غُثاءً، والترتيب في كلِّ شــيء بحسبه، كما قال ابن هشام. أو يقدَّر: ومضت مُدَّة فجعله غثاء أحوى.

وذكر بعض الهداية المذكورة بقوله تعالى: ﴿**سَنُقْرِئُكَ**﴾ القرآنَ ﴿**فَلَا تَنسَىٰٓ**﴾ لا تَنْســاهُ، فإنَّ إقراءهُ القرآن هدايةٌ له ولأمَّته. والسين للتأكيد والمضارع للحال المستمرَّة قبلُ وبعدُ أو للاستقبال، بمعنى: نقرئُك بعد ما لم نقرئك قبل.

والمقرئ له ﷺ جبريل ﵇، ولكن أســند إلى الله تعالى لأنَّه أمَرَ جبريل بالإقراء، وفيه تلويح إلى قوَّة قراءته إذ كانت بإقراء الله فلا يتعقَّبها نِسْيانٌ، مع أنَّه أمِّيٌّ لا يقــرأ كتابةً، فيكون قُــوَّةُ حفظه معجزةً أخــرى وراء معجزة بلاغة القرآن، ومعجزة إخباره بالغيوب.

وعن جعفر الصادق: «كان ﷺ يقرأ الكتابة ولا يكتب»، وهو خلاف الصحيح المشهور من أنَّه لا يكتب ولا يقرأ كتابةً، ثمَّ إن فسَّر الآية بأنَّه يقرأ كتابة بمعنى: سنجعلك تقرأ الكتابة نافاه [أي عارضه] التفريع بالفاء.

وقيل: لا تنسى العمل به، ويجوز أن يراد النهي واللفظ خبر، والحكمة في هذا أنَّه يؤثِّر فيه النهيُ حتَّى إنَّه أثَّر فيه حال النهي، فيكون النسيان الترك للَّفظ أو للعمل أو لهما، لأنَّ النسيان بمعنى الزوال عن الحافظة ضروريٌّ، فلا يُنهى عنه، اللَّهمَّ إلَّا باعتبار أسبابه فيكون النهي عنها.

[قلت:] ومن أراد أن لا ينسى العلم فلْيعمل به، والمعصية من أسباب النسيان [قال الشافعي:]

شكوت إلى وكيع سوءَ حفظي فأرشــدني إلى تركي المعاصي
فقــال: اعْلم بــأنَّ العلــم نورٌ ونــور الله لا يُعطــى لعاصــي

وعن ابن عبَّاس: خمسٌ يورثن النسيان: أكل التفَّاح ـ يعني الحامض وكذا كلُّ حامض ـ والبول في الماء الراكــد، والحجامة في نقرة القفا، وإلقاء القملة في الأرض، وشربُ سؤر الفأر وأكله، وزيد: قراءة ما كُتب على القبور، وأكل الكَزْبرة، والمشي بين الجملين المقطورين، والمشي بين المرأتين[1].

(1) الله أعلم بصحَّة الرواية. وبعض ما ذُكر ينبغي عرضه على حقائق العلم الحديث.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لا تنسى شيئًا من الأشياء إلَّا ما شاء الله أن تنساه، أو في وقت مَّا إلَّا وقت مشيئة الله تعالى لأنْ تنسى، وذلك بأن ينسخه ويُذْهبه عن حافظتك فلا يبقى حُكْمُه ولا تلاوتُه، أو يبقى حكمه في آية أخرى قبل المنسوخ، أو توحى بعده. وأمَّا النسيان بعد التبليغ أو قبله إجبارًا من الله تعالى بلا كسل منه ﷺ فلا مانع منه، لأنَّ لله أن يفعل ما يشاء، ثمَّ يذكره بعدُ، وكأنَّه قيل له: إلَّا ما شاء الله ثمَّ تَذكُره بعد.

[سبب النزول] وكان يتعجَّل قراءته قبل فراغ جبريل فنزلت الآية لذلك: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [سورة طه: 114]، ولا يخفى أنَّ ما شاء نسيانه هو القليل.

وفي البخاري أنَّه أسقط آية في صلاة الفجر، وقال أُبيٌّ: هل نسخت؟ فقال: «**لا ولكن نسيتُها**». وفي البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: سمع رسول الله ﷺ رجلا يقرأ في ركعة بالليل، فقال: «**يرحمه الله تعالى لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أُنسِيتُهَا من سورة كذا**»، وفي رواية: «**كنت أسقطتهنَّ من سورة كذا**»[1] ولا يقرُّه الله تعالى على النسيان.

وقيل: المراد بالاستثناء القلَّة المعبَّر بها عن النفي البتَّة، كما قال الفرَّاء: ما شاء الله تعالى أن ينسى النبيء ﷺ شيئًا، إلَّا أنَّ المراد لوْ شاء الله تعالى لصار ناسيًا. ومنعه الإمام أبو حيَّان، لأنَّ مثل هذا يكون مع أداة الشرط مثل: ﴿لَئِنَ اَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر: 65]، ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [سورة الإسراء: 86].

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الشهادات، باب شهادة الأعمى وأمره ونكاحه وإنكاحه ومبايعته، رقم 2421. ورواه **مسلم** في كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهُّد القرآن... رقم 1311. من حديث عائشة.

وقد مرَّ تعليق «سَـنُقْرِئُكَ» بقوله: ﴿فَهَدَى﴾، وعلَّقه أبو حيان بـ«سَـبِّح» وذلك بِأَنَّهُ لَمَّا كان التسبيح لا يتِمُّ إلَّا بقراءة القرآن. وكان يخاف النسيان حَتَّى قيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَـانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ونحو هذا أزال اللهُ عنه ذلك بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾.

[قلت:] ومثل هذا جائز لا يُبحث فيه بأنَّه لم يَجْرِ له ذِكْرٌ في اللفظ، ثمَّ إنَّـه لا مانع أن يريـد: إنَّ قوله تعالى: ﴿سَـنُقْرِئُكَ...﴾ إلـخ تعليل جُمليٌّ لقوله ﷻ: ﴿سَبِّح﴾، كما أنَّه علَّل ﴿سَنُقْرِئُكَ...﴾ إلخ بقوله تعالى:

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ ما ظهر من قول وفعل، بدليل أنَّه قابَله بما يخْفى من قول أو فعل، ففي الجهر مجاز مرسـل لعلاقة الإطـلاق والتقييد، فإنَّ الجهر موضوع لإظهار القول.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ يَعْلَمُ ما ظَهَر لَكُم وما بطن عنكم من الأمور التي منها حِرْصُك على حِفظِ الوحي، وليس الأمر إليك بل إلينا فننسيك ما شئنا لمصلحة.

وفي ذلك أيضًا تأكيد لما قبلُ وما بعدُ. والعموم المذكور أوْلَى من تفسير بعضهـم «الْجَهْرَ» بجهـره ﷺ بالقراءة مع جبريل خَوْفَ النسـيان، وتفسـير «مَا يَخْفَى» بما دعاه إلى الجهر من مخافة النسيان.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْـرَىٰ﴾ عطف على «سَنُقْرِئُكَ»، وكلاهما تَكَلُّم، ولا يعطف على «يَعْلَمُ»، لأنَّه خبر عن ضمير الغيبة عائد إلـى الله، ولو عطف عليه لكان كقولك: إنَّ الله سنيسِّرك، وهو لا يجوز، إلَّا أنَّه يغتفر في الثواني ما لا يغتفر في الأوائـل، والأصل ترك ذلك، نعم إن جعلنا الهاء للشـأن صـحَّ العطف على «يَعْلَمُ»، إلَّا أنَّ المتبادر أنَّها لله ﷻ، والوجه ما ذكرتُه أوَّلاً.

وإنَّما قال: «نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ» ولم يقل: نيسِّر اليسرى لك مع أنَّ الأصل تعليق التيسير بالأمور المسخَّرة للذوات لا تسخير الذوات للأمور، لِلإشارة

إلى معنى قولك: نجعلك رَاسِخًا في اليســـرى كأنَّك مَالِكٌ لها، ضابطًا لَهَا كأنَّها طَبِيعَةٌ لك.

و«الْيُسْرَى» الطَّريقة اليُسرى السَّهْلَةُ تَعَلُّمًا من جبريل عليه السلام، وتعليمًا لغيرك، وإهداءً وهدايةً، وإحاطةً بأمر الدين. وقيل: «الْيُسْرَى» الشريعةُ السَّهلةُ الخالية عن الشـــدائد التي كُلِّفَتْ بِها الأُمَمُ قبْلَكَ، وقيل: الأمور المرغوب فيها، مثل النصر، وعُلُوِّ المرتبة، والرِّفعةِ في الجنَّةِ وأمْر الدِّين.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

الأمر بالتذكير ومُوَافَقَةُ الشريعة لما في الصحف الأولى

﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: النَّاسَ، أي: دُمْ على التَّذكِير بما تيَسَّرَ لَك[1] من أَمرِ الدِّين بعد ما استقام لك الأمْرُ، وقد قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [سورة الغاشية: 21].

﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ أي: لا يخْفَى أنَّها نَفَعَتْ في بعضٍ، وكأنَّه قيل: إنْ رَأيت الذِّكْرَى نفعت فدُم على التذكير، فيقول: رأيتُها نفعت في بعضٍ فلزمه الدوامُ عليها. أو استعمل النفع في إمكانِه مجازًا بحسب نَظَرِهِ، وإذا أيِسَ من أحد بحسب الظاهر ـ والعلم عند الله تعالى ـ لَمْ يَلْزَمْهُ.

أو ذَكِّرِ الناسَ إن نفعــت الذكرى، تحقيقًا أو رجــاءً وطمعًا في النفع، أو المعنى: إِنْ رَجَوْتَ النفع، فَمن كَان لا يزيده التَّذكيرُ إلَّا كُفْرًا لم يلزمه تَذْكِيرُهُ.

أو لا يجوز تذكيره لأنَّه يُوَدِّي إلى تجديد كفــره، قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [سورة النجم: 29]، فَمن عيَّنه الله تعالى بأنَّه مطبوع على قلبه لا يتعرَّضُ له بالتَّذكير، وذلك بعد ما بالغ في التذكير ولم يترك في قوسِ التَّذكير

(1) في نسخة ج: «بما نيسِّر لك».

مَنْزَعًا، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَّخَافُ وَعِيدِي﴾ [سورة ق: 45]، وتذكير خائف الوعيد ليزداد إيمانًا وحذَرًا. وقيل: التقدير: إنْ نفعت الذِّكرى أوْ لم تنفع.

﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ بتذكيرك ﴿مَنْ يَّخْشَىٰ﴾ من يخشى الله حَقَّ الخشية، فيزداد ويدوم، أو يخشى في الجملة فيحصل له تحقيقُها، أو كتب الله أن يخشى.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: الذكرى ﴿الَاشْقَى﴾ هو الكافر المُصِرُّ مشركًا أو فاسقًا، فاسم التفضيل خارج عن بابه.

وقيل: المراد الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وأبو جهل ونحوهُم مِمَّن توَغَّلَ في الكفر، وقد قيل: نزلت في الوليد وعتبة.

وقيل: المُراد مُشركو هذه الأمَّة، فكما أنَّ نبيئَهُم أفضلُ الأنبياء وكتابَهم أفضلُ الكتب كَان العقابُ عليهم أشدَّ إِذْ كان كُفرهم أشدَّ. والفاسق دون المشرك، وهو في نار فوق النيران لا أسفل. واسم التفضيل في هذه الأقوال باق على التفضيل.

﴿الذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ الكبيرة وهي نار الآخرة، ونار الدنيا صغيرة بالنسبة إليها، أو «الْكُبْرَى» باقٍ على التفضيل، وهي أكبر من نار الدنيا، فنار الدُّنيا هي الصُّغرى. قال رسول الله ﷺ: «**ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جَهَنَّم**»[1] كما في البخاري ومسلم، ويروى: «من مائة جزء»، فَإِمَّا أن تتفاوت بتفاوت أهلها، أو يُرَدَّ السبعون إلى حديث المائة كما شاع التعبير بالسبعين عن الكثرة. وقيل: النار السفلى لمن اشْتَدَّ إشراكُه وعِنادُه، كما هي لمن كان نِفَاقُهُ بإضمارِ الشرك.

(1) رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق (10) باب صفة النار وأنَّها مخلوقة، رقم 3265. و**مسلم** في كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها (12) باب في شدَّة حرِّ نار جهنَّم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذَّبين، رقم: 30(2843). وتمام الحديث عندهما هو: قيل يا رسول الله ﷺ، والله إن كانت كافية. قال: «فضِّلت عليهنَّ بتسعة وَسِتِّينَ جزءا كلُّهنَّ مثل حرِّها». من حديث أبي هريرة.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فيها حياةً نَافِعةً، ولا تقل: حياةً كاملةً، لأنَّه غير نصٍّ في أنَّها لا تنفع، فإنَّ الشيء قد يكون غير كَامِلٍ وفيه نَفْعٌ. و«ثُمَّ» لتراخي الرتبة فيما قيل، لأنَّ كونه لا حيًّا ولا ميِّتًا تَعَلُّقُ روحِهِ في حَلقِه لا تخرج فيموت، ولا ترجع لمحلِّها، وهو أفظعُ من الصَّلْيِ.

[قلت:] ولا نسلِّم أنَّه أفظعُ، بل الصَّلْيُ أَفَظَعُ، إلَّا إنْ أُريدَ أنَّ الله تعالى شدَّد عليه العذاب بتعلُّقها في الحلق أكثر من الصلي. ونقول: الخلود فيها أعظمُ من دُخولها وَصَلْيِهَا دُون خلود، وقوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ عبارة عن الخلود، فـ«ثُمَّ» لتراخي الرتبة.

﴿قَدَ اَفْلَحَ﴾ فاز بالنجاة من العذاب، وبنيل النعيم الدائم ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ تَطَهَّر من الشرك والإصْرار، بالاتِّعاظِ بالتذكير، كما قال ابن عبَّاس، وعنه ﷺ: «﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ **هو من قال: لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله**»[1]، أي: قَالَ ذَلكَ عاملاً بمقتضاه من العمل الصالح ومجانبة الإصرار.

كما قال بعض: «تَزَكَّى» تكثَّر من التقوى والخشية، من الزكاء وهو النموُّ في الخير. وقيل: «تَزَكَّى» تطهَّر للصلاة، والمراد: أدَّى الفرائض فعلاً وتركًا ومثَّل بالصلاةِ، أو أشار إلى أنَّ الصلاة تنهى عنِ الفحشاء والمنكر.

وعن قتادة وأبي الأحوص وجماعة وأبي سعيد الخدريِّ وعليِّ بن أبي طالب: «أَعطَى الزكاةَ»، إلَّا أنَّهما قالا: زكاة الفطر، ولعلَّه لا يصحُّ ذلك، إذ لا يقبل في العَرَبِيَّة أن يكون «تَزَكَّى» بمعنى أعطى الزكاة، بل عالج الطهارة عمَّا يَضُرُّ. وأمَّا قوله تعالى: ﴿يُوتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [سورة الليل: 18]، فمعناه كما هنا: يتطهَّر من الذنوب بماله، والزكاة إنَّما هي قوله: ﴿يُوتِي مَالَهُ﴾ مع أنَّه لا يلزم من إيتاء المال أنَّه الزكاة المفروضة.

(1) أورده **السيوطي** في الدرِّ المنثور، ج8، ص484، وقال: أخرجه البزار وابن مردويه، عن جابر ابن عبد الله.

﴿وَذَكَرَ اَسْمَ رَبِّهِ﴾ بلسانه وقلبه، أو بقلبه، لأنَّ ذلك كُلَّه وَارِدٌ في الشَّرع، فشملته الآية، وأمَّا الذكر باللسان دون القلب فلا ثواب فيه ولا مدح، بل يُذَمُّ ذلك. ويقالُ: لم يُسَبِّحِ اسم ربِّه، والله تعالى يقول: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الَاعْلَى﴾.

[قلت:] إلَّا أنَّ لي شيئًا لعلَّه حقٌّ، وهو أن يدخل في الذِّكر باجْتهادٍ وإِخْلَاصٍ فتغلبه غفلة في بعض الذِّكر فلا يَحضُر قلبُه، فإنَّه يكتب له ثوابُ ما غفل، لأنَّ غفلته كالضرورة لا عن كسل.

وقيل: المراد في الآية الذكر بالقلب، ولا يصحُّ، إذْ لا دليل على تخصيصه، وإن أراد أنَّ المعتبر ذكر القلب سواء معه اللِّسان أو لم يكن معه صحَّ الحُكْمُ، ولا يترجَّح أنَّ تفسَّر الآية به.

وعن ابن عبَّاس: «ذِكْرُ وُقُوفِه بين يَدَيْ ربِّه»، وهو مثل القول قبله، وذلك أنَّ للذكر باللِّسان حظًّا وافرًا لمن أخلص، لأنَّ فيه إقامة شعائر الإسلامِ والدعاء إليه، وهو حقيقة في اللِّسان مجاز في القلب، وقد يقال: حقيقة عرفيَّة.

وقال بعض الْحَنَفِيَّة: المراد تكبيرة الإحرام، كأنَّه تقَوَّى بقوله تعالى: ﴿فَصَلَّىٰ﴾ أي: الصلوات الخمس، كما روي عنه ﷺ، وكما روي عن ابن عبَّاس موقوفًا. وقيل: الخمسُ وما أمْكنَ من النوافل.

[قلت:] ولا دليل في الآية على جواز تكبيرة الإحرام بغير لفظ الجلالة، لأنَّ النبيء ﷺ قد بيَّن أنَّه بلفظ الجلالة.

وعن عليٍّ وأبي سعيد الخدريِّ: ﴿تَزَكَّى﴾: أعطى زكاة الفطر، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ كبَّر يوم العيد و«صَلَّى» صلاة العيد، وبه قالت جماعة، وهو مشهور في المذهب، وفيه البحث السابق آنفًا في تفسير «تَزَكَّى».

وفيه: أيضًا أنَّ الزكاة مؤخَّرة في القرآن عن الصلاة، وأنَّ السورة مكِّيَّة ولا زكاة فطر ولا عيد فيها، ويجاب بأنَّ تأخيرها إذا ذكرت باسمها، أمَّا إذا ذكرت بالفعل فقد قُدِّمت في قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [سورة القيامة: 31]،

ويبحث بأنَّ الكلام في لفظ الزكاة لا فيما يشـــمل لفظ الصدقة، وبأنَّ «صَدَّقَ» ليس في معنى الصدقة بل في معنى التصديق ضدَّ التكذيب.

وقد يقال ـ علـــى أنَّ المراد زكاة الفطر ـ: إنَّها قُدِّمـــت هنا كما تُقَدَّمُ على صلاة العيد فعلاً أو أدَاء، وقد قيل: إنَّ السُّـــورة مَدَنِيَّة، فـــلا تنافي زكاة الفطر وصلاة العيد.

وعلى أنَّها مَكِّيَّة يحتمل أنَّ صدقة الفطر وصلاة العيد مِمَّا تأخَّر حكمُه عن نزوله، قُدِّم ليُقَدِّموا الإيمانَ به ويستعدُّوا، وليس ذلك من تأخير البيان عن وقت الحاجة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [سورة البلدة: 2]، نزلت في الهجرة، والمراد: الحـــلُّ يوم الفتح، ومن ذلك: ﴿سَـــيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [سورة القمر: 45]، قال عمر: «نزل في مَكَّة قبل الهجرة، والمراد: هزيمة بدر وما علمت ذلك إلَّا يوم بدر رأيـــت النبيء ﷺ يوم بدر يثب في الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾»، ولا مانع من الجري على طريق أنَّ الله علم شيئًا فأخبر به قبل وقته، وعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قديم.

وقيل: التزكِّي: التطهُّر من الشرك، وذكْرُ اسْمِ رَبِّهِ: قول لا إله إلَّا الله والصلاة الصلاة المفروضة، وقيـــل: التزكِّي إيمان القلب، وذكر اســـم الـــربِّ: النطق باللسان، والصلاة: العمل بالأركان، لأنَّها داعية إلى العمل وناهية عن المنكر وأنَّها عمادُ الدِّين.

﴿**بَلْ تُوثِرُونَ الْحَيَواةَ الدُّنْيَا**﴾ الخطاب للمشركين تشديد عليهم بعد الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الَاشْقَى﴾ والإضراب على [كلام] محذوف، أي: أنتم لا تفعلون ما ذكر مـــن التزكِّي وذكر الله تعالى والصـــلاة، بل تختارون الحياة الدنيا وتطمئنُّون إليهـــا بالكلِّيَّة ﴿إِنَّ الذِينَ لَا يَرْجُـــونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالذِينَ هُمْ عَنَ ـ ايَاتِنَا غَافِلُونَ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة يونس: 7 ـ 8].

أو هو إضراب عن ﴿قَدَ اَفْلَحَ...﴾ إلخ أي: لا تفلحون بل تؤثرون، أو التقدير: هذا البيان لا ينفعكم بل تؤثرون.

وقيل: الخطاب للمشركين والمؤمنين، لأنَّ المؤمنين لا يخلون عن إيثار الدنيا في أحوالهم، إلَّا أنَّهم لا يُخِلُّون بالفرائض، وإن أخلُّوا بها تابوا وتداركوا وإلَّا هلكوا.

﴿وَالَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ في ذاتها ونعيمها وعدم كدرته من الدنيا ونعيمها ولا تخلو عن كدر ﴿وَأَبْقَىآ﴾، الدنيا ولو بقيت مدَّة طويلة لكن لا بدَّ لها من فناء. ويجوز أن يكون «أَبْقَى» بمعنى باقية والدنيا فانية.

والجملة حال من واو «تُوثِرُونَ»، قال ابن مسعود بعدما قرأ الآية: أتدرون لِمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قالوا: لا، قال: «لأنَّ الدنيا أَحْضِرَتْ وعُجِّلَ لَنَا طعامُها وشرابُها ونساؤُها ولذَّتُها وبهجتها، وأنَّ الآخرة تغيَّبت وَزَوِيَتْ عَنَّا فأحببنا العاجل وتركنا الآجل».

﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما ذكر من كون الآخرة خير وأبقى، أو [من أوَّل السورة] إلى قوله: ﴿قَدَ اَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اَسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾. قال أبو ذرٍّ: قلت يا رسول الله هل أنزل عليك شيء مِمَّا كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: «يا أبا ذرٍّ، نعم، ﴿قَدَ اَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ...﴾ وقرأ إلى ﴿... وَأَبْقَى﴾».

وعنِ الضحَّاك: الإشارة إلى القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الَاوَّلِينَ﴾ [سورة الشعراء: 196]، وعن ابن عبَّاس: [الإشارة] إلى ما في السورة جميعا، ولا يتبادر.

﴿لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ له منها عشر، كُلُّهَا أمثال:

[أمثلة مِمَّا في صحف إبراهيم] «أَيُّهَا الملك المسلّط، لم أبعثك لتجمع بعض الدنيا إلى بعض، بل لتردَّ[1] دعوة المظلوم فإنِّي لَا أَرُدُّها ولو كانت من كافر.

(1) كذا في النسخ وفي عدَّة تفاسير. وفي بعضها: «ولكن بعثتك كيلا تردَّ..»، فهو أنسب. ينظر: **الخلوتي**: روح البيان، ج9، ص245.

وعلى الإنسان ما دام عَاقلاً ساعة يناجي فيها ربَّهُ، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة لمُباحِهِ يستعين به على الطاعة. وأن يكون بصيرًا بزمانه، مقبلا على شأنه، حافظًا للسانه، ومن حسِبَ كلامَه من عمله أَقَلَّهُ إلَّا فيما يعنيه» [أي: جعله قليلا].

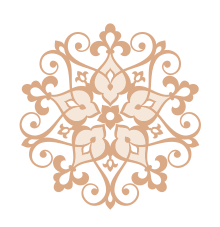
﴿وَمُوسَىٰ﴾ له من الصحف عشر نزلت قبل التوراة كانت عبرًا كلُّها.

[أمثلة مِمَّا في صحف موسى] «عجبًا لمن أيْقَنَ بالموت ثمَّ يفرحُ، ولمن أيْقنَ بالنار ثمَّ يَضْحَكُ، ولِمن يَرَى الدُّنيا وتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا ثمَّ يطمَئِنُّ إليها، ولمن أيقن بالقدر ثُمَّ يغضب ـ ويروى: «ثمَّ ينصب»، ويروى: «ثمَّ يحزن» ـ ولمن أيقن بالحساب ثمَّ لا يعمل».

ويروى في ذلك كلِّه «كيف» بدل «ثمَّ». ومعنى «عجبًا»: تعجَّبوا أَيُّهَا المكلَّفون، ويروى: «عجبت» ومعناه: استعظمت، لأنَّ الله لا يتعجَّب، ويروى: «عجبًا لمن أيقن بالحساب كيف يغفل»، ويروى: بذكر «عجبا» في كلٍّ[1].

وأنزل على شيت خمسين صحيفة وعلى إدْريس ثلاثين، وذلك ـ مع التوراة والزبور والإنجيل والقرآن ـ مائة كتاب وأربعة كتب. أسْألُ الله الرحمن الرحيم بها أن يقضي حوائجنا.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

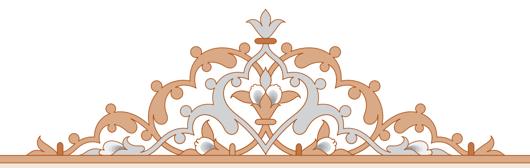


(1) راجع إن شئت قواعد الإسلام للشيخ إسماعيل الجيطالي، تحقيق الشيخ عبد الرحمٰن بكلِّي (البكري)، ج 1، ص 28.

88

تفسير سورة الغاشية

مكِّـيَّة وآياتها 26 ـ نزلت بعد سورة الذاريات



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ① وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ② عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ③ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ④ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ⑤ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ⑥ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ⑦﴾

هول يوم القيامة وأحوال أهل النار

﴿هَلَ اَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ أي: قصَّتها. و«هل» للاستفهام التعجبي التَّشْويقي إلى جوابه، كما إذا أردت إخبار أحَدٍ بأمر عجيب فقلت: هل علمت ما وقع؟ ليقول: لا، فتخْبِرُهُ به.

[سيرة] ومرَّ رسول الله ﷺ على امرأة تقرأ ﴿هَلَ اَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ فأقام يستمع لها ويقول: نعم، قد جاءني، وذلك أنَّه استمع لها بعد نزول ما بعدَ هذا. وفي قوله: «نعم» إخْبارٌ بأنَّ «هَلْ» استفهامٌ لا بمعنى قد، كما قال قطرب[1]، وذلك كما يقول الرجل: هل قام زيدٌ؟ فتقول: نعم قام.

[قلت:] وفي الحديث جواز استماع كلام المرأة الأجنَبِيَّةِ إذا لم تكن ريبة.

(1) تقدَّم التعريف به، انظر: ج 8، ص 339.

و«الْغَاشِيَة»: القيامة، تغشــى الناس بأهوالها، كثوبٍ غطَّى أحدًا، لا النار كما قال محمَّد بن كعب القرظي[1] وســعيد بن جبير أخــذا من قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمْ النَّارُ﴾ [سورة إبراهيم: 50]، وقوله ﷻ: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [سورة الأعراف: 41].

وإنَّما قلت ذلك لاشــتمال جواب هذا الاســتفهام على أحوال أهل الجنَّة أيضًا، اللَّهمَّ إلَّا أن يقال هذا من الأجوبة المشــتملة على الزيادة على السؤال، كقوله تعالــى: ﴿هِيَ عَصَــايَ أَتَوَكَّــؤُ عَلَيْهَا وَأَهُــشُّ بِهَا عَلَــىٰ غَنَمِي﴾ إلخ [سورة طه: 18]، إلَّا أنَّ الأصل عدم الزيادة.

وكأنَّه ﷺ قال: لم يأتني، كما قال ابن عبَّاس، أو اعتبر أنَّه سكت فأخبره الله تعالى بحديثها فــي قوله: ﴿وُجُوهٌ﴾ إلخ، وقدَّم ذكر أهــل النار لأنَّه أدخلُ في تهويل الغاشية، ولأنَّ ذكر حســن أهل الجنَّة بعد ســوء أهل النار يزيد حسنًا وبهجةً.

[بلاغة] ويُقــدَّر مضاف، أي: أصحاب وجــوه، لأنَّ العامل الناصب هو الكافر لا خصوص وجهه، أو سمَّى الكلَّ باســم الجزء. أو تردُّ الضمائر كلُّها للوجوه بمعنى أصحابها للاســتخدام، ومثل هذا الاستفهام التعجيبي وجوابه يقع ولو مع علم المسؤول إلْهَابًا لَهُ على التعجُّب، وليسْتمع ما لم يعلم.

[نحو] وهو مبتدأ للتَّنويع. و«خَاشِعَةٌ» و«عَامِلَةٌ» و«نَاصِبَةٌ» أخبار ثلاثة، أو «خَاشِعَةٌ» نعت وما بعده خَبَرَانِ، أو «خَاشِعَةٌ» «عَامِلَةٌ» نعتان و«نَاصِبَةٌ» خبر، أو كلُّها نعوت و«تَصْلَى نَارًا» خبر.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ غشــيت، متعلِّــق بقوله: ﴿خَاشِــعَةٌ﴾ لا نعت، لأنَّه لا يخبر عن الــذات، ولا توصف بالزمــان إلَّا إنْ أفاد، وكــذا الحال به.

(1) تقدَّم التعريف به، انظر: ج 6، ص 186.

والخشـــوع ذلُّ القلب، لكن وصفت به الوجوه لظهور أثـــره عليها، وكذا وصف الإنســـان به كما قيـــل: التقدير: أصحـــاب وجوه، قـــال الله تعالى: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ [سورة الشورى: 45].

وقيل: وصف الإنسان بالذلِّ حقيقةً، وفي التعبير بالخشوع والعمل والنصب تلويحٌ بأنَّها لم تخشـــع لله تعالى في الدنيا، ولم تعمل لَهُ ولم تتعب وقت ينفع الخشوع والعمل والنصب.

﴿**عَامِلَةٌ**﴾ تجرُّ السَّلاســـلَ والأغلال، وتصعد في جبالها من حديد وتهبط، جزاءً على التكبُّر في الدنيا عن عمل الطاعة لله ﷻ ﴿**نَّاصِبَةٌ**﴾ تعبة بتلك الأعمال، عقابًا على عملها ونصبها في الدنيا لما هو معصية، وذلك كعبادة الأصنام وعبادة أهل الكتاب رهبانهم، واشتغالهم عن الفرض، وصدِّهم عن الدين.

وعن زيد بن أسلم: الخشـــوع يوم القيامة والعمل والنصب في الدنيا، أي: عملت ونصبت في الدنيا بما لا ينفعها في الآخرة، بل بما يهلكها، وهو رواية عن ابن عبَّاس، وكأنَّه قيل: خاشعة يوم القيامة عاملة في الدنيا ناصبة فيها، **وهو بعيد**.

وأبعد منه قول عكرمة: خاشـــعة يوم القيامة، عاملة فـــي الدنيا ناصبة يوم القيامة، لجعل دنيوي بين أخرويين، والصواب جعل الكلِّ في الآخرة كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فـ«يَوْمَئِذٍ» منســـحب على الثلاثة، كأنَّه قيل: خاشـــعة يومئذ، عاملة يومئذ، ناصبة يومئذ، فحذف لدليل.

وقيل: الثلاثة في الدنيا على معنى ظهر لهم يوم القيامة خشوعُهم في الدنيا وعملهم فيها ونصبهم فيها على وجه غيـــر نافع بل ضارٍّ، وقد كانوا فيها يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهذا أبعد من القولين قبله، وهؤلاء عبَّاد اليهود والنصارى، والعُبَّاد من أهل الضَّلال المماثلون لهم[1]، وفي الحديث:

---

(1) لاوجْهَ للمماثلة بين الموحِّد وغيره. والله أعلم. (المراجع).

«**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهــو رَدٌّ**»[1]. ويروى «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»[2].

﴿**تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً**﴾ أي: بالغةٌ نهايةَ الحرّ، لأنَّ مطلق الحرّ معلوم من لفظ «نار»، وأيضًا يقال: حميت النار: أشتدَّ حرُّها وازْداد.

﴿**تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ**﴾ بلغت الإنَى، أي: الغاية في الحرارة، أُوقِدَتْ عليها من حين خُلقت، لو وقعت قطرة منها على جبل لأذابته، يوردون عليها عطاشًا يَظُنُّون أنَّها ماء بعد أن يعطشــوا ألف ســنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [ســورة محمَّد: 15]، وكقوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [سورة الرحمن: 44]، كما قال ابن عبَّاس والحسن ومجاهد والجمهور، وقيل: حاضرة، كقولك: أَنَى الشيء، أي: حضر.

[لغة] ﴿**لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ**﴾ الشــبرق اليابس، أو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض، أو نوع من الشوك ترعاه الإبل رطبًا، وإذا يبس صار سُمًّا قاتلاً تجتنبه، أو يَبِيسُ العرفَج إذا انحَطَم أو نبت كالعوســج، أو نبات أخضر منتن الريح يرمي به الريح.

ينبت الله تعالى ذلك في النار كما جعل النار في الشجر الأخضر، لكمال قُدرته، أو ينبت الله ﷻ شــجرة نارية على صــورة ذلك ومضَرَّتــه، فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن رســول الله ﷺ: «**الضريع شــيء في النار شبه الشــوك أَمَرُّ من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشدُّ حرًّا من النار**»[3].

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الصلح باب إذا اصطلحوا على صلح جور... رقم 2499. من حديث عائشة.

(2) رواه **الربيع بن حبيب** في بَاب [7] فِــي الْوِلَايَةِ وَالإِمَارَة، رقم 49. ورواه **مســلم** في كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة... رقم 3243. من حديث عائشة.

(3) أورده **السيوطي** في الدر، ج 6، ص 382. وقال: أخرجه ابن مردويه بسند واهٍ عن ابن عبَّاس. وتمامه: «سمَّاه الله الضريع، إذا أطعمه صاحبه لا يدخل البطن ولا يرتفع إلى الفم فيبقى بين ذلك، ولا يغني من جوع».

أو طعام يضرَّعون عنده ويَذِلُّون، ويتضرَّعون إلى الله ﷻ أن يخلِّصهم منه فهو شجر أو غيره. أو هو الزقُّوم، كما روي عن الحسن، أو حجارة في النار كما روي عن سعيد بن جبير، أو واد فيها لا طعام لهم إلَّا منه، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا طَعَامٌ اِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [سورة الحاقَّة: 36]، يسيل إليه صديد أهل النار يرسل الجوع عليهم حتَّى يعدل ما هم فيه من العذاب، ثمَّ يطعمون ذلك.

[بلاغة] أو الضريع مجاز أو كناية عن طعام مكروه حتَّى لِنَحْوِ الإبل الراعية للشوك. أو المراد: لا طعام البتَّة، لأنَّ الضريع غير طعام، كقولك: ليس فلان ظلٌّ إلَّا الشمس، أي: لا ظلَّ له، وكذا في قوله ﷻ: ﴿وَلَا طَعَامٌ اِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ أي: لا طعام لهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الَاثِيمِ﴾ [سورة الدخان: 43 ـ 44]، أي: لا طعام لهم.

فيجمع بهذا بين الآي، فلا مخالفة بالحَصْر، وعلى فرض التخالف فالمراد: منهم أَكَلَةُ الزقُّوم فقط، ومنهم أَكَلَةُ الغِسْلِينِ فقط، ومنهم أكلة الضَّريع فقط، وقيل: هنَّ شيء واحد له أسماء شجرة الزقُّوم وغسلين وضريع.

﴿**لَّا يُسْمِنُ**﴾ لا يجعل الإنسان سمينا ﴿**وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ**﴾ لا يكفي في دفع شيء من جوع مَّا، أو لا يدفع شيئًا من جوع.

[نحو] والجملة نعت لـ«ضَرِيعٍ» والمستثنى محذوف، أي: ليس لهم طعام من شيء إلَّا من ضريع، فالاستثناء مفرَّغ، أو نعت لـ«طعام» محذوف منعوت بقوله تعالى: ﴿مِن ضَرِيعٍ﴾ فالمستثنى منه مذكور، والاستثناء غير مفرَّغ، أي: ليس لهم إلَّا طعام من ضريع، والأوَّل أولى.

ولا يحسن جعلها مستأنفة، اللَّهمَّ إلَّا أن يقال: استئنافا بيانيًّا، كأنَّه قيل: فهل ينتفعون بذلك الضريع؟ فقال: لا منفعة فيه من منفعتي الغذاء: إماطة الجوع وإفادة القُوَّة والسمن، بل هو طعام يُتضرَّع إلى الله تعالى في زواله.

[سبب النزول] لَمَّا سمع الكُفَّار صدر الآية قالوا: إنَّ الضريع تسمن عليه أبلنا، فنزل: ﴿لَا يُسْمِنُ...﴾ إلخ، إمَّا أن يقصدوا الكذب، فإنَّ الضريع سُمٌّ، قال أبو ذؤيب:

رعَى الشبرقَ الريَّانَ حَتَّى إذا ذَوَى   وصار ضَريعًا بان عنه النحائص[1]

وقال رجل من هذيل يذكر سوء المرعى:

وحُبسنَ في هزم الضريع فكلُّها   حدباء دامية اليدين حرود[2]

وإمَّا أن يصْدُقوا ويريدوا الضريع باعتباره قبل اليبس، فيردُّ الله تعالى عليهم بأنَّ ضريع النار ليس كضريعِكُم.

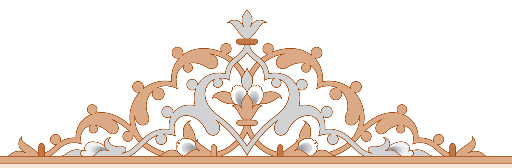
[بلاغة] ثمَّ إنَّ التخلِّي قبل التحلِّي، فَلِـمَ أخَّرَ نفي الجوع مع أنَّه تخلٍّ؟ الجواب أنَّه قدَّم السمن لأنَّهم قالوا: تسمن عليه الإبل، وأخَّر الجوع للفاصلة، أو قدِّم السمن نفيا فيظنُّوا أنَّها تغني من جوع فيزول هذا الظنُّ بقوله: ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ وذلك أشدُّ لأنَّه إزالة طمع بعد التوجُّه إليه.

[قلت:] والآية تدلُّ أنَّ لأهل النار اشتياقا للشراب والطعام، فعذِّبوا بالعطش والجوع كما عذِّبوا بالنار والضرب والزمهرير، والقرآن والحديث يدلَّان على ذلك ويصرِّحان به، لا كما قيل: إنَّهم يطلبون الطعام والشراب ليزيلوا به ما في بطونهم من النار كما اعتادوا في الدنيا إزالة الغصَّة بالماء.

---

(1) النحائص: جمع نَحُوص، وهي الأتان التي لا ولد لها ولا لبن. ينظر: القاموس المحيط، مادَّة: «نحص».

(2) البيت من الكامل، وهو لقيس بن عيزارة الهذلي. انظر: **إميل يعقوب**: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج 2، ص 283.



﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

أحوال المؤمنين المخلصين أهل الجنَّة

[نحو] ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ خبره «نَاعِمَــةٌ»، أو «نَاعِمَةٌ» نعت والخبر «رَاضِيَةٌ»، أو «رَاضِيَةٌ» نعت والخبر «فِي جَنَّةٍ»، على حدِّ ما مر في ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ ولم تعطف هذه الجملة على مقابلتها المذكورة لكمال التباين بينهما معنًى.

﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ يوم إِذْ غشيت الغاشـــيةُ، متعلِّق بـ«نَاعِمَةٌ» ويقدَّر مثله لما بعدُ ﴿**نَّاعِمَةٌ**﴾ وضيئة مبتهجة، عليها أثر سرور القلب، وهو من النعومة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمِ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [سورة المطفِّفين: 24]، أو متنعِّمة، وهو من النعيم.

﴿**لِّسَعْيِهَا**﴾ بالعمل الصالح في الدنيا ﴿**رَاضِيَةٌ**﴾ اللام للتقوية لضعف اسم الفاعل عن العمل بالنســبة للفعل، ولضعفه بتقديم المعمول، وقدِّم للفاصلة ولطريق الاهتمام، وهو مفعول لـ«رَاضِيَةٌ».

[صرف] و«رَاضِيَةٌ» اسم فاعل، أو اللام بمعنى الباء، أو للتعليل، كأنَّه قيل: راضية لا ساخطة لحسن سعيها، وهو باق على المَصدَرِيَّة، أو بمعنى مفعول، قال سفيان الثوري: رضيت عملها، فجعلها مفعولاً به.

رضاها لسعيها كناية عن أنَّه محمود العاقبة يجازى بخير، أو مجاز.

وأظهر من ذلك أنَّه على ظاهره من أنَّها أحبَّته ولم تكرهه كما يكره الكافر سـعيه إذا بعث، وبعض قدَّر مضافا، أي: لثواب سعيها، والوجه لا يرضى بل صاحبه، فيقدَّر مضاف، أي: أصحاب وجوه.

أو «وُجُوهٌ» عبارة عن الناس، تسميةً للكلِّ باسم الجزء، أو تردُّ الضمائر في «رَاضِيَةٌ» و«سَعْيِهَا» و«تَسْمَعُ»[1] لـ«وُجُوهٌ» بمعنى أصحابها، على الاستخدام، وذلك في «تَسْمَعُ» إن جعل غير خطاب.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ علوًّا حسِّـيًّا إذ كانت تحت العرش، أو علوَّ شأنٍ لعلوِّها الحسِّيِّ وما فيها من غاية النعيم الدائم، ومن أجاز الجمع بين الحقيقة والمجاز أجازهما معًا.

﴿لَّا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ﴾ الجملة نعت ثانٍ لـ«جَنَّةٍ»، جار على غير ما هو له بالبناءِ للمفعول ورَفْعِ «لَاغِيَةٌ»، وقرئ بالبناء للفاعل ونصب «لَاغِيَةً»، والخطاب للنبيء ﷺ، أو لمن يصلح له. أو في «تَسْـمَعُ» ضميـرُ الوجوه والتاء للتأنيث والغيبة، والضمير فيه للوجوه، وأُسند السمع المنفيُّ للوجوه على التجوُّز، أو لضمير الوجوه بمعنى أصحابها على الاستخدام.

[نحو] والجملة على هذين الوجهين نعت «جَنَّةٍ» كما علمت، والرابط في ذلك هاء «فِيهَا»، ويضعف كونـه نعتًا آخر لـ«وُجُوهٌ»، فيكـون الرابط ضمير «تَسْمَعُ» ضمير الغيبة.

[صرف] و«لَاغِيَةً» نفسًـا لاغيةً، تنطق باللَّغو، وهـو ما يَضُرُّ ولا نفع فيه. أو «لَاغِيَة» للنسب، أي: نفسا تنسب للَّغو، والتقدير على الوجهين: لا تسمع فيها كلام لَاغية أو لَغْو لاغية لانتفائها، كقولك: لا تـرى في القرية ضبًّا ينجحر، أو لا ترى فيها جحر ضبٍّ، أي: لا ضبَّ فيها، أو هو مصدر على وزن فاعلة كالعافية والعاقبة.

(1) هذا بناءً على رواية حفص: ﴿تَسْمَعُ﴾، وبرواية ورش: ﴿تُسْمَعُ﴾.

﴿فِيهَا عَيْنٌ﴾ عظيمة تأتي على الأجنَّة كلِّها، أو عين كثيرة، كما قيل في ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾، فالمراد عيون ﴿جَارِيَةٌ﴾ جارٍ مَاؤُهَا، وأُسْنِدَ الجريُ إليها مبالغة، واسم الفاعل هنا للاستمرار فلا ينقطع الجريان، أو مطلق الجري، مأخوذ من لفظ «عَيْنٌ»، فما زيد «جَارِيَةٌ» إلَّا ليفيد الزيادة، وهي عدم الانقطاع، كما أنَّه لَمَّا أفاد لفظ «نَارٌ» الحرارةَ، حُمِلَ «حَامِيَةٌ» على معنى زائد هو بلوغ إِنَى الحرارة، وهو غايتها، أو جارية في غير أخدود، أو جارية حيث شاؤوا.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي: عالية في جهة الجوِّ، ألواحها من ذهب مكلَّلة بالزبرجد، فإذا أراد وليُّ الله طلوعها اتَّضعت، وتتَّضع أيضا وهم فيها إذا شاؤوا، وترتفع إذا شاؤوا. أو عالية الشأن. أو كلُّ ذلك على حدِّ ما مرَّ. أو مخبوءة لمن هيَ له، كما تقول: أكلوا ورفَعْتُ سَهْمَ زيد.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾ قداح لا عروة لها ولا أذن ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ بين أيديهم، أو على حافات العين، قيل: أو موضوعة عن حدِّ الكبر إلى الوسط، كما في قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [سورة الإنسان: 16].

[لغة] ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد، جمع نُمْرُقة، أو نُمْرُق، بضمِّ النون والراء فيهما، أو بكسر النون والراء أو فتحهما، والميم ساكنة.

﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ صفَّ بعضها إلى بعض ليستند إليها، أو يتَّكئ أو يجلس على واحِدَةٍ، ويستند أو يتَّكئ على الأخرى، وعلى رأسه وصائف كأنَّهنَّ الياقوت والمرجان.

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بُسُطٌ فاخرة لها خمل رقيق مزيَّنة، ولا نسلِّم أنَّ أصله ثياب محبَّرة واستعيرت للبسط. والمفرد: زربيَّة، بصيغة النسب، وقيل: نُسب إلى موضع. ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مفرَّقة مبسوطة تلذيذًا، لَا عَنْ أَذًى في أرض الجنَّة، إذ لا أَذَى في الجنَّة.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (21) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (26)﴾

إثبات قدرة الله تعالى على البعث وغيره والتذكير بأدلَّة ذلك

و«الْغَاشِيَةُ» وما بعده إخبار بما يكون بالبعث، فقرَّره الله تعالى ردًّا على منكريه بقوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾، وردًّا لاستغراب الكفَّار ما في وصف السورة، وذلك نظرُ تَدَبُّرٍ واعْتبَارٍ يتوصَّلون به إلى تصديق ما ذكر، فالهمزة لإنكار لياقة تعجُّبهم، والتوبيخ على إنكارهم ذلك، والعطف بالفاء على محذوف، أي: أيهملون أنفسهم فلا ينظرون؟ وجملة «كَيْفَ خُلِقَتْ»؟ مفعول لـ«يَنظُرُ» علِّق عنها بالاستفهام.

[نحو] و«كَيْفَ» حال من المستتر في «خُلِقَتْ». وقيل: الجملة بدل من الإبل إبدالَ جملةٍ من مفردٍ، نحو: عرفت زيدًا أبو من هو. ولو كانت «إِلَى» لا تدخل على «كَيْفَ» ولا على الجملة، لأَنَّهُ يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع، لكن سماعًا لا قياسًا، لا حملا على ما ورد من دخول «إِلَى» على «كَيْفَ»، لأنَّه لغة رديئة، أو شاذَّة، قالوا: انظر إلى كيف يصنع، وعلى كيف تبيع الأحمرين.

ووجه التعجُّب من الإبل قدرة الله تعالى على خلقها في عظم جثَّتها وقوَّتها، بحيث تحمل الأشياء الثقيلة وتبرك بها وتقوم بها، ولا يتوصَّل إلى إِلْقائها على ظهرها إذا كانت قائمة، وتُوصلها إلى الأماكن البعيدة.

[فوائد جمَّة في الإبل] وهي سفن البَرِّ، وتصبر على الجوع والعطش، حتَّى إنَّها قد تبقى ثمانية أيَّامٍ لا تشرب وقد تظمأ عشرًا، ويؤكل لحمها، ويشرب لبنها، ويلبس من وبرها، وتُتَّخذ منه فرش وما يُشاء، وهي زينة ومنفعة، وترعى من أعلى الشجر، وترعى ما تَيَسَّر ـ من شوك وغيره ـ مِمَّا لا ترعاه سائر البهائم، وتنقاد للصغير والكبير، في القطار والانفراد، ولها إصْغاء إلى الصوت الحسن مع أنَّ أكبادها غير رقيقة، وتأكل النوى والقتَّ.

والفيل ولو كان أعظم منها لكنَّه غير مألوف للعرب، ولا فيه منافع الإبل، ولا هو كثير، ولا خير فيه، ولا يُحلب، ولا يستعمل للركوب والحمل إلَّا شاذًّا أو بمشقَّةٍ في تعليمه، بخلاف الإبل فقد يسافر بها الواحد من العرب، فإذا نظر إليها فكأنَّه نظر إلى السماء، وقد تكون سحابات فيها تشبه الإبل، وتزجى كما تزجى الإبل، وإذا رأى يمينا وشمالا رأى الجبال وهي شبيهة بالإبل، وإذا نظر أسفل رأى الأرض.

وأيضًا الإبل نفيسُ أموالهم. ومدار السقي لهم على السماء، أي: ماء المطر، ورعيهم في الأرض، وحفظ مالهم بالجبال، فذَكَرَ الإبل في ذلك والسماء والجبال والأرض في قوله تعالى:

﴿**وَإِلَى السَّمَآءِ**﴾ يشاهدونها بمشاهدة نُجومها وشمسِها وقمرها ليلاً ونهارًا، أينما كانوا، فهي فوقهم ﴿**كَيْفَ رُفِعَتْ**﴾ رفعًا بعيدًا بلا عماد من تحتها، ولا علاقة من فوقها، وقوله تعالى: ﴿**بِغَيْرِ عَمَدٍ**﴾ [سورة الرعد: 2]، يشمل العلاقة.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ﴾ التي يشاهدونها في السفر وغيره، وينتفعون بمائها وشجرها، ويلتجئون إليها إذا خافوا ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ وضعت على بَعْضِ انبِسَاطٍ ليُمكن الارتقاء عليها، ولا تميد.

﴿وَإِلَى الْاَرْضِ﴾ التي هم عليها مع مالهم وأحوالهم ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ مُهِّدَت بتسوية، كما ينتفعون بها ولو كانت كُرَيَّةً لِوَسْعِهَا.

قال ابن عبَّاس: «يقول الله ﷻ: هل يقدر أحد أن يخلق مثل الإبل؟ أو يرفع مثل السماء؟ أو ينصب مثل الجبال؟ أو يُسَطِّحَ مثل الأرض غيرُ الله ﷻ القادر على كُلِّ شيء؟ فهو قادر على البعث لقدرته على ذلك».

[قلت:] ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ الإبل تطأ فيركبها راكب أو يحمل عليها، فكذا سرر الجنَّة تتَّضع فيطلع عليها، ونجوم السماء المرفوعة لا تدخل في الحساب، فكذا أكواب الجنَّة، والجبال منتصبة راسخة لا تميل فكذا النمارق، والأرض مبسوطة فكذا زرابيُّ الجنَّة.

﴿فَذَكِّرِ﴾ من أمكنك تذكيرُه، أي: اقتصر على التذكير بسبب أنَّهم لا ينظرون في ذلك نظر تَدَبُّر، ولا يهمَّنَّكَ أمرهم فَتُلحَّ عليهم، ﴿اِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ لأنَّك ما أنت إلَّا مذكر ما أُرسلت إلَّا بمجرَّد التذكير.

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ برقيب تجبرهم على الإيمان، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [سورة ق: 45]، و«عَلَيْهِمْ» متعلِّق بـ«مُصَيْطِرٍ»، قدِّم بطريق الاهتمام وللفاصلة، وصَطَرَ[1] عليه: تسلَّط، ووزنه «مفيعل»، فالزائد الميم والياء.

﴿اِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن التَّدبُّر ولم يستعمله، أي: دام على التولِّي والكفر كما قال الله تعالى: ﴿وَكَفَرَ﴾ لأنَّه لم يتدبَّر فَيُؤمن. والاستثناء منقطع،

(1) كذا في النسخ بالصاد. وفي الآلوسي وكتب اللغة أن الأصل بالسين.

ويدلُّ على الانقطاع قراءة ابن عبَّاس وزيد بن عليٍّ: «أَلَا» (بفتح الهمزة وتخفيف اللام) وهي حرف استفتاح.

[نحو] و«مَنْ» في محلِّ نصب على الاستثناء لا مبتدأ خبره قوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الَاكْبَرَ﴾، لأنَّ «إِلَّا» في غير التفريغ لا تدخل على الجمل، بل «فَيُعَذِّبُهُ» تقرير للاستثناء. وقيل: «إِلَّا» قد تدخل على الجملة فتكون «مَنْ» موصولة مبتدأً خبره ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللهُ...﴾ إلخ، ولشبهه باسم الشرط في العموم قرن خبره بالفاء، وليست شرطيَّة، وإلَّا سقطت الفاء وجزم، لأنَّه يصلح أن يكون شرطًا، إلَّا إنْ يقدَّر: فهو يعذِّبه، أو فقد يعذِّبه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾ [سورة المائدة: 95].

والحذف ولو كان خلاف الأصل لكن يقابل بأنَّ الأصل عدم زيادة الفاء وعدم التشبيه مع إِمْكان المشبَّه به، ويجوز أن يكون الاستثناء مُتَّصِلاً من هاء «عَلَيْهِمْ»، أي: لست عليهم بمصيطر إلَّا من دام على تولِّيه وكفر فإنَّك مسلَّط عليهم بالقتل والسبي والأسر، وهذا عذاب في الدنيا، وهو أصْغر، ولهم العذاب الأكبر في الآخرة بالنار.

وفيه أنَّ السورة مكِّيَّة، الجواب أنَّ ذلك يكون لك بعدُ، وقيل: العذاب الأكبر بالقتل، والأصغر ما دونه في الدنيا، فهو تهديد لهم، وأمَّا عذاب الآخرة ففي الآي الأُخر، والصحيح أنَّ العذاب الأكبر عذاب الآخرة، والأصغر كلُّ عذاب في الدنيا، ويدلُّ له التعليل بقوله تعالى:

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ﴾ لا إلى غيرنا، ولا مع غيرنا ﴿إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهُم بالإِحْيَاءِ بعد الموت للحساب. وضمير الجماعة نظرًا إلى معنى «مَنْ»، والإفراد قَبْلُ نظرًا إلى لفظه. والأصل: «إِوَابَهم» قلبت الواو ياء للكسر قبلها.

[تلاوة] والوقف على «كَفَرَ» جائز، وأَخطَأَ مَنْ مَنَعَهُ، وهلك من حكم بكفر الواقف عليه، لأنَّ الوقف عليه لا يوهم مُحَرَّمًا، وأيُّ تحريم في أنَّه مسلَّطٌ

عليهم بالقتل وغيره قبل القيامة؟ ثمَّ إنَّ وَهْمَ ما لا يجوز يهمه[1] الجاهل، وقف عليه أو لم يقف، أو سمع الوصل أو الوقف.

﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾ أي: حسـابًا أكيدًا لا بُدَّ منه، ولذلك عبَّرَ بصورة الوجوب وهي «عَلَى». و«ثُمَّ» لتراخي الرتبة، فإنَّ العذاب المعبَّر عنه بالحساب أشدُّ من العذاب، أو الحساب على ظاهره من إحضار أعمالهم، وعددها للتَّوبيخ أشدُّ من البعث[2].

اللهمَّ باسمك الأعظم عندك حاسبنا حسابًا يسيرًا.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(1) كذا في (أ). وليس في مسودة المؤلف. والأصوب: «وَهِمَ يَوْهَمُ وَهَمًا. أي: غَلِطَ». **الفراهيدي**: العين، ج 4، ص 100.

(2) كذا في النسخ، تأمل.

89

تفسير سورة الفجر

مكِّـيَّة وآياتها 30 ـ نزلت بعد سورة الليل

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالْفَجْرِ ﴿1﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿2﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿3﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿4﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿5﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿6﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿7﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿8﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿9﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿10﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿11﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿12﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿13﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿14﴾﴾

حتميَّة عذاب الكفَّار وجزاء بعضهم في الدنيا

﴿**وَالْفَجْرِ**﴾ الصادق عند الجمهور، كما قـال: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [سورة التكوير: 18]، وهو أولى بالإقسام به لأنَّه أوَّلُ النهار، وبه انقضَى الليلُ الـذي فيه النوم كالموت، وذلك شـبه بالبعث للحساب وينتشر فيه كما ينتشر بالبعث، ولأنَّه تَتَعَلَّقُ به أحكام شَـرعِيَّة، كالصوم والصلاة، وقيل: الفجر الكاذب.

[لغة] وعلى كلٍّ هو مأخوذ من فجر بمعنى شقَّ شقًّا واسعًا، ووجه القول الثاني أنَّه أولى بمعنى الشقِّ إذ شقَّ الظلمة ودخل فيها، والمراد العموم.

وعن ابــن عبَّاس: فجر يــوم النحر، لأنَّ فيه أكثر مناســك الحــجِّ، وفيه القُرُبَات، كذا قيل. وعنه: صلاة الفجر، أقسم الله ﷻ بها لأنَّها تشاهدها ملائكة الليل وملائكة النهار. وعنه: فجر أوَّل المحرَّم وهو فجر أوَّل السنة، ومنه تَنفَجِرُ السَّنَة. وعنه: النهار كُلُّه. وعنه: صلاة الفجر، تسميةً للحالِّ باسم زمانه، أو على حذف مضاف.

وقيل: فجر يوم الجمعة. وقيل: فجر ذي الحجَّة أوَّلــه، لأنَّه قرن به اللَّيالي العشر. وعن مقاتل: فجر ليلة جَمْع. وقيل: مصدر، بمعنى: فجَّر الماء من العيون.

وجواب القسم أغنى عنه قوله ﷻ: ﴿ثمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [سورة الغاشية: 26]، كما تقول: زيد قائم والله، أو يقدَّر: ليعذَّبــنَّ بعد قوله: ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾. وعن ابن مسعود: جوابه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ أوَّل ذي الحجَّة، عند ابن عبَّاس وعبد الله بن الزبير موقوفا، ورواه جابر بن عبد الله عن رســول الله ﷺ. ونكَّرها للتعظيم، لأنَّ فيها فضلاً لا يحصل في غيرها، وهي أَيَّام الشغل بالحجِّ.

وروي عنه ﷺ: «**ما من أَيَّامٍ العملُ فِيهنَّ أحــبُّ إلى الله تعالى وأفضلُ من أَيَّام العشر**» قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهادُ، إلَّا رجلا جاهد في ســبيل الله ﷻ بماله ونفســه فلم يرجع** [له] **من ذلك شيء**» وروي: «**فلم يرجع من ذلك بشيء**»[1].

وعن ابن عبَّاس: العشــر الأواخر من رمضان، وعن عائشــة ﵂: «**كان رسول الله ﷺ إذا دخلت العشر** ـ تعني الأخيرة منه ـ **شدَّ مِئْزَرَهُ وأَحْيَى الليل،**

---

(1) لم نقف على نصِّ الحديث بالصيغة الأولى، وبالصيغة الثانية رواه **الطبرانيُّ** في الأوســط، ج 2، ص 450، رقم 1777. ورواه **الترمذيُّ** في كتاب الصوم (52) باب ما جاء في العمل في أَيَّام العشر، رقم 757. و**أبو داود** في كتاب الصوم باب في صوم العشر، رقم 2438. من حديث ابن عبَّاس.

وأيْقَظَ أهله»[1] فنقول: قصدت بالآية لكون ليلة القدر فيها، وقال ابن جريج: العشر الأولى من رمضان، وهو ضعيف لا حجَّة له.

وقيل: العشر الأولى من المحرَّم ليوم عاشوراء فيها، وفَضلِه المشهور، حتَّى إنَّ البخاريَّ ومسلما رويا أنَّه ﷺ أرسل غداة عاشوراء إلى قرى المدينة: «**من أصبح صائمًا فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، ومن أصبح مفطرًا فَلْيَصُم بَقِيَّة يومه**»[2]، فكان الصحابة يصومونه ويحملون صبيانهم على صومه، وإذا بكى أحدهم ألْهَوه بشيء من لُعب حتَّى يحلَّ الإفطار.

[فقه] وهذا اليوم مخصوص بأنَّه يصحُّ صومه بلا تبييت نيَّة من الليل بلا قضاء، وشاركه إنشاء الصوم في رمضان لمن صحَّ له خبر الهلال في النهار، ومن طهرت من حيض أو نفاس نهارًا، ومن أسلم أو بَلَغَ نهارًا، أو نحو ذلك، لكن بقضاء.

[قلت:] وفي فضله أحاديث ضعيفة إذا ضُمَّ بعضُها إلى بَعضٍ تَقَوَّت.

ونكِّر للتفخيم، إذ هنَّ ليال مُعَيَّنة، ولولا ذلك لعُرِّفت كـ«الْفَجْرِ» و«الشَّفْعِ» و«الْوَتْرِ». ومن قدَّر: «صلاة الفجر» حَسُنَ له أن يقدِّر: «وعبادة ليال عشرٍ». و«لَيَالٍ» مجرور بفتحة مقدَّرة على الياء المحذوفة نائبة عن الكسرة.

﴿**وَالشَّفْعِ**﴾ يوم النحر لأنَّه عاشر، ﴿**وَالْوَتْرِ**﴾ يوم عرفة لأنَّه تاسع، وعن عمران بن حُصين أنَّ رسول الله ﷺ سُئِل عن الشفع والوتر فقال: «**الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر**»[3]، رواه الترمذيُّ.

---

(1) رواه **البخاريُّ** في كتاب صلاة التراويح، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان، رقم 1884. ورواه **مسلم** في كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان، رقم 2008. من حديث عائشة.

(2) رواه **مسلم** في كتاب الصيام، باب من أكل في عاشوراء فليكفَّ بقيَّة يومه، رقم: 2725. من حديث الرُّبَيِّع بن معوَّذ.

(3) رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفسير، باب ومن سورة الفجر، رقم 3342. و**الحاكم** في كتاب التفسير (86) باب تفسير سورة الفجر، رقم 3927 (1065). من حديث عمران بن حصين.

وعن ابن عبَّاس: الشفع صلاة النهار، والوتر صلاة المغرب. وعن عبد الله بن الزبير: الشفع النَّفْر الأوَّل، والوتر النَّفر الآخر، كما قال الله ﷻ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [سورة البقرة: 203]. وعن الحسن: أقسم ربُّنا سبحانه بالعدد كلِّه شفعه ووتره، وهو قول حسن.

وعن مجاهد: أقسم بالخلق كلِّه شفعه ووتره، وعنه: الشفع الخلق ذكر وأنثى، والجنُّ والإنس، والإيمان والكفر، والهدى والضلال، والسعادة والشقاوة، والليل والنهار، والأرض والسماء، والشمس والقمر، والبرُّ والبحر، والنور والظلمة، **والوتر الله** ﷻ، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [سورة الذاريات: 49]. وقيل: شفع تلك اللَّيالي ووترها. وقيل: الشفع أبواب الجنَّة، والوتر أبواب النار.

ونقول: الأولى **تعميم كلِّ شفْع من ذلك ونحوه وكُلِّ وتر**، ولعلَّ مراد من يقول بتلك الأقوال التمثيل لا الحصر، إلَّا أنَّ حديث عمران المذكور نصٌّ في الحصر، ولا يعارضه ما مرَّ عن جابر مرفوعًا أَنَّ الليالي العشر هنَّ الأولى من ذي الحجَّة.

وقيل: الشفع أوصاف المخلوقات المتضادَّة، كالعزِّ والذلِّ، والقدرة والعجز، وَالقُوَّة والضعف، والغنى والفقر، والعلم والجهل، والبَصَرِ والعَمَى، والموت والحياة، والوتر صفات الله تعالى، كعزٍّ بلا ذلٍّ، وقدرة بلا عجز.

﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾ بحذف الياء في الخطِّ والوقف وقراءَتها وصلاً.

[ذكر رجل صالح] وكان عمِّي صالح بن عيسى ـ أخو أبي ـ رجلاً صالحًا فقيرًا متعفِّفًا، مُجوِّدًا للقرآن، حسن الصوت جِدًّا، رَحِمَهُ اللَّهُ وتقبَّل قراءته وعمله، إذا كان يقرأ القرآن في الجماعة خرج بعض الناس منها ليستمعوا لصوته متميِّزًا عن غيره، وكان ينشد لهم يوم الزيارة بيت ابن برِّي على حذف الياء في مُصْحف الإمام:

وأَحْرُفٌ ثلاثة في الفجر ... أَكْرَمَنِ أَهانَنِ وَيسْرِ

أخبرني بذلك من أخبره بــه جَدِّي أبو أُمِّي الحاج سـعيد بن حمُّو رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره. وإنَّما حذفت في الخطِّ على خلاف الأصل.

والليل إنَّما هو مَسْريٌّ فيه لا سار. ومعنى «يَسْرِي»: يمضي، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ اَدْبَرَ﴾ [سورة المدَّثِّر: 33]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [سورة التكوير: 17]، على التجوُّز الإرسالي.

[بلاغة] أطلق السريان وهو موضوع لسَيْر الإنسان ليلاً على مطلق المضيِّ، لعلاقة الإطلاق والتقييد، أو المجاز الاستعاريِّ بأنْ شبَّه مضيَّ الليل بالسير ليلاً، وهي تبعيَّة، أو بأن شبَّه الليل بإنسان ورمز إليه بلازمه وهو السريان، أو المجاز العقليِّ بأنْ أسْنَدَ السَّير إلى الليل لوقوعه فيه من الناس وغيرهم.

[نحو] ويضعف ما قيل: إنَّ «إِذَا» بدل من «اللَّيْـلِ»، لأنَّ خروج «إِذَا» عن الشـرط والصدر يحسـن إذا ذكر قبلها فعلٌ أو نحوه صريحٌ، لا إذا أخرج إلى الإقْسامِ بمعناه، بل تعلَّق بمحذوف، أي: وعظمةِ الليل إذا يَسْرِي.

والإقسـام بالليل لدلالته على كمال القدرة ووُفُور النعمة، إذْ يُسْـكَن فيه ويُستراح فيه، وهو على العموم. وعن مجاهد: إنَّه ليل النحر، يسري الحاجُّ فيه من عرفات إلى مزدلفة.

﴿**هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ**﴾ إقْسَامٌ أو مُقْسَمٌ به عظيم ﴿**لِّذِي حِجْرٍ**﴾ لذي عقلٍ. قلنا: فيه قسم عظيم، يا ربَّنا ففهِّمنا واهدنا هداية توفيق بعد هداية بيان.

[لغة] والحِجْرُ العقل، سُمِّي لأنَّه يحجر صاحبه، أي: يمنعه عن ارتكاب ما لا يحسـن، كما هو نهية لأنَّه ينهى صاحبه عمَّا لا يحسـن، وهو عقل لأنَّه يعقله عن ذلك، وحصاة لأنَّه يضبطه.

﴿**اَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ**﴾ ألم تعلم يا محمد أو من يصلح للخطاب ما فعل رَبُّكَ بهم من العذاب؟، وبثمود وفرعون لكفرهم، فلْيَخَفْ قومك تعذيبا مثله على كفرهم.

وهم أولاد عاد بن عيص ـ أو عاص أو عوص ـ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، قوم هود عليه السلام سمُّوا باسم أبيهم.

[بلاغة] ومثل هذا حقيقة عرفيَّة خاصَّة لا مجاز على الصحيح، لأنَّه يقال بلا اعتبار علاقة وملاحظة قرينة، وإنَّما التجوُّز في التسمية الأولى قبل أن تشيع، وكذا تسميتهم إِرَمْ، اسم جدِّهم في الأصل، أو أبيهم عاد أو أمِّهم.

[نحو] وصرِّف باعتبار القوم أو الحيِّ، أو لسكون وسطه كهند ولو اعتبر معنى القبيلة. والجملة مفعول «ترى» علِّق عنها بالاستفهام التعجيبي.

[نحو] ﴿إِرَمَ﴾ بدل «عَادٍ» لا عطف بيان، لأنَّهم عرفوا بعاد أكثر [مِـ]ـا عرفوا بإرم، ومنع الصرف للعلميَّة وتأنيث القبيلة، وقدَّر بعضهم: سبط إرم، وجعل إرم اسم أمِّهم، والسبط ولد الولد، وتفسيره بالجدِّ لا يأبى منع الصرف للتأنيث، لأنَّ المراد أنَّه اسم جدِّهم في الأصل وجعل اسمًا للقبيلة فمنع لتأنيث القبيلة. وقيل: «إِرَم» لفظ عَجميٌّ فمنع الصرف للعلميَّة والعجمة.

وقيل: إرم بن عاد بن شيم بن سام بن نوح، وعن الكلبيِّ: إرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود وأهل السواد وأهل الجزيرة، وكان يقال: عاد إرم، وثمود إرم، فأُهلِكَ عادٌ وثمودُ، وأُبقي أهل السواد وأهل الجزيرة.

وقيل: إرم قبيلة من عاد وكان فيهم الملك، وكانوا بمهرة موضع باليمن، وعاد أبوهم، وقيل: المتقدِّمون من قوم عاد يسمَّون بإرم اسم جدِّهم.

﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ نعت لـ«إرم»، فـ«إرم» مؤنَّث.

[قصص] و«العِمَاد» القُدُودُ الطِّوَال، على تشبيه قاماتهم بالأعمدة، ورجل معمَّد: طويل القامة، فقيل: طول الواحد اثنا عشر ذراعا وأكثر، وأطولهم أربع

مائة ذراع، وهذا تفاوت عظيم عجيب[1]، وكان أحدهم يأخذ الصخرة العظيمة فيلقيها على الحيّ فيقتلهم.

وعن ابن عبَّاس: «العماد» الخيام والأعمدة، أهل بدو في الربيع، وإذا يبس النبت رجعوا إلى منازلهم، وهي منازل جنان وزروع بوادي القرى[2]، وعاد هم الذين قالوا: ﴿مَنَ اَشَــدُّ مِنَّا قُــوَّةً﴾ [ســورة فصّلت: 15]، وقيل: هم بدويُّون دائمًا يحلُّون ويرتحلون. وقيل: «العماد» الرفعة، أو الوقار، أو الثبات وطول العمر.

﴿**التِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**﴾ لم يخلق مثل تلك القبيلة طولاً وقوَّةً في موضع من الدنيا، كأنَّه قيل: لم يخلق مثل أجسامهم في الأرض، فالكلام على أجسامهم لا على البنيان.

وقيل: إرم اسم مدينة هي الإسكندريَّة وعليه محمد بن كعب، وقيل عن سعيد بن المسيّب: دمشق، ويردُّهما أنَّهما ليستا بلاد رَمْلٍ وأحقاف، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرَ اَخَا عَادٍ إِذَا اَنذَرَ قَوْمَهُ بِالَاحْقَافِ﴾ [ســورة الأحقاف: 21]، إلَّا أن يقال ما هنا عاد الأولى، وما في الأحقاف عاد الآخرة، واختلفت منازلهما.

وقيل: مدينة بين عُمان وحضرموت ذات رمال وأحقاف. فإذَا كان إرم اسم مدينة ـ وقيل: اســم أرضهم، وقيل: مدينة عظيمة في اليمــن ـ ردَّ الكلام إلى الأجســام بتقدير مضاف، أي: أهل إرم، أو إلى البنيان، أي: ألم تر كيف فعل ربُّك ببلاد عاد، أو مدينة عاد، أو أرض عاد.

---

(1) لم تثبت شــواهد التاريخ والآثار أنَّ طــول ابن آدم وصل إلى هذا الحــدِّ، فهذا الكلام عجيب حقًّا!.

(2) والصحيح أنَّ وادي القرى في الحجــر لثمود قوم صالح ﵇، وَلَعلَّهَا هــي عاد الثانية، أمَّا الأولى ففي الأحقاف بين اليمن وحضرموت كما سيأتي.

[قصص] وكان لعاد ابنان شدَّاد وشــديد ملكا الدنيا ومات شديد وخلص الأمر لشــدَّاد، وســمع بذكر الجنَّة فبنى مدينة في زعمه مثل الجنَّة في بعض صحاري عدن، في ثلاثمائة ســنة، وعمره تسعمائة ســنة، قصورها وغرفها من الذهب وَالفِضَّة، وأســاطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشــجار والأنهار المطَّردة، وَلَمَّا تمَّ بناؤها أقام في التجهُّز إليها عشــر سنين. فسار إليها بأهل مملكته، وَلَمَّا كان بينهم وبينها مســير يوم وليلــة بعث الله عليهم صيحة فهلكوا، كذا قيل، وهو [كلام] موضوع كما قال ابن حجر.

[قصص] وعــن عبد الله بن قلابة أنَّه خرج في طلب إبــل له فوقع عليها فوجدها مبنيَّة بالذهب والفضَّة والياقوت، وأنواع الجواهر والعيون، والشــجر المثمر في أزقَّتها مفروشــة بذلك وبالمســك فحمل ما قدر عليــه مِمَّا فيها، فاســتحضره معاوية فقصَّ عليه، فبعث إلى كعب فســأله فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المســلمين في زمانك، أشقر قصيرٌ على حاجبه خال وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له، ثمَّ التفت فأبصر ابن قلابة فقال: هذا والله ذلك الرجل. وهو [كلام] موضوع.

﴿**وَثَمُودَ**﴾ قبيلة سُمِّيَت باسم جدِّهم ثمود أخي جديس، وثمود وجديس هما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم عرب عاربة يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك، يعبدون الأصنام. ومُنع الصرفَ للعَلَميَّة، وتأنيث القبيلة.

[لغة] من الثمد، وهو الماء القليل الذي لا مدد له، وثَمَدتْه النساء: قطعن ماءه لكثرة وطئه، وثمد السائلون ماله، وليس لفظًا عجميًّا كما قيل.

﴿**الذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِي**﴾ قطعوا الصخر في وادي القرى وبنوا به بيوتًا، أو يقطعون الصخر ويجعلون محلَّها في الجبل بيوتًا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [سورة الأعراف: 74]، وهم أوَّل من نحت الحجر والرخام، ويقال: بَنَوْا بالحجارة ألفًا وسبعمائة مدينة. وقيل: الباء للسببيَّة أو للآلة لجعلهم إيَّاه محلًّا لمائهم.

[لغة] والجَوْبُ حقيقة في قطع الأجسام مجاز في قطع غيرها، وَسُمِّيَ الجواب جوابًا لأنَّه يقطع السؤال.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أوتاد الخيام الكثيرة، لكثرة جنوده. وقيل: كان يضرب للمعذَّب أربعة أوتاد يشدُّه بها مبطوحًا على الأرض، فيعذبه بضرب أَوْ إحراقٍ أو غير ذلك.

[قصص] روي أنَّ امرأة حزقيل ماشطة بنت فرعون سقط المشط من يدها فقالت: تعس من كفر بالله تعالى، فقالت: هل لك إله غير أبي؟ فقالت: إله أبيك وإله كلِّ شيء الله ﷻ، فدخلت على أبيها تبكي، فقال: ما لك؟ فأخبرته بقولها: إنَّ ربَّ كُلِّ شيء هو الله، فسألها فقالت: نعم.

فمدَّ لها أربعة أوتاد، وأرسل عليها حيَّات وعقارب، فقال لها: أعذِّبك شهرين بهذا إن لم تكفري، فقالت: لا، ولو عذَّبتني سبعين شهرا، فذبح على صدرها ابنتها الكبرى، فقال: إن لم تكفري ذبحت ابنتك الرضيعة، فجيء بها فرقَّت لها فأنطقها الله ﷻ: اصبري فإنَّك تفضين إلى بيت في الجنَّة، فقالت: لا ولو ذبحت من في الأرض.

وهرب زوجها وبعث في طلبه، ورآه رجلان في جبلٍ والوحوش خلفه تُصَلِّي، وقال: «اللهمَّ عبدتك مائة سنة في سرٍّ فأيُّهما كتم عليَّ فاهده وأعطه ما طلب، وعجِّل عقوبة من لم يكتم عليَّ، فقال أحدهما: وجدته ومعي هذا في جبل، فقال للآخر: هل رأيته؟ فقال: لا، فأعطاه وأطلقه وقتل الأوَّل.

وقالت امرأته آسية: ويلك لم قتلت الماشطة وقد صدقت؟! فمدَّ لها أربعة أوتاد حتَّى ماتت، وقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة التحريم: 11]، ورأت منزلها في الجنَّة قبل موتها.

والمراد بـ«فِرْعَوْنَ» شخصه لا قومه، لأنَّه نعت لمفرد مذكَّر، ويبعد أن يراد هو وقومه معبَّرا عنهم باسمه فنعت بمفرد نظرا للفظه، وردَّ عليه ضمير الجمع بَعْدُ نظرًا للمعنى.

[نحو] ﴿**الذِينَ**﴾ نعــت لعاد وثمود وفرعون، ولا دليــل على أنَّه منصوب بمحذوف على الذمِّ، ولا على أنَّه خبر لمحذوف على الذمِّ، ولا على أنَّه مبتدأ لمحذوف، أي: منهم الذين طغوا في البلاد.

﴿**طَغَوْا فِي الْبِلَادِ**﴾ كلٌّ طغى في بلاده، ولكلٍّ من هؤلاء بلاد يجمعها قوله: ﴿فِي الْبِلَادِ﴾، ويبعد أنَّه نعت لـ«فِرْعَوْنَ» نظــرا لمعناه على أن يراد به القبيلة كما مرَّ.

﴿**فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ**﴾ الظلم والجور، أو الإشراك والمعاصي ﴿**فَصَبَّ**﴾ بسبب إكثار الفساد.

[بلاغة] سمِّي إيقاع العذاب صبًّا استعارة من صبِّ المائع الكثير ونحوه، ومثل الحبوب والرمل لجامع التتابع والسرعة والكثرة، والأولى أن يراد التشبيه بصبِّ المطر.

﴿**عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**﴾ أي: سوطا من عذاب، والعذاب ما يعذَّب به كالريح والصيحة والإغراق.

[لغة] والسوط في الأصل مصدر ساط يسوط إذا خلط، وشاع في الجلود المضفورة التي يضرب بها، سمِّي لأنَّه مخلوط من قطع الجلد، أو لأنَّه يخلط اللحم والدم عند الضرب به، وفي التعبير بــه تلويح بأنَّ ما أصابهم في الدنيا بالنسبة إلى ما لهم في الآخرة كالضرب بالسوط.

ويجوز أن يراد بالعذاب التعذيب، والإضافة بمعنى اللام، أو إضافة مشبَّه به لمشــبَّه كلجين الماء، أي: ماء كاللجين، والأصل: عذابا كســوط. والمراد

أنواعا من العذاب مخلوطا بعضها ببعض كاختلاط جلود السوط بعض ببعض. أو «سَــوْط» مصدر بمعنى مفعول، من إضافة النعت إلى المنعوت، أي: عذابا مسوطا، أي: مخلوطا، وقيل: مقدار من العذاب، أو شدَّة عذاب، لأنَّ العذاب قد يكون بالسوط.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ صبَّ عليهم العذاب لأنَّه راصد لهم ولغيرهم من الكفَّار، فلا يخفى عنــه عملهم، فلا يفوته عقابهــم، فليخف قومك أن يصبَّ عليهم عذابا لا يطاق.

فهذا وعيد لهم، ومن هو ربٌّ لك لا يضيِّعك بلا انتقام منهم، ووعيد للكفرة مطلقا، أو لهم وللفسَّاق، أو وعيد لهم ووعد للمطيعين، وليس كون ذلك شاملا للوعيد لهم مخرجا لهم عن التهديد.

و«الْمِرْصَاد»: الموضع الذي يقوم به الراصد، أي: المراقب، وذلك استعارة تمثيليَّة، وأجاز ابن عطيَّة أن يكون المرصاد صفــة مبالغة، كالمضراب لكثير الضرب، ويردُّه أنَّه ليس «المرصاد» من أسماء الله سبحانه وتعالى، وأنَّه لو كان صفة مبالغة لسقطت الباء.

ولا يصحُّ أن تكون تجريديَّة، إذ لا يقبل في الشــرع أن يقال: بالغ الله في شيء حتَّى تولَّد منه مثله، وهذا صفة إشراك جلَّ الله وعزَّ الله، وأيضا ليس ذلك مِمَّا تدخل فيه باء التجريد.

[قلت:] وأرى بعض المشارقة البغداديِّين إذا رأوا لأبي حيَّان حسنة دفنها أو بَغَى لها جوابا[1]، أو رأى سيِّئة أشاعها، ومتى شاء اغتنم منه الفائدة[2].

---

(1) في نسخة (د)، وهي مسودة المؤلف: «عِوجًا»

(2) لعلَّه يعني بهذا البعض الآلوسيَّ في تفسيره.

﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿15﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿16﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿17﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿18﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿19﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿20﴾ ﴾

توبيخ الإنسان على قلَّة اهتمامه بالآخرة، وفرط تماديه في طلب الدنيا

﴿**فَأَمَّا الإِنسَانُ**﴾ قيل: لا يطلب اللهُ تعالى إلَّا السعي للآخرة، ولذلك كان الرصد فأمَّا الإنســـان، ولو لم يكن كذلك لقال: وأمَّا الإنسان (بالواو لا الفاء) فليس تفريعا على هذا المحذوف المقدَّر بل على كونه تعالى بالمرصاد، فإنَّه يتفرَّع على كونه بالمرصاد بيانُ أنَّ الإنسان الكافر أو الفاسق ليس على استقامة في أمره، يبتهج بما يرضيه ويطغى به، ويجزع بغيره، والله ﷻ رقيب عليه يعاقبه على عدم الشكر والجزع.

﴿**إِذَا مَا**﴾ «مَا» صلة للتأكيد ﴿**ابْتَلَاهُ رَبُّهُ**﴾ أنعم عليه ليظهر منه خارجا للشكر أو الكفر كالمختبِر [للإنسان] به، والله عالم الغيب والشهادة.

﴿**فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ**﴾ بيان للابتلاء، والإكرام أعمُّ من التنعيم، لأنَّه بالمال والجاه وصحَّة البدن، وجعله وضيئا مبتهجا، أو إعطاء نعم الرزق، ولعمومه اقتصر عليه في قوله ﷻ: ﴿**فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ**﴾ فخرًا لا شكرًا، أو يقول اعترافًا بفضل الله فيكون الذَّمُّ في قوله جزَعًا: ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ وليوافق القرينة في وزن أَفْعَلَ.

[صرف] فإنَّ أَهَانَ بوزن أَكرَمَ، وهـــو أَفْعَلَ، أصله: أَهْوَنُ نقلت فتحة الواو إلى الهاء وقلبت ألِفًا.

أو يقدَّر: فيقول رَبِّي أكرمني ونعَّمني.

[نحو] والجملة جواب أمَّا، و«أمَّا إِذَا» فمتعلِّقة بـ«يَقُولُ»، وهي والإنسان من جملة جواب «أَمَّـا» قدِّما لِئَلَّا تَتَّصِلَ «أَمَّا» بالفــاء، كقولك: أمَّا اليوم فزيد قائم، واليوم متعلِّق بقائم. ولو قيــل: أمَّا فزيد قائم اليـــوم، لاتَّصلت أمَّا بفاء جوابها، ولا ســيما أنَّهم يتوسَّــعون في الظروف، ولم يتقدَّم هنا ـ زيادة على المبتدأ ـ إلَّا الظرف وشـــرطُه وما عطف على شرطه، وذلك كلُّه كشيء واحد. وليس كقولك: أمَّا زيد طعامك فآكل، لِمَا عَلِمْتَ أنَّ ما في الآية ظرف. وإنكار الرضِيِّ ما ذكرتُ غير مَرْضِيٍّ.

[نحو] وقيل ـ تبعًا له ـ: التقدير: فأمَّا شأن الإنسان إذا ما ابتلاه، حتَّى لا تكون «إِذَا» من متعلّقات الجواب، وهو قول لا يعتبر له شــأن، لأنَّ «شأنًا» لا يتعلَّق به الظرف إلَّا بتأويل، وأيضًا يخبر حينئذ عن الشأن بـ«يَقُولُ» والشأن لا يقول، وإن قيل: الشأن القول فقد تكلَّف بحذف حرف المصدر قبل «يَقُولُ»، وبرفع الفعل بعد حذفه، أو بجعل المضارع بمعنى المصدر بلا تقدير حرف المصدر.

﴿**وَأَمَّآ**﴾ أي: وأمَّا الإنســان، ليكون كالذي قبله، ولا يلزم هذا التقدير ﴿**إِذَا مَا ابْتَلَاهُ**﴾ عامله كالمختبر كالذي قبله هل يصبر؟ وفسَّــر الابتلاء بقوله: ﴿**فَقَدَرَ**﴾ ضيَّق ﴿**عَلَيْهِ رِزْقَهُ**﴾ والكلام في «إِذَا» مثلما مرَّ.

﴿**فَيَقُولُ**﴾ جزعًا لسوء نظره، إذ قد يكون تضييق الرزق صَلَاحًا للدَّارين ﴿**رَبِّيَ أَهَانَنِ**﴾ بتضييق الرِّزق، ولم يقل: فأهانه وقدر عليه رزقه، كما قال: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ لأنَّ تضييق الرِّزق لا يكون للإهانة بل للتَّأديب، وَلِمَا شاء الله من الحكمة.

فالذي أنكره الله عليهم قولهم بطريق الفرح بالدنيا والافتخار: ﴿رَبِّيَ أَكْرَمَنِ﴾ وقولهم بطريق الجزع وعدم الرضى بالقدر: ﴿رَبِّيَ أَهَانَنِ﴾ كما مرَّ، و﴿إِنَّ الِانسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا اِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [سورة المعارج: 19 ـ 21].

ويجوز أن يكون المنكَرَ عليهم قولُهم: أكرمني لاستحقاقي الإكرام لنسبي وحسبي، وقولهم: إنِّي لا أستحقُّ التضييق. وأجيز أن يكون المنكَر نفس الإكرام، فإنَّه استدرجهم بالنعم، كما أنَّ المنكر نفس الإهانة، وأن يكون المنكَر أنَّه أكرمهم لمرتبتهم عند الله تعالى، وأن يكون المنكَر قولهم: «أَهَانَنِي» فقط. ولا تعرُّض في «أَكْرَمَنِي» للمرتبة ونحوها مِمَّا ذكر.

﴿**كَلَّا**﴾ ردعٌ عن القولتين في جميع الأوجه، إلَّا الوجه الأخير فردعٌ عن القولة الأخيرة، والصحيح انسحاب الرَّدع عليهما مبنيًّا على انسحاب الإنكار عليهما.

وعن ابن عبَّاس: «**لم أبتله بالغنى لكرامته، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ، بل للقضاء والقدر**»، وهو أحد الأوجه السابقة، إلَّا أنَّه قال: للقضاء والقدر.

﴿**بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ**﴾ إضرابُ انتقالٍ عن ذَمِّهم بالقولتين ـ على ما مرَّ ـ إلى ذَمِّهم بما هو أشدُّ منهما، وهو إمساكهم المال عن اليتيم ولو وسَّع عليهم الله ﷻ، وعدمُ رغبتهم في إطعام المسكين حتَّى إنَّهم لا يطعمونهُ ولا يأمرُون بإطعامه، واختصاصهم بالميراث عمَّن هُوَ لَهُ، أو منع الشريك معهم عن نصيبه فيه، والحرصُ على جمع المال.

[بلاغة] والخطاب بعد الغيبة لمزيد التوبيخ، كما إذا كنت تذمُّ أحدًا بلا خطاب وهو يسمع، ثمَّ يشتدُّ غضبك فتخاطبه، وذلك حكمة صورة الالتفات، فإنَّ المراد بواوات الجمع هو المراد بالإنسان، لأنَّ المراد به الجنس.

وأجيز أن يقدَّر: «قل بَلْ...» إلخ فلا التفات. وقد لا يسلَّم أنَّ انتفاء الإكرام وما بعده أشدُّ من القولتين بل هما سواء، أو دون القولتين، إلَّا إن اعتبر أنَّ انتفاء ما ذكر لجحود البعث، فيكون أشدَّ من القولتين.

وأحاديث إكرام اليتيم وما بعده مشهورة في كتب الرقائق وكتب الفقه والحديث، كوفاء الضمانة وجامع الشمل[1]، منها قوله ﷺ: «**أحبُّ البيوت إلى الله تعالى بيت فيه يتيم مكرم**»[2].

﴿**وَلَا تَحُضُّونَ**﴾ لا يحضُّ بعضكم بعضا أو أنفسكم أو أهليكم أو أحدا، كما قُرِئَ: ﴿وَلَا تُحَاضُّونَ﴾ بصيغة المفاعلة الموضوعة لما بين مُتَعَدِّد، وكما قُرِئَ ﴿تَحَاضُّونَ﴾ (بفتح التاء وحذف تاء أخرى) بصيغة التفاعل الموضوعة لذلك.

﴿**عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ اسم للمصدر الذي هو الإطعام، كالعطاء بمعنى الإعطاء، أو هو ذات المأكول فيقدَّر مضاف، أي: على إطعام الطعام، كقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾ [الإنسان: 8]، أو على بذل الطعام.

[صرف] ﴿**وَتَاكُلُونَ التُّرَاثَ**﴾ أصله الوِرَاث بالواو قلبت تاء، كالتُّخمة من الوخم، والتُّهمة من الوهم، والمقصود: المال الموروث لا المعنى المصدريُّ.

﴿**أَكْلاً لَّمًّا**﴾ أي: جمعًا، أي: ذا لَمٍّ أو لَامًّا أو هو نفس الجمع مبالغةً، يجمعون الحلال والحرام بأكل نصيبِ مَنْ وَرِثَ معهم، كامرأة وضعيف ومجنون وغائب وطفل، أو يأكلون الكُلَّ ولا نصيب لهم فيه، وكانوا لا يورِّثون النساء والأطفال ومن لا يقاتل.

---

(1) إشارة إلى كتابين في الحديث من كتب الشيخ الكثيرة.

(2) أورده **الذهبيُّ** في كتابه «العدل والميزان»، رقم 725، و**ابن عديٍّ** في الكامل، ج 1، ص 341. من حديث عمر بن الخطَّاب.

والســورة ولو كانت مكِّيَّة قبل نــزول الميراث لكن قد علموا من شــرع إسماعيل ـ جدِّهم عليه السلام ـ بَعْض المواريث، وأمَّا التحسين والتقبيح بالعقل فهو مذهب المعتزلة.

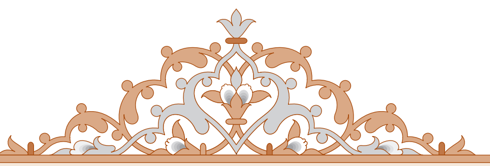
وقيل: تأكلون ما جمع المَيِّت من الحرام. قلت: لعلَّ الآية تجمع [الكُلَّ].

[قلت:] وأخطأ من رخَّص في أخذ الإرث ولو من حرام إذا كان دنانير أو دراهم، أو عروضًا[1].

وأمَّا تفسير الآية بالزجر عن التوسعة في الحلال بالتلذُّذ والإسراف فلا يناســب ما قبل، لأنَّ ما قبل في الزجر للمشــركين عن الْمُحَرَّمَات بالذات لا في الوعظ بهــذا، إلَّا أنَّــه لا مانع من وعظهــم، ولا ســيما أنَّ تلذُّذهم وإسرافهم مبنيٌّ على إنكار البعث، والمراد بالأكل في الموضعين الانتفاع، إطلاقا للمقيَّد على المطلق.

﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾ كثيرا على حرص من حلال أو حرام، وتجمعونه من حلال وحرام، وتمنعون حقوقه.

(1) ينبغي أن تقيَّد الحرمة فيمــا إذا بقي ذلك المال بعينه لم يُغَيِّــره الْمَيِّت ويخلطه بغيره، ولم تتَّضح قيمته.



﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿21﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿22﴾ وَجِايٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿23﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿24﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿25﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿26﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿27﴾ ارْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿28﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿29﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿30﴾﴾

حال الإنسان الحريص على الدنيا والمترفِّع عنها يوم القيامة

﴿**كَلَّآ**﴾ ارتدعوا عن ترك إكرام اليتيم والحضِّ على إطعام الطعام وأكل التراث أكلا جَمًّا وكثرة حبِّ المال.

﴿**إِذَا دُكَّتِ**﴾ عند النفخة الثانية ﴿**الْأَرْضُ**﴾ دُقَّت كما يدقُّ الشيء بالهاون، فيصير مفتَّتا رقيقا، يفعل ذلك بوجه الأرض وما فيها من جبال وشجر وبناء، حتَّى إنَّه يصير ذلك هباء منبثًّا، وتصير ملساء مستوية كاللوح، وقال المبرِّد: الدكُّ حطُّ المرتفع، يقال: اِندكَّ سنام البعير إذا لم يرتفع، وجمل أدكُّ، وناقة دكَّاء.

﴿**دَكًّا دَكًّا**﴾ ليس ذكرهما توكيدا، بل يفيد التكرار، كما تقول: جاءوا اثنين اثنين، وعلَّمته الحساب بابا بابا، وتقول زيد: يأكل مرَّة بعد أخرى، تريد كثرة أكله، وقد تغني التثنية عن ذلك، كما هو وجه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [سورة الملك: 4].

﴿**وَجَآءَ رَبُّكَ**﴾ أمر ربِّك أو قضاؤه، أو لا حذف لكن تمثيل، لظهور آيات قدرته وآثارها، تعالى الله عن التحيُّز والانتقال.

﴿وَالْمَلَكُ﴾ جنس الملك، أو المراد كلُّهم، وهو أوْلى ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ مثل «دكًّا دكًّا»، أي: مصطفِّين، أو ذوي صفوف، صفٌّ وراء صفٍّ، ثمانية صفوف، كلُّ واحد يحدق بما يليه، والثقلان داخل الحدقة، وجاء الأثر بذلك، إلَّا أنَّه لم يذكر فيه ملائكة ما فوق ملائكة السابعة، وقيل: يصطفُّون بلا تحديق على قدر مراتبهم عند الله كصفوف الصلاة.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ دُكَّت، أو يوم إذا دُكَّت ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ ينقلها الله تعالى من موضعها ـ على بُعد موضعها ـ ويحضرها لأهل الموقف، ثمَّ يردُّها لموضعها. قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «**يجاء بجهنَّم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كلِّ زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها**»(1) ويروى: «حتَّى تنصب عن يسار العرش»(2) لها تغيُّظ وزفير [اللَّهُمَّ نَجِّنا].

وروي أنَّ جبريل عليه السلام ناجى النبيء ﷺ، فقام منكسر الطرف، فسأله عليٌّ فقال: «**أتاني جبريل بهذه الآية ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ...﴾**» فقال: كيف يجاء بها؟ فقال ﷺ: «**تقاد بسبعين ألف زمام، على كلِّ زمام سبعون ألف ملك، فتنفلت من أيديهم فلولا أنَّهم يدركونها لأحرقت من في الجمع**»(3). ويروى: «**لولا أنَّ الله يحبسها لأحرقت السماوات والأرض**»(4).

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يتعلَّق بقوله ﷻ: ﴿يَتَذَكَّرُ الاِنسَانُ﴾. وقدِّم للحصر، ولم يتقدَّم له تذكُّر قبل. وهو الإنسان المشرك عموما، وقيل: المراد أميَّة بن خلف، وقيل: أبيُّ بن خلف.

---

(1) أورده **السيوطيُّ** في الدر، ج6، ص390. وقال: أخرجه مسلم والترمذيُّ وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود.

(2) أورده **السيوطيُّ** من كلام ابن عبَّاس. وقال: أخرجه الخطيب في تاريخه.

(3) أورده **السيوطيُّ** في الدر، ج6، ص390 وقال: أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد.

(4) أورده **السيوطي** في الدر، ج6، ص390. وقال: أخرجه ابن مردويه عن عليٍّ بن أبي طالب.

[نحو] وقيل: [«يَوْمَئِذٍ»] بدل من «إِذَا دُكَّت»، ولم يجعل توكيدا لفظيًّا للاختلاف بين «إِذَا» و«إِذْ»، فإِذَا للاستقبال، وإِذْ للمضيّ لتحقُّق وقوع ذلك المستقبِل. ويجوز جعله توكيدا لفظيًّا لـ«يَوْمَئِذٍ» بمعنى: إذ جيء بجهنَّم.

[نحو] ويجوز تقدير: «يوم إذا» في الموضعين، فَنُوِّنَ «إِذَا» وحذفت ألفه وكسر ذاله للساكن، ويناسب ذلك قوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾. و«يَتَذَكَّرُ الِانسَانُ» جواب «إِذَا» فـ«يَتَذَكَّرُ» هو العامل في «إِذَا» وفيما أبدل منها، أو أُكِّد به.

والإنسان: الكافر، والتذكُّر الاتِّعاظ بما يرى من آيات الله ﷻ، حين لا ينفعه الاتِّعاظ، إذ ضيَّعه زمان التكليف [في الدنيا]، وهو زمان حياته قبل المشاهدة، وقيل: التذكُّر عن النسيان إذ سمع بيوم القيامة في الدنيا ولم يؤمن به، وزال عن حافظته.

أو يتذكَّر أعماله وقد نسيها، يحضرها الله تعالى في قلبه، أو يتذكَّرها بمشاهدة آثارها. والمذهب أنَّه لا تتجسَّم الأعمال كما قيل: إنَّها تتجسَّم بصور قبيحة وصور حسنة.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ من أين له التذكُّر وقد فات أوانه، أمَّا على أنَّ قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ الِانسَانُ﴾ بمعنى التذكُّر من النسيان فلا تَعَارُضَ، وأمَّا على أنَّه بمعنى الاتِّعاظ فيقدَّر هنا: أنَّى له الذكرى النافعة؟ أو أنَّى له نفع الذكرى؟ لِئَلَّا يناقض قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، أو يراد هنا ما هو تَذَكُّر في نفس الأمر، فيصحُّ الكلام بلا تقدير مضافٍ أو نعتٍ.

[نحو] و«أَنَّى» اسم استفهام مكانيٌّ بمعنى أين؟ وقيل: من أين؟ يتعلَّق بمحذوف خبر مقدَّم. و«لَهُ» متعلَّق بما تعلَّق به «أَنَّى». و«الذِّكْرَى» مبتدأ، وإذا قيل: معناه أين، فكأنه قيل: في أيِّ مكان التذكُّر فيتناوله؟.

[أصول الدين] وإنَّما تقبل التوبة حين التكليف، وبعد الموت لا تكليف. وقبول التوبة النصوح زمان التكليف فضلٌ من الله تعالى، ولا واجب عليه، ومن أين أنَّ توبتهم نصوح؟ ولا تقبل ولــو فرضنا أنَّها نصوح، وإنَّما تكون نصوحا بقصد صاحبها، وتذكُّر هؤلاء غير توبة في اعتقادهم، ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿**يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**﴾ وفيه أنَّهم يعتقدونه توبة، وَلَمَّا علموا أنَّها لا تنفعهم تمنَّوا أن يكونوا قدَّموها في الدنيا. ومفعول «قَدَّمْتُ» محذوف للعموم. واللام بمعنى في، أي: قدَّمت التذكُّر في حياتي الدُّنيَوِيَّة، أو قدَّمت الأعمال الصَّالحة فيها.

وقيل: المراد بالحياة حيــاة الآخرة، فتكون اللام للتعليــل، أي: يا ليتني قدَّمت الأعمال الصالحة، أو قدَّمت الذكرى لأجل حياتي هذه الآخرة الدائمة لأنتَفِعَ بِمَا فِيها، قيل: أوْ لأَنْتَفِعَ بحياتي هذه، فلا تكون كَلَا حَيَاة، إذ ينشب قلبُه أو نفسُه في حلقه.

والجملة بدل اشتمال من «يَتَذَكَّرُ» أو جواب سؤال ماذا يقول في تذكُّره؟.

﴿**فَيَوْمَئِذٍ**﴾ يــوم إذ يكون مـا ذكــر من الأقـوال والأحــوال، متعلِّق بـ«يُعَذِّبُ» قدِّم للفاصلة وطريق الاهتمام بذكر يوم الهول الشديد، ويقدَّر مثله. ﴿**لَّا يُعَــذِّبُ**﴾ أحدًا ﴿**عَذَابَهُ**﴾ أي: تعذيبــه، مفعول مطلق ﴿**أَحَدٌ**﴾ فاعل «يُعَذِّبُ» ﴿**وَلَا يُوثِقُ**﴾ أحدًا ﴿**وَثَاقَهُ**﴾ إيثَاقَهُ، مفعول مطلق ﴿**أَحَدٌ**﴾ أو قَدِّر المفعول به بعد «أَحَدٌ»، أي: لا يعذِّب عذابه أحدٌ أحدًا، ولا يوثق وثاقه أحدٌ أحدًا.

أي لو وجد معذِّب لأهل النار ومُوثِق لهم بالأغلال غير الزبانية لم يعذِّبهم ولم يوثقهم عذابًا وإيثاقًا مثل العذاب والإيثاق اللَّذين يفعلهما الله تعالى على أيدي الزبانية، بل يكون فعله دون فعل الله في القُوَّة.

والهاءان لله تعالى، أضيف إِلَيْهِما اسم المصدر إضافةً إلى العامل، وإن رجع الهاءان إلى الإنسان فإضافة للمفعول، والعذاب اسم التعذيب كالسَّلام بمعنى التسليم، والوَثاق اسم للإيثاق كالعطاء بمعنى الإعطاء.

ويجوز أن يكون المعنى: **لا يَتَوَلَّى عذاب الله تعالى ووثاقه أحدٌ سواه.** ويجوز أن يكون العذاب والإيثاق بمعنى الإنسان المعذَّب والموثق، فيكونا مفعولاً به، فالهاءان لله تعالى.

والمراد: جنس الإنسان وسائر الجنِّ، وأمَّا إبليس فعذابه ووثاقه أشَدُّ من عذاب كُلِّ أحد ووثاقه.

﴿**يَآ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾ استئناف في ذِكْر أحْوال النفس المطمئِنَّةِ إلى الله تعالى بعد ذكر المطمئنَّة إلى الدنيا، والتقدير: يقال بعد الفراغ من الحساب: ﴿يَآ أَيَّتُهَا النَّفْسُ...﴾ إلخ. والقائل الله تعالى بخلق كلام في الهَوَاءِ أو في أَسْماعِهِم، أو القائل الملك عنه تعالى. و«النَّفْسُ»: الذات.

واطمئنانُها إخلاصها الإيمان بالله والعمل له، ولم تَرْتَبْ، وذلك في الدنيا. أو اطمئنانُها: عدمُ خوفها في الآخرة لإيمَانها وعملها في الدنيا، وتناسبه قراءة أُبيٍّ: «يَآ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الآمِنَةُ الْمُطْمَئِنَّةُ» إلَّا أنَّه يحتمل أنَّ المعنى: الآمنة من الخوف الآن المطمئنَّة في الدنيا إلى الإيمان وإخلاص العمل.

[قلت:] ولا يجوز أن يفسَّر الاطمئنانُ بالإعراض عن كلِّ مَا سِوَى اللهِ واسْتِغناؤُها به للتنقُّل في المعارف، لأنَّ الآية في عموم السعداء وليسوا كلُّهم بتلك الصفة.

قال ﷺ: «**اللَّهمَّ إنِّي أسألك نفسًا مطْمَئِنَّةً تؤمنِ بلقائكَ، وترضَى بِقَضائِكَ، وتقنع بِعطَائِكَ**»[1].

---

(1) رواه **الطبرانيُّ** في الكبير، ج 8، ص 99، رقم 7490. و**الهندي** في الكنز، ج 2، ص 198، رقم 3735. من حديث أبي أمامة.

﴿**ارْجِعِي**﴾ اذهبي، وهذا استعمال للمقيَّد في المطلق، فإنَّ الرُّجوعَ ذهاب الشيء إلى ما كان فيه أو عنده قَبْلُ، فاستعمل في مطلق الذهاب ولو حيث لم يكن قبل.

أو الرجوع على ظاهره لكنَّه عقليٌّ، فإنَّها كانت في الدنيا عند الله بالأَعمال وانفصلت عنه باعتبار الأعمال عند الموت، فترجع إليه بإكرامه في الجَنَّة، وقيل: كان السعداء في موضع مخصوص لهم بكرامة، أو كلٌّ واحد في موضع مخصوص كذلك ثمَّ يُنادون منه للحساب فيرجعون إلى كرمه بالجنَّة ولو اخْتَلَفَ الكَرَمَان.

ويجوز أن يكون المعنى: ارجعي عمَّا أنت فيه من خوف الشقاء، وخوف ردِّ الأعمال، وخوف مناقشة الحساب. أو ارجعي إلى جَنَّة ربِّك بعد كونك في ظهر آدم، وهو فيها على أنَّ جنَّة آدم دار السعادة لا على أنَّها جنَّة في الدنيا.

أو ارجعي إلى كَرَمٍ في الجنَّة بعد أن كنت فيها بالرُّوح أو في القبر بالخير، فإنَّ خير القبر انقطع بالبعث، وبموت الموتى في قبورهم أربعين عامًا كما قيل، يليها البعث.

وقيل: النفس الرُّوح وربُّها جسدها، وقيل: ارجعي أيَّتها الروح إلى الله بعد أن كنت عنده وهذا عند الموت، على أنَّ الأرواح خلقت قبل الأجساد، أو ارجعي أيَّتها الروح إلى الجنَّة الآن بعد أن كنت ترعين فيها وأنت في حواصل طير خضر كما شهر في الحديث[1]. وفي بعض الآثار: إذا مات المؤمن أعطي نصف جَنَّته، وقيل: ارجعي إلى جسدك لسؤال ملكي القبر، وذلك بعد الموت.

---

(1) يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **الترمذيُّ** في كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله، باب ما جاء في ثواب الشهداء، رقم 1565. من حديث كعب بن مالك. ونصُّه: «إنَّ أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجَنَّة أو شجر الجَنَّة».

﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى مَحَلِّ كَرَمِهِ، وفي ندائها بذلك تلذيذ لم يسبق لها مثله، إذ نوديت باسم الاطمئنان، وإضافة الربِّ إليها مع ما بعد ذلك.

﴿رَاضِيَةً﴾ بما تؤْتَيْنَهُ من النعم التي لا تنتهي، فهو حال مقدَّرة، وقيل: راضية بما نِلْتِ من خفَّة الحساب وقبول الأعمال، أو راضية عن ربِّك، فهو حال مقارنة.

[صرف] ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عند ربِّك، اسم مفعول، أصله مَرْضُويَة (بضمِّ الضاد)، قلبت الواو ياءً وأدغمت الياء وكسرت الضاد للياء بعدها.

وذكر المرضية بعد الراضية ترقٍّ، لأنَّ رضا الله أكبر ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة التوبة: 72]. وكذلك جاء على الترقِّي في قوله تعالى:

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ فإنَّ دخول الجَنَّة أعلى من الدخول في عباد الله الصَّالحين بالكون منهم، والانتظام في سلكهم، وقيل: ذلك في الدنيا.

أَمر الله الرحمن الرحيم المؤمن أن يرجع عن كلِّ ما يشغل عن الربِّ إلى الربِّ تعالى، أو يرجع إليه في كلِّ أموره، وأن يدخل في المطيعين بالكون منهم، قولاً وعملاً واعتقادًا، وأن يدخل الجَنَّة بِالقُوَّةِ [أي: بالإمكان].

وإذا كان المدخول ظرفًا محقَّقًا، فالغالب تعدِّي الدخول إليه بنفسه، أو غير مُحَقَّق فالغالب التَّعدِّي بـ«في».

والله أعلم.

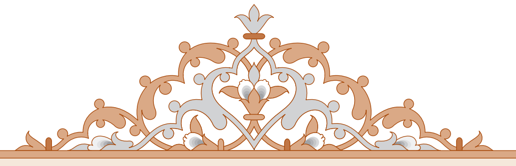
وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



90

تفسير سورة البلد

مكِّـيَّة وآياتها 20 ـ نزلت بعد سورة ق



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿1﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿2﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿3﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿4﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿5﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿6﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿7﴾ ﴾

ابتلاء الإنسان واغتراره بقوَّته وماله

﴿**لَآ أُقْسِـمُ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ «لَا» صلة للتأكيد، أو لَأَنَا أُقْسِمُ، أو نَفَى الإقسام لظهور الأمر، أو لإعظامك، أو لنقصهم حرمةَ هذا البلد بإهانتك فيه، وهو مكَّة، أو أنت أولى بالإقسام بك منه.

وعلى الإثْبَاتِ يكون الإقسام بالبلد تعظيمًا لكون النبيء ﷺ فيه، وهذا تشريف عظيم له ﷺ، وعَلى النَّفي للإقْسَامِ مع أنَّه قد أقسم يكون المعنى: استحقُّوا أو استحقَّ كذا أن لا أقسم، وقد أقسمت لحكمة. أو النفي على ظاهره، كمن قال: لا أقول واللهِ إنَّ زيدًا قائم.

﴿**وَأَنتَ حِلٌّۢ**﴾ نازل. وصفٌ، أو مصدر بمعنى الوصف، أو يقدَّر مضاف. ﴿**بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ الواو للحال، وصاحب الحال «الْبَلَد» قبلها، أو الضمير في «أُقْسِمُ»، أو الجملة معترضة.

[نحو] [قلت:] فإن قيل: الواوُ واوُ الاعتراض لم يُفد، لأنَّ الاعتراض ليس معنى موضوعًا للحرف، فهو خطأ منهم، كما أخطأوا في إثبات واو الاستئناف، لأنَّ الاستئناف ليس معنى موضوعًا للحرف، وإنَّما الاستفتاح والاستئناف والاعتراض أسماء لبيان الموضع.

وأقرب ما أقول: إنَّ واو الاعتراض عاطفة لجملتها على الجملة التي هي في خلالها، فيكون المعطوف قبل تمام المعطوف عليه، ويلتزم ذلك، إذْ لا وجه لذكر الحرف بلا معنًى، كأنَّه من حروف الهجاء التي هي بعض الكلمة.

أو الحلُّ بمعنى: غير مُحْتَرَمٍ في هذا البلد الحرام، كما يستحلُّ الصيد والشجر في غير الحرم، ومثلك لا يستحلُّ، ولا سيما في البلد الحرام، فأنت مكابد، وهذا إشارة إلى قوله بعدُ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الِانسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ وقد استحلُّوا قتله وإخراجه مع تحريمهم صيد الحرم، وفي ذلك ذمٌّ لهم ومدح له ﷺ.

أو الحلُّ بمعنى الحلال ضدَّ الْمُحَرَّم، يحلُّ لك ساعة من نهار أن تقاتل فيه لا لغيرك، وتفعل فيها ما شئت، وذلك يوم الفتح.

[سيرة] والسورة نزلت كُلُّها أو صَدْرُها في مكَّةَ يوم فَتْحِهَا لا قَبْلَ الهِجْرَةِ، وقد أَمَرَ ﷺ الصحابة بقتل أشخاص منهم عبد الله بن خطل، أمر أبا برزة[1] سعيد بن حَرب الأسلميَّ فقتله، وهو متعلِّق بأستار الكعبة، كان يكتب لرسول الله ﷺ ثمَّ ارتدَّ، وأمر بقتل مِقْيَسِ بن صُبابة، وأحلَّ دماء قَوْمٍ وحرَّم دماء قومٍ.

وقيل له: إنَّ أبا سفيان يحبُّ الفخر، فنادى مناديِهِ ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغْلَقَ بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

وعن ابن عبَّاس: السورة مكِّيَّة قبل الهجرة، و«حِلٌّ» للاستقبال، أي: ستفتحها بعد هجرتك، وقيل: «حِلٌّ» بَرِيءٌ من ذنوب أهل مكَّة. وفي إعادة «الْبَلَدِ» بالظاهر لا بالضمير تشريف له.

(1) في النسخ: «بزرة» والصواب ما أثبتناه من كتب الحديث والتراجم.

[سيرة] ومن جملة إحلالها ســاعة إحلالهُ الإذْخر لعمِّه العَبَّاس من عنده لا بوحي خاصٍّ فيه، لأنَّه تعالى أحلَّها له ساعة لا يؤاخذ بما فعل فيها، قال ﷺ: «**إنَّ الله تعالى حرَّم مَكَّة يوم خلق السماوات والأرض، فَهِيَ حَرام إلى أن تقوم السَّاعة، لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي وَلَنْ تَحِلَّ لأَحَدٍ بَعْدِي وَلَمْ تَحِلَّ لِي إلَّا سَاعَةً من نهار، فلا يُعْضَدُ شجرها، ولا يُخْتَلى خَلَاها، ولا يُنَفَّرُ صيدُها ولا تحلُّ لُقَطَتُها إلَّا لمنشــد**»[1]، فقال العَبَّاس: يا رســول الله، إلَّا الإذْخر، فإنَّه لقُيُونِنَا وَقُبُورِنَا وَسُقُوفِنَا، فقال ﷺ: «**إلَّا الإِذْخر**» فقد أحلَّ الله تعالى له أن يحلَّها بعَضدِ الإذْخرِ.

﴿**وَوَالِدٍ**﴾ آدم عليه السلام ﴿**وَمَا وَلَدَ**﴾ ذرِّيَّته كلِّها، عند ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير، وقيل: المراد الصالحون من أولاده ومن ذرِّيته، ووجه التعميم في القول الأوَّل أنَّ الإنسان ولو كافرًا من حيث خلقته شيء عظيم.

وقيل: الوالد نــوح وما ولد ذرِّيَّتــه، وقيل: هُما إبراهيــم وأوْلاده، وقيل: **إبراهيم وإسماعيل والنبيء** ﷺ، لأنَّ البلد حَرَمُ إبراهيم ومنشأ إسماعيل ومولد رسول الله ﷺ، وعليهما فهُمُ المُرادُ، لأنَّ لهم دُخْلاً في البلد، وقد عطفا عليه.

وقيل: هما النبيء ﷺ لتقدُّم ذكره وأمَّته، لقولــه ﷺ: «**إنَّما أنا لكم بمنزلة الوالد**»[2] وقراءة ابن مسعود: «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ». وعن ابن عبَّاس: **كلُّ والد وولده من الثَّقلين** والحيوان.

﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَــانَ فِي كَبَدٍ**﴾ تَعَبٍ، من حين دخلته الرُّوح في البطن إلى أن تخرج بالموت، يتألَّم في بطن أمِّه، وعند الخروج، ورضاعه، وفطامه،

---

(1) رواه **البخاريُّ** في كتاب الحجِّ، باب لا ينفر صيد الحرم، رقــم 1702. من حديث ابن عبَّاس. ورواه **ابن ماجه** في كتاب المناسك، باب فضل مَكَّة، رقم 3100. من حديث صفيَّة بنت شيبة.

(2) رواه **الربيع** في كتاب الطهارة (14) باب في الاســتجمار، رقــم 80. ورواه **أبو داود** في كتاب الطهارة (4) باب كراهيَّة استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، رقم 8. من حديث أبي هريرة.

ومصائبه وكسبه، وموته، ولم يخلق الله خلقًا يكابد ما يكابد ابْنُ آدم مع أنَّه [من] أضعف الخلق.

[لغة] يقال: كبد الرجل: أوجعته كَبِدُه، ومن ذلك المُكَابَدَة لملاقاة الشَّدائد. وكَبَدَه: أَصَاب كَبِدَهُ، كما يقال: رَكَبَه (بفتح الكاف) أَصَابَ رُكبته، أو أَصَابَهُ بركبَتِهِ. وقيل: ﴿فِي كَبَدٍ﴾: في انتصاب قامته. وقيل: منتصبًا رأسه في بطن أمِّه، ويخرج منكوسًا.

وعن ابن عمر: يكابد الشُّكر على السَّراء والصبر على الضرَّاء. وقيل: الكبد انتصاب القامة وليس منكبًّا على وجهه كالبهائم. وقيل: القوَّة، على أنَّها نزلت في أبي الأشدِّ أسيد بن كلدة.

[سبب النزول] ﴿أَيَحْسِبُ﴾ الضمير عائد إلى إنسان خاصٍّ ـ يدلُّ عليه سياق المكابدة التي يكابدها رسول الله ﷺ ـ هو أبو جهل، وقيل: الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وقيل: الوليد بن المغيرة، وقيل: عَمْرو بن عبدِ وُدٍّ، وقيل: أبو الأشدِّ أسيد بن كلدة الجمحي الذي يقف على أديم عكاظي ويقول: من أزالني عنه فله كذا، ويجبذه عشرة فيكون في أيديهم قطعًا ويبقى موضع قدميه، وهم سبب النزول. ويجوز عود الضمير إلى جنس من الإنسان وهم هؤلاء الكفرة المذكورون، أو يعود الضمير إلى المجموع ويصرف التهديد إلى من يستحقُّه.

﴿أَن﴾ أنَّه، أي: الإنسان أو الشأن ﴿لَّن يَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ على جزائه بما فعل ﴿أَحَدٌ﴾ مع أنَّه لا يتخلَّص من الشدائد، وفي ذلك تلويح إلى أنَّه يَظُنُّ أن لن يقدر على بعثه.

﴿يَقُولُ﴾ في الدنيا أو يوم القيامة ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا﴾ كثِيرًا مُتَرَكِّبًا فخرًا على المؤمنين بما أنفقه رياءً وسمعةً، وَلَمَّا كان لا يرجو على إنفاقه ثواب الآخرة لإنكاره لها عبَّر عن إنفاق المال بإهلاكه بمعنى تضييعه، كذا قيل، وفيه أنَّه لا يعدُّ إنفاقُه تضييعًا، لأنَّه قد أخذ به ما يرجو من الرياء من تعظيم وجاه.

وقيـل: يقول ذلـك لأصحابـه إعلامًا لهـم بأنَّه أنفـق ماله فـي معاداة رسول الله ﷺ، أو عَيْبًا على رسـول الله ﷺ. أو إعْلامًا بأنَّه أنفق مالاً كثيرًا في متابعة محمَّد ﷺ كلَّما أذنب ذنبًا أو حنث سأله فألزمه إنفاق مال في الكفَّارات والتبعات في إسلامه، يقول: أهلكت مالاً لبدًا منذ أطعت محَمَّدًا ﷺ. وعلى أنَّه يقول ذلك يوم القيامة إنَّما يقوله تأسُّفًا بعدم الانتفاع به.

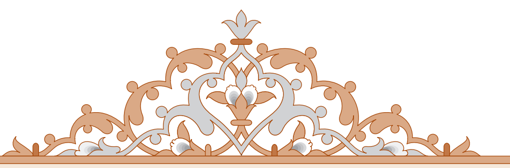
﴿**أَيَحْسِبُ أَن**﴾ أي: أنَّه، أي: الإنسان أو الشأن ﴿**لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ**﴾ لم يعلمه أو لم يجده. و«لَمْ» بمعنى لن لتحقُّق الوقوع، سيوجده الله ﷻ ويحاسبه وكأنَّه قد وقع ذلك، ﴿لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَـدٌ﴾ حين ينفق ما ينفق رياء النـاس، أو حرصًا على معاداة رسول الله ﷺ.

بلى إنَّ الله تعالى يراه ويعلم ضميره ويجازيه، «**لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتَّى يُسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن ماله ممَّ جمعه، وفيم أنفقه؟ وعن شبابه فيم أبْلَاه؟ وعن علمه ماذا عمل به؟**»[(1)].

وذلك الرجل قال: أنفقت كثيرا في متابعة مُحَمَّـد ﷺ أوْ عداوته، ويقول ذلك رياء، وهو على كلِّ حال كاذِبٌ لم ينفق. فقال الله ﷻ: أيظن أنَّ الله ﷻ لم يعلم بكذبه في الإنفاق فيجازيه على الكذب؟. فهو مخاطب بالفروع، وعلى معاداته، كيف لا نعلم كذبه هذا وسـائر أحواله مع أنَّا خلقناه؟ كما قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ...﴾ [(2)].

(1) رواه **الدارميُّ** في كتاب المقَدِّمَة، باب من كره الشهرة والمعرفة، رقم 538. ورواه **الطبرانيُّ** في الكبير، ج 20، ص 60، رقم 111. كما أورده **المنذريُّ** فـي الترغيب والترهيب، كتاب البعث وأهوال يوم القيامة (3) فصل في ذكر الحساب وغيره، رقم 3592. من حديث أبي برزة.

(2) لقد اختلفت أقوال الْمُفَسِّرِينَ في هذه الآيات، وانتقدها الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره لعدم تلاؤمها مع سـياق الآية، واهتدى إلى رأي حسـن ملائم يربط بين مقاطع الأسلوب، وكذا فعل سَيِّد قطب في ظلاله. ارجع إليهما إن شئت.



﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾

تعداد بعض نعم الله على الإنسان ووسيلة النجاة في الآخرة

﴿**أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ**﴾ يبصر بهما؟ ﴿**وَلِسَانًا**﴾ يفصحُ به عمَّا في قلبه؟ ﴿**وَشَفَتَيْنِ**﴾ ينطق بهما مع اللِّسان ويستر بهما فاه ـ عن أن يبدو، وعن أن يدخل فيه أذًى ـ وأسنانَه، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ، ويحسُّ بهما ما لا يليق في الشراب والطعام، ويصون بهما أسنانه، ويدخل بهما نسمًا ويخرجه بهما، ويملأ فاه بمائع ويسدُّه بهما فلا يسيل، ويعامل بهما لعابه كما أراد(1).

[صرف] والتاء عوض عن لام الكلمة، وهي هاء، بدليل شُفيْهَةٌ وشفاهٌ وشافَهَهُ. قيل: ولا يجمع بالألف والتاء، قلت: لا مانع منه ولو لم يسمع، لأنَّ باب القياس مفتوح.

وعنه ﷺ: «**يقول الله: يا ابن آدم إن نازعك لسانُك فيما حرَّمتُ عليك فقد أعَنتُك عَلَيْه بطبقتين فأطبق عليه، وإن نازعك بصرك فيما حرَّمت عليك فقد**

(1) عدَّد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الأشياء بيانًا لأهمِّيَّة الشَّفتين عند الإنسان: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

أعنتُك عليه بطبقتين فأطبق عليــه، وإن نازعك فرجك فيما حرَّمت عليك فقد أعنتُك عليه بطبقتين فأطبق عليه»[1]، أي: بالإزار ولباس فوقه.

﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ نَجْدَ الخير ونَجْدَ الشرِّ، أي: طريقهما، كما روي عن ابن عبَّاس وابن مسعود موقوفًا وعن أبي أمامة مرفوعًا إليه ﷺ، والنجد في الأرض: الطريق المرتفع، وَسُمِّيَت نجد [في الجزيرة العربية] لارتفاعها عن تِهَامة.

وطريق الخير مرتفع وطريق الشــرِّ منهبط، وإنَّما ســمِّي نجدًا تغليبًا، أو باعتبار دعوى أهله، أو لأنَّ له اعتبار في الأحكام وليس ملغًى كالمباح، قيل: أوْ لِتَوَهُّمِ المتخيلة له صعودًا، وهو استعارة.

وعن ابن عبَّاس: الثديــان يقبلهما الولد قبولاً ســريعًا حيــن يولد، كأنَّه اعتادهما قبلُ، وهما طريقا حياته، وفيهما ارتفاع عن البطن وعمَّا بينهما، تقول العرب: «أَمَا وَنَجْدَيْهَا مَا فَعَلْتُ»، أي: وثدي أُمِّي، كذا قيل، فقال عليٌّ: **لا، إنَّما النَّجدان الخير والشرُّ.**

ووجه القول بالثديين أنَّ الآية امْتِنان، والامتِنان بهما ظاهر جدًّا. والصحيح أنَّ النَّجدين طريق الخير والشــرِّ، ووجه الامْتنان باعتبار طريق الشــرِّ أنَّه بيَّنه ليعرف فيجتنب فتحصل النجاة، فالآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّــبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: 3].

﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾ بَيَّنَّا لَهُ فلم يَهْتَدِ، والاهتداء هو اقتحام العقبة، والفاء تفيد أنَّ من شأنه إذ بيَّن له النجدين أن تَتَّصِل سرعتُه إلى الاهتداء بسبب البيان.

[قلت:] ولا يخفى أنَّ دين الإسلام مرتفع الشأن كما ارتفعت العقبة حسًّا، وفيه صعوبة للنفس، لأنَّ فيه مخالفة الهوى، فالاقتحام: الدخول بشدَّة وسرعة. والعقبة: الطريق الصعب في الجبل، اســتعير للدِّين والنجدين، ترشــيح، ولا

(1) أورده **الهنديُّ** في كنز العمَّال، رقم: 43407. وقال: رواه الديلمي، عن أبي هريرة.



استعارة في «اقْتَحَمَ»، لأنَّ الاقتحام حقيقة في الأمر لا مجاز، ولم تكرَّر «لا» مع أنَّها دخلت على الماضي غير الدعاء، لأنَّ العقبة فكُّ الرَّقبة والإطعام.

فكأنَّه قيل: وهديناه النَّجدين، فلا فكَّ رقبةً ولا أطعمَ مسكينًا، وهذا تكرير، أو لأنَّ «اقْتَحَمَ» للاستقبال عبَّر بالماضي لتحقُّق الوقوع، وقد يقال تكريرها غالب لا لازم، لكن لا يتمُّ هذا بمجرَّد وجود عدم التكرير في الشعر كقوله:

إن تغفِرِ اللَّهمَّ تَغْفِرْ جَمًّا   وأيُّ عَبْد لَكَ لَا أَلَمَّا[1]

وقوله:

وكان في جاراته لا عهدَ له   فأيّ أمْر سيِّئ لَا فَعَلَهُ

وقيل: «لَا» هنا على طريق الدعاء، وقيل: الأصل أفلا اقتحم؟، فحذف الهمز، أو فَأَلَا اقتحم بـ«ألا» التحضيضيَّة حذفت همزتها، أي: هَلَّا سَلَكَ طريق النَّجاة. ويردُّهما أنَّ حذف الاستفهام وهمز ألَا لَا يحسن.

﴿وَمَآ أَدْرَاٰيكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ هي أمر عظيم، وإعراب مثله تقدَّم ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي: هيَ فَكٌّ، أو هو فكٌّ، بتذكير الضمير للإخبار عنه بمذكَّر، والعقبة هي نفس الفكِّ، فلا حاجة إلى تقدير بعضهم: «وما أرداك ما اقتحام العقبة». قيل: أو العقبة نفس الشكر لصعوبته، كأنَّه قيل: وما أدراك ما الشكر؟ فكُّ رقبة.

وعن ابن عمر: «العقبة» جبل مزلق في جهنَّم. وعن ابن عبَّاس: «العقبة» النَّار، ويقال: صخرة عظيمة في النار، واقتحامها التخلُّص عنها بالعبادة، كما قيل: اقتحامها مجاهدة النفس والهوى.

أو المراد: فكُّ النفس عن النار بالتوبة من الذنوب و[بِـ] الأعمال الصالحة. ويقال: عقبة بين الجنَّة والنار. ويقال: مطلعها سبعة آلاف ومهبطها سبعة آلآف.

---

(1) البيت لأميَّة بن الصلت، والبيت الثاني للحطيئة.

[قلت:] وأنا أعجب بإكثارهم العدد إذا عدُّوا في هذا ومثله![1] وعلى هذه الأقوال يكون المعنى: **فلا اقتحم مزيل العقبة وما أدراك ما اقتحام مزيلها؟ هو فكُّ رقبة، أي: إعتاق الرقبة أو الإعانة في إعتاقها.**

قال البراء بن عازب: قال أعرابيٌّ: يا رسول الله علِّمني عملا يدخلني الجَنَّة، قال: «**أعتق النسمة وفُكَّ الرقبة**»، قال: أوليسا بواحد؟ قال: «**لا، إنَّ عتْق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفكُّ الرقبة أن تعين في عتقها، والمنحة الوكوف**[2]**، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع، واسْقِ الظمآن، وأْمُر بالمعروف، وانْهَ عن المنكر، وإن لم تطق على ذلك فكفَّ لسانك إلَّا من الخير**»[3].

[فقه] والمكاتب حرٌّ من حينه عندنا، وما كُوتِبَ به دين عليه، قال رسول الله ﷺ: «**من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكلِّ عضو منها عضوًا منه من النار، حتَّى الفرج بالفرج**»[4].

والعتق عند أبي حنيفة أفضل من الصدقة، وقال أبو يوسف ومحمَّد: الصدقة أفضل، وبالأوَّل قال الشعبيُّ، وزاد إيضاحًا أنَّه أفضل من الصدقة ولو كانت صدقة على ذي القرابة اليتيم في زمان الجوع، ونقول: هذا مراد أبي حنيفة لإطلاقه.

---

(1) ولعلَّهم يعنون المبالغة في الكثرة لا العدد بعينه.

(2) المنحة الكثيرة الشاملة، من وكف الشيء إذا عمَّ، ومنه الوكاف: ما يوضع على ظهر الدَّابة، والسحاب الوكوف السحاب الممطر.

(3) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج6، ص395. وقال: أخرجه أحمد وابن حبَّان وابن مردويه والبيهقي. ورواه **البيهقيُّ** في الكبرى كتاب العتق (1) باب فضل إعتاق النسمة وفكُّ الرقبة. رقم 21313. من حديث البراء.

(4) رواه **البيهقي** في الكبرى، كتاب العتق (1) باب فضل إعتاق النسمة وفكِّ الرقبة، رقم 21307 و21308. ورواه **الترمذيُّ** في كتاب الأيمان والنذور (13) باب ما جاء في ثواب من أعتق رقبة، رقم 1541. من حديث أبي هريرة.

وفي الآية تقديم ذكر العتق، فقد يكون ترجيحًا له على الصَّدقة، وقد تترجَّح الصدقة على العتق، ولا سيما إن كانت على اليتيم المذكور، أو على عبد مضيَّق عليه في النفقة، كما جاء في الحديث بــه، إلَّا أنَّه يتقيَّد بأن تكون على متعدِّدٍ، وإدخال السرور على مُتَعَدِّد أفضل من إدخال السرور على واحد، كشأن الكَفَّارَة على عشرة أو سِتِّينَ فلا تعطى لواحد أو على أقلَّ من عددها.

وقد يقدَّم العتق في الفضل لتقدُّمه فــي الكَفَّارَة على الإطعام، إلَّا أنَّ الأمر بالصدقة أكثر وُرُودًا من الأمر بالعتق في القرآن والحديث، وقد يقال: إنَّها شاملة للعتق، وخصَّ بالذكر في مواضع ذكره لمزيَّته، وخصَّ بعضهم الصدقة التي هي أفضل من العتق بأن تكون جارية. وفي الآية التلويح إلى فكِّ الإنسان نفسه بأداء الفرض واجتناب المحرَّم، ولا يجوز أن تفسَّر به الآية.

﴿**اَوِ اِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْــغَبَةٍ**﴾ جوع، وهو مصدر ميميٌّ، يقال: أســغب بمعنى جاع، وقيل في الســغب: إنَّه الجوع العامُّ، بأن يكون الجوع في الناس لقحط أو غيره، وقيل: الجوع مطلقًا مع التعب، وقيل: مع التعب والعطش.

قيل: ونَعْتُ اليوم بذي سَغَبٍ إسنادٌ للزمان مبالغةً، قلت: لعلَّ المراد أطلق الجوع لا بقيد المبالغة. ﴿**يَتِيمًا**﴾ مفعول لـ«إِطْعَامٌ». ﴿**ذَا مَقْرَبَةٍ**﴾ أي: قرابة في النَّســب، فهو مصدر ميميٌّ، وفيه صدقة وصلة، وقيل: المراد ما يشــمل ذلك وقرب الجوار والمعاشرة.

﴿**اَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾ مصدر ميميٌّ بمعنى ذا تُرب، أي: افْتِقار، كأنَّه لا يقيه من التُّراب شيء، أو يقعد على الأرض مطلقًا لا بيت له، وعنه ﷺ: «**الذي مأواه المزابل**»، فإن صحَّ لم يعدل عنه، لكن يقبل التأويل بأن يكون المراد أنَّه لا يتمكَّن من تمهيد الفرش، ولو كان لا يعتاد المزابل[1]. و«أو» للتَّنويع في الموضعين.

---

(1) إذ ليس من شأن المسلم أن يأوي إلى المزابل! أو مراده عليه السلام أنَّه يقصدها عسى أن يجد شيئًا بين نفاياتها يسدُّ به رمقه.

﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ «ثُمَّ» للتَّراخي الرتبيِّ لا الزَّمانيِّ، إذ لا يؤمر باقتحام العقبة ثــمَّ بالإيمان بعده، إذ لا ينفعان بلا إيمــانٍ. ووجه الرتبيِّ أنَّ الإيمان أصل، وقد ينفع بلا عمل، مثل أن يؤمن ويموت قبل وجوب الفرائض عليه، فِعْلٍ أو تَرْكٍ، وأن يؤمن قبل أن يعاين ولا يمكنه أداء شيء، وأن يؤمن ويُجَنَّ قبل أن يكلَّف بفرض إلى أن يموت، وأن يكــون مؤمنًا من الطفوليَّة ويجنَّ إلى موته.

﴿**وَتَوَاصَوْا**﴾ أوصى بعض بعضًا ﴿**بِالصَّبْرِ**﴾ على الطاعات والمصائب، وعن الشــهوات وبالامتثال ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**﴾ أي: بالرَّحمة، فهو مصدر ميميٌّ، أي: أوْصى بعضٌ بعضًا برحمة العباد، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عنِ المنكر، فالرَّحمة فعل العباد كالصَّبر، وتواصوا بأســباب رحمة الله لعباده، وهي الطاعة وترك المعاصي، فحذف المضاف. أو الرَّحمة: الطاعة وترك المعصية، عبَّر عنهما بمســبَّبهما. **وفي التواصي بالصبر تعظيم لله ﷻ، وفي التواصي بالرَّحمة إشارة إلى الشفقة على خلق الله تعالى.**

والأصل في التصــوُّف أمران: صدق مــع الحقِّ، وخُلُق مــع الخَلْق، ولتمايز الوصفين وكمال كلٍّ واحد في شــأنه أعــاد «تَوَاصَوْا» ولم يكتف بالأوَّل، والله أعلم.

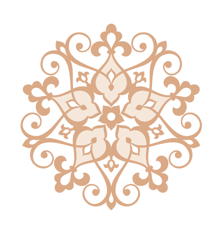
﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ المقتحمون للعقبة المؤمنون المتواصون بالصبر والرحمة. وإشارة البعد لعلوِّ شــأنِهم ﴿**أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ**﴾ اليمين التي فيها السعداء، أو أصحاب البركة، لأنَّ بركتهم أصابت غيرهم.

﴿**وَالذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَاتِنَا**﴾ لم يؤمن بها من حيث إنَّها دليل على الحقِّ من كتب وحجَّة، كمن آمن بالسماوات والأرض أنَّها خلق لله تعالى ولم يجعل دليلاً على صدقه ﷺ، أو أراد القرآن.

﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ﴾ الشمال التي فيها الأشقياء، أو أصحاب الشؤم على أنفسهم وعلى غيرهم إذ هم ضالُّون مضلُّون، وضالُّون ظالمون ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فوقهم كما تحتهم ﴿نَارٌ﴾ عظيمة ﴿مُّوصَدَةٌ﴾ مغلق عليها مُطْبَقَةٌ أبوابُها تشديدًا عليهم، والله المسؤول أن ينجِّينا منها.

والله أعلم.

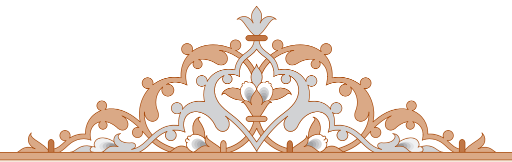
وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



91

تفسير سورة الشمس

مكِّـيَّة وآياتها 15 ـ نزلت بعد سورة القدر



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10)﴾

جزاء إصلاح النفس وإهمالها

﴿**وَالشَّمْسِ**﴾ قال الزجَّاج: جواب القسم قوله: ﴿قَدَ اَفْلَحَ﴾، ولم يقرن باللام لأنَّ طول الكلام قام مقامها.

[قلت:] ولا نسلِّم أنَّ الطول يقوم مقامها، بل الطول يقتضي ذكرها للبيان، ولعلَّ الجواب محذوف، أي: لَيُدَمْدِمَنَّ اللهُ على أهل مكَّة كما دمدم على ثمود لكفرهم، فيكون ﴿قَدَ اَفْلَحَ﴾ تابعا لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ استطرادًا، إلَّا أنَّ الأصل عدم الحذف، فالأولى أنَّ الجواب ﴿قَدَ اَفْلَحَ...﴾ إلخ، لم يقرن باللام لجواز ذلك.

﴿**وَضُحَاهَا**﴾ وقت طلوع الشمس، مثلها وقت العصر، وهو وقت صفاء ضوئها، أو قبل ذلك بقليل إلى الضحى الكبير قبل قرب وقوف الشمس، أضيف إليها لأنَّه بها، وقيل: «ضُحَاهَا» ضوؤها.

[لغة] وقيل: حقيقة الضحى تباعد الشمس عنِ الأفق الشرقيِّ ـ أفُق البلدِ ـ وبروزُها للنَّاظرين، ثمَّ صار حقيقةً في وقته، ثمَّ قيل لأوَّل الوقت: ضَحْوَة، ولِمَا يليه: ضُحًى، ولِمَا يليه إلى قرب الزوال ضَحَاء (بالفتح والمدِّ)، وإذا أضيف إلى الشمس فهو مجاز عن إشراقها.

[صرف] وقال المبرِّد: الضحى مشتقٌّ من الضحِّ، وهو نور الشمس، والألف مقلوبة عن الحاء الثانية، وكذا الواو مقلوبة منها. قال الإمام أبو حيَّان: لا يصحُّ ذلك عن المبرِّد، بل كلٌّ من الضُّحَى أو الضَّحْوَة غير الضحِّ، فإنَّه مَادَّة مخالفة لهما. وأجيب بأنَّ مراد المبرِّد الاشتقاق الكبير لا الاشتقاق الصغير.

قلت: الحقُّ مع أبي حيَّان من أنَّ مراد العبارة الاشتقاق الصغير، لأنَّ الكبير يقال مجازفة لا ميزان حَرْفٍ بِحَرْفٍ مع ذكر القلب.

وقيل: «ضُحَاهَا» حرُّها، وضوؤها وحرُّها متلازمان، وإذا اشتدَّ نورها قوي حرُّها، وهكذا الحَرُّ يتبع الضوء في غيرها أيضًا. وعن مقاتل: إنَّ الضحى النهار كلُّه، على أنَّ الضحى نور الشمس، وهو موجود في النهار كلِّه، ولا يصحُّ هذا عنه، لأنَّ النهار مذكور بَعْدُ، وإن صحَّ عنه ففي غير هذه الآية.

﴿**وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا**﴾ في الطلوع آخر الشهر خفيًّا، فيظهر هلالاً في اللَّيلة الأولى من الشهر عند الغروب، وهذا أوَّل أمره، كما أنَّ الضحى شبابُ النهار، فذلك شأن تعظيمه بالقسم، كأنَّه مولود. وقيل: «تَلَاهَا» في النصف الأوَّل من الشهر بالطلوع، وفي النصف الثاني بالغروب.

وقيل: يليها ليلة أربع عشرة، يلي طلوعُه غروبَها ويقابلها، ويبادر غروبها فيسمَّى بدرًا، وبينهما نصف دور الفلك، والنصف الآخر التحتي، أقسم به لظهور أقوى حالاته.

وقيل: «تَلَاهَا» في الاستدارة ليلة أربع عشرة مثلها، وقيل: «تَلَاهَا» تبعها كلَّ

ليلة آخذًا من نورها، وكذا يتبعها نهارًا لكن لا قُوَّة له، يظهر وله ضوء مغمور بضوئها، كضوء السراج نهارًا في الشمس لا يتعدَّاه.

وقيل: يتلوها في النصف الأوَّل، لأنَّه يأخذ منها، قلت: لا وجه لاختصاصه بالنصف الأوَّل، لأنَّه ولو كان في النصف الأخير ينقص نقصًا، لَكِنَّ الضوء الباقي فيه منها بمقابلة موضعه منه لها.

﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا**﴾ الزمان الذي تظهر فيه، وإسناد التجلية إلى النهار مجاز عقليٌّ، من إسناد الفعل إلى زمانه.

و«هَا» للشمس. وقيل: للأرض، لأنَّ الشمس والقمر سماويَّان يستشعر بهما أهل الأرض. وقيل: للأرض وما عليها، لأنَّ الضوء ينبسط عليها وعلى ما فيها. وقيل: للظلمة، لأنَّها تزال بالنهار. وقيل: الضمير في «جلَّى» لله، أي: إذا جلَّى الله الشمس أو الأرض، أو مع ما فيها، أو الظلمة، فيكون الإسناد حقيقة، وذلك للعلم به وبأنَّه الفعَّال، ولذكره في البسملة.

والظاهر عوده للنهار كأخواته إذ عاد فيها إلى ما يليها إلى قوله: ﴿يَغْشَاهَا﴾ والهاءات للشمس إلى قوله: ﴿يَغْشَاهَا﴾، لَكِنَّ الضمائر فيما بَعْدَ «يَغْشَى» لله تعالى، فيناسب العود لله، إلَّا أنَّه فصل بـ«يغشى» والضمير فيه للَّيل، والصحيح ما مرَّ.

﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا**﴾ غطَّى الليل الشمس، والإسناد مجاز عقليٌّ للزمان، وقيل: «ها» للأرض، وقيل: للأرض وما عليها، وقيل: للظلمة أو للدنيا، أو للأرض ولو لم يجر لذلك ذكر لظهور ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [سورة فاطر: 45]، أي: على ظهر الأرض ولم يَجْرِ لها ذكر.

[صرف] والمضارع للفاصلة، وأخواتها مواضٍ، ولو قال: «غَشَاهَا» (بالتخفيف) لوافق في المضيِّ، لَكِنَّ لغة قلب الياء ألفا في مثل: بقي ورضي

وخشي مرجوحةٌ، ولو قال: «غشَّاها» بالشدِّ للمبالغة لم يتمَّ المراد، لأنَّ المراد الغشـــيان من أوَّل الغروب لا خصوص إذا كملت الظلمة، ألا ترى أنَّ المراد ما يشمل ليالي القمر؟ أو بالشدِّ للتعدية لكان فيه حذف أحد المفعولين.

وقيل: المضارع للتنبيه على استواء الأزمنة عنده تعالى، فتارة بصيغة المضيِّ وتارة بصيغة المضارع، ويجوز أن يكون المضارع للاستقبال على ظاهره، والليل الظلمة الحادثة بعد الضوء، فكمال الظلمة مستقبل بعد.

[نحو] و«إِذَا» بعد الواو فـــي ذلك كلِّه معطوفٌ بواســـطة عطف ما قبله، والجواب واحد للقسم، والعامل أُقْسِمُ، مثل: أنا مصلٍّ لصلاة الفجرِ إذا طلع، والظهرِ إذا زالت الشمس، والعصرِ إذا دخل وقته، والإِذَوَاتُ متعلِّقة بـ«أُصَلِّي» خارجة عن الشـــرط، ولا فعل قســـم مقدَّر للواوات، بل يكفي فعل القسم في الأوَّل، وذلك من العطف على معمولي عاملين مختلفين، أحدهما جارٌّ، نحو: في المسجد زيد والحجرةِ عمرٌو، لكن مختلف فيه.

ولو قدِّر لكلِّ «إِذَا» جواب لم يبق إشـــكال، وكذا لا إشكال إذا خرجت عن الظرفيَّة أيضا وجعلت بدلا مِمَّا قبلها كما قيل:

ألا علِّلَانِـــي قبل نـــوح النَّوائِحِ وقبل ارتقاء النَّفس فوق الجَوَائِحِ
وَبعدَ غَدٍ، يَا لَهْفَ نَفْسِيَ مِنْ غَدٍ إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرَائِحِ[1]

بجعل «إِذَا» بدلا من «غد»، وَلَكِنَّ البدل اشتماليٌّ في الآية ويزول الإشكال بتقدير مضاف قبل ما يليها تتعلَّق به، أي: وتلوِّ القمر إذا تلاها، وتجليَةِ النهار إذا جلَّاها، وغشيان الليل إذا يغشاها.

ولا نعرف تعلُّق «إِذَا» بحال محذوفة، أي: كائنا إذا تلاها، وكائنا إذا جلَّاها، وكائنا إذا يغشـــاها، كما زعم بعض، وتقدَّم كلام في تعليق «إِذَا» بفعل القسم،

(1) البيت لأبي الطمحاني في الأغاني وديوان الحماسة. معجم شوهد اللغة، ج 2، ص 127.

والنهار يوجد بالشمس ويشتدُّ الضحى بها، ويكون الغروب بها، والقمر يتلوها فالأربعة ترجع إلى الشمس.

﴿وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ أي: خلقها، فهو مفعول، أو مفعول مطلق، كما في خلق الله السماوات ونحوه من كلِّ اسم عين إذا عمل فيه إحداثه، مثل: بنيت الدار وحفرت البئر.

[نحو] و«ما» مَصدَرِيَّة، وضمير «بَنَى» لله، وكذا طحا وسوَّى وألهم، وإن جعلناها اسما لله تعالى بمعنى «مَنْ» فالضمير لِـ «مَا» فهو له تعالى، وكذا فيما بعد.

[بلاغة] وإنَّما اختير «مَا» على «مَن» إذا لم تكن مَصدَرِيَّة لإرادة الوَصْفِيَّة تفخيما، كأنَّه قيل: والعظيم الشأن القادر على بنائها، ودلَّ ببنائها على وجوده وعظمته، وذلك لشدَّة إبهام «مَا»، وكأنَّه قيل: شيء مَّا لا كالأشياء، وكذا في الموضعين بعد.

والمراد: إيجاد السماء بحيث تدلُّ على وجوده وكمال قدرته، وطَحْوُ الأرض بحيث يدلُّ طَحْوُها على وجوده وكمال قدرته، وتسويةُ الأرض بحيث تدلُّ على وجوده وكمال قدرته.

[قلت:] لكن لا نسلِّم أنَّ التفسير بـ«مَن» أو بالذي بناها والذي طحاها والذي سوَّاها، أو بِبَانِيها وطاحيها ومسَوِّيها لا يدلُّ على ذلك.

وقيل: «مَا» في ذلك للأمر الذي له بنيت السماء وطحيت الأرض وسوِّيت النفس من الحِكَم، وإسناد الفعل إلى ذلك الأمر مجاز، وفيه بُعدٌ، ولا سيما إسناد الإلْهامِ.

﴿وَالَارْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ بسطها، وألِفُه عن واو أو ياء، لأنَّه يقال طحا طَحْوًا وَطَحَى طَحْيًا. و«مَا» مَصدَرِيَّة، أو اسم، كما فيما قبلُ، وكذا في قوله: ﴿وَنَفْسٍ﴾

الجسد المتضمّن للقُوَى، أو المعنى القائم وهو تلك القوى، من فهم وعلم وتفكير وتخييل وغير ذلك.

﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ والمعنى ـ على المَصدَرِيَّة ـ: والسماء وبناؤه إيَّاها، والأرض وطَحْوُه أو طَحْيُه إيَّاها، ونفس وتسويته إيَّاها ﴿قَدَ افْلَحَ...﴾.

وعلى المَصدَرِيَّة الضمير عائد إلى الله كما مرَّ للعلم به، ولتقدُّم ذكره في البسملة، فتكون المَصدَرِيَّة منسحبة على «أَلْهَمَهَا» أيضًا في قوله ﷻ:

﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ كما تقول: «أعجبني ما قمت فَقَعَدْتَ»، أي: أعجبني قيامُك وقعُودك بعده، وكأنَّه قيل: أعجبني قيامك وتفريع قعودك عليه.

والفاء لمجرَّد الترتيب والتفريع لا باتِّصال، بل يمكن الاتِّصال أيضًا باعتبار أنَّ التسوية تعديل الأعضاء والقوى ومن القوى القُوَّة المُفَكِّرة، والإلهامُ عبارةٌ عن بيان كَيفِيَّة استعمالها في النَّجدين، وذلك غير مفقود وقت التَّسوية.

ويزداد بازدياد القوى كَيفِيَّة لا وجودًا وأيضًا قد مرَّ لك أنَّ الاتِّصال في كلِّ مقام بحسبه، وفي المَصدَرِيَّة إقسامُ الله بفعله، وهو أولى بإقسامه بمخلوقه، ولو كان فعلُه مخلوقه أيضًا.

وقدَّر بعضهم: وربِّ الشمس، وعليه يتعيَّن جعل «مَا» مَصدَرِيَّة في قوله: ﴿وَمَا بَنَاهَا...﴾ إلخ وإن جعلت اسمًا كان العطف على لفظ «ربِّ» المحذوف، وإن لم يكن العطف عليه كان المعنى: وربِّ الشمس وربِّ الذي بناها وربِّ الذي طحاها وربِّ الذي سواها، وذلك باطل [من حيث الصناعة].

ومعنى «سَوَّاهَا» كما مرَّ تعديل الأعضاء والقوى، وإنشاؤها مستعِدَّةً لكمالها، ونُكِّرت النفسُ للتعظيم على أنَّها آدم، أو للتكثير، وهو أولى، وهو

أنسب بقوله ﷻ: ﴿قَدَ اَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ إلَّا أن يُرَدَّ ضمير «أَفْلَحَ» إلى نفس آدم بمعنى آخر عامٍّ، على الاستخدام، وهو خلاف الظاهر. قيل: الإلهام أن يوقع في القلب التوفيق والخذلان.

[أصول الدين] قال رجلان من مزينة: يا رسول الله، أيعمل الناس فيما مضى عليهم وسبق من قَدَر، أو في أمر يستأنفونه؟ فقال ﷺ: «**لا، بل فيما قد قضى الله تعالى عليهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾**»[1].

وفي مسلم عن جابر بن عبد الله: قال سراقة: يا رسول الله بيِّن لنا دينَنا كأنَّا خُلِقْنَا الآن، فِيمَ العمل: فيم جفَّ به القلم؟ أو فيم استقبل؟ قال: «**فيما جفَّ به**»، قال: ففيم العمل؟ قال: «**اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلق له**»[2].

قلنا: ومع ذلك للعبد قدرة واختيار ولا إجبار، مع أنَّ قدرته واختياره بخلق من الله تعالى أيضًا، ألا ترى أنَّك تجدُ من نفسك أنَّك إن شِئتَ فَعَلتَ وإن شئتَ تركت؟.

﴿**فُجُورَهَا**﴾ معصيتها بالقلب والجارحة ﴿**وَتَقْوَيٰهَا**﴾ طاعتها بهما، وإلهامهما تبيُّنهما لها بالوحي والعقل، أو تعريفُها ما يكون صلاحا لها، وما يكون مضرَّة فتتَّقيه، وأمَّا الأمر الشَّرعيُّ فإنَّما هو بالوحي والعقل، وبهما تقوم الحجَّة، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد: 10].

قيل: معنى ﴿أَلْهَمَهَا...﴾ إلخ بيَّن لها الخير والشرَّ، ومثله: عَلَّمها الطاعة والمعصية، ومثله: عَرَّفَها ما تَأتِي وما تَتَّقي. وقيل: ألزمها فجورَها وتقواها.

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب القدر (1) باب كَيفِيَّة الخلق الآدمي في بطن أمِّه وكتابه ورزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم 10 (2650) مع زيادة. من حديث عزرة بن ثابت.

(2) رواه **مسلم** في كتاب القدر (1) باب كَيفِيَّة الخلق الآدمي في بطن أمِّه وكتابه ورزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم 8 (2648). من حديث جابر. ورواه **الربيع** في مسنده، ج 3، ص 201، رقم 796. من حديث ابن عبَّاس.

وقيل: جعل فيها التَّقوى بتوفيقه والفجور بخذلانها. وذلك أنَّه خلق التَّقوى في المؤمن والفجور في الكافر.

وقدَّم الفجــور، لأنَّ اجتنابه تخلية والتَّقوى فيها تحليــةٌ وتخليةٌ، والتخلية مقدَّمة، وللفاصلة، وأضيف للنفس إشارة إلى أنَّ لها اسمَهَا، وهما فاجرة ومتَّقية، وأنَّهما لها بِحُكْمِ جَعْلِهَا مستعدَّةً لشأنهما.

﴿**قَدَ اَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾ اعتنى بتَنْمِيَتها وتطْهيرها بالتَّعلُّمِ والعمل.

[نحو] والجملة جواب القسم، وجُرِّدَ عن اللام تخفيفا لطُول الكلام وسدَّ التطويلُ مســدَّها. وزعم بعض أنَّ الجواب هو ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وبعض أنَّه محذوف تقديره: لَيُدَمْدِمَنَّ على قومك كما دمدم على ثمود.

و«ها» للنفس، وكذا في قوله ﷻ: ﴿**وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ الأصل دَسَسَهَا قلبت السِّين الثالثة ألفًا، كتقضَّى البازي، والتَّشديد للمبالغة، أي: نَقَّصها جِدًّا عن الخير، وأخفاها عن مظانِّه، وذلك باختياره طريق الفجور والإعراض عن طريق التَّقوى.

ولا يخفى أنَّ ضمير زَكَّى ودَسَّــى لـ«مَنْ»، وهو الرابط، و«هَا» للنفس، وقيل: إنَّ ضمير «زكَّى» لله ﷻ، و«هَا» لـ«مَنْ»، وهي الرابط، والتأنيث لتأويل النفس. أو «مَنْ» واقعة على النفس، ويناســبه عود ضمير بنى وطَحَا وَسَوَّى وألهم إلى الله ﷻ.

وكما يناسبه قول ابن عبَّاس موقوفًا: «قَد أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى اللهُ نفسَه فَهَدَاه، وقد خاب من دَسَّى الله نفســه فأضَلَّه»، وقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿قَدَ اَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا...﴾ الآية: «**أفلحت نفس زكَّاها الله تعالى، وخابت نفس خَيَّبَهَا الله تعالى من كلِّ خير**»[1].

(1) أورده **الســيوطيُّ** في الدر، ج 8، ص 531، وقــال: أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشــيخ وابن مردويه والديلمي. من حديث ابن عبَّاس.

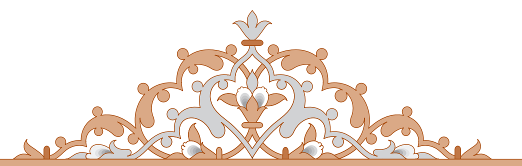
وعنه: إذا قرأ ﷺ ذلك وقف وقال: «**اللَّهمَّ آت نفسي تقواها وزكِّها، أنت خير من زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها، اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»[1].

قلت: هذه الأحاديث ذكر للمعنى في نفس الأمر لا ردٌّ للضمائر، وإلَّا فقد قال أيضًا: «**أنت خير من زكَّاها**»، ففي هذا عموم.

وفي عود الضمير إلى الله سبحانه وتعالى جَرَيَانُ الصِّلةِ على غير ما هي له بلا إبْرَاز، مع عدم أمن اللبس.

---

(1) رواه **الطبرانيُّ** في الكبير، ج5، ص201، رقم 5085. و**النسائيُّ** في كتاب الاستعاذة (13) باب الاستعاذة من العجز، رقم 5473. وأوَّل الحديث عندهما قوله ﷺ: «اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل والبخل...». من حديث زيد بن أرقم.



﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿11﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿12﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿13﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿14﴾ فَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿15﴾﴾

العظة بقصَّة ثمود

﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ وزعم بعض أنَّه جواب القسم أو دليله، أي: ليهلكَنَّ قَوْمَكَ كما دمدم على قوم صالح، وفيه أنَّ الأصل عدم الحذف إذْ وجدنا الجواب بلا حذف، وهو ﴿قَدَ اَفْلَحَ...﴾ إلخ، وحذف اللام منه للطول ـ كما سبق ـ أولى من حذف الجملة. والتزكية مقصودة بالذات ولا نسلِّم أنَّها تبع لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا...﴾ إلخ، فهي جديرة بالجوابيَّة. ﴿**بِطَغْوَىٰهَآ**﴾ تجاوُزها الحدَّ في العصيان.

[صرف] يقال: طغا يطغو طغوانًا وطغى يطغى طغيانًا، فليس مِمَّا صفتُه بالياء ومصدره بالواو، بأن يقال في المصدر: الطغوى، وفي الوصف امرأة طغيا، كتقوى مصدرًا وامرأة تقيا صفة.

والباء سَبَبِيَّة متعلِّقة بـ«كَذَّبَتْ»، وقيل: الباء صلة لـ«كَذَّبَتْ».

والطغوى: العذاب وصفًا لا مصدرًا، على خلاف ما مرَّ، أيْ: كذَّبت بعذابهم الطاغي، أي: مجاوزٌ الحدَّ في الشدَّة، أو مصدر وُصِفَ به العذابُ مبالغة، أو يقدَّر مضاف، أو يؤوَّل بالوصف.

﴿إِذِ انبَعَثَ﴾ مطاوعُ بَعَثَ، بعثته امرأة فانبعث لعقر الناقة، أو بعثته نفسه، أو الشيطان لعقرها فانبعث. و«إِذْ» متعلّق بـ«كَذَّبَتْ» أو بـ«طَغْوَاهَا»، والأوَّل أولى. والتأنيث لتأويل «ثمود» بالقبيلة، وكذا ما بَعْدُ.

﴿أَشْقَاهَا﴾ أشقى ثمود، وهو قُدار (بضمِّ القاف وتخفيف الدال)، ومعناه الجزَّار، وهو قدار بن سالف. أو «أَشْقَاهَا» قدار ومن معه، لأنَّ اسم التفضيل المضاف لمعرفة يجوز إفرادُه وتذكيره، ولو أريد به اثنان فصاعدًا أو مؤنَّث. وهو باق على معنى التفضيل، لأنَّهم شاركوا غيرهم من ثمود في الكفر، وزادوا عليهم بمباشرة القتل للناقة، وبخبائث أخرى فيهم ليست في غيرهم من ثمود.

﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ أي: لثمود أو لأشقاها، مرادٌ به الأَشْقَوْنَ ﴿رَسُولُ اللهِ﴾ صالح عليه السلام، وذَكَرهُ باسم رسول الله لا باسم صالح إشعارًا بذمِّهم، إذ عصوا من هو رسول من الله تعالى، وبأنَّه جدير بأن يطاع.

﴿نَاقَةَ اللهِ﴾ أضافها إلى الله عز وجل، لأنَّها خلقة منه بلا أمٍّ لها ولا أبٍ، وأضافها إلى الله تعالى إعظامًا لها، وتأكيدًا في ذمِّهم إذ اجترؤوا على قتل ناقة الله تعالى، لم يجر عليها مُلكُ أحد من جهة من جهاتها، اخْتَصَّ الله تعالى بها، ولو قتل أحدٌ دَابَّة سلطان ذي بطش لاستقبح الناس العقلاء كلُّهم فعله.

[نحو] والنصب على التحذير منها هكذا إجمالاً وعمومًا، ليصرف إلى كلِّ ما يليق، فهو أولى من تقدير مضاف، أي: احذروا عقر ناقة الله، وشرطُ النصب على التحذير العطف على المحذَّر منه أو مثل العطف، كواو المعيَّة و«مع»، كما عطف «سُقْيَا» على «نَاقَةَ»، أو تكرير المحذَّر منه، أو كونه محذَّرًا بما بعده.

﴿وَسُقْيَاهَا﴾ لا تمنعُوها عن شربها في نوبتها، ولا تنقصوا منه.

[نحو] والواو عاطفة كما مرَّ، واختير أن تكون واو المعيَّة. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ عطفًا على ما قبله عطفا على المعنى، فإنَّ معنى ﴿نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أنَّه يصيبكم عذاب إن عقرتموها، فكأنَّه قيل: قال لهم رسول الله: إن عقرتموها هلكتم، فكذَّبوه، عطف على «قَالَ» كما قال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَاخُذَكُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف: 73]، بل ﴿نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾ في معنى: لا تَمَسُّوها بسوء.

أو يقدَّر القول، أي: قال لهم رسول الله عليه السلام: قال الله لكم: ناقة الله وسقياها فكذَّبوه في قوله قال الله، وذلك أنَّ التكذيب يقع في الإخبار لا في الإنشاء.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: نحروها بعدما ضربوا سوقها. والضمير للأشقى مرادًا به الجماعة وإن باشر قتلها قُدارُ وحده، فالجمع لِرِضاهُم وأمْرِهم، أَمَرَ مَنْ أَمَرَ ورَضِيَ الكلُّ. وعن قتادة: لم يعقرها حتَّى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أصله دمَّم (بثلاث ميمات) قلبت الثانية من جنس الدال الأولى، أي: أهلكهم، والدَّمدمة الهلاك، أو أطبق العذاب التامَّ عليهم مستأصلاً، فوزنه: «فَعْفَلَ» لا «فَعْلَلَ» كدحرج.

﴿رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ بسبب ذنبهم، والفاء في «فَدَمْدَمَ» كافية في الدلالة على السَّبَبِيَّة، أي: دمدم عليهم لتكذيبهم وعقرها، ولكن عبَّر عن السبب بعنوان الذنب صريحًا ليعلم السامع أنَّ الذنب مهلك.

﴿فَسَوَّيٰهَا﴾ سوَّى الدمدمة المعلومة من «دَمْدَمَ» بأن استووا فيها، ولم يفلت منهم أحد حتَّى الرضيع، أو سوَّى ثمود، والتأنيث للقبيلة.

﴿فَلَا يَخَافُ﴾ الربُّ عز وجل، وقيل: الرسول، **والأوَّل أولى** ﴿عُقْبَاهَا﴾ عقبى الدَّمدمة، تباعةَ انتقامٍ منه عليها، كما يخاف الملوك العواقب على الظلم، لأنَّه فعل في ملكه، ولا يسأل عَمَّا يفعل، وهو العزيز الغالب.

[بلاغة] وفي ذلك استعارة تمثيليَّة، وفيه إهانتهم وإذلالهم.

[نحو] وقرئ بالواو، والواو للحال أو للعطف على «دَمْدَمَ» عطف قِصَّة على أخرى. وقيل: هـي لغير الحال ولا بُدَّ إذا رُدَّ الضمير للرسـول ودعا بهلاكهم، لأنَّه أنذرهم وعصوه ومع ذلك لا يخـاف بل يرجو الثواب من الله عزَّ وجلَّ.

اللهمَّ عافنا من كلِّ بلاء.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

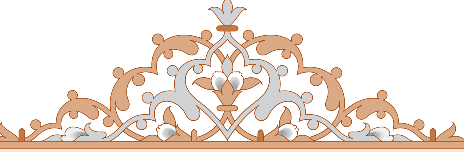




92

تفسير سورة الليل

مكِّـيَّة وآياتها 21 ـ نزلت بعد سورة الأعلى



﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾

اختلاف الناس في مسعاهم

﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ**﴾ أي: يغشى الأرض وما عليها، أي: يغطِّيها بظلمته، أو يغشى الشمس، أي: يضادُّها ويكون على موضع كان فيه أثرها، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [سورة الشمس: 4]، أو يغشى النهار، كقوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [سورة الأعراف: 54]، أي: يجعل الله الليل غاشيًا للنهار.

﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ**﴾ ظهر بزوال الظلمة إذا قلنا: والليل إذا يغشى النهارَ، أو كلَّ موضع كانت فيه الشمس، والحاصل اعتبار وجود الظلام.

أو «النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ» انكشف بطلوع الشمس، على تفسير غشيان الليل بغشيانه الشمس، إذ الحاصل اعتبارُ غروبها، فيحسن جِدًّا التقابل بين «يَغْشَى» و«تَجلَّى»، ولا يفوت الحسن في غير ذلك التقابل.

﴿**وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰٓ**﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، فيكون اللهُ تعالى أقسم بفعله، وهو إنشاؤه الذكر والأنثى، أو اسم موصول بمعنى الذات في موضع «مَنْ»، واختيرت للدلالة علــى الإبهامِ تفخيمًــا، والوصفيَّةِ، على حدِّ ما مرَّ فــي ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ [سورة الشمس: 5]، فيكون الله أقســم بذاته لا بفعله، **والأوَّل أولى للسلامة من تأخير الإقسام بالله تعالى** عن الإقسام بغيره.

لكن قد وقع الإقسام بغيره قبل الإقسام به في مواضع، كما تتقدَّم الخدم بين يدي السادات، وكم سنَّةٍ قُدِّمت على فرض، ونَوْرٍ على غصن.

[قراءة] وَرُوِيَ عن الكســائيِّ جَرُّ «الذَّكَرِ» توهُّمًا لمعنى المَصدَرِيَّة، أي: وخَلْقِ الذَّكَرِ، بجرِّ «خلقِ» عطفًا على «اللَّيْلِ» كقوله:

تــطــوف الــعُــفَــاةُ بــأبــوابــه   كما طــاف بالبَيْعــةِ الرَّاهبِ(1)

[نحو] بجرِّ الرَّاهب اعتبارا للمصدريَّة في طاف، كأنَّه قال: كطواف الرَّاهب، وقيل: إنَّ الجرَّ لجوار جــرِّ «بالبيعة»، إذ الجرُّ على الجــوار قد يكون في غير النعت، وباب الإتباع واســع، كما قرئ: ﴿الْحَمْدِ لِلهِ﴾ بكســر الدال تبعًا للَّام بعدها، وبضمِّ اللام تبعًا للدال قبلها.

وتوهُّم المَصدَرِيَّة ـ ولو أمكن ـ لا يحمل عليه القرآن فضلاً عن أن يتعيَّن لجواز أن يكون «الذَّكَر» بدلاً من «مَا» على أنَّها اسم، ويدلُّ على أنَّها اسم قراءة بعض: «وَالذِي خَلَقَ الذَّكَرَ».

والمراد الذكر والأنثى من الحيوان مطلقًا، الإنس والجنِّ وغيرهما، تعميمًا لذكر القدرة، وقيل: من بني آدم لعظم شأنهم وحسن صورتهم، ولأنَّ الآيات فيهم، وقيل: هما آدم وحواء، لأنَّهما الأصل وغيرهما تبع، ولا دليل قاطعًا على التخصيص.

---

(1) أورده عدَّة مفسِّــرين ولغويِّين ولم ينســبوه. والعُفَاة: جمع عَافٍ، وهــو الضيف أو من جاء يطلب معروفًا أو فضلًا. ينظر: اللسان. (عفَا).

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ أي: أعمالكم، لأنَّ السعي مصدر مضاف فصحَّ للاستغراق، ولكونه للعموم أخبر عنه بـ«شَتَّى» في قوله: ﴿لَشَتَّىٰ﴾ جمع شتيت، أي: مفترق، والمراد بافتراقه كونه طاعة ومعصية، وكونه بثواب وعقاب، كما فصَّله بقوله:

﴿فَأَمَّا مَنَ اَعْطَىٰ﴾ كالصدِّيق وأبي الدحداح، والتَّعميم أولى، ولو كانا سبب النزول.

ويجوز أن يراد بالسعي الجنس والحقيقة، فيكون «شتَّى» مصدرًا أخبر به مبالغةً، فهو كبشرى وذكرى، ويؤوَّل بالوصف، أي: شتيتا، أو يقدَّر مضاف، أي: ذو شتَّى، أي: ذو افتراق بالثواب والعقاب والطاعة والمعصية.

وإن فسَّرنا الافتراق بكون بعض يطلب الليل الغاشي، وبعض يطلب النهار المتجلِّي، وبعض يستعين بالذكر وبعض بالأنثى، كَانَ أنسبَ بالقَسَم، لكنَّه بارد، ولا يكون قوله: ﴿فَأَمَّا مَنَ اَعْطَىٰ﴾ حينئذ تفصيلاً بل مجرَّد تفريع.

والمراد بالإعطاء إعطاء المال في سبيل الله تعالى، وقيل: إعطاء الحقوق، كالزكاة وَالكَفَّارَة، وهذا على أنَّ السورة مَدَنِيَّة، لأنَّ حقوق المال [شرعت] في المدينة.

[قلت] ونصَّ بعض أصحابنا على أنَّه لا يجوز التفسير في القرآن بالنزول إجمالاً وتمهيدا والتفصيل في المدينة[1]، والجمهور على أنَّها مكِّية، وقيل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا اَلاتْقَى ...﴾ إلخ مدنيٌّ وما قبلها مكِّيٌّ.

أو المراد بالإعطاء نفي البخل، فلا يقدَّر له مفعول، وقيل: أعطى الطاعة ووجهه مقابلة قوله: ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ أي: اتَّقى المعصية، ويردُّه سبب النزول، وأنَّ المعروف بالإعطاء المال، ولو كان قد يستعمل في غير المال، وقدَّم الإعطاء لأنَّه سبب النزول.

(1) ولعلَّ من يقول هذا هروبا من تأخير البيان عن وقت الحاجة، وليس الأمر كذلك.

﴿وَاتَّقَىٰ﴾ أي: حـــذر العقابَ بأن امتثل أمر الله تعالـــى ونهيه، وقيل: ترك المحارم، وقيل: أطـــاع الله تعالى، وقيل: اتَّقى البخل، وفيـــه أنَّه يكون تكريرًا لقوله: ﴿أَعْطَىٰ﴾ والأصل عدمه، إلَّا إن فُسِّرَ الإعطاء بالإنفاق هكذا، فيكون فيه الدعاء إلى الإنفاق، والأمر بأن يكون عن جود لا عن شحٍّ، والأوَّل أولى.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ بالكلمة الحسنى، وهي شهادة أن لا إلهَ إلَّا الله محمَّد رســـول الله ﷺ، وجرت العادة على إطلاق التوحيد على قول: «لا إله إلَّا الله» لأنَّه ﷺ يأمرهم به، فمن قاله من المشركين فقد صدَّق رسول الله ﷺ، فدخل فيه «محمَّد رسول الله».

أو «الْحُسْنَى» الكلمة الحسنى، فشملت التوحيد، لأنَّ المراد الكلمة الحقَّة، فيدخل التوحيد أوَّلاً، وقيل: بالملَّة الحسنى، وهي ملَّة الإسلام، وقيل: المثوبة الحسنى بالخلف في الدنيا مع المضاعفة، وقيل: الجَنَّة، وقيل: المثوبة مطلقًا، ويجوز أن يراد بالحسنى التوحيد وخصاله، كالإيمان بالبعث والملائكة والكتب والقضاء والقدر والحساب.

وأخَّر الإيمان عن الاتِّقاء لِيُذْكَرَ مرَّتين: يُذْكَر في عموم الاتِّقاء، ويُذكر خصوصًا عطفًا للخاصِّ لمزيَّته على العامِّ، لا للفاصلة، لأنَّه لو أخِّر «اتَّقَى» لتمَّت الفاصلة أيضًا.

وقيل: أخَّرَ الإيمان لأنَّ من جملـــة إعطاء الطاعة الإصغـــاءُ لِتَعَلُّمِ كلمةِ التَّوحيد التي لا يتمُّ الإســـلام إلَّا بها، ومن جملة الاتِّقاء اتِّقاء الشِّرك، وهما متقدِّمان على ذلك، وهذا ضعيف مع ما مرَّ أيضًا من أنَّ تفسير الإعطاء بإعطاء الطَّاعة مرجوح.

[سبب النزول] وذلك نزل في أبي الدحداح الأنصاريِّ، كان في دار منافق نخلة يقع منها في دار يتامى فقراء، وقيـــل: في دار رجل فقير له صبيان ـ وهو



الصحيح ـ يقع منها في جواره بعضُ بلَحٍ، فيأخذه منهم وينزعه ولو كان في أفواههم، فقال له ﷺ: دَعِ النَّخلة لهم ولك نخلة بدلها في الجنَّة فأبى، وقال: إنَّها أفضل نخيلي، فاشتراها أبو الدحداح بحائط له حين بلغه قول رسول الله ﷺ لذلك المنافق، فقال للنبيء ﷺ: أَهَبُهَا لهم بالنخلة التي في الجنَّة، فقال: النبيء ﷺ: افْعَل، فوهبها فنزلت، وقال ﷺ: «**كم من نخل رداح لأبي الدحداح في دار الفلاح**»[1].

وفيه أنَّ هذا في المدينة والسورة مكِّية، إلَّا أن يقال: نزل فيها ما سيكون في المدينة، وبَسَطتُّ القصَّة في «الهميان».

ويروى أنَّ أبا قحافة قال لابنه أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أنَّك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقيمون دونك، فقال: يا أبت إنَّما أريد ما أريد، فنزل: ﴿فَأَمَّا مَنَ اعْطَىٰ...﴾ إلى ﴿... مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ وأراد بقوله: «أريد ما أريد» ابتغاء وجه ربِّه الأعلى.

[عتقاء أبي بكر] وكان أميَّة يعذِّب بلالا على الإسلام يخرجه إلى بطحاء مَكَّة في الحرِّ الشديد، ويجعل عليه صخرة ويقول: كذلك تكون حتَّى تكفر بمحمَّد، فيقول: «أحد، أحد»، يعني لا إله إلَّا الله، فاشتراه الصدِّيق شفقة عليه، وتخليصا لمسلم من يد مشرك. وكذا أعتق عامر بن فهيرة، شهد بدرا وأحدًا، ومات شهيدا يوم بئر معونة. والنهديَّةَ وابنَتَهَا كانتا لامرأة من بني عبد الدار تحطبان [لها]، وتقول: والله لا أعتقهما. ودنيرة وأمَّ عميس وأمة بني المؤمل. فهم سبعة مسلمون في أيدي المشركين يعذِّبونهم على الإسلام فاشتراهم الصدِّيق وأعتقهم.

وعن ابن مسعود: اشترى الصدِّيق بلالا من أميَّة بن خلف ببردة وعشرة أواق فأعتقه. وعن ابن عبَّاس: برطل من ذهب، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا

(1) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ. وعند **أحمد** ما يقاربه، رقم: 12482. من حديث أنس.

يَغْشَى...﴾ إلى ﴿...لَشَتَّىٰ﴾. وقيل: اشتراه بعبد له كافر يُسَمَّى نسطاطا مع ما في يده، وهو عشرة آلاف دينار وغلمان وجوار ومواش، وكان [بلال] قويَّ البدن كثير التصرُّف فأعتقه، فقال المشركون: فعل ذلك لِيَدٍ كانت لبلال على أبي بكر، فنزلت الآية، وكان بلال لبعض بني جمح ثمَّ لأميَّة بن خلف، وهو بلال بن رباح وأمُّه حمامة.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ الخصلة النافعة السهلة، وهو تبشيره عند الموت وعند البعث، وإعطاء كتابه بيمينه وتسهيل الموقف ودخول الجنَّة ونحو ذلك، وقيل: طريق المشي إلى الجنَّة في الآخرة.

وقيل: المقصود بالخصلة اليسرى الراحة والتنعُّم، سمّي به ما ذكر من التبشير وما بعده لأنَّ ما ذكر سبب للراحة وملزوم للراحة، أو أسند «اليسرى» إلى ما ذكر مجازا عقليًّا، أو شبَّه ما ذكر بشيء يوصف باليسرى، على الاستعارة التصريحيَّة، وقيل: «الْيُسْرَى» طريق الجنَّة، وقيل: الطاعة، أي: نزيده منها ومبادئها من الصفات المحمودة.

ويقال: قدَّم الإعطاء مع أنَّه أدنى رتبة من الاتِّقاء والتصديق في جلب التيسير إيذانا بأنَّ الإعطاء أصيل للتقوى والتصديق. والسين للتأكيد هنا وفيما بعد، أو للاستقبال، لأنَّ معظم الثواب والعقاب في الآخرة.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بماله، أو بماله وجاهه وما بيده من النفع، وقيل: بفعل ما أمر به كأميَّة بن خلف وأبي جهل، والتعميم أولى، وهو مقدَّم على سبب النزول.

﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ زهد فيما عند الله ﷻ، كأنَّه مستغن عنه فلم يشتغل بما ينفعه عنه، هذا هو الظاهر، أو استغنى بشهوات الدنيا عن النعيم الدائم، ووجهه أنَّه في مقابلة «وَاتَّقَى» كما أنَّ قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ في مقابلة ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ وقد مرَّ تفسير الحسنى.

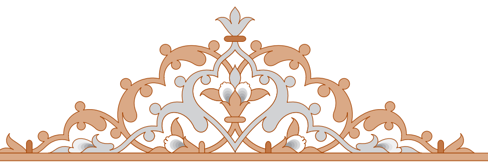
﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ نهيّئه ونخذله ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ الخصلة العسرى، مثل ما تقدَّم في أوجهه على التضادِّ، فمنها أنَّها طريق المشي إلى النار في الآخرة.

قيل: قدَّم البخل مع أنَّه أدنى رتبة من الاستغناء والتكذيب إيذانا بأنَّه أصيل في الاستغناء والتكذيب، وإطلاق التيسير هنا مشاكلة.

ويتحصَّل من بعض ما تقدَّم من الأوجه أنَّه من أعطى فسنوفِّقه، وتكون الطاعة عليه أيسر الأمور، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُّرِدِ اللهُ أَنْ يَّهْدِيَهُ...﴾ إلخ [سورة الأنعام: 125]، ومن بخل سنخذله فتكون الطاعة عليه أعسر شيء، كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرِجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ﴾ [سورة الأنعام: 125].

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَـرَدَّىٰٓ﴾ أي: أيَّ إغناء يغني عنه ماله من نفع أو ضرٍّ إذا هلك؟ و«ما» استفهاميَّة إنكاريَّة مفعول مطلق، أو لا يغني عنه ماله شيئا من نفع أو ضرٍّ إذا هلك و«مَا» نافية.

وقيل: تردَّى في قبره، وقيل: في النار، وقيل: لبس رداءه، وهو كفنه، وهذا كناية عن الموت، لأنَّ الكفن لباس الميِّت.



﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

تأكيد قدرة الله على مكافأة الفريقين

﴿**إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ**﴾ الإرشاد إلى الحقّ، أو تبيُّنه للمكلَّفين، وقد أرشدنا وبيَّنّا فلا عذر لمن بخل واستغنى وكذَّب بالحسنى.

[بلاغة] شبَّه القضاء والحكم بالوجوب الذي لا يتخلَّف بجامع عدم التخلُّف، وكأنَّه وجوب مستحقٌّ لـ«على»، فاستعمل فيه «عَلَى» التي للوجوب على الاستعارة التبعيَّة.

[أصول الدين] ولا واجب على الله سبحانه، فلا دليل للمعتزلة في الآية على وجوب الأصلح على الله ﷻ، وهذا القضاء المشبَّه فعلٌ لله تعالى، وهو الإثبات الذي أثبته إليهم أن يهديهم، وأمَّا القضاء بمعنى العلم الأزليِّ بأنَّه سيكلِّفهم فصفة ذات، وصفة الذات هو ﷻ، لا تشبَّه بشيء ولا يشبَّه بها شيء.

وإنَّما ذكرت الإرشاد والتبيين معا لأنَّ الإرشاد: دعاؤك مثلا أحدا إلى فعل شيء أو تركه هكذا، والتبيين: ذكرك أنَّ الحقَّ كذا وأنَّ الباطل كذا.

وقيل: المعنى إنَّ الهدى موكول علينا، أي: مستند فيه على أمرنا ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنَ اَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ﴾ [سورة القصص: 56]، وفيه أنَّ



الكون الخاصّ لا يحذف إلّا لدليل، ولا دليل هنا، والكون الخاصُّ هنا موكول فلا يقدَّر، بل الكون العامُّ وهو ثابت.

وقد مرَّ التخلُّص من دعوى الوجوب على الله ﷻ؛ وقد يقال: الحقُّ له ﷻ، فعلى بمعنى اللام، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنَ اَحْبَبْتَ﴾ دليل، وقيل: هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [سورة النحل: 9]، أي: من سلك الطريق المبيَّنَة وصل إلينا، وهو خلاف الظاهر.

وقدَّم «عَلَيْنَا» للفاصلة والحصر، وكذا قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَنَا﴾ وحدنا ﴿لَلَاخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ نتصرَّف فيهما ونحكم بما نشاء من جزاء من أعطى واتقى وصدَّق، ومن بخل واستغنى وكذَّب، أو هما لنا ولا نحتاج ولا يصلنا ضرٌّ ولا نفع، ولا نفتقر إلى شيء، ولا يضرُّنا ضلالكم، ولا ينفعنا اهتداؤكم.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ تتلظَّى، أي: تلتهب، وحذفت إحدى التاءين، وقرأ بهما عبد الله بن الزبير وغيره. ﴿لَا يَصْلَاهَآ﴾ لا يدخلها أو يقاسي حرَّها ﴿إِلَّا اَلَاشْقَى﴾ اسم تفضيل خارج عن التفضيل، ومعناه الشقيُّ، فشمل من بالغ في الشقوة ومن لم يبالغ، والمراد المشرك لقوله تعالى: ﴿الذِي كَذَّبَ﴾ بالحقِّ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عنه وعن الطاعة.

والحصر إضافيٌّ، أي: إنَّما يدخلها المشرك الشقيُّ لا الموحِّد المطيع، فيبقى الموحِّد الفاسق لم يذكر فيؤخذ حكمه من الآي الأخر والأحاديث، وهو دخول النار وعدم الخروج.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ يجعل مجانبا لها لا يدخلها ﴿اَلَاتْقَى﴾ خارج عن التفضيل، فيشمل من بالغ في التقوى ومن اتَّقى دونه، والموحِّدُ الفاسق لا يسمَّى تقيًّا. و«اَلَاتْقَى» نائب الفاعل، وهو المفعول الأوَّل، لأنَّه فاعل في المعنى، فإنَّه متجنِّب ومجانَب وبعيد.

﴿**الذِي يُوتِي مَالَهُ**﴾ أي: يصرفه في وجوه الخير ولا يبخل به، وليس المراد بيان من يأخذه، فهو على عمومه، فهو في الآية متعدٍّ لواحد هو المفعول الأوَّل، وهو المال، لأنَّه فاعل في المعنى، لأنَّ المعنى: يصيِّره آتيا الفقير مثلا. ﴿**يَتَزَكَّىٰ**﴾ يتطهَّر من الذنوب بإيتائه، أو يطلب أن يكون عند الله ﷻ زاكيا.

بعث ابن الزبير إلى عائشة ﵂ مائة وثمانين ألف درهم، فأنفقتها بأطباق، وَلَمَّا أمست قالت لجاريتها: هلمَّ، فجاءت بخبز وزيت وكانت صائمة، وقالت: ما أمسكت لنا درهما نشتري به لحما نفطر به، فقالت: لو ذكَّرتِنِي لفعلت.

[نحو] والجملة حال من ضمير «يُوتِي»، أو بدل اشتمال من «يُوتِي مَالَهُ»، ولا يجوز أن يقال: الفعل وحده بدل من الفعل وحده لا الجملة من الجملة، وإنَّما ذلك إذا دلَّ دليل، ككون الفعلين مضارعين منصوبين أو مجزومين، أو كان الأوَّل مجزوما محلًّا، مضارعا أو ماضيا، وظهر الجزم في الثاني، نحو: من صلَّى يسجد لله تعالى يثبه، فحينئذ قد يقال: أبدل الفعل من الفعل، ثمَّ مجموعه مع مرفوعه من مجموع الأوَّل مع مرفوعه. ولا يجوز أن تُقَدِّرَ: «لأن يتزكَّى» فَحَذَف لام التعليل وأن المَصدَرِيَّة ورَفَعَ الفعل، إذ لا دليل على ذلك.

﴿**وَمَا لِأَحَدٍ**﴾ خبر و«نِعْمَةٍ» مبتدأ، أو يتعلَّق بمحذوف رافع لـ«نِعْمَةٍ» على الفاعليَّة. ﴿**عِندَهُ**﴾ متعلِّق بمتعلَّق اللام ﴿**مِن نِّعْمَةٍ**﴾ «مِنْ» صلة، والجملة حال من ضمير «يُوتِي».

﴿**تُجْزَىٰٓ**﴾ نعت «نِعْمَةٍ». وبني للمفعول للفاصلة، وقيل: لأنَّ الفاعل غير معيَّن، وفيه أنَّه «أَحَد» وهو مذكور ولو مبهما. والأصل: يجزيها الأحد إيَّاهُ، أو يجزيه أحد إيَّاهَا. ﴿**إِلَّا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْاَعْلَىٰ**﴾ استثناء منقطع، أي: لكن مقصوده ابتغاء وجه ربِّه الأعلى، قيل: أو مفعول من أجله، وفيه إن كان عامله «يُوتِي» أو «يَتَزَكَّى» لم يَصِحَّ، لأنَّ الاستثناء على هذا تفريغ لا بدَّ من السلب

قبله، وإن كان الاســتثناء من قوله: ﴿مَا لِأَحَدٍ عِندَهُ...﴾ لم يصحَّ، لأنَّه ليس فيه ما يعمل فيه.

[سبب النزول] وَلَمَّا أَعتَقَ الصدِّيقُ ﵁ بلالا قال المشركون: ما أعتقه إلَّا ليد كانت له عنده، فنزلت.

﴿**وَلَسَوْفَ**﴾ اللام لام الابتداء لشبه «سَــوْفَ» الاسم، أو في جواب قسم، أي: وربِّك لسوف يرضى، أو وبربِّه لسوف ﴿**يَرْضَىٰ**﴾ ذلك الأتقى، وذلك له بأن يعطيه كلَّ ما يحبُّ.

وقيل: ولسوف يرضى الله عنه، أي: يثيبه، ولا شكَّ أنَّ رضا الله تعالى أفضل من رضاه هو، ويدلُّ على الأولى ـ وهو رضا الأتقى ـ قراءة البناء للمفعول، مِنْ أرضاه يرضيه.

والله الموفق.

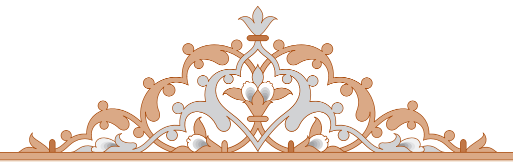
وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



93

تفسير سورة الضُّحى

مكِّـيَّة وآياتها 11 ـ نزلت بعد سورة الفجر



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالضُّحَىٰ ﴿1﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿2﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿3﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿4﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿5﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿6﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿7﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿8﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿9﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿10﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿11﴾﴾

نعم الله تعالى على النبيء محمَّد ﷺ

﴿**وَالضُّحَىٰ**﴾ وقت ارتفاع الشمس الذي يلي وقت بروزِها عن أفق البلد، أقسم به لأنَّه شباب الزمان، ولأنَّه الوقت الذي كلَّم الله تعالى فيه موسى عليه السلام، وأُلْقِيَ فيه السحرةُ سُــجَّدًا، قال الله عز وجل: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًىٰ﴾ [سورة طه: 59].

وقيل: المراد النهار، وليس كذلك، وإنَّما فسِّــر بالنهار في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَاتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ [سورة الأعراف: 98]، لأنَّه في مقابلة البيات الذي هو الليل، والمراد جنس الضحى، وقيل: نفس الضحى الذي كلَّم الله تعالى فيه موســى عليه السلام، وهو مرويٌّ عن قتادة ومقاتل، ولا دليل على التخصيص، إلَّا أنَّهما راعيَا وقتًا له قصَّة.

وقدَّم «الضُّحَى» على «اللَّيْلِ» لشــرفه بالضوء وكثرة منافعه، ولمناســبة الملائكة النورانيَّة، وقدَّم «اللَّيْلِ» في الســورة قبلُ لأنَّــه أصل بتقدُّم الظلمة، والنور حادث، ولأنَّ السورة قبلُ في أبي بكر وقد تقدَّم منه كفر، وهذه السورة في النبيء ﷺ ولم يتقدَّم منه كفر، فقدَّم الضحى، وهذا قول بارد.

﴿**وَاللَّيْلِ**﴾ جنس الليل، وعن مقاتل وقتادة: ليلة المعراج، ولا دليل على هذا التخصيــص، إلَّا أنَّهما راعيا وقتا له قِصَّة، ويعارضه التقييد بقيد السُّــجُوِّ ولفظ «إِذَا» فإنَّه مستقبل، ودعوى أنَّها للمضيِّ هنا تكلُّفٌ آخر.

﴿**إِذَا سَــجَىٰ**﴾ سكن، والســكون إنَّما هو لأهله، وإســناده إلى الليل من الإسناد إلى الزمان على التجوُّز العقليِّ، وفيه سكون الناس والأصوات.

وقدَّر بعضهم المضاف، أي: سجى أهلُه، وذلك فيما بين طرفيه، أو بعد مضيٍّ برهة منه. وقيل: «سَــجَى»: ركد ظلامه، مثل ســجى البحْر ســكنت أمواجه، والمراد بسكون ظلامه عدم تغيُّره بالاشتداد والتنزُّل. وقيل: «سَجَى»: اشتدَّ ظلامه. وقال ســعيد بن جبير: أقبل فغطَّى كلَّ شيء، وعن ابن عبَّاس: «سَجَى»: أقبل. وقيل: ذهب، وذلك لا يتبادر، والصحيح الأوَّل، ويقال: ليل ساج لا ريح فيه.

[بلاغة] ووصف الليل بالســكون حقيقة، وهو في معنى قولك: لا ريح فيه، ويقال: الليل زمــان خاصٌّ والزمان لا يتحرَّك ولا يســكن، وإنَّما يتحرَّك الهواء، وهو يتحرَّك تارة ويسكن أخرى، فقيل: الليل ساكن باعتبار ما يسكن فيه من الهواء، فإطلاق السكون على الليل حقيقة عرفيَّة.

وقيَّد الإقسام بالسُّجُوِّ، أي: السكون لأنَّ الذي فيه الريح أنسب بالمكر، ألا ترى أنَّ الريح الشديدة عذر لترك صلاة الجماعة.

وأقسم بالضحى والليل تلويحًا بأنَّ الساعة ساعة ليل وساعة نهار، وتزداد وتنقص لحكمة لا لهوًى، فلا الزيادة لهوى ولا النقص لقِلًى، فتارة يجيء الوحي وتارة يحبس.

وتلويحًا بأنَّ الليل والنهار لَمَّا تجاوروا لم يسلم أحدهما من الآخر بالنقص والزيد، فكيف تطمع في السلامة من قومك ومن الناس؟ لكن هذا على أنَّ «الضُّحَى» النَّهار كلُّه، و«اللَّيْل» جميع الليل.

وهو وقت خلوِّ الحبيب بالمحبوب، وتلويحًا بوقت صلاته ﷺ، وهي قرَّة عينيه، كما قال ﷺ: «**كتب عليَّ النحر ولم يكتب عليكم، وأمرت بصلاة الضحى ولم تؤمروا بها**»[1] وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [سورة الإسراء: 79]، وعلى أنَّ «الضُّحَى» الوقت المخصوص و«اللَّيْل» جميعه يلوح بأنَّ المضارَّ أكثر من المسارِّ.

[قصص] لَمَّا خلق الله سبحانه العرش أظلَّت عن يساره غمامة، فقالت: ماذا أُمطِر؟ فأمرها أن تمطر الهموم والأحزان، فأمطرت مائة سنة فانكشفت، ثمَّ جاءت كذلك فأمرها بأن تمطر مائة، ثمَّ جاءت غمامة بيضاء عن يمين العرش فنادت: ماذا أمطر؟ فأمرها أن تمطر السرور ساعة.

وقد قيل ـ إشارةً لا تفسيرًا ـ: «الضُّحَى» وجهه ﷺ، و«اللَّيْل» شَعره، أو «الضُّحَى» ذكور أهل بيته، و«اللَّيْل» إناثهم. أو «الضُّحَى» رسالته و«اللَّيْل» زمان فتور الوحي. أو «الضُّحَى» نور علم الله الذي يعرف المستور من الغُيوب، و«اللَّيْل» عفوه الساتر للعيوب. أو «الضُّحَى» إقبال الإسلام، و«اللَّيْل» إدباره،

(1) رواه **البيهقيُّ** في الكبرى، كتاب الضحايا (1) باب الأضحية سنَّة نحبُّ لزومها ونكره تركها، رقم 19032. و**التبريزي** في المشكاة، كتاب الفضائل (1) باب فضائل سَيِّد المرسلين ﷺ، رقم 5775. من حديث ابن عبَّاس.

بدأ الدين غريبًا ويعــود غريبا. أو «الضُّحَــى» كمال العقــل، و«اللَّيْل» زواله بالموت، **ولا يحلُّ التفسير بشيء من هؤلاء الإشارات.**

﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ**﴾ ما تركك، والتَّشديد للمبالغة، قال المشركون: تركه ربُّه تركًا عظيمًا، فقال الله ﷻ: إنَّ هذا الترك العظيم الذي قالوه غير واقع من غير قصد له تعالى، إلَّا أنَّ الترك غير العظيم وقع.

أو المبالغة متعلِّقة بالنفي، أي: انتفى الترك انتفاء بليغًا، أو لَمَّا كان الترك مطلقًا أمرًا عظيمًا شُــدِّدَ، أو المراد: ما قطعك قطع المــودِّع، على أنَّ التوديع استعارة للترك.

والمشــركون لا يثبتون له ﷺ حالة مَحبَّةٍ مع الله تعالــى، لكن قالوا ذلك تَهَكُّمًا كأنَّهم أثبتوها. أو **ما تركك تركًا كما زعموا لكن تأخَّر الوحي لحكمة.** وقيل: «وَدَّعَ» بالتشديد بمعنى المخفَّف.

﴿**وَمَا قَلَىٰ**﴾ ما قلاك، ما أبغضك، وحذف المفعول به للفاصلة، قيل: ولئلَّا يواجهه بذكر البغض ولو بطريق النفي، وفيه أنَّه قد واجهه بذكر الترك بطريق النفي.

ويجاب بأنَّ البغض أشدُّ من الترك، أو حذف المفعول به للفاصلة وبعض العموم، كأنَّه قيل: ما قلاك، ولا أصحابَكَ، ولا آلَــكَ، ولا من تحبُّه، ولا من يحبُّك إلى يوم القيامة.

[صرف] والألف عن ياء أو عن واو بمعنى واحد، وهو البغض، يقال: قلاه يقليه، وقَلِيَهُ يقلاه، وقلاه يقلوه.

[سبب النزول] لَمَّا نزل ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ...﴾ إلخ [سورة المسد: 1]، قيل لامرأة أبي لهب أمِّ جميل: هجاك محمَّد، فأتته جالسًــا في الملأ وقالت: علام

تهجوني يا محمَّد؟ فقال: والله إنِّي ما هجوتـك وَلَكِنَّ الله هجاك، فقالت: هل رأيتني أحمل حطبًا أو في جيدي حبل من مسـد؟ وفتر الوحي، فأتته فقالت: والله ما أرى صاحبك إلَّا ودَّعَكَ وقلَاكَ، فنزل ﴿وَالضُّحَىٰ...﴾ إلخ.

وروي أنَّه رُمي بحجر في إصبعه فقال: «**ما أنت إلَّا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت**» قاله نثرًا وهو موزون شعرًا، فهو لم يقل الشعر، فمكث ليلتين أو ثلاثا، فقالت امرأة: ما أرى شـيطانك إلَّا تركك، فنـزل ﴿وَالضُّحَىٰ...﴾ إلخ، والمرأة أمُّ حبيب.

وقيل: مرض ليلتين أو ثلاثا، فجاءت المرأة فقالت: إنِّي لأرى شيطانك قد تركك، فنزلت، وهو الذي في الصحيحين، وذلك أنَّه لم يخرج إلى الناس أو لم تسمع قراءته.

وروي أنَّه ﷺ سـأله جمع من اليهود عن أصحاب الكهف والروح وذي القرنين، فقـال: أخبركم غدا، ولم يقل: «إن شـاء الله»، ففتـر الوحي، فقال: المشركون: ودَّعه ربُّه وقلاه، فنزلت السورة، [قيل هذا مع أنَّ السورة مَكِّيَّة].

وروي أنَّ عثمان أهـدى إليه ﷺ عنقود عنب، وقيـل: عذق تمر، فأعطاه سائلاً سأله، فاشـتراه عثمان بدرهم فأهداه إليه ﷺ، فسأله فأعطاه إلى ثلاث، فقال له برفق: أسـائل أنت يا فلان أم تاجر؟ ففتر الوحي، فاستوحش فقالوا: ودَّعه ربُّه وقلاه، فنزلت السورة.

وروي أنَّ جروًا دخل تحت سريره ﷺ ومات، وفتر الوحي أربعة أيَّام، وقال لخادمته خولة: ما حدث في بيتي؟ انقطع عنِّي جبريل عليه السلام فقالت: إنَّا في خير يوم، فخرج فكنست البيت ووجدته فألقته خارج الدار فرجع يرعد على عادته في الوحي، وقال: دثِّريني، فنزلت السورة، وقال جبريل: أما علمت أنَّا لا ندخل بيتًا فيه كلب؟.

وقيل: فتر الوحي اثني عشر يوما، وقيل: خمسة عشر، وقيل: بضعة عشر، وعن ابن عبَّاس: خمسا وعشرين، وشُهِر أربعين.

وقيل: قال لخديجة يشكو إليها: «وَدَّعَنِي رَبِّي يا خديجة» ـ وقيل: قلاني ـ فقالت رضي الله عنها: كلَّا، ما بدأ الرِّسالة إلَّا وهو يتمُّها، فنزلت[1].

وإنَّما قال ذلك مع علمه أنَّ النبيء ﷺ لا يُعْزَل عن النبوءة، وأنَّ فترة الوحي لحكمة، لتدلَّ له على خير، أو يعلم قدر علمها، قيل: أو ليعرف الناس.

أو أراد أنَّه ودَّعني وقلاني في زعم الكفرة، أو فترته تشبه التوديع والقلي، ولا يصحُّ هذا، كما لا يصحُّ ما قيل: إنَّه اشتدَّ جزعه بفترته، فقالت له خديجة: ودَّعك ربُّك وقلاك لجزعك فنزلت، وإن صحَّ فمرادها أنَّ هذا الجزع لا يكون إلَّا من توديع ربِّك وقليه، وهُو لا يودِّعك ولا يقليك.

وقال لجبريل: «**ما جئتني حتَّى اشتقت إليك**» فقال: إنِّي أشدُّ شوقًا إليك، ولكنِّي عبد مأمور وتلا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [سورة مريم: 64].

﴿**وَلَلَاخِرَةُ**﴾ الدار الآخرة، وهي الجنَّة؛ أو الحياة الآخرة، وهي حياة ما بعد البعث، لأنَّها توصل إلى دخول الجنَّة؛ أو نفس حياة الجنَّة.

﴿**خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾ المراد بـ«الأُولَى» الدار الأولى، وهي الدنيا. أو الحياة الآخرة خير لك لعظم نعمها وكثرتها ودوامها وعدم تكدُّرها بشيء.

وليست النبوءة داخلة في المقابلة ولو كانت مرتبة عظيمة، وإن دخلت اعتبر ما لا تخلو عنه من تكدُّرها بالمعارضين وشدَّة تمشية أحكامها، وكذا فضله على

(1) نقل الشيخ رحمه الله هذه الأقوال عن الآلوسي في تفسيره بدون نقد أو تمحيص لها. ولابن حجر في فتح الباري كلام جيِّد في الموضوع (كتاب التفسير باب سورة الضحى، رقم الحديث 4950، ج 8، ص 907).

الأنبياء وسائر مزاياه، وذكر له ذلك مع أنَّه لا رغبة له في نعم الدنيا لأنَّه محتاج إليها بالضرورة ويدعو بالرزق.

[سبب النزول] قال ﷺ: «**عرض عليَّ ما يفتح لأمَّتي بعدي فسرَّني**»[1]، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَلَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

ويقال: ما له في الآخرة أفضل من جميع ما لغيره من جميع أهل الجنَّة.

وإن شئت فالتقابل بين النعم الدِّينيَّة، كنعمة النبوءة والرسالة والشرف على الأنبياء، وإنفاذ أمر الدين، وذلك مكدَّر بهموم الدنيا وأحزانها وتعطيل المعطِّلين. ولا بدَّ أنَّ ظهور شرفه في الآخرة ـ بالشفاعة والرياسة على أهل المحشر من الأنبياء وغيرهم، والوسيلة، وشرف أمَّته على الأمم، وشهادتهم عليها، ورفع درجتهم ـ أشرف من الشرف الديني المذكور الذي في الدنيا.

ويجوز أن يكون المراد بَدْأَةُ أمره الديني في الدنيا وآخره فيها، فإنَّه ما زال يزداد قُوَّة في الدين وإنفاذا له.

وَلَمَّا قال الله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ حصل له سرور، فقال الله تعالى له: ما لك في الآخرة أعظم من ذلك، لأنَّ فيها إنفاذ ثمرة عدم التوديع والقلى. ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ العزل عن النبوءة لا يكون إلَّا بالموت، ولك بعد الموت ما هو أفضل.

والذي يعطيه الله تعالى رسوله ﷺ هو تكميل الدين وتقويته، والفتوح في عصره وبعده، وكثرة المؤمنين وما له في الآخرة من الكرامات، وقيل: فتح مَكَّة وغيره مِمَّا في الدنيا، و**العموم أولى**.

وعن الجمهور أنَّه الشفاعة. وعن محمَّد بن الْحَنَفِيَّة[2] أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أشفع لأمَّتي حتَّى يناديني ربِّي: أرضيت يا محمَّد؟ فأقول: نعم يا رَبِّ**

(1) لم نقف على تخريجه.

(2) تقدَّم التعريف به، انظر: ج 12، ص 9.

رضيت»[1]. وأرجى آية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ لا ما تقولون يا أهل العراق: أرجى آية قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ إلخ [سورة الزمر: 53]، وقيل: أعمُّ من الشفاعة وغيرها.

وعن عليٍّ: ألا أنبِّئكم بأرجى آية في كتاب الله تعالى؟ قالوا: بلى، فقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتَ اَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [سورة الشورى: 30]، فالمصائب بكسب الأوزار، فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذِّبه ثانيا، وإذا عفا عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعذِّبه في الآخرة.

وعنه ﷺ: «**ما يصيب المؤمن مصيبة حتَّى شوكة فما فوقها إلَّا حطَّ الله عنه بها خطيئة**»[2].

[أصول الدين] وقيل: أرجى آية في القرآن قوله تعالى: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة طه: 48]، أي: يجزم بالعذاب على المشرك فقط، وأمَّا الموحِّد فقد يغفر له ولو أصرَّ، **وهذا ليس بمذهبنا وهو باطل**، وذلك مذهب المرجئة، جزموا بذلك وعمَّموا، وأمَّا الأَشعَرِيَّة فبعض قال بالجواز دون الوقوع، وبعض قال: يقع ذلك لبعض المصرِّين.

دخل ﷺ على فاطمة ﵂ تطحن وعليها ثوب من جلد بعير، أي: من وبره أو من نفس الجلد، فقال: «**يا فاطمة تعجَّلي مرارة الدنيا لنعيم الآخرة غدا**»[3] ورقَّ لها، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

وعن ابن عبَّاس في هذه الآية: أعطاه الله ألف قصر من لؤلؤ، ترابه المسك، في كلِّ قصر أزواج وخدم قدر ما يليق. قال عبد الله بن عمرو بن العاصي: تلا

---

(1) أورده **السيوطيُّ** في الدرِّ، ج8، ص 543. وقال: أخرجه ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية. من حديث عليٍّ.

(2) تَقَدَّمَ تخريج ما يشبهه لفظا في ج3، ص 316.

(3) أورده **السيوطيُّ** في الدُّرِّ المنثور، ج8، ص 543، وقال: أخرجه العسكريُّ في المواعظ وابن مردويه وابن لال. وابن النجار. من حديث جابر بن عبد الله.

رسول الله ﷺ قول الله تعالى في إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [سورة إبراهيم: 36]، وقوله في عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [سورة المائدة: 118]، فرفع يديه وقال: «**اللهمَّ أمَّتي أمَّتي**» وبكى، فقال الله تعالى لجبريل: اذهب إلى محمَّد ﷺ فقل له: ما يبكيك؟ إنَّا سنرضيك في أمَّتك ولا نسوؤُك[1].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعا: «**لكلِّ نبيء دعوة مستجابة تعجَّلها، واختبأت دعوتي شفاعة لأمَّتي يوم القيامة، تنال من لا يشرك بالله شيئا**»[2].

وفي الترمذيِّ عن عوف بن مالك: «**أتاني آت من عند ربِّي فخيَّرني بين أن يدخل نصف أمَّتي الجنَّة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، فهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا**»[3].

واستدلَّ الله تعالى له على الإعطاء والإرضاء بقوله: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَئَاوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ**﴾ يقول الله تعالى: كما أنعمت عليك فيما مضى من حين ولدت كذلك ينعم عليك بعد في الدنيا والآخرة.

[نحو] والاستفهام لنفي النفي، فثبت وجود الله ﷻ إيَّاهُ يتيما وإيواؤه، أي: عِلْمُهُ بيتمه، فـ«يَتِيمًا» مفعول ثان. أو ملاقاتــه، أي: تعلّق علمه بأنَّه موجود، فيكون مجازا تعالى عن حقيقة الملاقاة، فـ«يَتِيمًا» حال.

[لغة] وأصل «وَجَدَ»: صادف ولقي، ولزم من ملاقاته العلم به فصار يعبَّر به عن العلمِ. واليتمُ من صفات الصبيِّ قبل البلوغ، فهو انقطاعه قبل البلوغ عن

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الإيمان، باب دعاء النبيِّ لأمته، رقم: 520. من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(2) رواه **البخاريُّ** في كتاب الدعوات (1) باب لِكُلِّ نبيء دعوة مستجابة، رقم 6304 الجزء الأوَّل منه بدون لفظ: «تنال من لا يشرك بالله شيئا» من حديث أنس. ورواه **مسلم** في كتاب الإيمان (86) باب اختباء النبيء ﷺ دعوة الشفاعة لأمَّته، رقم 338 (199). من حديث أبي هريرة.

(3) رواه **الترمذيُّ** في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب منه، رقم 2365. من حديث عوف بن مالك الأشجعي.

أبيه بموت أبيه تحقيقا أو حكما، كالحكم بموت أبيه في الفقد أو الغيبة. وقيل: يتيما فاقد المعلِّم، فإنَّ الأب ثلاثة: من علَّمك، ومن زوَّجك، ومن ولدك.

وحذف معمولي «آوَى» للعلم بهما وللفاصلة، لتكون الفواصل على طريقة واحدة من أوَّل السورة إلى «أَغْنَى»، وإلَّا فلو قيل: فإلى كَافِلٍ آواك[1]، ووجدك ضالًّا فهداك، ووجدك عائلا فأغناك، لاتَّفقت هؤلاء الفواصل الثلاث.

[سيرة] أي فضمَّك إلى حليمة وزوجها وجـــدِّه عبد المطلب، وعمِّه أبي طالب. بعث عبد المطَّلب ابنه عبد الله أبا رســـول الله ﷺ إلى المدينة ليشتري تمرا، ومات وهو ﷺ على ستَّة أشـــهر في بطن أمِّه، وماتت أمُّه وهو ابن ستِّ سنين، وجدُّه وهو ابن ثمان، فكفله عمُّه أبو طالب بوصيَّة أبيه عبد المطلب.

ويقال: مات أبـــوه وهو في البطن، وكفله جـــدُّه عبد المطلب، ومات عبد المطَّلب، وكفله عمُّه أبو طالب، وتزوَّج خديجة بعد ذلك ذات مال. وقيل: ماتت أمُّه وهو ابن ثمان، فكفله عمُّه.

[سيرة] وقال أبو طالب لأخيه العَبَّاس: لا يرى أحد عورة محمَّد، لشـــدَّة ستره، ولا توجد منه كذبة ولا ضحكة ولا لعبة مع الصبيان ولا ما يكره عاقل، وَكُنَّا لا نســـمِّي على الطعام والشـــراب ولا نحمد، وكان يقول في أوَّل طعامه وشرابه: بسم الله الأحد، وإذا فرغ قال: الحمد لله، وكنت أعجب منه.

وقيل: يتيما درَّة يتيمة، أي: لا نظير لها، أي: لا نظير لك في قريش فآواك إليه، وجعلك في صدفة اصطفائه، وهذا التفسير ومثله في القرآن مِمَّا لا يحسن.

﴿**وَوَجَدَكَ**﴾ مثل ما مرَّ ﴿**ضَآلًّا**﴾ عن الشرع، أي: لم يكن عندك ﴿مَا كُنتَ تَـــدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ [سورة الشـــورى: 52]، ﴿وَإِن كُنتَ مِـــن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [سورة يوسف: 3]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [سورة النساء: 113].

---

(1) كذا في النسخ. ولعلَّ الأنسب: «بلا كافل فآواك».

وقيل: وجدك بين أهـــل الضلال، [قلت:] ولا يجوز تفســـير هذا الضلال بالكون على دين قومه، لأنَّه لا يجوز على الأنبياء الشرك والكبائر والمعاصي، وهو قد شرح صدره في صغره مرارا.

واختبره بحيرا بالسؤال باللات والعزَّى، فقال: لا شيء أبغض إليَّ منهما، أو اســـتحلفه بهما اختبارا له فأجابه بذلك، وذلك أنَّه رأى فيه علامات النبوءة، ولو كان على دين قومه أربعين سنة، أو أقلَّ لعابوه به إذ أمرهم بالتوحيد وأمر الإسلام.

وفي نهر أبي حيان وبحره[1] أنَّه رأى في المنام أنَّه على حذف مضاف، أي: وجد رهطك ضالًّا فهداهم، وفيه مخالفة لما قبل وما بعد، لكن يسوِّغها أنَّ هداية رهطه نفع له في الدين ﴿فَهَدَىٰ﴾ هداك إليه.

وقيل: ضلَّ في الأرض في شـــعاب مكَّة فرآه أبو جهل لعنه الله ﷻ، وقد انصرف من أغنامه فأركبه خلفه على ناقته، فأبت أن تقوم فحوَّله أمامه فقامت، فردَّه إلى جدِّه وهو متضرِّع إلى الله تعالى متعلِّق بأســـتار الكعبة أن يردَّه إليه، وهذا على يد فرعون الأمَّة شبه ردِّ موسى عليه السلام إلى أمِّه على يد فرعون.

وضلَّ أيضا وتضرَّع عبد المطلب إلى الله تعالى وطاف سبعا فسمعوا نداءً مِنَ السَّمَاء: «يا معشر الناس إنَّ لمحمَّد ربًّا لا يخذله، هو بوادي تهامة عند ســـمرة»، فركب عبد المطَّلب وورقة بن نوفل فوجداه تحت السمرة يلعب بالأغصان والأوراق.

وعن سعيد بن جبير: سافر مع أبي طالب إلى الشام فأخذ إبليس لعنه الله في ليلة ظلماء بزمام ناقة هو عليها، فنفخ جبريل عليه السلام إبليس نفخة ألقته بالحبشة، وردَّ الناقة إلى القافلة. وقيل: ضلَّ عن حليمة عند باب مَكَّة لَمَّا ردَّته بعد الفطام إلى عبد المطَّلب.

---

(1) أي: المؤلِّف أبو حيَّان الأندلسي. راجع تفسيره للسورة في البحر المحيط، ج 10، ص 497. ط. دار الفكر.

ولا يخفى أنَّ الامتنان على الأولياء والأنبياء ـ ولا سيما نبيئنا محمَّد ﷺ ـ بأمر الدين أولى من الامتنان بأمر الدنيا، كالإنقاذ من الضلال في الأرض، **فما تقدَّم من التفسير بأمر الدين أولى.**

ومنه قول الجنيد: وجدك متحيِّرا في بيان الكتاب المنزَّل عليك فهداك لبيانه، لكن ما هذا التحيُّر؟ وقيل: وجدك في غار حراء متحيِّرا تطلب ما تتوجَّه به إلى ربِّك.

وسهَّل التفسير بأمر الدنيا أنَّه عنوان وشهادة للخير الأخرويِّ كما مرَّ. وقيل: وجدك كضالٍّ (بشدِّ اللام) أي: شجرة في صحراء لا شجر حولها، وهو تشبيه بليغ بمعنى وجدك منفردا فهدى الناس إليك، أي: في أمر الدين.

وعن ابن عبَّاس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**سألت ربِّي مسألة وددت أَنِّي لم أكن سألت، قلت: يا ربِّ إنَّك آتيت سليمان بن داود ملكا عظيما، وآتيت فلانا كذا وفلانا كذا؟ قال: يا محمَّد، ألم أجدك يتيما فآويتك؟ قلت: بلى يَا رَبِّ، قال: ألم أجدك ضالًّا فهديتك؟ قلت: بلى يَا رَبِّ، قال: ألم أجدك عائلا فأغنيتك؟ قلت: بلى يَا رَبِّ، قال: ألم أشرح لك صدرك؟ ووضعت عنك وزرك؟ قلت: بلى يَا رَبِّ**»[1].

[فقه] والمنُّ جائز في حقِّ الله تعالى، لأنَّه مالك كلِّ شيء، ولا يستحقُّ خلقه شيئا إلَّا فضلا منه تعالى، والمراد بمنِّه تقوية قلبه والإطماع في الزيادة والإبقاء، فالامتنان نعمة أخرى وهبة أخرى.

[نحو] وتَحَصَّلَ في مفعول «هَدَى» ثلاثة أوجه: هداك، وهدى الناس، وهداهم، أي: رهطك، كما مرَّ في رؤيا أبي حيَّان. وجملة «وَجَدَ...» إلخ معطوفة على «لَمْ» وما بعدها، فتسلَّط عليها الاستفهام بالهمزة المذكورة دون النفي، كأنَّه قيل: وهل وجدك؟. وقيل: أو على مدخول «لَمْ» فيتسلَّط عليها الاستفهام والنفي المذكوران، كأنَّه قيل: «ألم يجدك»، وفيه عطف الماضي وما معه على ما بعد «لَمْ» مع أنَّ «لَمْ» لا تدخل على ماض، فاغتفر في الثاني ما لم يغتفر في الأوَّل.

(1) رواه **الثعلبيُّ** في الكشف والبيان، ج 10، ص 225. من حديث ابن عبَّاس.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلاً﴾ فقيــرا، وقيل: ذا عيال، ويردُّه أنَّه في أوَّل أمره ليس ذا عيال، **والصحيح الأوَّل**، ويدلُّ له قراءة ابن مسعود: «ووجدك عديما»، أي: فقيرا. والتأويل بأنَّك ستكون ذا عيال تكلُّف.

﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أغناك بمال خديجة ﵂. ويروى أنَّها وهبت له مالها كلَّه ـ وهو كثير ـ لِئَلَّا يقال: إنَّه فقير، وأنَّه عــاش بمال زوجته، ونحو ذلك. وأغناك بمال الصدِّيق ﵁، ويروى أنَّه أعطاه ماله كلَّه، فقال ﷺ: «**ما تركت لأهلك؟**» فقال: تركت لهم الله تعالى ورسوله ﷺ[1].

وقيل: أغناك بالغنائم، ولا يصحُّ، لأنَّ الســورة مكِّيَّة. وقيل: أغنى قلبك، وَمَنْ عدِمَ القناعة لم يفده المال غنًى، قال رسول الله ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العَرَض وَلَكِنَّ الغنى غنى النفس**»[2] رواه أبو هريرة، وهو في البخاري.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنَّ رســول الله ﷺ قــال: «**قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا، وقنَّعه الله بما آتاه**»[3] وقيل: أغناك بالافتقار إليه، قال ﷺ: «**اللَّهُمَّ أغنني بالافتقار إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك**»[4].

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ لا تقهره على عمل لا يقدر عليه من مصالحه فضلا عن مصالح غيره، ولا عن ماله بأن تأكله، ولا عن عرضه وحرمته بأن تهينه بأمر مَّا، أو تشــتمه، أو تتعبَّس في وجهه، [قلت:] وكلُّ ما فعلت به مِمَّا يكره فهو قهر، لأنَّه لا يقدر عليك، وقد قرئ: «فَلَا تَكْهَرْ» (بالكاف) أي: لا تلقه بالتعبُّس، فإنَّه من معاني الكهر.

---

(1) رواه **أحمد** في فضائل الصحابة، رقم: 527. ج 1، ص 360. من حديث عمر.

(2) تقدم تخريجه انظر ج 6 ص 56.

(3) رواه **مسلم** في كتاب الزكاة (43) باب في الكفاف والقناعة، رقم 125 (1054). **والتبريزي** في المشكاة، كتاب الرقائق، رقم 5165 (11). من حديث عمرو بن العاص.

(4) أورده بعــض المفسّــرين على أنّه حديث لرســول الله ﷺ، ولــم يخرِّجوه. منهم **الآلوســي**. ج 30، ص 163. وذكره **الجاحظ** في البيان والتبين، ج 3، ص 180 (ط. دار الهلال) من كلام عمرو بن عبيد.

[فقه] والواجب الاعتناء باليتيم، قال ﷺ: «**من مسح على رأس يتيم كان له بكلِّ شعرة تمرُّ عليها يده نور يوم القيامة**»[1]. قال رسول الله ﷺ: «**إذا بكى اليتيم اهتزَّ لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته: يا ملائكتي من أبكى هذا اليتيم الذي غُيِّب أبوه في التـراب؟ ـ أي: دُفن ـ فيقولون: أنت أعلم، فيقول الله تعالى: يا ملائكتي إنِّي أشهدكم أنَّ عليَّ لمن أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة**»[2]، فكان عمر رضي الله عنه إذا رأى يتيما مسح رأسه وأعطاه شيئا.

والحديث شـامل لأطفال المشـركين والمنافقين، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشرُّ بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه**»[3].

وقال ﷺ: «**أنا وكافل اليتيـم في الجنَّة هكذا**» ويشـير إلى إصبعيه، وفي البخاريِّ عن سهل بن سـعد قال رسـول الله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنَّة هكذا**»[4] وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما.

﴿**وَأَمَّا السَّآئِلَ**﴾ سائل المال، كدرهمٍ وطعامٍ ونحوِه من نفع. وقيل: المراد سائل العلم، قال ﷺ: «**من سـئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار**»[5]. ومعلوم أنَّه لا وعيد على من ردَّ سائلا غير العلم إلَّا أمرا لا بدَّ منه، كما إن لم يعطه مات أو ذهب عضو منه.

(1) نقله الشيخ عن **الآلوسـيِّ**، ج 30، ص 163. ولم يعزه. وقال: عن ابن مسـعود مرفوعًا. ولم نقف علـى تخريجه بهذا اللفظ. وَإِنَّمَـا روى **الطبرانيُّ** ما يقاربه معنـى في الكبير، ج 8، ص 238، رقم 7929. من حديث أبي أمامة.

(2) رواه **الثعلبي** في تفسيره: الكشف والبيان، ج 10، ص 230. من حديث عمر.

(3) رواه **البخاريُّ** في كتاب الأدب المفرد (24) باب خير بيت فيه يتيم يحسـن إليه، رقم 137. من حديث أبي هريرة.

(4) رواه **البخاري** في كتاب الطلاق، باب اللعان، رقم 4892. ورواه **الترمذيُّ** في كتاب البرِّ والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في رحمة اليتيم وكفالته، رقم 1841. من حديث سهل بن سعد.

(5) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج 1، ص 306.

[قلت:] ويجب إكرام طالب العلم وإسعافه بمطلوبه، ولا يعبس في وجهه، ولا ينهره ولا يلقاه بمكروه.

﴿**فَلَا تَنْهَرْ**﴾ بلفظ، ولا تزجره بفعل، كدفع وتعبُّس، ولا تمنَّ عليه إن أعطيته قبلُ، بل أعطه أو اردده بكلام حسن، مثل: رزقك الله، أو إيت وقت كذا، أو إذا فتح الله أعطيك، وسواء كان موحِّدا أو مشركا.

[فقه] وكره الإمام مالك أن تقول له: يفتح الله عليك، لأنَّ السائل يرى ذلك إيَّاسا، وكان يكره أن يذكر اسم الله تعالى في حال تصحبها الكراهة والسائل يكره ذلك، وليس كذلك، فإنَّ النبيء ﷺ يقول مثل ذلك.

وإذا سألك سائل فإنَّه يقول: هل لك حاجة أن أَحمل لك شيئا إلى دار لا تفنَى؟ كما قال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السُّؤَّال [أي الذين يسألون] يحملون زادنا إلى الآخرة، وكذلك قال إبراهيم النخعيُّ: يقول السائل: أتبعثون إلى أهلكم شيئا؟ إمَّا أن يريد النخعيُّ: تبعثون إلى موتاكم، أو إلى منازلكم في الجنَّة.

وعن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ: «**لولا أنَّ المساكين يكذبون ما أفلح من ردَّهم**»(1). ويستنُّ به لِمَا روي ضعيفا موقوفا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**لو صدق السائل ما أفلح من ردَّه**»(2)، وما روي عن الحسين بن عليٍّ: للسائل حقٌّ ولو جاء على فرس، وإذا أَلَحَّ السائل ولم ينفع اللين جاز زبره، وذلك بعد ثلاث.

﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ حدِّثْ نفسك وغيرك بما أوحي إليك من القرآن وغيره، فإنَّه أفضل النعم، وحدِّث بأنَّ الله سبحانه أعطانا العقول وصحَّة الأبدان والأرزاق، ولم يكلِّفنا الشدائد، وعَلِّم العلم، وأخبر بعملك الصالح من يقتدي بك بلا رياء ولا سمعة من أهلك ـ كما قال الحسن بن عليٍّ ـ أو من غيرهم، ومُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر، وقل: كنت يتيما وضالًّا وعائلا فآواني ربِّي

(1) رواه **الطبرانيُّ** في الكبير، رقم: 7967. من حديث أبي أمامة صدي بن عجلان.

(2) أورده **السخاوي** في المقاصد الحسنة، رقم 892، ص547، وقال: رواه ابن عبد البرّ في الاستذكار وقال: أسانيده ليست بالقوية، وقال ابن المديني: لا أصل له...

وهداني وأغناني، فلا أنسى اليتيم والضَّالَّ والفقير. وقيل: المعنى: اشكره على هذه النعم المذكورة في السورة.

وفي الترمذيِّ عن جابر بن عبد الله: «**من أُعطيَ عطاء فليجازِ به إن وَجَدَ، وإن لم يجد فليثن عليه فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلَّى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور**»(1). وفيه عن أبي سعيد الخدريِّ عن رسول الله ﷺ: «**من لم يشكر الناس لا يشكر الله**»(2). وفيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**»(3). وعن النعمان بن بشير: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدُّث بنعمة الله شُكْرٌ، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفُرقة عذاب**»(4).

وروي هنا مثل ما روي في وضع اليد على الرأس عند قراءة ﴿لَوَ انزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ﴾ [سورة الحشر: 21]، كما رأيت في البيهقيِّ عن البزِّي ـ يعني القارئ ـ: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل بن قسطنطين، فَلَمَّا بلغت ﴿وَالضُّحَى﴾ قال: كبِّر عند خاتمة كلِّ سورة حتَّى تختم، فإنِّي قرأت على مجاهد فأمرني بذلك، وقال: إنَّ ابن عبَّاس أمرني بذلك، وقال ابن عبَّاس: أمرني بذلك أبيُّ بن كعب، وقال: أمرني بذلك النبيء ﷺ.

قلت: ذلك شكر للنعمة وتحدُّثٌ بها داخل في الآية، والحمد لله إذ قال المشركون: تركه ربُّه، فظهر خلاف الترك، وفرح النبيء ﷺ بذلك.

وصلَّى الله على سَيِّدنَا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

---

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، رقم 4813. ورواه **البخاري** في كتاب الأدب المفرد (94) باب من صنع المعروف فليكافئه، رقم 215. من حديث جابر بن عبد الله.

(2) رواه **الترمذيُّ** في كتاب البرِّ والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، رقم 1878. من حديث أبي سعيد الخدري.

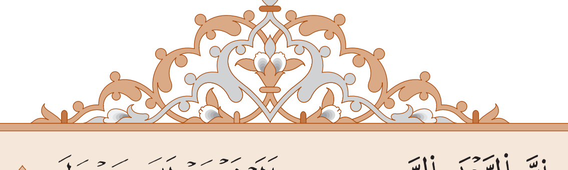
(3) رواه **الترمذيُّ** في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب منه، رقم 2410. من حديث أبي هريرة.

(4) رواه **أحمد** في مسند الكوفيِّين، رقم 1772. من حديث النعمان بن بشير.

94

تفسير سورة الشرح

مكِّـيَّة وآياتها 8 ـ نزلت بعد سورة الضحى



﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨﴾

نعم الله على نبيئه ﷺ

تواتر أنَّ هذه السورة مفصولة عمَّا قبلها بالبسملة مستقلَّة، وعن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنَّ هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة لم تفصل عنها بالبسملة، وكانا يقرءانهما في الركعة الواحدة بلا فصل بها، وعلى ذلك الشيعة.

وليس الأمر ذلك، إلَّا أنَّهما متناسبتان جدًّا، حتَّى إنَّ في حديث الإسراء في رواية: إنَّ الله تعالى قال: «**يا محمَّد ألم أجدك يتيما فآويت، وضالًّا فهديت، وعائلا فأغنيت، وشرحت لك صدرك، وحططت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أُذكَرُ إلَّا ذُكِرْتَ معي؟**»[1].

---

(1) أورده **السيوطيُّ** في تفسيره، ج 6، ص 404. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم والطبرانيُّ والحاكم وصحَّحه، وأبو نعيم والبيهقيُّ، كلاهما في الدلائل، وابن مردويه وابن عساكر موقوفا.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ قدَّم «لَكَ» في الموضعين و«عَنكَ» للفاصلة، ولتعجيل المسرَّة والتشويق إلى ما بعدُ ﴿صَدْرَكَ﴾ قلْبَكَ، تسميةً للحالِّ باسم المحلِّ، إلَّا أنَّ تسمية القلب حالًّا مجازٌ إذ شـبِّه لتعلُّقه بمحلِّه بما حدث في الصدر، بعد وجود الصدر.

والله ﷻ خلق الصدر والقلب معا لا الصدر قبل القلب، اللهمَّ إلَّا إن اعتبر تنوير القلب وشرحه فإنَّهما حدثا بعد وجود الصدر، فعدَّ قلبه قبلهما كالعدم، وكالحادث بعد حدوثهما.

ومعنى شرح القلب توسيعه توسيعا معقولا غير محسوس، بأن جعله يقبل الشريعة ويحبُّها ويرغب فيها، لا نافرا عنها كارها لها، وذلك استعارة بحسب اللغة، ثمَّ صار حقيقة عرفيَّة خَاصَّةً، أعني عرف الشرع.

والقلب منزل للوحي، فهو منزل شريف واسع، ومن شأن المنزل الشريف توسيع رحبة حوله تكميلا له، ولذلك كانت العبارة بتوسيع الصدر.

والصدر كالرحبة للقلب الذي هو منزل شريف، ويشار بذلك إلى كثرة الوارد عليه من المعارف الدِّينِيَّة، ومن شأن المنزل ورحبته أن يعمَّرا، وقد احتوى على العلوم الموحاة وما يتأثَّر به من الأنوار.

وقيل: المعنى: ألم نُزِلْ همَّك بإِطْلاعك على حقائق الأمور وحقارة الدنيا، حتَّى هان عليك ما تؤذى به على تبليغ الوحي؟. وقيل: المعنى: ألم نسهِّل لك تلقِّي الوحي بعد ما كان يشقُّ عليك؟. وقيل: المراد تليين قلبه بالإيمان والوعظ والعلم والنبوءة والحكمة.

[سيرة] وعن ابن عبَّاس أنَّ الشرح إشـارة إلى شقِّ صدره حين كان عند حليمة كما شهر في السير، شـقَّه جبريل فأخرج علقة سوداء هي حظُّ الشيطان منه، وهي الغلُّ والحسـد، فغسـل قلبه بماء زمزم وردَّه، وصار كما كان أوَّل أمر، قال أنس: وإنِّي أرى أثر الشقِّ على صدره.

ففي رواية: ردَّته حليمة خشية عليه، وإنَّها لحريصة على الرجوع به بعدما ردَّته حتَّى قالت: أخشى عليه وباء مَكَّة.

وروي أنَّه ﷺ قال: «أوَّل ما رأيت من أمر النبوءة أنِّي لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهر، إذ نزل رجلان بوجوه وأرواح وثياب ما رأيت مثل ذلك لأحد قطُّ، فأخذ كلُّ واحد بعضدي، وشقَّ أحدهما صدري، وأخرج علقة، وقالا: إنَّها الغلُّ والحسد، وأدخلا شيئا كالفضَّة وقالا: إنَّه الرأفة والرحمة».

ويروى: «إنِّي لفي صحراء واسعة ابن عشر سنين، إذ نزل عليَّ رجلان، فشقَّ أحدهما بطني...» إلخ.

ويروى: أَنَّ جبريل وميكائيل شقَّا صدره في غار حراء وغسلاه، ثمَّ قال: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ إلى ﴿...مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وشقَّ صدره أيضا في ليلة الإسراء في الأرض، ثمَّ جيء بالبراق فركبه.

فنقول: وقع ذلك كلُّه، وما تقدَّم على النبوءة تمهيدا لها وما بعدها زيادة تكميل، ونؤمن بذلك ولا نؤوِّله بإلهام الخير كما زعم بعض، **ولا يلزم تفسير الآية به بل بما مرَّ.**

وليس قول ابن عبَّاس المذكور آنفا أنَّ الآية إشارة إلى شقِّ الصدر نصًّا في أنَّها بمعنى الشقِّ، بل ظاهره أنَّها غيره، إذ قال: إشارة، وليس بعيدا أن يطبع الحسد والغلُّ في علقة كما يطبع الشيء في القلب فأُزيلا بزواله، ومن أجاز تجسيم الأعراض أجاز أن يكونا نفس العلقة.

﴿**وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ**﴾ هذا بعد ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ مثل: ﴿وَجَدَكَ﴾ بعد ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾.

[لغة] والوزر: الحمل الثقيل، أي وضعنا عنك حملك الثقيل. ﴿**الذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ**﴾ صيَّرك ذا نقيض، أي صوت كما يسمع للحمل الثقيل صرير مع الشيء الحامل، وكما يحسُّ من الظهر أو المفاصل لثقل الحمل.

[بلاغة] وذلك استعارة تمثيليَّة لإنزال الوحي عليه وثقل تلقِّيه، وكان الوحي ثقيلا عليه ثمَّ سهَّله الله عليه، والوضع ترشيح للاستعارة. والمراد بالوضع تدريبه وتدريجه حتَّى اعتاد تلقِّيه.

أو المراد بالحمل الذي أنقض ظهره ما صدر منه ﷺ قبل البعثة مِمَّا يستحي منه إذا تذكَّره مِمَّا الأَوْلى تركه، والوضع مغفرته.

أو الحمل: الغفلة عن الشرائع ونحوها مِمَّا لا يدرك إلَّا بالوحي مع تطلُّبه له، والوضع: إزالة غفلته بتعليمه الوحي.

أو الحمل: حيرته ﷺ في بعض الأمور، كأداء حقِّ الرسالة، والوضع: إزالة ما يؤدِّي إلى الحيرة.

أو الحمل: ما كان يرى من قومه من ضلال مع العجز عن إرشادهم لصدِّهم، والوضع: توفيق بعض للإسلام، كحمزة وعمر والصدِّيق.

أو الحمل: ما يرى من إيذائهم الشديد الكثير، والوضع: تقويته على تحمُّله.

أو الحمل: همُّه من وفاة أبي طالب وخديجة بناء على نزول السورة بعد موتهما، والوضع: إزالة ذلك برفعه إلى السماء، ولقاء كُلِّ ملك له، وتحيَّتهم له. أو كلُّ ذلك في الحمل والوضع.

ويجوز أنَّ الوضع العصمة له ﷺ عن الذنوب والمكاره، كما تقول: رفعت عنك مشقَّة الزيارة، لمن لم تصدر منه زيارة، وتريد نفيها على المبالغة. وفسَّر بعضهم الوزر بالسهو والخطأ. وقيل: المراد وزر أمَّته، أي: ذنوبهم، أي: غفرناها أو منعناها عنك لا تصدر منك، كما قيل: عصمناك عن الوزر.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بالنبوءة والرسالة، وبذكره معه في كلمة الشهادة، وذكره في الأذان والإقامة والخُطَب والتحيَّات، ولا صلاة ولا خطبة إلَّا بذكره، وجعل طاعته طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وصلاته وصلاة ملائكته تعالى، والأمر بالصلاة والسلام عليه، وخطابه بـ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ و﴿يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ و﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ﴾ و﴿يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ وذكره في كتب الأوَّلين، وأخذ الميثاق على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به ﷺ.

قال سلطان كافر لخاصَّته: من الملك؟ قالوا: أنت، لأنَّك ملكت كذا وكذا من البلاد، وقهرت سلاطين، قال: لا، بل من يذكر كلَّ يوم وليلة خمس مَرَّات على الصوامع في المشارق والمغارب.

وعنه ﷺ: **قال لي جبريل: إنَّ ربَّك يقول:** «**أتدري كيف رفعت ذكرك؟**» **قلت: الله تعالى أعلم، قال:** «**إذا ذكرتُ ذكرتَ معي**»[1]، وهذا ذكرٌ لبعضِ رَفْعِهِ. قال حسَّان:

وضمَّ الإله اسم النبيء إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذِّنُ: أشهد

ويقال: ظنَّ ﷺ أنَّهم كفروا به لفقره، فكره الفقر لذلك، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا اِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ تعليل لقوله: ﴿رَفَعْنَا...﴾ إلخ أي: لا نبقيك على عدم الرفع لأنَّ مع العسر يسرا. قيل: أو عيَّروه والمؤمنين بالفقر، وظنَّ أنَّ عدم الإيمان لذلك الفقر، فقال الله جَلَّ جَلَالُهُ: خوَّلناك ما خوَّلناك فلا تيأس من رحمته فإنَّ مع العسر يسرا.

[قلت:] وليس بشيء، وهو تفسير بأمر ليس في الآية، ولا سيما أنَّه بناء على أنَّ «ال» للعهد، والحقُّ أنَّها للجنس.

---

(1) رواه **ابن حبَّان** في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الإخبار عن إباحة تعداد النعم، رقم: 3382. من حديث أبي سعيد الخدري.

ونكِّر «يُسْـرًا» للتعظيم، والمراد اليسـر مطلقا. وقيل: الفتـوح، وفيه أنَّه لا غنائم في مَكَّـة ولا فتح، إنَّما ذلك بعـد الهجرة، إلَّا أن يراد بالمسـتقبل لتحقُّقـه، وهكذا نقول حيث أمكـن، كما يراد في بعض الألفـاظ ما في يوم القيامة، وقد مرَّ ذلك في مواضع. وقيل: هذه الآية مَدَنِيَّة.

[بلاغة] وشُهِرَ أنَّ الجملة الثانية تأكيد للأولى، وأنَّ العسر الثاني هو الأَوَّل للتعريف، واليسر الثاني يسر غير اليسر الأوَّل للتنكير.

وفيه أنَّ هذا تأسـيس، وَإِنَّمَا التأكيد أن يراد بهما يسر واحد، كقوله: قام رجل قام رجل، تريد رجل واحد، كما قال بعض هنا به، فيكون اليسر واحدا، كقوله: إنَّ مع الفارس رمحا إنَّ مع الفـارس رمحا، فإنَّ الرمح واحد إلَّا أنَّه اتَّحَدَ الرمح، لأنَّ المعتاد اتِّحَاده، فما التكرير إلَّا للتأكيد، كقوله: قام زيد قام زيد، والقيام واحد.

ويحتمل أن تكون الجملة الثانية غير الأولى، والتأسيس أفضل من التأكيد، فيحمل عليه القرآن، يكون اليسـر الثاني ـ كما مرَّ ـ غير الأوَّل، فالأوَّل ما في زمانه، والثاني ما في زمان الخلفاء، أو في الآخرة، أو فيهما، والعسـر مع هذا أيضا واحد.

خرج رسول الله ﷺ فرحا مسرورا وهو يضحك ويقول: «**لن يغلب عسرٌ يسرين**»[1] رواه الحسن مرسلا، وروي موصولا بابن مسعود، وكذا قال عمر، والحديث نصٌّ في أنَّ الثاني غير الأوَّل.

قال بعض: إنَّ عسر الدنيا لن يغلب اليسرَ الذي وعد الله المؤمنين في الدنيا واليسرَ الذي وعدهم في الآخرة، إنَّما يغلب أحدهما وهو يسر الدنيا، وأمَّا يسر الآخرة فدائم، أي: لا يجتمعان في الغلبة.

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، مج 10، ص 218. وقال: أخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة.

و«ال» للحقيقة لا للاستغراق، إذ ليس مع كلِّ عسر يسرا، فقد يفقر الإنسان أو يمرض إلى الموت، نعم مع اختلاف النوع يصحُّ الاستغراق، فإنَّ الإنسان في نعمة ولو كان في مضرَّة، كمرض مع غنى، وصحَّة بدن مع فقر.

﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ**﴾ من عبادة كتبليغ الوحي وكالصلاة ﴿**فَانصَبْ**﴾ اِتْعَبْ في العبادة الأخرى شكرا على الإطلاق أو على الأوَّل، فلا تفرغ من عبادة إلَّا شرعت في أخرى، **ومن ذلك الدعاء بعد الصلاة.**

وعن ابن عبَّاس موقوفا: «إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب في الدعاء»، وعن ابن مسعود: «إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل»، وقيل: إذا فرغت من التشهُّد فادع لدنياك وآخرتك قبل التسليم، وقيل بعده كما ذكره بعض المفسِّرين.

[فقه] والتسليم ولو كان بعض الصلاة ـ وهو الصحيح ـ لَكِنَّ ما قبله كالأخير، فيجوز الدعاء قبله بالقرآن وبكلام عربيٍّ، وذلك إذا لم يبق إلَّا التسليم فإنَّه يجوز له الدعاء على حدِّ ما ذكرت.

[فقه] وأمَّا إذا قرأ تحيَّات التسليم مع الإمام استدراكا فإنَّه لا يزيد شيئا بعد قوله: «وأنَّ محَمَّدًا عبده ورسوله»، لأنَّه لا يسلِّم حتَّى يستدرك ما فاته به الإمام، فإذا استدركه ولم يبق إلَّا التسليم فله الدعاء بما شاء قبل التسليم.

وكان ﷺ إذا رأى البيت رفع يديه، ويقول: ترفع الأيدي إذا رُئِيَ البيت، وعلى الصفا والمروة، وعشية عرفة، وفي جُمَعٍ، وعند الجمرتين، وعند الميِّت[1]. وزاد غيرنا: عند تكبيرة الإحرام، والحديث في وفاء الضمانة[2]، في

(1) رواه **البيهقي** في الكبرى، كتاب الحجِّ، باب رفع اليدين إذا رأى الميِّت، رقم: 8892. من حديث ابن عبَّاس.

(2) **القطب اطفيَّش**: وفاء الضمانة بأداء الأمانة، في فنِّ الحديث، أربعون حديثا في دخول مَكَّة والطواف والسعي، ج 2، ص 65، الحديث رقم 1. من حديث أنس.

باب دخول مَكَّة، وفي بعض الأحيان يرفع رسول الله ﷺ يديه عند الدعاء فوق رأسه، والأكثر إلى صدره.

وعن الحسن: إذا فرغت من الجهاد فانصب في العبادة، وفيه أنَّ الغزو مدنيٌّ والسورة مَكِّيَّة، فيقال: المراد ما بعدُ، أو السورة أو الآية مَدَنِيَّة، والحقُّ أنَّها مَكِّيَّة. وقال ﷺ: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»[1] ذكره الحسن في الآية. قلنا: لَعَلَّهُ قاله بعد الغزو في المدينة وأقول: المراد العموم بحسب الإمكان في العبادات، وما ورد من التخصيص تمثيل.

[قلت:] والآية زاجرة عن البطالة قال عمر رضي الله عنه: «أكره أن أرى أحدكم لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة».

﴿**وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾ احرص على سؤاله وحده فلا تخيب، والتقديم للحصر والفاصلة، والفاء لتأكيد الربط، أو في جواب «أمَّا» وهي محذوفة. وتعدَّى «ارْغَبْ» بإلى لتضمُّن معنى تَوَجَّهْ أو مِلْ.

والله أعلم، وهو الموفِّق.

إِيَّاكَ نعبد وَإِيَّاكَ نستعين.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(1) أورده **الخطيب البغدادي** في تاريخه، ج 13، ص 493. من حديث أنس. وقد تقدَّم تخريجه أيضا في ج 9، ص 458.

95

تفسير سورة التين

مكّيَّة وآياتها 8 ـ نزلت بعد سورة البروج



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ⑧﴾

حال الإنسان خَلْقًا وعملاً

[منافع التِّين] ﴿وَالتِّينِ﴾ فاكهة طيِّبة لا فضل لها فيما قيل، والمعهود أنَّ لها فضلة كسائر طعام الدنيا، فالمراد فلا فضلة كثيرة معها، وهو غِذَاءٌ لطيفٌ سريع الانهضام، ويُقال: هو أصحُّ الفواكه غذاءً إذا أُكِلَ على فراغ البطن ولم يتبع بشيء، وهو كثير النفع: يفتح السدد، ويقوِّي الكبد، ويُذهب داء الطِّحال وغِلْظَهُ، وعسر البَوْل، وهُزال الكلَى، والخفقان، والربو، وعسر النفس، والسعال، وأوجاع الصدر، وخشونة القصبة، ويزيل نهكة الفم، ويطِيل الشعر، وهو أمَانٌ من الفالج.

وأهدي إلى النبيء ﷺ طبق من التِّين فأكل منه وقال لأصحابه: «**كلوا فلو قلت: إنَّ فاكهة نزلت من الجَنَّة لقلت هذه، لأنَّ فاكهة الجَنَّة لا عجم لها، فَكُلُوها**

فإنَّها تقطع البواسير، وتنفع النقرس»[1] وقال: «**نِعْمَ السِّواك الزيتون من الشجرة المباركة، يُطَيِّبُ الفم، ويذهب بالحُفرة**»، وقال: «**هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي**»[2]. ومعنى أنَّه لا عجم لها يطرح ولا يؤكل، بل عجمها دقيق مأكُول مُغَذٍّ.

[طب] ويقال: إنَّ نفعه من النقرس إذا دُقَّ مع دقيق الشعير أو القمح أو الحلبة، وحينئذ ينفع من الأورام الغليظة وأوجاع المفاصل. ﴿**وَالزَّيْتُونِ**﴾ إدَامٌ ودواءٌ وفاكهةٌ، والمكَلَّس منه لا شيء مثله في الهضم والتسمين وتقوية الأعضاء، ويَكْفِيهِ فضلاً دُهنُه الذي عمَّ الاصطباح به في المساجد ونحوها، مع ما فيه من المنافع، كَتَحْسِين اللَّون، وتصفية الأخلاط، وشدِّ الأعصَاب، وفتح السدد، وإخراج الدود، والإدرار، وتفتيت الحصى، وإصلاح الكلى شربًا بالماء الحارِّ، وقلع البياض، وتقوية البصر اكتحالاً.

ومرَّ معاذ بن جبل بشجرة الزيتون، فأخذ منها سواكًا فاستاك به، وقال سمعت النبيء ﷺ يقول: «**نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة، يطيِّب الفمَّ، ويذهب بالحفرة**»، وسمعته ﷺ يقول: «**هو سواكي وسواك الأنبياء** عليهم السلام **قبلي**».

وعن قتادة: «التين» الجبل الذي عليه دمشق، و«الزيتون» الجبل الذي عليه بيت المقدس. قيل: يقال للأوَّل طُور تِينا، والثاني: طور زيتا، لأنَّهما منبت التين والزيتون المأكولين، سُمِّيَ مكانها باسميهما.

وقيل: «التين» مسجد دمشق، و«الزيتون» بيت المقدس، لأنَّ فيهما شجرًا من الجِنْسَيْنِ. وعن كعب الأحبار: «التين» دمشق، و«الزيتون» إيليا بلد بيت المقدس، تسميةً للمحلِّ باسم الحالِّ.

وعن محمَّد بن كعب: «التين» مسجد أصحاب الكهف، و«الزيتون» بيت المقدس، وعبارة بعضٍ: مسجد إيليا. وعن ابن عبَّاس: «التين» مسجد نوح عليه السلام

---

(1) أورده **الهنديُّ** في الكنز، رقم: 28280، وقال: رواه ابن السنِّيِّ وأبو نعيم والديلمي، عن أبي ذرٍّ.

(2) أورده **الهيثميُّ** في المجمع، ج 2، ص 100. و**العجلوني** في كشف الخفاء، ج 1، ص 441.

الذي بني على الجوديِّ، و«الزيتون» بيت المقدس. وعن شهر بن حوشب: «التين» الكوفة و«الزيتون» الشام.

ولعلَّ المراد: الأرض التي تُسَمَّى اليوم الكوفة، وقد كانت منزل نوح وإلَّا فالكوفة بلدة حادثة مَصَّرها سعد بن أبي وقَّاص في أيَّام عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقيل: الكوفة بلدة خرِّبت وهي قديمة جدِّدت في أَيَّام عمر.

وقيل: «التين» جبال ما بين حلوان وهمدان، و«الزيتون» جبال الشام، والمراد تشريف هذه البقاع في ضمن تعظيم المقسم عليه، وذلك لشرف تلك البقاع، لأنَّها مواضع الطاعة، وفيه مناسبة للقسم بالبقاع بعدُ. واختار بعضهم التفسير الأوَّل بالشجر لبركة تلك الثِّمار كذلك.

﴿**وَطُورِ سِينِينَ**﴾ هو طور سيناء، الجبل الذي كلَّم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قرأ عمر وابن مسعود: «وَطُورِ سِينَاءَ» (بالكسر والمدِّ) بدل «سِينِينَ»، وقرأ أيضًا هو وزيد بن عليٍّ: «سَيْنَاء» (بالفتح والمدِّ) بدل «سِينِينَ».

[نحو] و«سِينِينَ» مفرد يُعْرَبُ كجمع المذكَّر السَّالم، في الرَّفع: سينون بالواو تارة، وتارة تلزم الياء، ويعرب على النون.

وعن الأخفش: إنَّه جمع بمعنى شجر، والواحدة سينة، وكأنَّه قيل: وطور الشجر، أي: جبل الشجر.

وعن ابن عبَّاس: «سِينِينَ»: الحُسْن (بضمِّ الحاء وإسكان السِّين)، قال عكرمة هذا المعنى بلغة الحبش، وعن قتادة: مبارك حَسَن (بفتح الحاء والسِّين) من إضافة الموصوف إلى الصفة وهو جبل بالشام سمِّي بذلك لحسنه، أو لكونه مباركًا. وقيل: هو بقرب التيه بين مصر والعقبة. وقيل: اسم للبقعة التي فيها الجبل.

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ هو مكَّة بلا خلاف، وفيه الكعبة، ومولد النبيء ﷺ، وفيه بُعِث، يأمن فيه الناس في الجَاهِلِيَّة والإسلام، لا ينفَّر صَيْدُها، ولا يعضَدُ شجرها، ولا يحلُّ لأحدٍ أن يلقط لقطتها إلَّا على نيَّة إنشادها.

و«الْأَمِين» شبِّه بإنسان نفي عنه الخوف، أي: غير خائف أن يُسْتَحَلَّ، أو ذو أمن كذلك، أو هو للنسب، أي: ذي أمن عن أن يُسْتَحَلَّ، كقوله تعالى: ﴿حَرَمًا ـ امِنًا﴾ [سورة القصص: 57]، وجه من أوجه تفسيره، ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [سورة آل عمران: 97]، أو لأمن أهله، على حذف مضاف، أو على التجوُّز في الإسناد إلى المكان، أو بمعنى: مأمون، أي: مأمون أهله، أو على التجوُّز، ويقال: أَمُنَ (بضمِّ الميم) فهو أمين غير خائف، أو غير خائن.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ المؤمن والكافر، بدليل الاستثناء بعدُ، ولو فسِّر بالكافر لكان الاستثناء منقطعًا، والأصل فيه الاتِّصال ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: أعْدَلِه، فهو أحْسَنُ ما يَكون صورةً وخَصْلَةً ظاهرة وباطنة، كانتصاب القامة، وحسن الصورة، والإحساس والعقل. وأكثر الملائكة على صورة الإنسان بلا فرج، ولا فرج لواحد منهم.

[تفضيل الله الإنسان] وَوَصَفَهُ الله بأنَّه عالم قادر مريد سميع بصير، وغير ذلك مِمَّا ورد فيه من ألفاظ صفة الله تعالى، وخلقه الله بيده، وأمر الملائكة بالسجود له، وهم مكرَّمون شرفاء عنده.

و«أَحْسَن» اسم تفضيل عامٌّ، فلو حلف أنَّ زوجه أحسنُ من القمر لم يحنث إلَّا بعناية تُحنِّثُه، فإن أراد الضوء الحِسِّيَّ فإنَّه يحنث.

[نحو] و«أَحْسَنِ» حال مقارنة من «الإِنسَانَ»، قيل: أو «فِي» زائدة و«أَحْسَنِ» مفعول مطلق. ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ «ثُمَّ» للتراخي في الزمان على الأصل كما هو الظاهر، والرَّدُّ مستقبل، ولتحقُّقه كان بصورة الماضي،

وأجيز أن تكون لتراخي الرتبة مجازًا، ومن أجاز الجمع بين الحقيقة والمجاز أجاز أنَّها للزمان والرتبة معًا. والرَّدُّ بمعنى التصيير متعدٍّ لمفعولين، فـ«أَسْفَل» معفول ثانٍ، كقوله:

فـردَّ شـعورهنَّ السـود بيضا ... وردَّ وجوهَهُنَّ البيضَ سـودًا[1]

أو الردُّ بمعنى تغيير الحال، فـ«أَسْـفَلَ» حال من الهاء. و«أَسْفَلَ سَافِلِينَ» أصحاب النار، وهم أقبح من كلِّ قبيح، وأسفل من كلِّ سافل، يُشَوِّه الله صورهم ولا يبقيها على حُسْـنِها، أو الردُّ النقل إلى موضع ولـو لم يكن فيه قبل، أي: رددناه إلى أسفل أصحاب النار السَّافلين.

و«أَسْفَلَ» واقع على «الإِنسَـانَ»، وأجيز أن يكون واقعًا على المكان، و«سَافِلِينَ» على الناس، أي: الموضع الأسفل المنسوب للناس السَّافلين، أو على الأمكنة على جمع الصفة لغير العقلاء جمع السَّلامة لمذكَّر للفاصلة، أي: الموضع الأسـفل من جملة المواضع السـافلة، وهو خلاف الأصل، وذلك جَهَنَّم.

و«أَسْفَلَ» خارج عن التفضيل، لأنَّه إن أبقي عليه كانوا كلُّهم في الموضع الذي هو أسفل من كلِّ موضع في النار، فلا يبقى أحد فوق ذلك الموضع إلَّا أن يعتبر فسَّاق الموحِّدين فَهُم فوق.

﴿**إِلَّا الذِينَ ءَامَنُـواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**﴾ فيبقـون على صورهم ويزدادون امتدادًا وحسنًا، والاستثناء مُتَّصِل، وإن فسَّرنا ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ بالهرم والضعف ظاهرًا أو باطنًا ـ كتقوُّس الظهر، والشيب، وتغيُّر الجلد، وكلال السمع والبصر،

(1) اختلف في نسبة البيت، قيل: للكميت، وقيل: لعبد الله بن الزبير، وهو من الشواهد وقبله:
رمـى الحدثان نسـوة آل حرب ... بمقـدار سـمدن لـه سـمودا
إميل يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة العَرَبِيَّة، ج 2، ص 212.

وسقوط الأسنان، وتثاقل المشـــي، وضعف الصوت، كقوله تعالى: ﴿يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ [سـورة الحج: 5]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْـهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [سورة يس: 68]، وذلك في الجملة، ولا يصيب كلَّ إنسان ـ كان الاستثناء منقطعًا، لأنَّ المؤمنين يصيبهم ذلك أيضًا.

وهذا الاســتثناء المنقطع دَفْعٌ لِمَا يُتَوَهَّمُ من أنَّ التساوي في رذالة العمر يســتتبع دخول النار. ويجوز أن يكــون منقطعًا على معنى **لكــن الذين آمنوا لا ينقطع ثواب عملهم بالردِّ إلى أرذل العمر.**

﴿**فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ قدِّم المعمول للفاصلة، والتَّبشير والتشويق إلى ما بعد، والأجر ما فــي الجنَّة، و«غَيْرُ مَمْنُونٍ»: غير مقطــوع، أو غير ممنون به افتخارا عليهم بإعطائه وإذلالهم، وهذه الجملة مفرَّعة على الاستثناء لا مخبر بها عن «الذِينَ»، لأنَّه منصوب على الاســتثناء لا مبتدأ، أو هي جواب لمحذوف، أي: إن قيل فما حالهم؟ فلهم أجر... إلخ.

أو الأجر: ثواب ما قطعهم الهرم عنه وقــد نَوَوْهُ، وفي البخاريِّ عنه ﷺ: «**إذا مرض العبد أو ســافر كتب الله لــه تعالى من الأجر مثــل ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**»[1]، ثمَّ قرأ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ رواه أبو موسى. وذكر الطبرانيُّ عن شدَّاد بن أوس عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله تبارك وتعالى يقول: إذا ابتليت عبدي المؤمن فحمدني على ما ابتليتــه به فإنَّه يقوم من مضجعه كيوم ولدته أمُّه من الخطايا، ويقول الربُّ ﷻ: أنا قيَّدت عبدي هذا وابتليته فَأَجْرُوا له ما كنتم تُجْرُونَ له قبل ذلك**»[2]، وكذا سائر الموانع، كنسيان وقهر

(1) رواه **البخاري** في كتاب الجهاد والسـير (134) باب يكتب للمسـافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم 2996. و**التبريزي** في المشـكاة، كتاب الجنائز (1) باب عيادة المريض وثواب المرض، رقم 1554 (22). من حديث أبي موسى.

(2) رواه **الطبرانيُّ** في الكبير، ج 7، ص 280، رقم 7136. من حديث شدَّاد بن أوس.

قاهر، وجنون، وقد نوى أن يعمل ما دام، ألا ترى كيف ذكر السفر في الحديث الأوَّل. وكذا فيما روي عن ابن عبَّاس موقوفًا في الآية: «إذا ضعف عن العمل كتب له ما كان يعمل في شبابه». ودخل في ذلك تعطُّل عضو عن عمل بقطع أو فساد.

وقيل: ﴿الذِينَ ءَامَنُوا﴾ من يقرؤون القرآن لا يصيبهم أرذل العمر فإن أريد فساد العقل فلعلَّه لا يطَّرد، وأمَّا فساد الأعضاء فمشاهدة وقوعه لا تنكر، وإن صحَّ الأثر ففي قراءة على صفة مخصوصة، وعلى كلِّ حال لا يحلُّ تفسير الآية به خصوصا، ولا دليل عليه.

﴿**فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ**﴾ أيُّها الإنسان المذكور عمومًا، والخطاب بعد الغيبة تشديد في الزجر، وهو بظاهره للكافر، وبإرادة الدوام على التصديق والإلْهاب فيه للمؤمن، وفسَّر بعضهم الإنسان بالكافر فالكاف للكافر ﴿**بِالدِّينِ**﴾ بالجزاء إذ ادَّعَيْتَ أنَّه لا بعث فضلاً عن الجزاء.

والباء للسببيَّة، والفاء للتَّفريع على خلق الإنسان من الأطوار، أي: ما يحملك بعد قيام الحجَّة في البعث بالخلق من الأطوار على أن تكون كاذبًا بسبب تكذيبك؟ وذلك أنَّ كلَّ مكذِّب للحقِّ كاذب في تكذيبه، أي: فما يصيرك كاذبًا؟ فإنَّ إنكار البعث كذب.

وقيل: الخطاب لسيِّدنا محمَّد ﷺ إلْهَابًا له على ازدياد التَّصديق والدوام عليه، وتعريضًا بالمكذِّبين، وما له ﷺ فهو لنا، والمعنى على ما سبق، إلَّا أنَّه يجوز أن تكون الباء في هذا ظرفيَّة أو سَبَبِيَّة، أي: فما ينسبك إلى الكذب في إخبارك بالجزاء، أو بسبب إخبارك به.

ويجوز أن تكون معدِّية لـ«يُكَذِّبُ»، وأن يكون الدين دين الإسلام، فيدخل الجزاء أوَّلاً وبالذات.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ بلى إنَّ الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وردَّه أحكم الحاكمين صنعًا وتدبيرًا، فالبعث والجزاء متعيِّنان، وذلك تقرير لما قبل، أو الحكم بمعنى القضاء، فهو وعيد للكافر بالعذاب.

قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ منكم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فانتهى إلى قوله** ﷻ: **﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشَّاهدين**»(1) رواه أبو داود والترمذيُّ. وروي أنَّه كان ﷺ يقول إذا أتى على هذه الآية: «**سبحانك، وبلى**».

وعن البراء بن عازب ـ وهو المراد عند إطلاق البراء ـ: صلَّى رسول الله ﷺ العشاء في سفر فقرأ في إحدى الرَّكعتين بالتِّين والزيتون، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا أو قراءة منه ﷺ.

والله الموفق.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(1) رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفسير (84) باب ومن سورة التين، رقم 3347. و**أبو داود** في كتاب الصلاة باب مقدار الركوع والسجود، رقم 887. من حديث أبي هريرة. مع زيادة في آخره.

96

تفسير سورة العلق

مكِّيَّة وآياتها 19 ـ وهي أوَّل ما نزل من القرآن



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (7) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (8) ﴾

قدرة الله في خلق الإنسان وتعليمه القراءة والكتابة

[سيرة] أوَّل ما نزل أنَّه قال جبريل: استعذ بالله يا محمَّد، ثمَّ قل: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وتأخَّر ما بعد ذلك، وذلك خمس آيات هنَّ أوَّل ما نزل وهنَّ بمرَّة.

وشهر أنَّه غطَّه في غار حراء حتَّى بلغ الجهد، فقال: اقرأ، فقال: «ما أنا بقارئ» ثمَّ غطه كذلك، وفي الثالثة غطَّه، وشهر أنَّه بلغ الجهد في الثالثة، وفي البخاري ومسلم أنَّه بلغ الجهد في الثلاثة وقال: اقرأ.

[قلت:] ولو كان أوَّلَ ما نزل فاتحة الكتاب ـ كما قيل ـ لكان قوله: «ما أنا بقارئ» كذبًا أو عنادًا حاشاه عنهما، ولو صحَّ لقلنا: إنَّ الفاتحة أوَّل ما نزل جملة، أو أوَّل ما نزل متتابعًا لم يفصله غيره، أو أوَّل ما نزل في رسالته المتأخِّرة عن نبوءته بثلاث سنين.

كما قال جابر بن زيد رضي الله عنه: أوَّل ما نزل: ﴿اِقْرَأْ﴾، ثمَّ ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، ثمَّ: ﴿يَآ أَيُّها الْمُدَّثِّرُ﴾، ثمَّ الفاتحة، وقيل: ﴿يَآ أَيُّها الْمُدَّثِّرُ﴾ قبل ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾. وأوَّل ما بدئ من الوحي الرؤيا الصادقة كفلق الصبح.

[سيرة] وحُبِّب إليه الخلاء بغار حراء يتزوَّد إليه لأيَّام، وأُوحي إليه فيه، فرجع إلى خديجة رضي الله عنها يرجف، فقال: إنِّي خشيت على نفسي، فقالت: «كلَّا إنَّك تصِل الرَّحم، وتصْدُق الحديثَ، وتحمل الكَلَّ، وتُكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر».

فأتت به ابن عمِّها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزَّى، كان كبير السنِّ، وعمي وتنصَّر، وكتب من التوراة والإنجيل، فقالت: يا ابن عمي، انظر ما يقول ابن أخيك، فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال: هذا مثل ما أوحي إلى موسى يا ليتني كنت شابًّا إذا أخرجك قومك، قال: أَوَمُخْرِجِيَّ هم؟! قال: نعم، ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلَّا عُودِيَ، وإن أدركتني أنصرك نصرًا شديدًا.

وفتر الوحي حتَّى حزن رسول الله ﷺ حتىَّ كان يهمُّ أن يذهب إلى الجبل ليلقي نفســه، وكلَّما فعل قال له جبريل وهو في صورته التي رآه عليها: «أنت رسول الله حقًّا»، فيرجع.

ومعنى يُكسب المعدوم (بضمِّ الياء التحتيَّة وضمِّ الدال بعدها واوٌ): يجعل من لم يكن عنده شيء كاسبًا، بأن يعطيه.

وانظر كيف [كان يهمُّ أن] يلقي نفسه من الجبل؟! الجواب أنَّه يصير بصورة من يلقي نفسه في العاقبة بحسب الظنِّ لشدَّة ولهه.

وَلَمَّا مضت ثلاث سنين بعد قصَّة حراء جاءه جبريل بها، فمجيئه بها أوَّل الرِّسالة، ويصرِّح به حديث: «**بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا فوقي، فرفعت بصري فإذا الملك الــذي جاءني بحراء جالس على كرســيٍّ بين الســماء**

والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زمِّلُوني، فأنــزل الله تعالى: ﴿يَآ أَيُّها الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ...﴾ إلى ﴿...فَاهْجُرْ﴾». فالتَّزمُّــل والتدثُّر في قِصَّة واحدة، أعني أنَّه تلقيب واحدٌ.

والمفعول محذوف، أي: اقرأ ما أوحي إليك من القرآن. و«بِاسْــمِ رَبِّكَ» متعلِّق بكون خاصٍّ محذوف، أي: مقترنًا باسم ربِّك، أو مستعينا باسم ربِّك عَلَى تلقِّي الوحي، أو مبتدئا باسم ربِّك، أو ملتبسا باسم ربِّك، وذلك عموم في التذكُّر بأسماء الله بأن يستصحبها. وقيل: المراد البسملة، يقرأها أوَّل كلِّ سورة. وقيل: الباء صلة، أي: اقرأ اسم ربِّك.

وعن عكرمة والحسن: أوَّلُ ما نزل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وأوَّلُ سورة ﴿اِقْرَأْ﴾.

وليس قول جبريل في حراء: «اقرأ» تكليفًــا بالمحال الذي لا يطاق، لأنَّ المراد بقوله: «اقرأ» استعدَّ للقراءة لِمَا ســألقيه عليك، وهو قوله: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ والمراد: اقرأ بلسانك، لا ما قيل: اقرأ هذا المكتوب مشيرًا إلى كتابة في نمط من ديباج فيه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ...﴾ إلى ﴿...مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ كما قيل.

وإن صحَّ فليس المراد: اقرأ من الكتابة بل من لســانك، وكذا لا دليل فيه على تأخير البيان عن وقت الخطاب المعبَّر عنه بوقت الحاجة، لِمَا علمت أنَّ المراد استعدَّ للقراءة.

﴿**الَّذِي خَلَقَ**﴾ نبَّهه بأوَّل النِّعم على قدرته تعالى على تعليم القرآن بألطف وجه، أو باســم ربِّك الذي خلق، لا بأســماء أرباب في زعــم أصحابها التي لا تخلق، وهي الأصنام، فإنَّهم يسمُّونها أربابًا، لكن لا يعتقدون أنَّها تخلق.

ولا مفعول له، لأنَّ المعنى: الذي قَدَرَ عَلى الخلق أو الذي له الخلق، أو الذي من شأنه الخلق، أو لَهُ مفعول خاصٌّ، أي: خلق الإنسان، أو عامٌّ، أي: خلق كلَّ شيء.

ويكون قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الِانسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ذكرٌ للخاصِّ لمزيَّته وشرفه بعد التعليق للقدرة والإمكان، أو بعد الإبهام إن قدَّرنا خلق الإنسان، أو بعد العموم الصَّالح بكلِّ ما يمكن فإنَّه **أشرف المخلوقات مع أنَّ التنزيل إليه، وفيه من بدائع الصنع ما ليس في غيره من الحيوانات**، ولا يخفى أنَّ البيان بعد الإبهام والإجمال أدخلُ في النفس.

وفي الآية تلويحٌ بأنَّ الإنسان خلق للقراءة والدِّراية، إذ ذكر مع الأمر بهما كما ذكر بذلك في قوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ خَلَقَ الِانسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمن: 1ـ3]، وأنَّ كلَّ ما سوى الله وصفاته مخلوق حتَّى القرآن، والإنسان دون القرآن، ولا مانع من ذكر خاصٍّ بعد إجمال أو إبهام شامل لخاصٍّ مثله أو أفضل، نحو: مات المؤمنون حتَّى أبو بكر، فإنَّ في الناس من هو فوق أبي بكر.

والعلق: الدم الجامدُ[1]، خصَّ هذا الطَّوْر دون النطفة والمضغة وما بعدها للفاصلة، وإلَّا فالخلق من الترابِ والنطفةِ أدلُّ على القدرة، لأنَّهما أبعد عن مَادَّة تكوُّن الإنسان.

ولا يقال: لم يذكر مادَّة الأصل الذي هو آدم وهي التراب لأنَّ خلقه من ذلك لم يكن متقرِّرًا عند الكُفَّار، فذكر مَادَّة الفرع، وهي العلقة، تقريبًا لأَفْهَامِهِم لأنَّا نقول: قد ذكر في غير موضع: إنَّكم خلقتم من تراب، أي: بواسطة خلق أبيكم منه، إلَّا أن يقال خلقتم مِمَّا هو من تراب وهو الطعام.

وأيضًا قد يقال: لماذا لم يقرِّب إلى أفهَامهم خلقه من نطفة أو مضغة؟ وقد يقال: العلقة أقرب إلى اللَّحم وتوجد في اللَّحم فهي أولى من النطفة وأسبق من المضغة فبدئ بها البيان.

(1) سبق التعليق على مثل هذا وأنَّه خلايا تتكاثر وليست دمًا جامدًا.

أو خصَّ ذكر العلقة تذكيرًا للْعَلَقَةِ التي أخرجت منه عند شقِّ صدره ﷺ، ليتهيَّأ لهذه القراءة وتوابعها علمًا وعملاً.

﴿اِقْرَأْ﴾ تأكيدٌ للأوَّلِ، أي: افعل ما أمــرت به من القراءة، وتمهيد لقوله: ﴿وَرَبُّــكَ الَاكْرَمُ﴾. وقيل: ﴿اقْــرَأْ﴾ الأوَّل أمرٌ بالقراءة لنفســه، والثاني أمرٌ بالتَّبليغ أو بالقراءة في الصلاة لذكرها بعْدُ.

وقيل: «بِسْــمِ اللهِ» متعلِّق بـ«اِقْرَأْ» الأوَّل، و«بِاسْــمِ رَبِّكَ» متعلِّق بالثاني، والتَّقديم فيهما للتخْصيص، وقيل: «اِقْرَأْ» الأوَّل لا يتعلَّق به شيء معناه إحداث القراءة، والثاني يتعلَّق به «بِاسْــمِ رَبِّكَ»، وتقديم الفعل هنا أولى، لأنَّ القراءة أهَمُّ، لأنَّ السورة أوَّل ما نزل على ما مرَّ.

وأيضًا إذا كان المعنى ـ كما قال قتادة ـ: اقرأ مفتتحا باسم ربِّك، أي: قل: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ثمَّ اقرأ، لم يَخْفَ أنَّ تقديم الفعل أولى ولو لـم تكن السـورة أوَّل مـا نـزل، وأجـاب مـن علَّق «بِاسْمِ رَبِّكَ» بالثاني بأنَّ الأمر بالقراءة قد مرَّ، ويبحث بأنَّ المقام مقام لتأكيد القراءة، فينبغي تقديمها مرَّتين.

[نحو] وجملة «رَبُّكَ الَاكْرَمُ» حال من ضمير «اِقْرَأْ» ومعطوفة، عطفَ اسْمِيَّةٍ خبريَّة على فِعْلِيَّة إنشائيَّة.

أي: ربُّك أعظم كرمًا من غيره، أو هو الكريم دون غيره بالنسبة إلى كرمه، ومن كرمه أن يجازي بالحسنة عشرًا فصاعدًا، وأن يقدرك على القراءة من اللِّسان ولو كنت أُمِّيًّا، وقلتَ لجبريل: ما أنا بقارئ.

ويقال: **الكريم من يعطي بلا عوض**، وطاعة المطيع ليست عوضًا، لأنَّ الله لا يحتاج إليها، بل هي من كرم الله تعالى إذْ وفَّقهُ إليها وقَبِلَهَا، ويقال: الأكرم الذي له الابتداء في كلِّ كرم، وقيل: الحليم عن جهل العباد.

﴿**الَّذِي عَلَّمَ**﴾ الناس والملائكة ومن شاء الله ما شاء تعليمه، فحذف المفعولين للتعميم في علومه ومن يتعلَّم، إلَّا أنَّ عِلْمَ المخلوقات كلِّها أقَلُّ من نقطة من البحر، وهو تعالى يعلِّم نبيئه ﷺ ما لا يحيط به العقول.

﴿**بِالْقَلَمِ**﴾ بواسطة القلم، والمعلِّم هو لا غيره، فإنَّ قوله: ﴿وَرَبُّكَ الَاكْرَمُ...﴾ إلخ حصرٌ، وكما علَّم غيرَكَ بالقلم يعلِّمك بلا قلم. وقدَّر بعضهم ثاني مفعولي «عَلَّمَ» متعلِّقًا للباء، أي: علَّم الناس والجنَّ والملائكة الخطَّ بالقلم، **وما تقدَّم أولى، وهو تعليقها بـ«عَلَّمَ»**، لكن قراءة عبد الله بن الزبير: «عَلَّمَ الْخَطَّ بِالْقَلَمِ» يدلُّ على تعليقها بالخطِّ المحذوف، سواء قرأ بذلك قراءة تلاوة وهو الواضح، أو قراءة تفسير.

وأمر الدنيا والدين والآخرة مبنيٌّ على القلم، تُكتَبُ به كتب الله والأخبار والديون، وَكُلُّ ما يراد أن لا ينسى، وهو نائب عن اللِّسان والقلب، ولا ينوبان عنه.

وقدَّر بعض هنا: علَّم بالقلم كلَّ نبيء غيرك يا محمَّد، وعن الضحَّاك: علَّم إدريس بالقلم، وأنَّه أوَّل من كتب، وقال كعب: علَّم آدم بالقلم، والله أعلم.

﴿**عَلَّمَ**﴾ متعدٍّ لاثنين فقط، لأنَّه بمعنى عرَّف (بشدِّ الراء) ﴿**الِانسَانَ**﴾ بالقلم وبغير القلم ﴿**مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ من الجزئيَّات والكلِّيَّات من العلم والهدى والبيان.

ويقال: علَّم آدم الأسماء كلَّها، وقيل: محمَّدًا ﷺ، على أن لا قصد للعلم في «عَلَّمَ» الثاني إلَّا بقصد كتابة إسرافيل من اللَّوح المحفوظ. والجملة بدل اشتمال من «عَلَّمَ بِالْقَلَمِ».

﴿**كَلَّآ**﴾ ردعٌ عن المحرَّمات مطلقًا، وهكذا إذا لم تجد ما يردع عنه في المقام، أو قلْ: كَلَّا بمعنى حقًّا، أي: حقٌّ ما ذكر، أو ما يذكر بعد.

وإن شئت فقدِّرْ: علَّم الإنسان ما لم يعلم ليتوصَّل بالتعليم إلى العمل، ويشكر نعمة التَّعليم وغيره، فخَالَفَ ذلك، كَلَّا عن تلك المخالفة. وقد يصحُّ الردع عن كفر النعم بدون هذا التقدير، لتقدُّم ذكر النعم من أوَّل السورة إلى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. ويجوز أن يكون الرَّدع عَمَّا بعدُ.

﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ الكافر مطلقًا ولو كان سبب نزول هذا وما بعده إلى آخر السورة أبا جهل لعنه الله، وقيل: هو المقصود في الآية وغيره يلحق به إلْحَاقًا. ﴿لَيَطْغَى﴾ يجاوز الحدَّ في المعصية واتِّباع المستلذَّات للنفس، وقال الكلبيُّ: ليرتفع عن منزلة إلى منزلة في اللِّباس والطعام وغيرهما، [قلت:] ويبحث بأنَّ المتبادر أن يفسَّر الطغيان بالمعاصي، أو بها مع ما ذكر من الإسراف في اللَّذات.

﴿أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى﴾ لأنْ رأى نفسه استغنى.

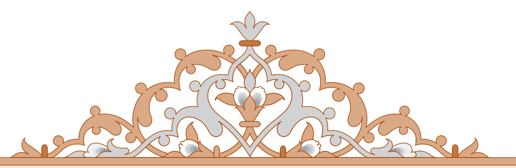
[نحو] وهذا من عمل الفعل في ضميرين متَّصلين لمسمًّى واحد لجوازه في فَقدَ وعَدمَ ورَأَى الحُلُمِيَّة ورَأَى البصريَّة، وباب ظَنَّ وعَلِمَ، وباب أَعْلَمَ وَأَرَى، ولا يجوز في غير ذلك، وهكذا أطلقوا، وليس كذلك، فإنَّه إذا كان أحدهما بحرف جرٍّ يجوز قياسًا مطلقًا نحو: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [سورة البقرة: 260]، ﴿وَاضْمُمِ اِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ [سورة القصص: 32]، و﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [سورة الأحزاب: 59]، وهو في القرآن كثير.

[نحو] والتقدير: لأنْ رآه استغنى، فحذف حرف التعليل، ولا نعرف أنَّه يقال في مثل هذا إنَّه مفعول من أجله اصطلاحًا، بل في تأويل مصدر مجرور، أو منصوب على نزع الجارِّ، والمفعول لأجله مصدر صريح لا مؤوَّل، ومقتضى الظاهر: لأن استغنى، بتعليق الطغيان بالاستغناء، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الاَرْضِ﴾ [سورة الشورى: 27]، لكن علَّقه برؤية الاستغناء لأنَّ مدار طغيانه اعتقاده الفاسد على أنَّ الرؤية عِلمِيَّة، ومجرَّد رؤيته ظاهر حاله من غير تأمُّل على أنَّها عِلمِيَّة.

[سيرة] والمراد بالاستغناء الاستغناء بالمال، كالآية المذكورة، وقيل: استغناؤه عن الله بماله وجاهه وقومه وقوَّته، وليس كذلك، ولا سيما أنَّه ينافيه ما روي أنَّ أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: أتزعم أنَّ من استغنى طغى؟ فاجعل لنا جبال مكَّة ذهبًا وَفِضَّةً لعلَّنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتَّبع دينك، فنزل جبريل عليه السلام فقال: «إن شئت فعلنا ذلك ثمَّ إن لم يومنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة» فكفَّ رسول الله ﷺ عن الدعاء عليهم.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰٓ﴾ للحساب، الخطاب لرسول الله ﷺ كالخطاب قبلُ وبعد، وقيل: للإنسان بعد الغيبة تشديدًا عليه، والمراد على القولين جميعًا تهديد الطَّاغي.

والتقديم للفاصلة والحصر، أي: إنَّ إلى ربِّك وحده لا لغيره، ولا لهُ مع غيره الرجوعُ للجزاء، فترى ما يفعل بمن طغى، وذلك متضمِّنٌ أيضًا للتسلية، وفي ضمنه التحذير من حبِّ المال، بل قيل: ذمَّه في الآيات قبلها ومَدَحَ العلم، وذكر بعض طغيانه في قوله تعالى:



﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿9﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿10﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿11﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿12﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿13﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿14﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿15﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿16﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿17﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿18﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿19﴾﴾

صور أخرى من الطغيان وتهديد الطغاة ووعيدهم

﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ**﴾ عن الصلاة، ودخل في ذلك كلُّ من ينهى عن العبادة، كمن ينهى عن الصلاة والسلام على سَـيِّدنَا محمَّد ﷺ عند سماعه في مجلس قراءة القرآن، ولو بصوتٍ خفيٍّ، وذلك في النهي الباطل.

وأمَّا النهي الحقُّ فلا يدخل في ذلك، كالنهي عن الصلاة في الأوقات المكروهة، ونهي الزوج زوجه عن صلاتها النفل وصوم النفل، ونهي السَّيِّد عبده عن ذلك، فإنَّ ذلك مشروع.

﴿**عَبْدًا**﴾ التنكير للتعظيم، أي: مـن هو عظيم العُبُودِيَّة لله تعالى، منقادًا له تعالى انقيادًا عظيمًا ﴿**إِذَا صَلَّىٰ**﴾ الناهي أبو جهل، والعبد رسول الله ﷺ.

[سبب النزول] حَلَف باللات والعزى: «لئن رأيت محَمَّـدًا يُصَلِّي بين أظهركم ـ هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاريِّ: عند البيت ـ ليَطَأَنَّ رقبته، وليعَفِّرَنَّ وجْهَهُ، فجاء لذلك ورسول الله ﷺ يُصَلِّي، فرجع ينكص ويتَّقي بيديه، فقيل له؟ فقال: إنَّ بيني وبينه خندقًا من نار وهـولاً وأجنحةً وفحلاً فاغـرًا فاه، فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا منِّي لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**» فنزلت: ﴿كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ إلى آخر السورة.

والصلاة المذكورة في الآية مطلقة، لأنَّ المراد بنهيه لعنه الله النَّهي عن الصلاة صُراحًا بلسانه وضِمْنًا كهذه القِصَّة، فالنهي بمعنى مطلق المنع، ثمَّ رأيت عن ابن عبَّاس: كان النبي ﷺ يُصلِّي فجاء أبو جهل لعنه الله، فقال: ألم أنهك عن هذا؟ أي: عن هذا الأمر، أو عن هذا الفعل وهو الصلاة، فقد تكرَّر النَّهي كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿يَنْهَىٰ عَبْدًا اِذَا صَلَّىٰٓ﴾ بصيغة التجدُّد وهو «يَنْهَى»، ولا سيما مع «إِذَا».

وقيل: الصلاة صلاة الظهـر وإنَّها المراد، والمراد نهيـه عنها كما في غير موضع من القرآن، يكون الفعل مَرَّة واحدة قد مضـى، ويعبَّر عنه بمضارع أو ماض مع «إِذَا»، كأنَّه لَمَّا فَتَحَ بَابَ الفعل كان مكرِّرًا له ولو فعله مرَّةً.

أو يكون التعبير بما يفيد الاسـتقبال لاسـتحضار الصورة الماضية لنوع غرابة، كذا قيل، وحاصله أنَّ المضارع لصورة الحال بالتأويل، وليس كذلك، فإنَّ استقبال «إِذَا» ينافي الحال.

وقد قيل: إنَّ الصلاة صلاة الظهر كانت بجماعة، وهي أوَّل جماعة أقيمت في الإسلام، ومعه أبو بكر وعليٌّ، ومرَّ أبُو طالب وابنه جعفر فقال لجعفر: صِلْ جناح ابن عمِّك، وانصرفَ مسرورًا قائلاً:

إنَّ علـيًّا وجـعـفـرًا ثقتي ... عنـد مُلِـمِّ الزمـان والكُربِ
والله لا أخـذل النبـيء ولا ... يَخْذُلُـه مـن كان في حَسَـبِي
لا تخذلَا وانصُرا ابـن عمِّكُما ... أخـي لأُمِّـي من بينهم وأبي

[نقد رواية] ولعلَّ هذا موضوع، كيف يقول أبو طالب: إنَّ محَمَّدًا نبيٌّ؟ إلَّا أنَّه يمكن أن ينطق بذلك ولا يعتمده ويفعل بأمر الشـرك، وأيضًا فرضت الصلوات الخمس في الإسراء وهو قبل الهجرة بسنة أو بسنة وثلاثة أشهر، أو بسنة وخمسة أشهر، وموت أبي طالب قبلها بثلاث سنين وقبل موت خديجة بثلاثة أيَّام، وقيل: بخمسة، وموتها بعد البعثة بعشر سنين.

[قلت:] إلَّا أنَّه روي عن الزهريِّ أنَّ الهجرة بعد البعثة بخمس سنين فيكون أبو طالب مدركًا لذلك، إلَّا أنَّ ما روي عن الزهريِّ غير مسلَّم.

وَلَمَّا نهَى أبو جهل النبيء ﷺ عن الصلاة نهره النبيء ﷺ فقال: أتنهرني؟ فوالله لأملأنَّ عليك الوادي إن شئت خيلاً جُردًا ورجالاً مُرْدًا، والله إنَّك لتعلم ما بها نادٍ أكثر منِّي.

وقال الحسن: الناهي هو أميَّة بن خلف، والعبد سلمان، وفيه أنَّ السورة مكِّيَّة على الصحيح، وإسلام سلمان بعد الهجرة.

وإذا كان الخطاب للنبيء ﷺ فالأصل: أرأيت الذي ينهاك إذا صلَّيت؟ لكن عبَّرَ بالعبد تعظيمًا له ﷺ بأنَّه حقَّق نفسه لله تعالى اعتقادا وعملاً، ولم يقل بَدَلَهُ: «نبيئًا مجتبى» إرخاء للعنان.

[نحو] والضمائر في «يَنْهَى» و«كَذَّبَ» و«تَوَلَّى» وما بعد ذلك للناهي، والرؤية عِلمِيَّة، ومعنى «أَرَآيْتَ»: أخبرني. وقيل: الخطاب لمن يصلح له عمومًا بدليًّا، وقيل: للإنسان، كالخطاب في «إِلَىٰ رَبِّكَ»، والمفعول الثاني محذوف، أي: أرأيت الذي ينهى عبدًا إذا صلَّى ألم يعلم بأنَّ الله يرى، وقيل: هذه الرؤية بصريَّة لها مفعول واحد.

﴿**أَرَآيْتَ إِن كَانَ**﴾ العبد المُصلِّي ﴿**عَلَى الْهُدَىٰٓ أَوَ اَمَرَ**﴾ ذلك العبد المصلِّي الناسَ ﴿**بِالتَّقْوَىٰٓ**﴾ الحذر عن المعاصي ﴿**أَرَآيْتَ إِن كَذَّبَ**﴾ ذلك الناهي الحقَّ ﴿**وَتَوَلَّىٰٓ**﴾ أعرض عنه.

[نحو] ﴿**أَلَمْ يَعْلَم**﴾ ذلك الناهي ﴿**بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ**﴾ يعلم أفعاله وما في قلبه؟ والمفعول الأوَّل لـ«أَرَآيْتَ» في الموضعين محذوف، أي: أرأيته، عائد إلى الناهي، والمفعول الثاني لـ«أَرَآيْتَ» الثاني محذوف، أي: أرأيته ألم يعلم بأنَّ الله يرى؟. وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ﴾ مفعول ثان لـ«رأيت» الثالث، وليس

ذلك تنازعًا في «أَلَمْ يَعْلَمْ» لأنَّه لا يقع في الجمل، بل من باب الحذف لدليل، بل من باب الاستغناء بالقصد عن تقدير لفظ.

وَلَمَّا كانت الرؤية البصريَّة سببًا للعلم عبَّر بها عن العلم، فأجري الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلَّقها. وجواب «إِنْ» محذوف في الموضعين لدلالة «أَلَمْ يَعْلَمْ»، أو يدلُّ عليه «أَرَآيْتَ»، كأنَّه قيل: أرأيت الذي ينهى العبد المصلِّي والمنهي عن الهدى، وأمر بالتقوى والناهي مكذِّب متولٍّ فما أعجب من ذا؟ وقوله: «وما أعجب من ذا» جوابٌ.

و«أَوْ» تقسيميَّة بمعنى الواو. وذكر بعضٌ أنَّ «أَرَآيْتَ» الثاني للكافر، والثالثُ للنبيء، أو كلاهما للإنسان. وقدَّر بعض: ﴿أَرَآيْتَ اَلذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا اِذَا صَلَّىٰٓ﴾ ﴿أَوَ اَمَرَ بِالتَّقْوَىٰٓ﴾ فحذف ﴿أَوَ اَمَرَ بِالتَّقْوَىٰٓ﴾ لدلالة ما بعده، ولم يعكس، لأنَّ الأمر بالتقوى دعوة قَوليَّة، والصلاة دعوة فِعْلِيَّة، والفعل أقوى من القول، لأنَّه إنفاذ، فهو قول وفعل، والقول إنَّما هو ليفعل المقول، ولو كان القول أقوى في الاقتداء.

وقيل: أرأيت إن كان الناهي عن الصلاة إن كان على الهدى بأن يؤمن ويترك النهي عن الصلاة، أو أمر ذلك الناهي الناس بالتقوى، أي: بترك الشرك، أرأيت أيُّها الإنسان أو النبيء إن كَذَّبَ ذلك الناهي وَتَوَلَّى.

وقيل: ﴿أَرَآيْتَ اَلذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا اِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إمَّا بمعنى ينهى عن الصلاة، أو عنها وعن غيرها مِمَّا يناسب الصلاة، أو عن غيرها في حال صلاة العبد.

ورأى عليٌّ قوما يصلُّون قبل صلاة العيد فقيل له: ألا تنهاهم؟ فقال: لا، لِئَلَّا أدخل في قوله تعالى: ﴿أَرَآيْتَ اَلذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا اِذَا صَلَّىٰٓ﴾ ولكن أحدِّثهم بما رأيت من رسول الله ﷺ، أراد التأدُّب ولو كان يمكن أن يقول: لا تصلُّوا قبل صلاة العيد بزيادة لفظ «قبل صلاة العيد».

وقيل: إن كان على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى، أو كان قد أمر بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يزعم، وإن كان مكذِّبا للحقِّ متولِّيا عن الصواب، كما نقول:

﴿**كَلَّا**﴾ ردع للناهي ﴿**لَئِن لَّمْ يَنتَهِ**﴾ عَمَّا هو عليه ﴿**لَنَسْفَعًا**﴾ لنأخذنَّ أخذا عنيفا ﴿**بِالنَّاصِيَةِ**﴾ شعر مُقَدَّم رأسه، ويطلق أيضا على مُقَدَّم الرأس بلا قيد شعر، و«ال» للعهد، لأنَّ ذكر الناهي ذكر لجميع أجزائه، حتَّى كأنَّه عهد حضور، أو يقدَّر بالناصية منه، و«منه» حال، أو «ال» عوض عن الضمير. يجبذ ويسحب إلى النار يوم القيامة.

[سيرة] أو يجبذ من مصرعه إلى حيث رسول الله ﷺ في بدر، كما روي أنَّه لَمَّا نزلت سورة الرحمن قال رسول الله ﷺ: «من يقرأها على رؤساء قريش؟» قال ابن مسعود رضي الله عنه: أنا، فلم يأذن له، وقال أيضا، فقال ابن مسعود: أنا، وقال، فقال: أنا، فقرأها عليهم حول الكعبة، فلطمه أبو جهل وشقَّ أذنه وأدماه لضعفه وصغر جثَّته، فرجع وعيناه تدمعان، فنزل جبريل عليه السلام ضاحكا فقال ﷺ: لم الضحك؟ فقال: ستعلم.

فلمَّا كان بدر قال ﷺ: التمسوا أبا جهل، فوجده ابن مسعود يخور، فارتقى على صدره، ففتح عينيه فعرفه فقال: لقد ارتقيت مرتقا صعبا يا رُوَيْعِيَّ الغنم، فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فعالج قطع رأسه، فقال: أقطعه بسيفي، وقطعه ولم يقدر على حمله، فثقب أذنه وجرَّه بخيط فيه إلى رسول الله، فجاء جبريل يضحك ويقول: «يا رسول الله أذن بأذن والرأس زيادة».

[قلت:] وذكر ضعف ابن مسعود وصغر جثَّته ليس غيبة، لأنَّا لم نُرِدْ به نقصا، ولا مسلم ينقصه ذلك، بل لنا الأجر، لأنَّ قصدنا حكاية ما في العلم، ولعلَّه ازداد ضعفا لهول الحرب والجوع والعطش وغلظ رأس اللعين، ولمغفرٍ عليه.

وخصَّ الله تعالى السحب بالناصية لزيادة الإهانة، إذ يفعل ذلك بالبهيمة، وهو غاية الإذلال عند العرب، ولأنَّه كان شديد الاهتمام بترجيلها وتطييبها.

والألف في الخطِّ [في قوله: ﴿لَنَسْفَعًا﴾] بدل من نون التوكيد الخفيفة فيه، لأنَّه يوقف عليها بإبدالها ألفا. والباء للإلصاق، أو لمعنى: نجرُّه بها.

﴿**نَاصِيَةٍ**﴾ بدل من «النَّاصِيَةِ» لجواز إبدال النكرة المخصَّصة بنعت كما هنا، أو بإضافة لنكرة، أو بتعليق ظرف فيها من المعرفة ﴿**كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ**﴾ أسند الكذب إليها تجوُّزا بإسناد ما للكلِّ للجزء، حتَّى كأنَّ كلَّ جزء منه يكذِبُ ويخطئ.

﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ**﴾ أي: أهل مجلسه من قرابته وأعوانه، وعشيرته مِمَّن ينتصر به، والنادي: المجلس، بشرط أن يكون أهله فيه.

[رسم] ﴿**سَنَدْعُ**﴾ حذف الواو في الخطِّ كما حذف في النطق، وهكذا في القرآن مواضع تراعى فيها المناسبة، والوقف عليه بإسكان العين وبذا أخذت، ومنهم من يقول بردِّ الواو

[نحو] وزعم بعض أنَّه مجزوم في جواب الأمر بحذف الواو، وهو باطل، إذ لم يوجد مضارع مجزوم بعد السين أو سوف.

﴿**الزَّبَانِيَةَ**﴾ ملائكة عذاب النار، يدعوهم الله ليجرُّوه إلى النار، قال رسول ﷺ وعلى آله: «**لو دعا ناديه لاختطفته زبانية الله** ﷻ»[1]، رواه الترمذيُّ عن ابن عبَّاس. والمراد بالترمذيِّ عند الإطلاق صاحب الصحيح المعروف، وإذا أريد الآخر قيل: الترمذيُّ الحكيم.

---

(1) رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفسير (85) باب ومن سورة العلق، رقم 3349. من حديث ابن عبَّاس.

[لغة] وأصله [أي لفـظ الزبانية] أعوان الوُلَاةِ، وأصلــه الزاي والباء والنون، والزبن الدفع، والمفرد زِبنيٌّ (بكســر الزاي)، ينســب إلى الزبن بفتحها، أي: الدفع، والأصل: زبانيٌّ (بشــدِّ اليــاء) خفِّف بحذف الأخيرة وعوِّض عنها التاء. والملائكة تدفع الكُفَّار إلى النار في النار. وقيل: المفرد زابن، على خلاف القيــاس، وقيل: لا مفرد له كعباديــد[1]، وقيل: واحده زبنيت كعفريت.

﴿**كَلَّا**﴾ ردع آخر للناهي، أو نهي له ﷺ، ولــكلِّ من يصلح عن اتِّباعه ﴿**لَا تُطِعْهُ**﴾ في ترك الصلاة أو غيرها من الحقِّ، بل دم على ما أنت عليه وزِدْ.

﴿**وَاسْجُدْ**﴾ دُمْ على السجود وزد سجود صلاة وعبادة وتلاوة، أو صلِّ وزد، فَذَكَرَ الصلاة بجزئها الأعظم.

وجاء أَنَّ «**أقرب ما يكون العبد من ربِّه إذا كان ســاجدا**»[2]. وجاء: «**عليك بكثرة السجود، ولا تسجد لله تعالى سجدة إلَّا رفعك الله بها درجة وحطَّ بها عنك خطيئة**»[3].

[سجدة التلاوة] وفي البخاريِّ ومسلم أنَّه ﷺ سجد في سورة الانشقاق، وسورة «اِقرأ»، وهما من عزائم الســجود عند الإمام عليٍّ، وكان الإمام مالك يسجد هنا ولا يأمر به.

---

(1) الخيل المتفرِّقــة في ذهابها ومجيئها، والأطــراف البعيــدة والآكام، ولا واحد له من لفظه. اللسان، مَادَّة: «عبد».

(2) رواه **الطبرانيُّ** في الكبير، ج 10، ص 79، رقم 10014. و**الهيثميُّ** في المجمع، ج 2، ص 127. من حديث عبد الله.

(3) رواه **مسلم** في كتاب الصلاة (43) باب فضل الســجود والحثِّ عليه، رقم 225 (488). من حديث ثوبان. و**ابن ماجه** في كتاب الصلاة (201) باب ما جاء في كثرة السجود، رقم 1443. من حديث أبي فاطمة.

﴿**وَاقْتَرِب**﴾ إلى رضا ربِّك بالسـجود ومداومته، فإنَّه أقرب ما يكون العبد، وعن عليٍّ الخوَّاص عنه ﷺ: «**أقرب ما يكون أحدكم مِنِّي إذا ذكرني وصلَّى عليَّ**» قال: رويته عن بعض العارفين عن الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رسول الله ﷺ، قال الخوَّاص: هو في أعلى درجات الصحَّة، وإن لم يثبته المحدِّثون على اصطلاحهم[1].

وأوحى الله تعالى إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا موسى أتريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك؟ ومن وسواس قلبك إلى قلبك؟ ومن روحك إلى بدنك؟ ومن نور بصرك إلى عينك؟» قال: نعم يا رَبِّ، قال: «أكثر الصلاة على محمَّد ﷺ وعلى آله»، وقد صلَّى عليه هو وملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه ﷺ.

فوجبت محبَّة محبوب الله تعالى والتقرُّب إلى الله تعالى بمحبَّته وتعظيمه، والصلاة والسلام والاقتداء بالله تعالى وملائكته، ولفظ مسلم: «**أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء**»[2].

والله الموفق.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



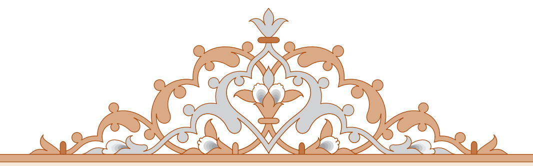
(1) والغريب أنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ نقل هذه الرواية عن الصوفيَّة بدون تمحيص ولا نقد، وفيها أنَّ بعض هؤلاء العارفين مبهم، وأنَّ الرواية عن الخضر، فكيف يروي الخضر عن رسـول الله ﷺ؟ وأنَّ الحديث في أعلى درجات الصحَّة فمن أين ذلك؟ أليست الرواية من شطحات الصوفيَّة، والشيخ نفسه انتقدهم في هذا التفسير مرارا!.

(2) رواه **مسـلم** في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسـجود، رقم: 1111. من حديث أبي هريرة.

97

تفسير سورة القدر

مكّـيَّة وآياتها 5 ـ نزلت بعد سورة عبس



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)﴾

نزول القرآن في ليلة القدر وفضلها

﴿**إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ**﴾ أي القرآن لدلالة لفظ الإنزال، ولعظم شأنه حتَّى إِنَّهُ يُعلم بلا تقدُّم ذكر ﴿**فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ ليلة العَظَمَةِ، يُقالُ: فلانٌ له قدر، أي: شرف، وذلك لعظم شأن العابد فيها، وعظم ثوابه، ولأنَّه نزل فيها كتاب ذو قدر، بمَلَكٍ ذي قدر، على رسول ذي قدر، لأمَّة ذات قدر، وتنزل فيها ملائكة ذاتُ قدر.

أو المعنى: ليلة إظهار التقدير الأزليِّ للملائكة بما في السَّـنَة من مطر ورزق وإحياء وإماتة، أو في ليلة النصف من شعبان، الليلة المباركة إظهارها، وكتبها في اللوح.

و[قيل:] في ليلة القدر دَفْعُ نسخة مصائب السـنة لملك الموت، ونسخة الأعمال لإسرافيل، ونسـخة الحروب والرياح والزلازل والصواعق والخسف

لجبريل، ونسخة الأرزاق والنبات والأمطار إلى ميكائيل. وقيل: يظهر الله تعالى ما قدَّر، فتكتبه الملائكة في اللوح ليلة القدر، أو ليلة القدر ليلة الضيق، تضيق الأرض بالملائكة لكثرتهم فيها.

أنزل [القرآن] جملة من اللوح إلى السماء ليلة القدر من رمضان، ثمَّ جزءًا بعد جزء إلى النبيء ﷺ بحسب الوقائع والحاجة في ثلاث وعشرين سنة، أو في عشرين، أو خمس وعشرين، على الخلاف في مدَّته في مَكَّة بعد البعثة.

وقال الشعبيُّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: بدأنا إنزاله، وَمَرَّ أنَّ أوَّل ما نزل ﴿اِقْرَأْ﴾ إلَّا أنَّه روي أنَّه نزل ﴿اِقْرَأْ﴾ في العشر الأخيرة من رمضان، فإن كان ليلا أمكن كلام الشعبيِّ، أو يقال: بدأنا إنزاله إلى السـماء الدنيا، لَكِنَّ المعروف أنَّه نزل إليها مَرَّة وكان في بيت العِزَّة.

وقيل: أنزل إليها مفرَّقًا في ليالٍ قدر عِشرين سنة مثلاً لكلِّ ليلة ما في العام، وينزل إلى النبيء ﷺ منجَّمًا في كلِّ سنة، ويجوز أن تكون الملائكة تلقيه على جبريل في تلك الليالي مقدَّرًا لكلِّ سنة. أو الهاء للقرآن باعتبار جملته وقطع النظر عن أجزائه، فيخبر عن الجملة بـ«إِنَّا أَنزَلْنَاهُ» وإن كان من جملته «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ»، والجزء من حيث هو مستقلٌّ مغاير له من حيث هو في ضمن الكلِّ.

وقيل: المراد إنَّا أنزلناه في فضل ليلة القدر، أو في شـأنها، أو الظرفيَّة مجازيَّة، كقول عائشة ﵂: «إنِّي لأَحْقَرُ في نفسي أن ينزل فيَّ القرآن». وقيل: «فِي» للسببيَّة، والضمير للقرآن الدائر بين الكلِّ والجزء.

وقيل: بمعنى السورة، ولا يأباه كون «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ» في السورة، لأنَّ الجزء من حيث هو مستقلٌّ... إلخ. وقيل: المراد بالسـورة ما عدا قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. وقيل: المراد المجموع لاشتماله على ذلك.

والقول بــأنَّ ليلة القدر هي ليلة النصف شــاذٌّ، يردُّه قوله تعالى: ﴿شَـــهْرُ رَمَضَانَ الذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرْءَانُ﴾ [سورة البقرة: 185]، ولا تنتقل في رمضان، خلافًا لأبي حنيفة ومحمَّد وأبي يوسف إذ قالوا: تنتقل في كلِّ ليلة منه، وقيل: تنتقل في العشر الأوسط، وقيل: في أوتاره، وقيل: في أشــفاعه، والمشهور أنَّها في العشر الأواخر لكثرة الأحاديث.

والجمهور على أنَّها في أوتاره، واختير أنَّها سبع وعشرون، وحلف عليه أبيُّ بن كعب، لحديث طلوع الشمس لا شعاع لها[1]، ولفظ مسلم عن زر بن حبيش[2] ســمعت أبيَّ بن كعب يقول ـ وقد قيل له: إنَّ ابن مسعود يقول: من قام الســنة أصاب ليلة القدر ـ: «والله الذي لا إله إلَّا هــو إنَّها في رمضان»، يحلف ولا يستثني: «والله إنِّي لأعلم أيَّ ليلة هي، هي التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها وهي ليلة سبع وعشرين، وأمارتها أن تطلع الشمس من صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها»[3].

وفي الترمذي وابن ماجه والنســائيِّ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قلت: يا رسول الله ما أقول إن علمت ليلــة القدر؟ قال: «**قولي: اللهمَّ إنَّــك عفوٌّ كريم تحبُّ العفو فاعف عنِّي**»[4].

واختار جمع أنَّها تنتقل في العشر الأواخر أشفاعه وأوتاره. وعن الحسن: هي السابعة عشرة، في صبحها وقعة بدر. وعن أنس وابن مسعود: التاسعة عشرة.

---

(1) رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفســير (86) باب ومن ســورة القدر، رقم 3351. من حديث زر بن حبيش. يُنظر هل هذا يتوافق مع الواقع المشاهد؟.

(2) تقدَّم التعريف به، انظر: ج 13، ص 267.

(3) رواه **مســلم** في كتاب الصيام (40) باب فضل ليلة القدر، رقم 220 (1762) من حديث زر بن حبيش.

(4) رواه **الترمذيُّ** في كتاب الدعــوات (85) رقم 3513. ورواه **ابن ماجه** فــي كتاب الدعاء (5) باب الدعاء بالعفو والعافية، رقم 3917. من حديث عائشة.

وقيل: الحادية والعشرون، لسجوده في ماء وطين في صبيحتها، وقد قال ﷺ: «**رأيتها ونسيتها، ورأيت أنِّي أسجد في صبيحتها في ماء وطين**»[1]، قال أبو سعيد: لقد رأيته سجد فيهما، وقال مسلم: ذلك في صبيحة ثلاث وعشرين.

قال عبد الله بن أنيس قال ﷺ: «**التمسوها الليلة**»[2] وتلك الليلة ثلاث وعشرون، وعن معاوية مرفوعا: «**التمسوها آخر ليلة من رمضان**»[3]، وكذا روى أبو هريرة. فنقول: تلك الروايات بحسب رمضان الذي هو فيه فهي تنتقل.

وقد قيل: أوَّل ليلة من رمضان. وكذا جاء بحسب رمضانه بحسب زمانه الذي هو فيه: إنَّها ليلة بلجة سمحة، صافية ساكنة، لا ريح فيها ولا حرَّ ولا برد، كأنَّ فيها قمرا ساطعا لا يرمى فيها بنجم حتَّى الصباح، ولا شعاع في صبحها للشمس، أي: لعظم نور الملائكة.

[هيئة] وليلة القدر وغيرها والأيَّام في كلِّ مكان بحسبه، فقد تدخل ليلة القدر في عُمان قبل العصر في مضاب، وتدخل في مَكَّة عند العصر في مضاب[4]، وكذا طلوع فجرها في مضاب قد يكون ضحى في مَكَّة، وكذا وتر رمضان وشفعه.

كلُّ ذلك يختلف باختلاف المطالع والأعراض والأطوال، فقد لا يصحُّ لذلك إطلاق أوَّل رمضان وإطلاق آخره، وقد تدخل في بغداد عند غروب الشمس وبعد نصف ساعة في إسلامبول، والخروج على ذلك.

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الصيام (40) باب فضل ليلة القدر، رقم 218 (1168). من حديث عبد الله بن أنيس.

(2) رواه **ابن أبي شيبة** في كتاب الصلاة، باب 794 في ليلة القدر، رقم: 8775. من حديث عبد الله بن أُنيس.

(3) أورده **الآلوسي**، ج 30، ص 190ـ191. وقال: أخرجه ابن نصر وابن جرير في تهذيبه، عن معاوية.

(4) اسم للمنطقة (مزاب) بجنوب الجزائر حيث كان يسكن الشيخ. وأصل الكلمة اسم لجدِّ القبيلة البربرية التي سكنت الوادي أوَّلاً.

وتكون الليلة عند قوم نهارا عند آخرين، ويكون زمان الليل عند قوم بعضه ليل وبعضه نهار كأهل العروض البعيدة عن خط الاستواء، وقد تنقضي أشهر بليل ونهار على قوم، ولم ينقض يوم واحد.

فليلة القدر للعُمانيِّ مثلا مِمَّا قبل عصرنا، وخروجها قبل سحرنا، **ولكلٍّ مِنَّا ومنهم أجرها ونزول الملائكة على كلٍّ في وقتها عنده**، وقد تراد وتريَّتها لقوم وشفعيَّتها لآخرين. أو تعتبر ليلتها بالمدينة المنزَّل القرآن فيها، فمن اجتهد في وقتها ولو نهارا في البلاد البعيـــدة فله أجرها، وهذا الاختـــلاف بالمطالع أو بالرؤية قد يكون ولو في إقليم واحد.

﴿**وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ**﴾ عبارة تعظيم، لا يعلم غاية شـــأنها إلَّا الله، فإمَّا أن يكون قد بيَّنها الله تعالى لنبيئه ﷺ، ومرَّ ما قيل: إنَّ ما في القرآن من ﴿مَآ أَدْرَاكَ﴾ قد أعلمه النبيءَ ﷺ، وما فيه من ﴿مَا يُدْرِيكَ﴾ لم يُعلمه إِيَّاهُ[1]، وإمَّا أنَّ المراد ما ذكر في السورة لا كلُّ شأنها.

﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنَ اَلْفِ شَهْرٍ**﴾ ثواب العمل فيها خير من ثواب العمل في ألف شهر، كحمل رجل إسرائيليٍّ السلاح ألف سنة للجهاد في سبيل الله تعالى كما في الحديث مرفوعا[2].

[سبب النزول] وكما ذكر ﷺ: «**أربعة من بني إســـرائيل عبدوا الله ثمانين ســـنة، لم يعصوا الله تعالى فيها طرفة عين، أَيُّوب وزكرياء وحزقيل ويوشع**»[3] وعجب هو وأصحابه من الأربعة فنزلت الآية، فهذه الأمَّة يسمَّون عابدين بليلة واحدة، ومن قبلهم بعبادة ألف شهر، فقد استقصر ﷺ أعمار أمَّته وثواب أعمالهم بالنسبة إلى من قبلهم، فأعطاه الله تعالى هذه الليلة.

---

(1) تقدَّم ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ سورة الانفطار.

(2) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج6، ص415. وقال: أخرجه ابن المنذر وابن حاتم والبيهقيُّ في سننه ومجاهد.

(3) أورده **السيوطيُّ** في الدرِّ المنثور، ج8، ص568، وقال: أخرجه ابن أبي حاتم، عن عليِّ بن عروة.

وألف شهر هي ثمانون سنة تقريبا، وإلَّا فهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر.

[قلت:] ولا يَصِحُّ ما قيل: إنَّ ألف شـــهر هي ملك بني أميَّة، **لأنَّها أيَّام سوء في الغالب**، لظلمهم لبني هاشم وغيرهم، ولا يحسن الجواب بأنَّها أيَّام سعادة دُنيَوِيَّة، وأنَّ الله تعالى يقول: أعطيتك ليلة هي في سعادة الدين أفضل من تلك السعادة الدُّنيَوِيَّة.

وأمَّا ملكهم في أندلس زيادة بعد ذلك العدد فلا يعترض به، لأنَّه في طرف الأرض خارج عن أرض العرب[1]. وإذا فضِّلت ليلة القدر على مدَّة ملكهم كان تفضيلا للكامل على الناقص، وذلك ذمٌّ:

إذا أنـــت فضَّلت امْـــرَأً ذا نباهة   على ناقص كان المديح من النقص

وقال شاعر:

ألم تر أنَّ الســـيف ينقص قدره   إذا قيل هذا السيف خير من العصا[2]

وجاء أثر أنَّ كلَّ ليلة فاضلة تستتبع يومها في الفضل والعكس.

وعن كعب: اختار الله من الساعات أوقات الصلوات، ومن الأيَّام يوم الجمعة، ومن الشهور رمضان، ومن اللَّيالي ليلة القدر، فهي أفضل ليلة في أفضل شهر.

والمراد خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وهذا إذا اعتبرناها بألف شهر من زمان هذه الأمَّة، وأمَّا إذا اعتبرناها بزمان مَن قبلَنا فلا إشكال، لأنَّهم لا ليلة قدر لهـــم، ولا جمعة بالفضـــل لهم، بل الأحاديث الـــواردة في فضل الجمعة وليلتها إنَّما هي بعد ليلة القدر.

وتحصَّلت لي من كتاب الديلميِّ[3] في الحديث نســـخةٌ عتيقة مَجَوَّدة من

(1) راجع البحر المحيط لأبي حيَّان في الموضوع، وقد ضعَّف هذا الجانب أيضا.

(2) لم نقف على قائل البيتين، وقد أوردهما **ابن كثير** في تفسيره، ج 8، ص 442، ولم ينسبهما.

(3) صاحب كتاب «فردوس الأخبار في الحديث»، جمع فيه عشرة آلاف حديث من الأحاديث القصار، وَيُسَمَّى شـــهردار بن شـــيرويه، الديلمي الهمذاني، المحدِّث المؤخر، سَيِّد حفَّاظ زمانه، تُوُفِّيَ سنة 509هـ. **الكتاني**: الرسالة المستطرفة، ص 75.

بلد مليكش[1]، فيها عن أنس عن النبيء ﷺ: «**إنَّ الله تعالى وهب لأمَّتي ليلة القدر لم يعطها من كان قبلهم**»، ولم يَصِحَّ حديث أنَّها للأنبياء وأنَّها تبقى بعدهم إذا ماتوا.

وزعم بعض الحنابلة أنَّ ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن أفضل من ليلة الجمعة للخير الكثير فيها، وأمَّا سائر ليالي القدر فليلة الجمعة أفضل منها.

وذكر بعض الشَّافِعِيَّة أنَّ ليلة المولد أفضل، ثمَّ ليلة القدر، ثمَّ ليلة الإسراء، ثمَّ ليلة عرفة، ثمَّ ليلة الجمعة، ثمَّ ليلة النصف من شعبان، ثمَّ ليلة العيد. وعن ابن عبَّاس في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ [سورة البقرة: 187] أنَّه ليلة القدر.

﴿**تَنَزَّلُ الْمَلآئِكَةُ وَالرُّوحُ**﴾ ليستغفروا للمؤمنين ويعتذروا عن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا...﴾ الآية [سورة البقرة: 30]، إذْ رأوا اجتهادهم. ﴿**فِيهَا**﴾ في ليلة القدر.

[نحو] هذا كلام متعلِّق بقوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنَ اَلْفِ شَهْرٍ﴾ ويبعد ما قيل: إنَّ الضمير لـ«أَلْفِ شَهْرٍ»، والجملة نعت لـ«أَلْفِ»، وعلى كلِّ حال «الرُّوحُ» معطوف على «الْمَلآئِكَة» عطف خاصٍّ على عامٍّ لمزيَّته، ولأنَّه النازل بالذكر، والأصل في الواو العطف. و«فِيهَا» متعلِّق بـ«تَنَزَّلُ».

وأجيز أن تكون الواو للحال و«الرُّوحُ» مبتدأ و«فِيهَا» خبر، والضمير للملائكة وهو خلاف الظاهر، لأنَّه إذا أمكن العطف فهو أولى من الحاليَّة والمعيَّة حيث لا تمكنان إلَّا لمرجِّح، ولأنَّ الأصل عدم تعدُّد الجمل وفي الحالية تعدُّدها.

و«الرُّوحُ»: جبريل عند الجمهور، وقيل: ملك يكون صفًّا والملائكة كلُّهم صفٌّ، السماوات والأرض كلقمة له. وعن كعب ومقاتل: «الرُّوحُ» ملائكة

(1) مليكة: بلدة غرب بلدة الشيخ، من قرى وادي ميزاب.

لا تراهم الملائكــة إلَّا تلك الليلــة كالزهَّاد، لا نراهم إلَّا يــوم العيد ويوم الجمعة، وقيل: حفظة على الملائكة.

وقيل: خلق يأكلون ويشربون ويلبسون، ليســوا ملائكة ولا إنسا ولاجنًّا، قال الله ﷻ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: 08]، و﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة المدَّثِّر: 31]، وقيل: هم خدم أهل الجَنَّة، وقيل: عيسى عليه السلام، ينزل لمطالعة هذه الأمَّة لشرفها وقيامها بوصفه كما هو، ويزور قبر النبيء ﷺ، وقيل: أرواح المؤمنين ينزلون لزيارة أجسادهم، وقيل: الرحمة كما قرئ: ﴿لَا تَيْأَسُواْ مِن رُّوحِ اللّهِ﴾ [سورة يوسف: 87]، (بضمِّ الرَّاء).

ينزل الملائكة لــلأرض ليزوروا، وللتســليم على المؤمنيــن. أو لتكون طاعتهم فيها أفضل مِمَّا قبل، كما نذهب إلى المسجد وإلى مَكَّة لذلك. أو تنزل لتدرك ليلة القدر، إذ لا ليل في الســماء، وفيه أنَّ المــراد وقتها في أيِّ مكان لا ظلمتها. وقيل: تنزل إلى السماء الدنيا، وهو ضعيف، وينزلون كلُّهم وتسعهم الأرض مع أنَّهم أضعافها بــإذن الله، أو بتضامِّهم وكونهم أنوارًا لا تتزاحم، أو ينزلون فوجًا فوجًا.

وقيل: تنزل سكان سدرة المنتهى، أو بعضهم وهم أضعافها أيضًا، وتسعهم لِمَا ذكر. وقيل: هم ســبعون ألف ملك، ينزلون مع جبريل بألوية من نور يُرَكِّزُ هُوَ وهم ألويتهم عند الكعبة وقبر النبيء ﷺ، وبيت المقدس، ومسجد طور سيناء.

ويأمرهم جبريل بدخول كلِّ مســكن ولو سفينة للتَّســليم على المؤمنين والمؤمنات، ويستغفرون ويذكرون الله تعالى، إلَّا مَسْكنًا فيه مُلَطَّخٌ بزعفران، أو كلب أو خنزير أو خمر أو تمثال أو جنب من حرام. وقيل: تنزل ملائكة التدبير، كما قال: ﴿مِن كُلِّ أَمْرٍ﴾. والحقُّ العموم.

[نحو] ﴿**بِإِذْنِ رَبِّهِم**﴾ متعلّق بـ«تَنَزَّلُ»، أو حال مــن «الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ» على وجــه عطف «الــرُّوح»، أو من «الْمَلَآئِكَــةُ» على أنَّ الــواو للحال، أي: ثابتيــن، وإن قدِّر خاصٌّ فالحــال الخاصُّ بلا نيابــة «بِإِذْنِ رَبِّهِــم» عنه، أي: ملتبسين بإذن ربِّهم.

وإذْنُه تعالى أمرُهُ، وهذا تعظيم لأمر نزولهم، وللإشارة إلى أنَّهم يرغبون في المؤمنين فيؤذَنُ لهم فــي الزيارة، ولا يــزورون إلَّا المؤمنين، ولا يصافحون العاصي حال عصيانه.

وفي حديث أنس عنه ﷺ: «**يصلُّون ويسلِّمون على كلِّ عبد قائم أو قاعد يذكر الله** ﷻ»[1] ولهم رغبة في سماع أنين المذنب التائب قال الله تعالى في حديث قدسيٍّ: «**لأنينُ المذنبين أحبُّ إليَّ من أصوات المسبِّحين**»[2] أو يزوروا من ألفُوا روحه من العابدين، أو يصافحون أهل التوحيد عمومًا، ويســتر الله ذنوبهم عنهم لحكمة.

﴿**كُلِّ أَمْــرٍ**﴾ تعليل متعلّق بـ«تَنَزَّلُ»، والمــراد الأمر الذي يكون في تلك الســنة ينزلون لتعيين إنفاذ الأمور التي في الســنة، أو لإعْدَادِ القوابل لقبول ما أمروا به، وقَدْ ينزل الواحدُ لأُمُور.

وقيل: «مِنْ» بمعنى الباء، أي: تنــزل بكلِّ أمر من الخير والبركة، وقيل: من الخير والشرِّ. أو بمعنى باء السَّببيَّة، أو الملابسة. وقيل: «مِنْ» للابتداء، أو للمجاوزة.

والأمر: أُمُورُها في الســماء، أي: تنزل من أشــغالها في السَّــماء، تَتْرُكُها لما للمسلمين في الأرض من الزيارة لهم والمصافحة، وفي هذا تعظيم للمؤمنين جِدًّا.

---

(1) أورده **السيوطيُّ** في الدرِّ المنثور، ج 8، ص583. وقال: أخرجه البيهقيُّ عن أنس.

(2) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج 10، ص 251، بدون تخريج.

وقيل: يتعلَّق بـ«سَلَامٌ» بعدُ ولو كان مصدرًا، لأنَّه ليس على معنى الموصول الحرفي والفعل مع التوسُّع في الظروف.

﴿سَلَامٌ﴾ خَبَرٌ. ﴿هِـيَ﴾ مبتدأ أُخِّر للحَصْر، أي: ما هي إلَّا سلَامٌ مبالغة في كثرة السلام من الملائكة كأنَّها نفســه، كلَّما لقوا مؤمنًا أو مؤمنة يسلِّمون عليه من ربِّه ﷻ. وعن الشعبيِّ: هو تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر.

أو بمعنى ســالمة جدًّا. وقال الضحَّاك: لا يقضى فيها إلَّا الســلامة، أي: لا يتعلَّق قضاؤه إلَّا بها، وفيه أنَّه تقع المعاصي فيها، إلَّا إنْ أراد أنَّه لا يظهر الله تعالى مَعَاصِيَهم فيها.

وعن مجاهد: سالمة من الشيطان وأذاه، روي أنَّه لا يخرج ليلة القدر حتَّى يضيء الفجر، ولا يصيب أحدًا بجنون أو نحوه، فلعلَّ ما يصدر من المعاصي إنَّما هو من نفســه الأمَّارة بالسوء، أو بوسوسة إنســان آخرَ وَسْوَسَتْهُ نفسُه. أو المراد: أنَّها سبب السلامة من الذنوب إلَّا مَن ضَيَّع العمل فيها.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ متعلِّق بـ«سَلَامٌ» بمعنى التسليم أو السلامة.

[نحو] ولا بأس بفصل المصدر عن متعلَّقــه، لأنَّه في نيَّة الاتِّصال، أي: هي ســلامٌ حتَّى مطلع الفجر، أو يتعلَّق بـ«تَنَزَّلُ»، أي: لا ينقطــع تنزُّل الملائكة إلى مطلع الفجر، ولا بأس بذلك الفصل. و«مَطْلَع» اسم زمان، أي: وقت طلوع الفجر، وهذا مُغنٍ عن جعله مصدرًا على تقدير مضاف، أي: حتَّى وقت طلوع الفجر.

قالت عائشة ﵂: يا رسول الله ما أقول إنَّ وافقتها؟ قال قولي: «**اللَّهمَّ إنَّك عَفُوٌّ كَرِيمٌ تحبُّ العفو فاعفُ عنِّي**»[1]، وهذا دليل على أنَّها تنكشف لغير النبيء ﷺ، ولا يَخْتَصُّ انكشافُها به.

---

(1) تقدَّم تخريجه في هذه السورة، ص 308.

[قصة تاريخية] وقد رآها الشـيخ أبو العَبَّاس الويليلي أحمد في الجبل المشـرف على مقبرة جدِّي محمَّد الذي جرى عليه نسب الدِّين، وجعل أهل بلدي عليه مقامًا مشهودًا، ولا ينكر ذلك منكر، وتواتر هذا في مضاب وغيره[1].

ورآها صحابة وعبَّاد كثيرون بعدهم، وقد يراها من ليس مُوَفِّيًا، قال ابن حجر[2] ـ [قلت:] وهو عَلَّامة كبير له مدح للإباضيَّـة الوهبيَّة ـ: إنَّه ليس لرائيها كَتْمُها، والصحيح أنَّه ينال فضلها مَن قَصَدَها إذا وافقها عند الله تعالى ولو لم تنكشف له.

قال أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «**من صلَّى المغرب والعشاء في جماعة، حتَّى ينقضي شهر رمضان، فقد أصاب من ليلة القدر بحظٍّ وافر**»[3]. وقال سعيد بن المسيّب: «من شهد العشاء ليلة القدر في جماعة فقد أخذ منها بحظٍّ وافرٍ».

[قصص] وفي ليلة القدر تسبِّح الملائكة وتستغفر لهذه الأمَّة إلى مطلع الفجر فيصعدون، فيقول أهل السماء لهم: من أين؟ فيقولون: من ليلة القدر لأمَّة محمَّـد ﷺ، فيقولون: ما فعـل الله تعالى بهم؟ فيقـول جبريل: غفر

---

(1) انظر: **الدرجيني**: طبقات المشـائخ، ج 2، ص 446، ط. دار البعث. ومعجم أعلام الإبَاضِيَّة، ج 2، ص 77.

(2) هو أحمد بن عليٍّ بن محمَّد الكناني العسـقلاني أبو الفضل ابن حجـر. من أَئِمَّة الحديث والتاريخ. ولد بفلسطين سنة 773هـ. رحل في طلب العلم إلى اليمن والحجاز، فأتقن الشعر والحديـث والأدب والجـرح والتعديل، حتَّى أصبح حافظ الإسـلام فـي عصره، فجلس للتدريس في القاهرة بمصر إلى أن تُوُفِّيَ سـنة 852هـ. له تصانيف كثيرة، منها: فتح الباري في شـرح صحيح البخاري، والإصابة في تمييـز الصحابة، وتهذيـب التهذيب في الجرح والتعديل. **الزركلي**: الأعلام، ج 1، ص 181.

(3) أورده **الهنديُّ** في الكنز، ج 8، ص 545، رقم 24091. مـن حديث أنس، وقال: رواه البيهقيُّ في كتاب شعب الإيمان.

لصالحهم، وشَــفَّعَهُ في طالحهم، فيرفعون أصواتهم بالتســبيح والحمد لله تعالى شــكرًا على ما أعطى الأمَّة. ويشيعونهم إلى الســماء الثانية على هذه الصفة والسؤال والجواب إلى السابعة، فيقول جبريل: ارجعوا إلى مواضعكم، وإذا وصلوا ســدرة المنتهى سُــئلوا وأجابوا كذلك، فترفع أصواتها على حدِّ ما مرَّ. فتســمع جَنَّة المأوى ثمَّ جَنَّة النعيم وجنَّة عــدن والفردوس ثمَّ العرش فيرفع صوته كذلك، ويقول: يا ربِّ فعلت بأمَّة محمَّد ﷺ كذا وكذا؟ فيقول الله تبارك وتعالى: «نعم ولهم عندي ما لا يعلمه غيري من عظيم الكرامات».

اللَّهمَّ يا ربِّ أسعدنا في الدنيا والآخرة.

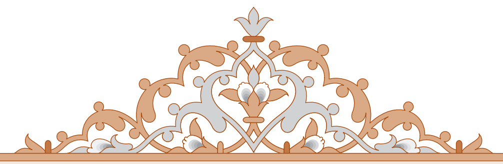
وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



98

تفسير سورة البيِّنة

مدنيَّة وآياتها 8 ـ نزلت بعد سورة الطلاق



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿1﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿2﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿3﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿4﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿5﴾﴾

لا تكليف بلا بيان، ولا عقوبة دون إنذار

﴿**لَمْ يَكُنِ الذِينَ كَفَرُواْ مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ اليهود والنصارى، عبَّر عنهم بأهل الكتاب تشنيعًا عليهم أنَّ الله ﷻ أنعم عليهم بكتبه فخالفوها، وكفروا بها تارة صراحًا، وتارة ضمنًا، وبما فيها من ذكر رســوله محمَّد ﷺ وكتابه القرآن الكريم، وأشركوا بقولهم: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وإنَّه إله، وألْحدوا أيضًا في صفات الله.

[بلاغة] وإيراد الصِّلةِ فعلاً وفاعِلاً، إذْ لم يقل: «لم يكن الكافرون من أهل الكتاب» باســم الفاعل الدَّال على الثبوت لأنَّ كفرهم حــادث بعد أنبيائهم. و«مِنْ» للتبعيض، لأنَّ منهم من لم يكفــر، وعُدَّ منهم الملكانيَّة من النصارى، فقيل: إنَّهم على الحقِّ بعد بعثة سَيِّدنَا محمَّد ﷺ، إلَّا إن كفروا به ﷺ، كذا قيل.

ولو جعلنا «مِنْ» للبيان، أي: لم يكن الذيـــن كفروا وهم أهل الكتاب لزم أنَّهم مشـــركون، قلنا: هي للبيان، وكلُّهم مشـــركون إذ كفروا بالنبيء ﷺ، فإن وُجد شاذٌّ أو حَدَثٌ كعبد الله بن سَلَام فليس الكلام فيه. وعن ابن عبَّاس: المراد بـ«أَهْلِ الْكِتَابِ» مَن في أعمال المدينة: قريظة والنضير وقينقاع.

﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ بعبادة الأصنام، أو غيرها كالنجوم والنار والبقر، أو بإنكار الله، أو بعدم معرفته، أو بإنكار نبيء أو كتاب أو بعضه. وعن ابن عبَّاس: كُفَّار مكَّة والمدينة وما حولهما من العرب.

والعطف على «أَهْلِ الْكِتَابِ» ولو كانت «مِنْ» للتبعيض، ولا يلزم التبعيض في المشركين، لأنَّ المعنى: بعضُ أهل الكتاب وكلُّ المشركين.

وقيل: المراد بهم أهل الكتاب تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذات، كأنَّه قيل: لم يكن الذين كفروا المتَّصِفون بأنَّهم أهل كتاب وبأنَّهم مشركون، قلنا: هذا خلاف الأصل، إنَّما يُرتَكبُ لداعٍ صحيح، ولأنَّ التأسيس المحض أولى من التكرير وما يلتحق به.

﴿مُنفَكِّينَ﴾ عن الكفر، مفارقين للكفر.

[نحو] و«مُنفَكِّينَ» اسم فاعل انفكَّ الذي لا خَبَرَ له، ولا دليل ولا داعي إلى جعلها ذات خبر محذوف، أي: واعديـــن اتِّبَاع الحقِّ، والحذف خلاف الأصل، وخبرُ بابِ «كان» لا يحذف في السعة.

﴿حَتَّىٰ تَاتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ قيل: متعلِّق بـ«مُنفَكِّينَ»، والظاهر أن يتعلَّق بـ«لَمْ»، أي: انتفى انفكاكهم إلى إتيان البَيِّنَة.

والبَيِّنَة الحجَّة، سُمِّيَ بها رسولُ الله ﷺ مبالغةً، كَأَنَّ ذاته نفس الحجَّة، مع أنَّ الحجَّة ما ينطق به لسانه عن الله تعالى، أو يقدَّر ذُو البَيِّنَة.

وقيل: «البيِّنة» وصف بمعنى المبيِّن للحقِّ، ولا يعرف أنَّ البيِّنة بمعنى المبيِّن ولو صحَّ لكانت التاء للبالغة، وليس هذا مِمَّا تقاس فيه تاء المبالغة.

أو «البيِّنة» القرآن، لأنَّه مبيِّن للحقِّ، ولأنَّه كبيِّنة المدَّعي، أي: شهوده، فيكون «رَسُولٌ» بدل اشتمال، أو [بدل] كلٍّ، على حذف مضاف، أي: كتاب رسول، أو بَيِّنَة رسول، أو موحى رسـول، أو خبرًا لِمحذوف، أي: هو رسول، أي: القرآن، أي: كتاب رسول، أو بَيِّنَة رسول، أو موحى رسول.

ومعنى الآية **أنَّهم لا يزولون عن الكفر، وَيَتَّصِلُ كفرهم بمجيء الرسول،** وليس المراد أنَّ كفرهم ينتهي إذا جاءتهم البَيِّنَة، وَلَمَّا جاء كان الحقُّ أن يزولوا عن الكفر، ولم يزولوا بل ازدادوا كفرًا وتفرَّقوا فيه.

فكلُّ طائفة تكفر به نوعَ كُفر، وما تفرَّقوا هذا التفرُّق قبل مجيئه، لأنَّ كفرهم قبل مجيئه ليس كفرا فيه ﷺ[1]، وذلك شامل لقول اليهود المذكور، وشامل لقول المشـركين من قريش ومن يتَّصل بهم: إنَّا ندوم على ما نحن عليه حتَّى يجيء نبيء آخر الزمان. كما تقول اليهود: إنَّه يجـيء، وكما يقول ورقة وزيد بن نفيل وغيرهما: إنَّه يجيء من قريش، بل من بني هاشم بل من بني عبد المطَّلب، وكما سـمَّى جماعةٌ أبناءهم محَمَّدًا رجاء أن يكونوه، وانتشـر ذلك فيهم، وَلَمَّا جاء تفرَّقوا فيه بأنواع الكفر.

والحاصل أنَّه ما فرَّقهم عن الحقِّ الذي انتظروه، ولا أقرَّهم على الباطل والكفر إلَّا مجيءُ الرسول الذي انتظروه أن يؤمنوا به، وهذا لإِفَادَتِه أولى من أن يقال: طوى ذِكْرَ حال المشركين لعلمه بالأَوْلى من حال اليهود، وأمَّا حال النصارى وقد شملهم لفظ «أُوتُوا الْكِتَابَ» فهو مثل حال اليهود سواء، فاجتماعهم وافتراقهم واحد.

وقيل: معنى الآية: **ما تفرَّق الذين أوتوا الكتاب فآمن بعض وعاند بعض مع علمه الحقَّ إلَّا من بعد ما جاءتهم البَيِّنَة.**

---

(1) كذا في النسخ، يبدو أن الأنسب: «ليس تفرُّقًا فيه». أو: «ليس كفرًا به». تأمَّل.

﴿رَسُولٌ مِّنَ اللهِ﴾ بدل كلٍّ، وهو سَيِّدنَا محمَّد ﷺ، وقيل: الرسول جبريل. والصحف: صحف الملائكة المنسوخة من اللوح. و«مِنَ اللهِ» متعلِّق بـ«رَسُولٌ»، أي: مرسل من الله، أو نعت «رَسُولٌ».

﴿يَتْلُواْ﴾ نعت لـ«رَسُولٌ»، أو حال من ضمير الاستقرار، أي: يقرأ من رأسه من الله تعالى لا من كتابه، لأنَّه لا يقرأ كتابًا ولا يكتب، وينطق كنطق من يقرأ من كتاب.

أو الصحف: عبارة عَمَّا فيها، لعلاقة الحلول، فهو ينطق بما فيها من نفسه لا منها نظـرًا، فيكون على هذا «هَا» منْ «فِيهَا» عائـدًا على الصحف بالمعنى الحقيق على هذا المجاز، فذلك استخدام.

﴿صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ عن الباطل، أو شبِّهت بإنسان صادق ورمز إليه بمطهَّرة عن الكذب، أو المعنى: محكوم عليها أنَّها لا يمسُّها إلَّا المطهَّرون بالتجوُّز في الإسناد، فإنَّ المراد هنا: لا يمسُّها إلَّا المطهَّرون.

[نحو] وقوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَـةٌ﴾ نعت لـ«صُحُفًا»، أو حال من الضمير في «مُطَهَّرَةً». أو الحال أو النعت «فِيهَا». و«كُتُبٌ» فاعل «فِيهَا» لنيابته عن لفظ «ثابتٌ» أو «ثَبَتَ».

ومعنى كون كتب قيِّمة في صحف مطهَّرة أنَّ فيها شـرائع قَيِّمة، فـ«كُتُبٌ» بمعنى أشياء مكتوبة، وهي المسائل الشَّرعِيَّة.

أو المعنى أنَّ كتب الأنبياء والقرآن في تلك الصحف إذ صدَّقتها الصحف، فكأنَّها في الصحـف، وكأنَّه يقرأ ﷺ الصحف. أو الصحـف كتب الأنبياء فقط والقرآن مصدِّق لها فكأنَّه فيه، وذلك كلام شـائع، تقول: في هذا الكتاب كُتُبٌ، أي: مشتمل على معاني كُتُبٍ، أو ذُكرت فيه.

[لغة] والصحف: جمع صحيفة، وهي ما يكتب فيه، وأصله المبسوط من الشـــيء، ألا ترى أنَّه يطلق على ما صنع من العود أو غيره مبسوطًا للطعام؟. ومعنى «قَيِّمَة» أنَّها ناطقة بالحقِّ.

﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾ المذكورة، اتَّفقُوا على الكفر قبل مجيئها، واختلفوا بعـــد مجيئها، عاب الله عليهم ازدياد الكفر بأنواعه بعد مجيئها الموجب لزوال الكفر، وكان مقتضى شأنهم أَن يتفرَّقوا قَبْلَهَا في غير شأنها، لا أن يتفرَّقوا في شأنها بعد مجيئها، وهم ما تفرَّقوا إلَّا بعد مجيئها، مع أنَّها نور واضح.

وذكر غيرُ واحد أنَّ ذلك حكاية لقولهم: لا نزال على ما نحن فيه من الدِّين مجتمعين عليه غيـــر منفكِّين عنه حتَّى يجيء النبـــيء الموعود به في التوراة والإنجيل، فنجتمع على ما جاء به، فقال تعالى: ثمَّ ما فرَّقهم عن الحقِّ وأقرَّهم على الكفر إلَّا مجيئه.

وقيل: لم يكونوا منفكِّين عن الوعد بالإيمان بالرَّسول المبعوث آخر الزمان، إلى أن أتاهم ما جعلوه ميقاتًا للاجتماع فجعلوه ميعادًا للانفكاك.

وكانوا يدعون الله تعالى بالنبيء المبعوث آخر الزمان أن ينصرهم على المشـــركين، ويقولون: أَظَلَّ زمانٌ يبعثه الله تعالى بتصديق ما عندنا نقتلكم معه قتل عَادٍ وإِرمٍ، **ولكن أيُّ دليل على قصد ذلك من الآية**؟ وما ذكرتُه هو الحقُّ إن شاء الله تعالى.

وقيل: لم يكونوا منفكِّين عن ذكر الرسول بالحقِّ إلى أن أتاهم فتفرَّقوا فيه بأقوال الذمِّ زورًا، ولا دليل في الآية على أنَّ الانفكاك عن ذكره بالحقِّ. وقيل: المعنى داموا على الكفر إلى أن أتى فآمن بعـــض وكفر بعض، وفيه أنَّ ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ ذمُّهم جميعًا لا ذمُّ بعض، ومن آمن لا يذمُّ.



﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوا ٱللَّهَ﴾ ما أمرهم الله بما في كتبهم من الشَّــريعة إلَّا ليعبدوا الله تعالى به.

[نحو] واللام للتعليل، وقال الفرَّاء: اللام مَصدَرِيَّة في مثل هذا، بمعنى أنَّ المَصدَرِيَّة على تقدير الباء، أي: وما أمروا إلَّا بأن يعبدوا الله، ويردُّه أنَّه لا تدخل الباء على اللَّام. ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ العبادة، وهو مفعول به لـ«مُخْلِصِينَ».

يُجَوِّدُونَ العبادة ولا يراءون بعبادتهم، ولا يُسْــمِعُونَ بها، ولا يأخذون بها عرضًا من الدنيا، ولا يخلطونها من ينقصها ويفسدها.

[قلت:] ويظهر لي أن يقول المكلَّف: «أعوذ بالله من الإهمال ومن الإبطال للأعمال، وأسألك اللَّهمَّ أن تعاملنا بالإِفْضَال فوق المعاملة على قدر الأفعال» ولعلَّ الله يجبُرُ إِهْمَالَه، فيكون كمن نوى ولم يُهْمِل النِّيَّة، ويكون كمن لم يُبْطِل عَمَله بِرياءٍ أو سُمْعَةٍ.

وقال بعضٌ: الإخلاص الإتيان بالعبادة لله تعالى كما يجب، وَبِأَنَّ يعملها إجلالا لله تعالى، لا طلبًا للجنَّة بها، أو هروبًا من النار بها.

قلت: لا يلزم هذا، ولا يقدر عليه كلُّ أحد، والآيات والأحاديث لا توجبه، بل يجب رجاء الجنَّة والخوف من النار، وقد يقال: المــراد أنَّه يرجو ويطمع ولكن يعبد إِجْلَالاً.

وفي مسلم عن أبي هريرة عن رســول الله ﷺ: «**إنَّ الله تعالى لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[1].

﴿حُنَفَآءَ﴾ **مائلين عمَّا يخالــف التوحيدَ والعملَ الصالح**، وفسَّــره بعض بحاجِّين، وبعض بمختتنين، وبعض بمختونين مُحَرِّمين لِنكاح المحارم، وبعض بمستقبلين الكعبة، وما ذلك إلَّا أن أصل الحجِّ والاختتان والاستقبال لإبراهيم.

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 8، ص 151.

وعلى التفسير بحاجِّين فإنَّما قُدِّم الحجُّ على الصلاة والزكاة لأنَّ فيه الصلاة وإنفاق المال، والحقُّ ما ذكرته من العموم.

وفسَّره بعض بجامعين كلَّ الدِّين. وفسَّره مجاهد بمُتَّبعين دِينَ إبراهيم، وهذا كالذي قبله متابعة لقوله تعالى: ﴿إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [سورة الأنعام: 161]، وعن أبي قلابة: بمؤمنين بجميع الرسل والأنبياء، لا يُفرِّقون بين أحد منهم.

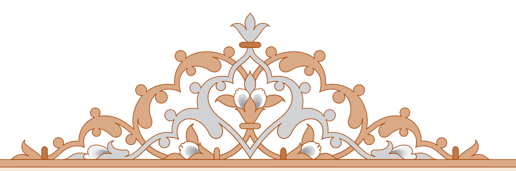
﴿**وَيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَيُوتُواْ الزَّكَوٰةَ**﴾ الصلاة والزكاة اللَّتين في شرعهم، ويجوز أن يراد من كان على عهد رسول الله ﷺ، فالمراد صلاتنا وزكاتنا معشر هذه الأمَّة، ومعنى أمرهم بهما في التوراة والإنجيل أمرُهم بالإيمان به ﷺ واتِّباعِه فيهما.

﴿**وَذَٰلِكَ**﴾ المذكور العالي الشأن، من عبادة الله تعالى وإخلاصها، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ﴿**دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ دين المِلَّة القَيِّمة، كذا قيل، وفيه أنَّ الدِّين هو الملَّة القيِّمة، فذلك من إضافة الشيء إلى نفسه، فنحتاج أن نقول: الإضافة للبيان، أي: دين هو الملَّة القيِّمة.

ويضعف ما قيل: إنَّ التاء للمبالغة، والإضافة للبيان، أي: دين هو القَيِّم، لمخالفة الأصل من جهتين.

[لغة] والشرع دين من حيث إنَّه يُجازَى به أو يُعتاد، وملَّة من حيث إنَّه يُملَى حفظًا وكتابة، يقال: أَمْلَلْتُ الكتاب بمعنى أسمعته من يحفظه أو يكتبه.

أو دين الكُتُب القيِّمة المذكورة آنفًا، أو دين الأمَّة القيِّمة، أي: المستقيمة، أو «القَيِّمَة»: جمع قائم أو قَيِّم، أي: دين القائمين لله بالقول والعمل، أو دين الحجَجِ القيِّمة، **وفي الآية أنَّ الإيمان قول وعمل.**



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

وعيد الكفَّار، وجزاء الأبرار

﴿**إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ أشركوا ﴿**مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ**﴾ الذين ليسوا بأهل كتاب ﴿**فِي نَارِ جَهَنَّمَ**﴾ أي: يثبتـــون في نار جهَنَّم، بمضارع يدلُّ على الاستقبال، أو ثابتون، باسم الفاعل الذي للاســـتقبال، أو ثبتوا، بالماضي، أو ثابتون، باسم الفاعل الذي للماضي أو للحال لتحقُّق الوقوع، فكأنَّهم فيها الآن.

[بلاغة] أو ﴿فِـي نَارِ جَهَنَّـمَ﴾ مجاز مرســل عن أعمالهــم المحرَّمة واعتقادهم المحرَّم إذ كان ذلك سببًا وملزوما لجهنَّم التي هي مسبَّب ولازم، أو شبِّهت أعمالهم بجهنَّم لجامع القبح والنفار الشرعيّ، فهو استعارة تصريحيَّة.

﴿**خَالِدِينَ فِيهَآ**﴾ حالٌ من ضمير الاستقرار. ودركة المشركين تحت دركة أهل الكتاب المشركين، لأنَّ شركهم أشدُّ.

وكون شرك أهل الكتاب أشـــدَّ لعلمهم بصفاته ﷺ وبرسالته ﷺ، ورِدَّتُهم عنها بعد الإقرار بها لا يوجب أن يكون عذابهم أشـــدَّ ولا مُساويًا، لأنَّ إنكار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو عبادة الأصنام وإنكار الكتب والرسل كلُّها أشدُّ.

وإشراك أهل الكتاب يشبه التأويل الذي لا يجوز في الأصول، وأهل الكتاب الذين ليسوا بمشركين لكن ماتوا على كبيرة مثل فُسَّاق هذه الأمَّة في الطبقة سواء.

وإنَّما قَدَّم أهل الكتاب مع أنَّ شركهم ومع أنَّه كالتأويل[1] ومع أنَّه لم يعمَّ الأنبياء بخلاف المشركين، لأنَّ جنايتهم على رسول الله ﷺ أعظم عليه، لأنَّهم آمنوا به قبلُ وَلَمَّا عُيِّن لَهُم جحدوه، وذلك كرِدَّةٍ، والمرتدُّ أشدُّ جُرمًا.

[قلت:] ولا كتابيَّ بعد البعثة إلَّا مشركٌ، إذ لم يؤمن برسول الله ﷺ.

﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ البعداء في الشرِّ ﴿**هُمْ شَرُّ الْبَرِيئَةِ**﴾ الخليقة أعْمالاً، كأنَّه قيل: لماذا يخلدون؟ وقالوا: هل إلى خروج من سبيل لماذا نُخَلَّدُ؟ فقال الله تعالى: بطريق الغيبة: ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيئَةِ﴾ أي: لأنَّهم شرُّ البريئة، أي: شرُّها أعمالاً، فهم شرُّ الخليقة جزاء، يترتَّب شرُّ جزائهم على شرِّ أعمالهم، **والاعتقاد عمل**. وقيل: ﴿شَرُّ الْبَرِيئَةِ﴾ دركةً، والأوَّلُ أولى لموافقة قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ﴾.

و«الْبَرِيئَة» بالهمز مقابل لـ«الْبَرِيئَة» بعدُ بالهمز، ولا بأس بتكرير الفاصلة، لأنَّ القرآن نزل بموافقة الفواصل لشأن القوافي، وبمخالفتها لشأن القوافي، تلويحًا إِلىَ أنَّ بلاغته ظاهرة لا تتقيَّد بمثل السجع.

والمراد بالمشركين ما يشمل إبليسَ وجنودَه والمنافقَ بإضمار الشرك، فكلُّهم أسفل من غيرهم ولو تفاوتت منازلهم، فإنَّ الأسفل على الإطلاق إبليس، ثمَّ جنوده من الجنِّ، ثمَّ المنافق بإضمار الشرك. والمراد بـ«الْبَرِيئَةِ» الأشقياء الذين ليسوا مشركين والمُشْرِكُون، فقال: إنَّ المشركين منهم أشدُّ سُوءًا.

﴿**إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ**﴾ العالون درجةً بإيمانهم وأعمالهم ﴿**هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ**﴾ أفضل الخليقة.

و«خَيْرُ» اسم تفضيل، فمن هم الفاضلون الذين يكون المؤمنون العاملون

---

(1) كذا في النسخ، وَلَعَلَّ الصواب: «مع أنَّ شركهم كالتأويل». تأمَّل.

أفضل منهم؟ فيقال: الملائكة، ففي أثر: «إنَّ المؤمن أفضل عند الله من جميع الملائكة»، واستثنى بعضهم خواصَّ الملائكة كجبريل والكروبيِّين، وخطَّأ بعضهم من فضَّل المؤمنين على خواصِّ الملائكة، وليس كذلك.

[قلت:] وحكم الجنِّ والإنس واحد، ولكن لا أظنُّ أنَّ الجنِّيَّ أفضل من الملائكة، وما لهم من الجَنَّة إلَّا صحاريها[1].

وفي الأثر: «المؤمن من بني آدم أفضل من الملائكة». وفي حديث: «**أفضل من الملك**»[2]، و«ال» للجنس أو للاستغراق، وهو أولى، ليوافق حديث: «**أفضل من جميع الملائكة**»[3]. قالت عائشة ﵂: يا رسول الله من أكرم الخلق على الله تعالى؟ قال: «**يا عائشة أما تقرئين: ﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ﴾**»؟[4]. وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**أتعجبون من منزلة الملائكة عند الله تعالى؟ والذي نفسي بيده لمنزلة المؤمن عند الله تعالى يوم القيامة أعظم من منزلة الملك، اقرأوا إن شئتم ﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ﴾**»[5].

وذلك أنَّ المؤمن يتلقَّى الموانع من الطاعات الدَّاعيات إلى المعاصي من النفسِ والهوى، والشياطينِ من الجنِّ والإنس، ويصعب عليه الوفاء، بخلاف الملائكة فإنَّ العبادة منهم كالتنفُّس، كأنَّهم طُبِعُوا، ولكن لهم اختيار. واختار أصحابنا أنَّ الملائكة أفضل من المؤمنين.

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ على الإيمان والعمل الصالح ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّق بـ«جَزَاء»،

---

(1) هذا يحتاج لإثباته إلى دليل قطعي من الوحي، والقضيَّة غيبيَّة. (المراجع).

(2) لم نقف على تخريجه، ويبدو أنه يشير إلى الحديث الآتي ذكره قريبًا.

(3) لم نقف على تخريجه.

(4) أورده **السيوطيُّ** في الدُّرِّ المنثور، ج8، ص589. وقال: أخرجه ابن مردويه. عن عائشة.

(5) أورده **السيوطيُّ** في الدرِّ، ج6، ص424. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم. من حديث أبي هريرة.

لأنَّ المعنى: مجزيهم، أي: الذي يُجْزَوْن به عند رَبِّهِم. وذِكْرُ لفظ الربِّ تأكيدٌ بإضافته إليهم، لأنَّ مدلوله التربية والإنعام.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامةٍ، والجنَّات كلُّهنَّ جنَّات إقامة.

[نحو] والجملة خبر ثانٍ لـ«أُوْلَئِكَ» أو لـ«إنَّ». ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ﴾ حال من هاء «جَزَاؤُهُمْ»، وهو حال مقدَّرة.

﴿أَبَدًا﴾ مؤكِّد للخلود، وفي ذلك زيادة تحسين. ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ خبر آخر بالمدح، زيادةً على ثواب أعمالهم، وهو أفضل من ثوابهم. وإن كانت الجملة دعائيَّة على التجوُّز عن الإيجاد أو القبول كانت مستأنفة، لكن يضعف الدعاء بقوله: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فإنَّه إخبار لا إنشاء.

[أصول الدين] والرِّضا في الموضعين في الدنيا، إلَّا أنَّ رضا الله أزليٌّ مستمرٌّ على الدنيا وما بعدها، ورضاهم العمل بما أمرهم به.

ويجوز أن يكون الاستئناف بيانيًّا، والجملة إخْبار، كأنَّه قيل: ما لهم بعد هذا الجزاء؟ لأنَّ العامل في الدنيا للناس قد يعطى أجرته فقط، وقد يعطى أجرته مع رفع درجة.

وإن كان رضاهم في الآخرة فمعناه قناعتهم بما أعطاهم واعتقادهم أنَّه لا شيء فوق ذلك «مِمَّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

قلت: والرضا بالله أن ترضى به ربًّا ومدبِّرًا، وبما أمر أو نهى، والرضا عنه أن تعمل. وقيل: الرضا عنه أن ترضى بما قضى ودبَّر، قال السَّريُّ السَّقَطِي[1]: إذا لم ترض عن الله فكيف تطمع أن يرضى عنك؟!.

﴿ذَالِكَ﴾ العالي المرتبة من الجزاء والرِّضوان ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ خائفًا له خوف إجلال، أو خوف عقاب، أو كليهما.

(1) سري بن المفلس السقطيُّ البغداديُّ: من كبار المتصوِّفة خال الجنيد وأستاذه، وكان يقول بخلق القرآن، وهو أوَّل من تكلَّم بلسان التوحيد وأحوال الصوفيَّة، وكان شيخ البغداديِّين في وقته. تُوُفِّيَ سنة 253هـ. **الزركلي**: الأعلام، ج 3، ص 82.

قال أبو خيثمة البـــدريُّ: لَمَّا نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ الذِيــنَ كَفَرُواْ...﴾ إلخ قال جبريل يا رســـول الله: «إنَّ ربَّك يأمرك أن تُقرِئَهَا أُبيًّا»، فأخبره ﷺ، فقال أُبيٌّ: أَوَذُكِرْتُ ثَمَّ يا رسول الله؟! قال: نعم، فبكى، فقرأها ﷺ، وقرأ فيها: «**لَوْ أنَّ ابن آدم سألَ واديًا من مال فأُعطِيَهُ لسأل ثانيًا، ولو سأل ثانيًا فأعطيهُ لسأل ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلَّا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإنَّ ذات الدين عند الله الحنيفيَّة، غير الشرك ولا اليهوديَّة ولا النصرانيَّة، ومن يفعل فلن يكفره**»[1].

قال أبيٌّ بن كعب: كُنَّا نرى هذا من القرآن: «لَوْ أنَّ لابن آدم واديَيْن من مال لتمنَّى واديًا ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلَّا التـــراب، ثمَّ يتوب الله على من تاب» حتَّى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾.

وبكاؤه رضي الله عنه استصغار لنفْسِه، وسرور بهذه النعمة، وهي تخصيصه بالقراءة عن الصحابة مع أنَّه ذكر باسْمهِ. وقيل: خوفَ التَّقصير في شُكْرِ هذه النِّعمة. أو بكاؤه لذلك كلِّه، ويدلُّ لفرحه بذكر اسمه قوله في رواية: «هل ذكرني الله تعالى باسمي؟ قال: نعم، فبكى».

[قلت:] وخصَّت الســـورة لأنَّها مَعَ وَجازَتِها جامعةٌ لقواعد مُهِمَّة. وحكمة الأمر بالقراءة تعليم التواضع للناس، أن لا يتكبَّر أحد أن يقرأ عمَّن دونه، وأيضًا أُبَيٌّ أسرعُ أخذا وحفظًا وضبطًا وتعليمًا لغيره كما سمع، فيؤدِّي مواضع الوقف والنغم. وأيضًا يُسَنُّ عَرْضُ القرآن على العالم الأعلم، ولو كان القراءة هنا من الأعْلم. وفـــي ذلك تفضيله في الأداء، كما فضَّل زيـــدًا في علم الإرث، ولفظ البخاريِّ: «**إنَّ ربِّي أمرني أن أقرئك القرآن**»[2].

والله المستعان.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه، وشفَّعه فينا.

---

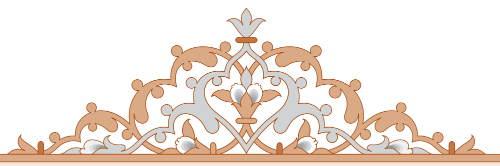
(1) راجع تفسير ابن كثير بداية تفسير السورة. وقال: رواه الترمذيُّ من حديث أبي داود الطيالسيِّ، عن شعبة عن أبيِّ بن كعب.

(2) **البخاري**، كتاب التفسير، سورة البينة، رقم: 4677. من حديث أنس.

99

تفسير سورة الزلزلة

مدنيَّة وآياتها 8 ـ نزلت بعد سورة النساء



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿1﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿2﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿3﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿4﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿5﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿6﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿7﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿8﴾﴾

أهوال يوم القيامة، وعدالة الله في الجزاء

﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ**﴾ حُرِّكت تحريكًا عنيفًا متتابعًا متجدِّدًا وتكسَّر ما عليها ﴿**زِلْزَالَهَا**﴾ أي: زلزالها المعهود لها عندنا بالقضاء، أو زلزالها العجيب المخصوص بها، الذي كلُّ زلزال بالنسبة إليه كلا زلزال، وهو تحرُّكها بعنف مِرارًا من أسفلها إلى أعلاها.

﴿**وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا**﴾ موتاها، أو كنوزَها وموتاها، روايتان عن ابن عبَّاس، وذلك يوم البعث، وهي كنوز باقية لم تخرج للدَّجَّال، أو كنوز كنزت بعده، وما سواها قبلها أخرج للدجَّال كلُّهُ، أو أخرج له بعضها وأخرج الباقي مع ما كنز بعده يوم القيامة، أو الكنوز عند النَّفخة الأولى، والموتى تخرج عند النَّفخة الثانية، ويعدُّ زمان النَّفختين واحدًا.

وأمَّا ما قيل: من إخراج الكنوز والموتى كليهما عند الأولى فتبقى الموتى كالكنوز على وجه الأرض، وينفــخ فيها الروح عند الثانية، فخلاف المعروف من أنَّها تخرج الموتى من القبور عند الثانية.

وقيل: الكنوز عند الأولى والموتى عند الثانية، وعلى كلِّ حال يرى أهل الموقف الكنوز فيشتدُّ فرح المؤمن إذ لم تغرَّه فيهلك بها، وإذْ أنفقها وانتفع بها لهذا اليوم الذي بارت فيه، وكانت وبالاً لمن عصى فيها.

ويشتدُّ تحسُّر العصاة فيها إذ سرقوها أو تملَّكوها كما لا يجوز أو لم يخرجوا حقوقها فهلكوا بها، ولم تغن عنهم شيئًا.

قال رسول الله ﷺ: «**تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانات من الذهب وَالفِضَّة** ـ أي: وســائر الجواهر المكنوزة ـ **فيقول القاتل في هذا قَتَلْتُ، ويقول القاطع في هذا قطعت رحِمي، ويقول السَّارق في هذا قُطِعَتْ يدي، ثمَّ يدَعُونه فلا يأخذون منه شيئًا**»[1].

ويروى «**فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء الســارق فيقول: فــي هذا قطعت يــدي...**» إلخ بذكر المجيء كما في مسلم[2] كأنَّهم يدعون إليها فيجيئون إليها ويقولون ذلك. وقيل: المعنى تخرج لتكوى بها جنوبهم وظهورهم. **قلنا لذلك كلِّه.**

[لغة] والمفرد: ثَقَلٌ (بفتح الثاء والقاف) وهو كلُّ نفيس مصون، أو ثِقْلٌ (بكسر الثاء وسكون القاف) وهو الجنين في البطن.

---

(1) لم نقف على تخريج الرواية التي لبس فيها المجيء.

(2) رواه **مسلم** في كتاب الزكاة (18) باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها. رقم 62 (1013) من حديث أبي هريرة.

[بلاغة] شُــبِّهت الأرض بالحبلى، وما فيها من الكنوز بالجنين، على الاستعارة التصريحيَّة. وأُظهِرَت الأرض ولم يُضْمَر لها هكذا: وأخرجت أثقالها، لزيادة تقرير الحكم عليها بالإخراج.

قيل: أو لأنَّها أرض أخرى، وفيه أنَّ المزلزلة والمخرجة لأثقالها واحدةٌ، وليس في الإظهار إيماءٌ إلى تبديل الأرض غير الأرض.

أو أُظهِرت الأرضُ ولم يُضمر لها لأنَّ المزلزل هي كلُّها من أسفلها إلى أعلاها، والمُخرِج لأثقالها بعضها.

والمراد الإخبار عن حال الأرض أنَّها تزلزل وأنَّها تخرج الأثقال، لا الإخبار بأنَّ إخراجَ أثقالِها وقولَ الإنسانِ: «ما لها» مُســبَّبان عن زلزلتها، فضلاً عن أن يقال: فأَخْرَجَتْ (بالفاء).

﴿وَقَالَ﴾ لشدَّة زلزلتها ﴿الاِنسَانُ﴾ كلُّ إنسان ﴿مَا لَهَا﴾ ما للأرض زلزلت وأخرجت الأثقال؟ أَضْمَرُوا لها للعلم بها ومشــاهدة تحرُّكها، أو هم يقولون: ما للأرض؟ وقال الله تعالى عنهم: ما لها؟.

والمؤمن يقول ذلك استعظامًا أو نسيانًا للبعث لطول العهد، أو ذهولا للحادث، والكافر يقول بطريق التعجُّب.

وقيل: «الاِنسَــانُ» الكافر، لأنَّه لم يؤمن بالبعث، وأمَّا المؤمن فيقول: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [سورة يس: 52].

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ زلزلت وأخرجت ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ جواب «إِذَا». والعامل في البدل هو العامل في المبدل منه، فـ«تُحَدِّثُ» عامل في «إِذَا» وفي «يَوْمَ»، لأنَّ «يَوْمَئِذٍ» توكيد لقوله ﷻ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الاَرْضُ...﴾ إلخ.

ومعنى تحديث الأرضِ الناسَ أخْبارَها: بِأَنْ يخلــق الله فيها حياة وإدراكًا



ونطقًا، فتنطق لكلِّ أحد بما عمل عليها من طاعة أو معصية، كما قال ابن مسعود، وإنَّما تبدَّل الأرض غير الأرض بعد هذا الإخبار.

وفي الترمذيِّ: قال أبو هريرة: قرأ رسول الله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ثمَّ قال: «**أتدرون ما أخبارها**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنَّ أخْبارها أنْ تشهد على كلِّ عبد وأمَةٍ بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا كذا فهذه أخبارها**»[1].

وعن يحيى بن سلَّام[2]: تحدِّث بما أخرجت من أثقالها، تقول الأرض يوم القيامة: يا ربِّ هذا ما استودعتني، كما رواه ابن ماجه.

وعن ابن مسعود: تحدِّث بقيام الساعة إذا قال الإنسان: «ما لها»؟ تحدِّث أنَّ أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرة قد أَتَى، فيكون ذلك جوابا لهم عند قولهم: «ما لها»؟ والأَوْلى أن تقول: تجمع ذلك كلَّه بالتحديث.

[بلاغة] أو التحديث حاليٌّ لا قاليٌّ، مجاز بمعنى: تدلُّ، ومن نظر إلى حالها علم لِمَ زلزلت ولِمَ أخرجت، وأنَّ هذا ما قالت الأنبياء. والتحديث استعارة أو مجاز مرسل، وقيل: المعنى تحدِّث بتحديث: إنَّ ربَّك أوحى لها أخبارها، على أنَّ تحديثها بأنَّ ربَّك أوحى لها تحديثٌ بأخبارها، كما تقول: نصحتني كلَّ النصيحة بأن نصحتني في الدِّين، فأخبارها هو «أَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا»، فالباء بعدُ للتجريد، كقولك: تلقى بزيد البحر، أو تلقى به رجلاً متناهيًا في الخير، **ولا يخفى بُعده، وأنَّه خلاف الأصل.**

[نحو] والمفعول الأوَّل لـ«تُحَدِّثُ» محذوف، أي: تحدِّث الناس أخبارها،

---

(1) رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفسير (88) باب ومن سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الاَرْضُ﴾، رقم 3353. من حديث أبي هريرة.

(2) تقدَّم التعريف به، انظر: ج 12، ص 257.

لتضمُّـن معنى تعرِّفهـم أخبارَها، أو هو متعـدٍّ لواحد محـذوف كما رأيت. و«أَخْبَارَ» منصوب على تقدير الباء، ولم يتعـدَّ إلى ثلاث هنا، وحذف الأوَّل لعدم مقصد الكلام به، وإنَّما المقصود نطقها بالأخبار، وسمع السامع مترتِّب عليه متفرِّع.

﴿**بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا**﴾ بسبب إيحاء ربِّك إليها بأن تحدِّث.

واللام بمعنى «إلى»، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [سورة النحل: 68]، واختيرت اللام عن «إلى» مع أنَّ «إلى» هي الأصل في الإيحاء للفاصلة، وللإشارة إلى المنفعة.

أو هي للمنفعة، لأنَّ للأرض تغيُّظا على من يعصي الله سبحانه عليها فتَتَشَفَّى بفضيحتهم بذكر معاصيهم، فإنَّ الإنسان إذا عصى الله تعالى قالت الأرض التي عصى فيها: يا ربِّ مرني أن أخسـف به، ويقول مقابله من السماء: يا ربِّ مرني أسقط عليه. وقيل: للتعليل، وقد يرجع للنفع، أي: لأجل أن تنتفع.

والإيحاء حقيق، بأن يجعلها الله عاقلة، أو وحي إلهام كذلك. أو وَحْيَ إرسال، بأن يأتيها ملك بذلك. وقيل: «إِنَّ رَبَّكَ» بدل من «أَخْبَارَهَا» والأصل: بأخبارها بأنَّ ربَّك، أي: تُحَدِّثُ بأنَّ ربَّك أوحى لها.

﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ يوم إذ حدَّثت أخبارها، متعلِّـق بقوله تعالى: ﴿**يَصْدُرُ النَّاسُ**﴾ ينتقلون من قبورهم إلى الموقف للحسـاب والجزاء، وهذا أولى من أن يقال: يصدرون عن الموقف بعدما وردوه من قبورهم إلى الجنَّة والنار، فإنَّه كما يقال: صدر عن الموضع بعد وروده، يقال: صدر عنه مطلقًا لا بقصد وروده.

وأيضًا قوله تعالى: ﴿لِّيُـرَوْاْ أَعْمَالَهُمْ﴾ ظاهره المتبادر أنَّ المعنى: ليقرؤوا صحفهم، ويعرفوا أعمالهم، وهـذا حقيقة بلا حذف ولا تأويل، أو ليروا جزاء أعمالهم ويعرفوه، على حذف مضاف، وكذا إن قلنا: ليروا صحائف أعمالهم.

ويجوز أن يكون «أَعْمَالَهُمْ» عبارة عن لازمها ومسـببها، وهو الجزاء. وقيل: تُجَسَّـم الأعمال فيروها بعيونهم، وهذا عندنا لا يجوز، ويجوز أن تكون الرؤية عِلمِيَّة.

﴿أَشْـتَاتًا﴾ متفرِّقون، أهل الإيمان على حدة، وأهل الشرك على حدة، عند ابن عبَّاس. وعنه: أهل التوحيد على حدة، واليهود على حدة، والنصارى على حدة، والمجوس على حدة، وعبدة الأصنام على حدة. أو أهل كلِّ إقليم على حدة.

أو متفرِّقين بالوصف: بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين، وراكبين وماشين، ومَجْرُورين على وجوههم، ومُقَيَّدين وغير مقيَّدين.

وعن بعض: متفرِّقين إلى سَعيد وأسعد، وشقيٍّ وأشقى. أو متفرِّقين كلُّ إنسان وحدَهُ، لا يصاحبُ أحدٌ أحدًا في الذهاب إلى المحشر، أو كلُّ واحد لا ناصر له.

﴿لِّيُرَوْا اَعْمَالَهُمْ﴾ متعلِّق بـ«يَصْدُرُ»، قيل: أو بـ«أَوْحَى»، وهو ضعيف للفصل، ولأنَّ ترتُّب رؤية الأعمال مبنيٌّ على الصدور بلا توسُّـط، وعلى الإيجاب بتوسُّط الصدور.

[سبب النزول] وروي أنَّ رجلاً صحابيًّا لا يتصدَّق بالقليل ككسرة وتمرة وجوزة، ولا يرى لذلك ثوابًا، ويقول: إنَّما نثاب على ما هو عظيم نُحِبُّه. وآخر يتهاونُ بالكذبة والنظرة ونحوهما، ولا يرى لذلك عِقابًا، فنزل قوله تعالى:

﴿فَمَـنْ يَّعْمَلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَـرَهُ﴾ قُدِّم الخير لأنَّه أشـرف ومقصود بالأصالة ﴿وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ مثقال الذَّرَّة ما يزن ثقلها، والذَّرَّة: النملة الصغيرة الحمراء تجري بعد عام، أو الجزء الدقيق الذي لا يرى إلَّا في ضوء الشمس من مَضيق.

أو ما يلصق باليد اليابسة من التراب اليابس بعد النفخ عليها، كما روي عن ابن عبَّاس، وهو تفسير بالقلَّة لا بالمعنى الموضوع في اللُّغة.

والنصب على التمييز، وأجيز على الإبدال من «مِثْقَالَ»، وفيه تعميم للقلَّة والكثرة بعد التقليل الذي هو مقصود الآية، فهو ضعيف.

والمراد: الجزاء على القليل والكثير، فرؤيته رؤية جزائه على حذف مضاف، وذلك بحسب ما ختم به عمله، فالسعيد يرى ثوابَ عمله الصَّالح كُلَّه إذ لم يمت مُصِرًّا، وسيِّئاته كلَّها محبطة، والشقيُّ يرى عقابَ سيِّئاته كلِّها وحسناته كلَّها مبطَلة بإصراره.

كأنَّه قيل: خيرا يره إن لم يحبط، وشرًّا يره إن لم يتب، بدليل الآي الأخر، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [سورة الفرقان: 23]، وقال ﷻ: ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ لَيْسَ لَهُم فِي الَاخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة هود: 16]، وقال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ﴾ [سورة إبراهيم: 18]، قال الله ﷻ: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ [سورة البقرة: 86]، وقال ﷻ: ﴿زِدْناهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ...﴾ [سورة النحل: 88]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مَّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [سورة النساء: 31].

وعبارة بعض «مَنْ» الأولى للسعداء، والثانية للأشقياء، وذلك تفصيل لصدور الناس أشتاتًا، كقوله ﷻ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [سورة الشورى: 7].

وقيل: بعموم «مَنْ» في الموضعين في الدنيا والآخرة، فالمؤمن يرى جزاء خيره في الآخرة، وجزاء شرِّه في الدنيا في نفسه وماله وأهله. والكافر يرى جزاء خيره في الدنيا في نفسه وأهله وماله، وجزاء شرِّه في الآخرة، حتَّى يوافي المؤمن الآخرة وليس له فيها شرٌّ، والكافر ليس له فيها خير.

وكذلك قال محمَّد بن كعب القرظـيُّ: لَمَّا نزلت الآية وكان الصدِّيق رضي الله عنه يأكل مع النبيء ﷺ، وأمسك عن الأكل فقال: يا رسول الله، إنِّي لراءٍ ما عملت من مثقال ذَرَّة من شرٍّ؟ قال: «**نعم، أرأيت ما ترى في الدنيا مِمَّا تكره، فبمثاقيل ذرِّ الشرِّ، ويدَّخر لك مثاقيل ذرِّ الخير حتَّى تُوَفَّاه يوم القيامة، من عمل منكم خيرًا فجزاؤه في الآخرة، ومن عمل منكم شَرًّا يره في الدنيا مصيبات وأمراضًا، ومن يكن فيه مثقال ذرَّة من خير ـ أي لم يحبطها ـ دخل الجنَّة**»[1].

وعن ابن عبَّاس: المعنى يرى المؤمن يوم القيامة حسناته وسيِّئاته، فتغفر له ويثاب بحسناته، ويرى الكافر سيِّئاته وحسناته، فتردُّ عليه ويعاقب بسيِّئاته، قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ اَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 47].

[قلت:] ولا يخفى أنَّ الظاهر عموم «مَنْ» ورؤية الجزاء وكون ذلك في الآخرة.

وسمع الربيع بن خيثم الحسن يقرأ الآية فقال: هذه نهاية الموعظة. وروي أنَّ جدَّ الفرزدق جاء إلى رسول الله ﷺ ليُقرِئَه فأقرأه السورة ـ ويروى: الآية ـ فقال: حسبي!.

[أصول الدين] ومعنى إحباط حسنات الكُفَّار أنَّهم لا يدخلون بها الجنَّة، ولا ينجون بها من النار، وقوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ [سورة البقرة: 86]، عَلَى عُمُومِهِ. وقال بعض قومنا: يخفَّف عذاب ما ليس بشرك من المشرك، ولا يخفَّف عذاب ما بشرك، ويردُّه أنَّ الشرك مبطل لحسناته فلا حسنة له في الآخرة.

---

(1) رواه **الطبراني** في الأوسط، رقم: 8407. عن أنس. إلى قوله: «حتى توفَّاه يوم القيامة». ولم نقف على الزيادة.

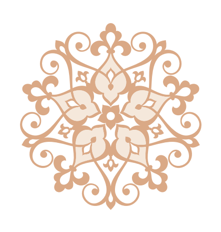
[سبب النزول] وكان الصحابة ﭫ يستحقرون التمرة ونحوها، ويردُّون السائل إذ لم يجدوا، ويستحقرون الكذبة والنظرة والغيبة ونحو ذلك فيفعلونها، فنزلت الآية.

وأعطى ﷺ سائلاً تمرة فقال: نبيء من الأنبياء يتصدَّق بتمرة؟ فقال: «**أما علمت فيها مثاقيل ذرٍّ كثيرة**»[1]. وعنه ﷺ: «**تصدَّق ولو بشقِّ تمرة**»[2]. ومرَّ أنَّ أمة تصدَّقت بشقِّ تمرة فدخلت الجنَّة. وتصدَّقت عائشة ﭭ بحبَّة عنب فقيل لها، فقالت: «كمْ فيها من مثاقيل الذرِّ»؟ وفي رواية: «هذه أثقل من ذرٍّ كثير». وروي مثل هذا عن عمر، ومرادهما الرغبة في الصدقة وتعليم غيرهما.

وَلَمَّا نزلت الآيتان قال أبو سعيد: يا رسول الله إنِّي لراءٍ عملي؟ قال ﷺ: نعم، قال: الكبار الكبار؟ فقال: نعم، وقال: الصغار الصغار؟ فقال: نعم، قال: واثكل أمِّي، قال: «**أبشر يا أبا سعيد، الحسنة بعشر**»[3]، وهذا على أنَّ السورة مَدَنِيَّة، إلَّا أن يقال: جعلتا في سورة مكِّيَّة، وأبو سعيد لم يبلغ الحلم إلَّا بعد أُحُد.

والله أعلم.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



---

(1) انظر قصَّته في تفسير ابن كثير إن شئت.

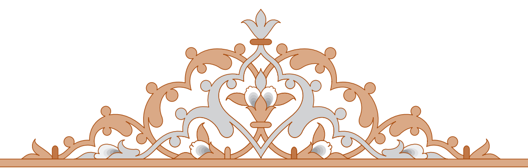
(2) أورده **السيوطيُّ** في الدر، ج6، ص428 وقال: أخرجه الزجَّاج في أماليه. من حديث أنس بن مالك.

(3) أورده **السيوطيُّ** في الدرِّ المنثور، ج8، ص594. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الخدري.

100

تفسير سورة العاديات

مكّيَّة وآياتها 11 ـ نزلت بعد سورة العصر



﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ۞أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١﴾

حبُّ الإنسان الخير العاجل، وإهمال الاستعداد للآخرة

﴿**وَالْعَادِيَاتِ**﴾ والخيل العاديات، الجاريات بسرعة. والياء منقلبة عن واو لانكسار ما قبلها ﴿**ضَبْحًا**﴾ مفعول مطلق لحال محذوفة من المستتر في «عَادِيَات» أي يضبحن ضبحا، أو ضابحات ضبحًا.

[لغة] والضبح: صوت أنفاس الفرس عند عَدْوِهَا، وقد فسَّره ابن عبَّاس بقوله: «أُحْ حْ» حكاية له. أو يقدَّر: ذات ضبح، أو يؤوَّل بضابحات. وعن عليٍّ: ضبح الخيل حمحمتُها، وضَبْحُ الإبل التنفُّس. والضَّبحُ مختصٌّ بالخيل، واستعماله في غيرها مجاز. وعن ابن عبَّاس: ليس يضبح من الحيوان غير الخيل والكلاب. واعترُض بأنَّ هذه الرواية عنه لا تصحُّ، وبأنَّ العرب استعملته

في الإبل والخيل والأسْوَدِ من الحيَّات والبُوم والأرنب والثعلب، ويجاب بأنَّ استعمالها في غير الخيل مجاز وتوَسُّع حَتَّى استعملت في القوس، قال الشاعر:

حنَّانَــة مــن نَشَــمٍ[1] أو تَوْلبٍ تَضْبَحُ في الكَفِّ ضَبَاحَ الثَّعلب

وقيل: أصله في الثعلب فاستعير للخيل، وعن أبي عبيدة اللغويّ: الضبح العَدْوُ الشديد، فهو مفعول مطلق لـ«العَادِيَاتِ».

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ المخرجات النار مع الحجارة، وهذا مختصٌّ بذوات الحافر لا في الإبل، إلَّا ما شَذَّ، وتسـمَّى نار الحُباحِب، والحباحب رجل من العرب شحيح لا يوقد النار إلَّا ضعيفة مخافة الضيفان، فضربوا بناره المثل.

[نحو] ومفعول «الْمُورِيَاتِ» محذوف، أي: الموريات نارًا. و«قَدْحًا» مفعول مطلق لحال من ضمير «الْمُورِيَــاتِ» محذوفة، أي: يقدحن قدحًا، أو قادحات قدحًا. أو حال بتقدير مضاف، أي: ذوات قدح. أو بمعنى اســم الفاعل، أي: قادحات. أو هو تمييز محوَّل عن الفاعل، أي: فالموري قدحها.

وعن قتادة: الْمُورِيَات لنار الحرب القادحة لها مجازًا، وإنَّما المحارب أهل الخيل، والواضح ما تقــدَّم، لأنَّ ما قبلُ وما بعدُ جاء علــى ما هو حقيقة في الخيل لا مجاز، إلَّا «المغيرات» فمجاز قريب من الحقيقة، إذ المغير أصحابها وهم راكبون عليها، بخلاف عقْدِ الحرب، وحضورها هكذا لا يوجب الحرب، بل الإغارة عليها، والإغارة الهجوم على العدوّ للقتل أو النهب أو الإســارِ. أو يقدَّر مضاف، أي: المغير أصحابها.

﴿فَالْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ أي: وقت الصبح، وذلك هو المعتاد في الإغارة، يَغْدُونَ ليلاً لئلَّا يشعروا بهم، ويهجمون صباحًا ليعلموا ما يفعلون، وذلك في

(1) النشم: شجر تتَّخذ منه القسيُّ، وكذا التولب. اللسان، مَادَّة: «ضبح».

غير غزوة بدر، فإنَّ غزوة بدر أوَّل الغزوات، وما فيها إلَّا فَرَسَان: فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود.

﴿**فَأَثَرْنَ بِهِ**﴾ أنهضن وهيَّجن بالصبح، أي: في الصبح، أو أثرن بإغارهم، أي: بإغارتهم.

[صرف] وقـدَّرتُ المصدر بلا تاء مضافًا كإقـام الصلاة، ولو قدَّرت: «بإغارتهم» لكان مؤنَّثًا والضمير مذكَّر، فلا يصحُّ، بل يصحُّ بتأويل الإغارة بما ذُكِر أو بالجري.

ويجوز أن تكون الباء للسببيَّة، وأن تكون للآلة أو للملابسة إذا لم يُرَدَّ الضمير إلى الصبح، وإن رددناه للصبح فبمعنى في، وكذا إن رددناه للمكان المدلول عليه فهي بمعنى في. وكذا الوجوه إذا رددنا الضمير للعدْوِ المدلول عليه بـ«الْعَادِيَاتِ» جائزة على الظرفيَّة.

﴿**نَقْعًـا**﴾ أي: غبارًا، وإنَّما يظهـر النقع نهارًا، كما أنَّ الإيـراء يظهر ليلاً للظلمة، وفي إثارة النقع إشارة إلى شدَّة العدْوِ، وقيل: النَّقع رفع الصوت.

مات خالد بن الوليد، فاجتمعت النساء ليبكين عليه، فقال عمر بن الخطَّاب: ما على نسـاء بني المغيرة أن يسكبن على أبي سـليمان دموعهنَّ وهنَّ جلوس ما لم يكن نقع أو لَقْلَقَة، أي: ما لم يكن رفع صوت.

﴿**فَوَسَطْنَ**﴾ توَسَّطن ﴿**بِهِ**﴾ أي: بالصبح، أي: فيه، أو بالعدوِّ، أو بإغارهم بتأويل ما ذُكِر، أو بتأويل الجري أو الموضع، أو بالنقع، أي: ملابِسات للنقع ﴿**جَمْعًا**﴾ من جموع الأعداء. والفاءات للترتيب، وفـي قوله: ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ وقوله: ﴿فَأَثَرْنَ﴾ دلالة على السَّببيَّة أيضًا.

[نحو] وفي ذلك تنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذَّوات، فساغ العطف، كأنَّه قيل: وبالخيل التي عَدَوْنَ ضبحًا، فأوْرَيْنَ قدحًا، فأغَرْنَ صُبْحًا، فأَثَرْنَ به

نقعًا، فَوسطْنَ بهِ جمعًا، وفي ذلك عطف الجمل الفِعلِيَّة على أسماء الفاعل وضمائرها، و«وَسَطْنَ» فِعْلِيَّة عطفت على فِعْلِيَّة، فتوسُّط الجمع مترتِّب على الإثارة المترتِّبة على الإيراء المترتِّب على العدو.

[سبب النزول] بعث رسول الله ﷺ إلى أناس من بني كنانة سَرِيَّة، واستعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصاري، وكان أحد النقباء، فأبطأ عنه ﷺ خبرُها شهرا، فقال المنافقون: إنَّهم قُتِلوا، فأنزل الله ﷻ عكس قولهم ردًّا عليهم بأنَّ السَّرِيَّة أحياء، وتعظيمًا لشأن الغزو، ولما فيه من نفع الدين والدنيا أقسم أنَّهم أحياء، وأنَّهم عدوا بخيلهم، وأغاروا وتوسَّطوا عدوَّهم، ولا يظهر من ذلك إلَّا أنَّهم قَتَلُوا من العدوِّ وغنموا منهم، وذلك بشارة لرسول الله ﷺ، والحديث مذكور عن ابن عبَّاس إجمالاً وهذا تفصيله.

وأمَّا ما ذكر عن ابن عمِّه الإمام عليِّ بن أبي طالب من أنَّه ردَّ عليه ذلك، وأنَّ العاديات الإبل من عرفة إلى مزدلفة، وأنَّهم يورون النار في المزدلفة لمصالحهم، أي: والجماعات الموريات، والجماعات المغيرات، وأنَّه أقسم بالإنسان والإبل، أي: يغيرون من مزدلفة إلى منًى، فذلك جمع، وأنَّه رجع إلى قول عليٍّ **فلا يصحُّ، بل موضوع**، وكذلك روي عن ابن مسعود أنَّها إبل الحُجَّاج.

والمعروف في العدو ضبحًا، وقدح النار من الحجارة بالوطء عليها، وإغارة الصبح، وإثارة النقع هو الخيل لا الإبلُ، نعم يجوز أنَّ المراد جنس الخيل التي تعدو في سبيل الله تعالى، ولو كان سبب النزول خيل تلك السارية المعهودة.

وروي عن ابن عبَّاس أنَّ «الْعَادِيَاتِ» الجماعات تمكر بالليل، وهذا قريب مما مرَّ عنْه، أو هُوَ هُوَ. وعنه أيضًا: إنَّ المراد الغزاة تكثر نارها إِرْهابًا للعدوِّ ليلاً، وعنه: الجماعات توقد النار ليلاً لحاجتهم.

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ جواب القسم. والكنود عند الجمهور: الكفور للنِّعـــمِ، كما قال ابـــن عبَّاس: ورواه أبـــو أمامة عن رســـول الله ﷺ: «**أتدرون ما الكنود**»؟ قالوا: الله ورســـوله أعلم، قال: «**هو الكفـــور الذي يضرب عبده، ويمنع رفده، ويأكل وحده**» رواه الطبرانيُّ[1]، وللبخاريِّ موقوفًا على أبي أمامة: «**يضرب عبده، وينزل وحده، ويمنع رفده**»[2].

وعن الحسن: الكنود: اللَّائِمُ لربِّه ﷻ، يعدُّ المصيبات السيِّئات، وينسى النعم الحسنات، وهو راجع إلى التفسير بكفر النِّعم المذكور أوَّلاً.

[لغة] وعن ابن عبَّاس: الكنود بلسان كندة وحضرموت: العاصي، وبِلسان ربيعة ومضر: الكفور، وبلسان كنانة: البخيلُ الســـيِّئُ المملكة، وقيل: الكنود القليلُ الخير، مأخوذ من الأرض الكنود التي لا تنبت شيئًا، [قلت:] والتفسير بلغة مضر أَلْيقُ، لأنَّ القرآن بلسانهم، فهو الكفور للنعم كما مرَّ. ولفظ الكلبيِّ: الكنود بلسان كندة وبني مالك وهم أهل حضرموت.

والمراد بالناس المجموع لا الجميع، إذ فيهم مشركون كفورون للنعم، بل هم الأكثر. [قلـــت:] والذي يظهر لي في مثل هذا من حيـــن البلوغ كُلُّ الناس حاشا من يستثنى، بمعنى: إنَّ ذلك كالطبيعة فيهم، ألا ترى أنَّ كلَّ أحد يجزع ممَّا أصابه، وينسى عند الإصابة ما تقدَّم له من خير، وما هو فيه منه، إلَّا أنَّه من وفَّقه الله تعالى يتوب ويرجع.

وقيل: المراد قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القريشيُّ، وأنت خبير بأنَّ سبب النزول لا يكون مخصِّصًا، ولا يعترض التعميم بقوله تعالى: ﴿اَفَلَا يَعْلَمُ﴾

---

(1) أورده **الســـيوطي** في الدر، ج6، ص430. وقال: أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبرانيُّ وابن مردويه والبيهقيُّ وابن عساكر بسند ضعيف من حديث أبي أمامة.

(2) رواه **البخاريُّ** في كتاب الأدب المفرد (27) باب حسن الملكة، رقم 31 (160) بلفظ: «الكنود: الذي يمنع رفده، وينزل وحده، ويضرب عبده». من حديث أبي أمامة.

ـ كما قيل ـ لأنَّه يوعظ المؤمن بما يوعظ الكافر، كما تقول للموحِّد العاصي أو البخيل: أفلا تعلم أنَّك تموت فتجازى؟.

[قلت:] وفي الآيات مدح للغزاة إذ خالفوا طبعهم بالغزو.

و«لِرَبِّهِ» متعلِّق بـ«كَنُودٌ» قدِّم للفاصلة وللحصر للمبالغة، كأنَّه لم يكند إلَّا ربَّه، أو للحصر الإضافيِّ، أي: إنَّما كند ربَّه لا نفسه، فإنَّه راض عنها مادح لها وحامد. و[قُدِّم] بطريق الاهتمام، لأنَّ الذَّمَّ البليغ إنَّما هو كُنُودُهُ الله، أي: نِعَمَهُ. ولام خبر «إِنَّ» لا صدر لها، واللام للتقوية وفي تعليقها قولان، يقال: كند النعمة، أي: كفرها.

﴿**وَإِنَّهُ**﴾ أي: الإنسان ﴿**عَلَىٰ ذَٰلِكَ**﴾ أي: على كنوده (بضمِّ الكاف) وهو متعلِّق بقوله: بـ«شَهِيدٌ» من قوله: ﴿**لَشَهِيدٌ**﴾ قدِّم بطريق الاهتمام وللفاصلة، وكذا الذي بعد هذا، أي: يشهد على نفسه بالكنود شهادة حالٍ لا شهادةَ قالٍ.

وهي [أي شهادة الحال] أبلغ، لعدم احتمال الكذب في شهادة الحال في مثل هذا المقام، وذلك في الدنيا، فإنَّ أفعاله شهادة عليه، لأنَّها خلاف الشكر. وقيل: شهادة القال يوم القيامة، يُقِرُّ أنَّه كَفَرَ النِّعم، ويطلب الرجوع إلى الدنيا ليشْكُرَ.

أو معنى «شَهِيدٌ» حاضر، أي: حاضر لكفره، أي: عالم به وبمحبَّته، وعمل السوء مع العلم بأنَّه سوءٌ أشدُّ ذمًّا، والأوَّل أولى.

وعن ابن عبَّاس: الهاء من «إِنَّهُ» لله تعالى، أي: هو تعالى شاهد على كنوده، فذلك تهديد، واختاره بعض لأنَّه أقرب مذكور، وليس كذلك لأنَّ فيه تفكيك الضمائر، وقرب الشيء لا يوجب ردَّ الضمير إليه إذا عورض بشيء كما هنا، فإنَّ الضمير قبلُ وبعدُ للإنسان فليكن هذا له.

﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ**﴾ أي: في حبِّ الخير، وهو المال مطلقًا، وقيل: المال الكثير، كما فسِّر به في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [سورة البقرة: 180]، وخيريَّة

المال بحســب الطبع، وإلَّا فقد يضرُّ في الآخرة، أو في الدنيا أو فيهما. متعلِّق بـ«شَدِيدٌ» من قوله تعالى: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: قويٌّ، أي: مبالِغٌ في حبِّ الخير.

وزعم بعض أنَّ اللام للتعليل، وأنَّ الشدَّة من معنى القبض على الشيء، هو يشدُّ يده على ماله لا ينفقه، فمعناه بخيل لأجل حبِّ الخير، وهو بمعنى فاعل فإنَّه ممسك عن الإنفاق، أو بمعنى مفعول، أي: شَدَّهُ اللهُ عن الإنفاق، أو شدَّه الشَّيْطانُ، أو شدَّ نفسه.

وقيل: المعنى إنَّه مطيق لحبِّ الخير، وليست للتعليل في هذا القول كما زعم بعض، وفيه أنَّ الحبَّ غير اختياريٍّ، فلا يوصف بأنَّه يطاق عليه أو لا يطاق عليه.

وقال الفرَّاء: المعنى: إنَّه لحبِّ الخير لشديدُ الحبِّ، أي: يحبُّ المال ويحبُّ كونه مُحِبًّا له، وحاصله أنَّه يحبُّه ويحبُّ هذا الحبَّ، فإنَّ الإنسان قد يحبُّ الشيء ويحبُّ هذا الحبَّ، وقد يحبُّه وهــو كاره لهذا الحبِّ، وحذف الثانــي لِدلَالة الأوَّل، كقوله تعالى: ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [سورة إبراهيم: 18]، أي: عاصف الرياح.

وقال قطرب[1]: «شَدِيدٌ» بمعنى شادٌّ، أي: شدَّ الحبَّ، فاللام للتقوية، وأجيز أَنَّ «الخير» الطاعة، أي: منقبض عن الطاعة.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ إنــكارٌ لِلِيَاقة، أي: أيفعل القبائح فــلا يعلم؟ أو ألا يلاحظ فلا يعلم؟ أي: أفلا يعرف؟ فهو متعدٍّ لواحــد محذوف، أي: أفلا يعرف الآن ما له من الجزاء إذا بعث؟ كما قال: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أخرج ما فيها من الموتى.

و«إِذَا» متعلِّق بالجزاء المقدَّر، أو باستقرار لفظ «له» الذي قَدَّرتُ. وضمير «يَعْلَمُ» للإنســان، وإن رُدَّ إلى الله تعالى جاز تعليق «إِذَا» بـ«يَعْلَمُ» وهي في ذلك كلِّه خارجة عن الصدر، وإذا رُدَّ إلى الله ﷻ فلِـ«يَعْلَمُ» مفعولان، أي: أفلا يعلمهم عاملين بما عملوا إذا بعثر، أي: أفلا يجازيهم؟.

(1) تقدَّم التعريف به، انظر: ج 8، ص 339.

وعبَّر بـ«مَا» لأنَّ عقل العقلاء معتبر في الدنيا للتكليف لا يوم البعث، أو هم قبل البعث من جنس غير العاقل، أو للصفات، منهم شقيٌّ وأشقى، وسعيد وأسعد، وصغير وكبير، ومكلَّف وغير مكلَّف، وإنس وجنٌّ.

[نحو] [قلت:] وإنَّما لم نعلِّق «إِذَا» بـ«خَبِيرٌ» لأنَّ معمول خبر «إِنَّ» لا يتقدَّم عليها. وإنَّما لم نعلِّق «إِذَا» بـ«يَعْلَمُ» لأنَّ علمهم يومئذ غير مطلوب، ويجوز أن يكون مفعول «يَعْلَمُ» مع ردِّ ضميره للإنســان هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ سدَّ مســدَّ مفعولين، عُلِّق عنهما على أنَّه متعدٍّ لاثنين، فيكون جواب «إِذَا» محذوفًا، أي: كان ما كان، أو جوزي.

والمجموع معترض، وإذا لم يكن ذلك فقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم...﴾ إلخ مستأنف.

﴿**وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ**﴾ أي: جمع ما فيها من العقائد بالإظهار بلا إبقاء شيء، أو تحصيلُه تمييزُ خيره وشرِّه كما يحصل [أي يتميَّز] الحبُّ من التِّبنِ، والذهب من المعدن. وخصَّ القلب لأنَّه أصلٌ لعمل الجوارح والأعمال بالنِّيَّة.

﴿**إِنَّ رَبَّهُم**﴾ ربُّ ما في القبور، وضمير العقــلاء هنا بالنظر إلى أحيائهم وبالنَّظر إلى أصلهم قبل الموت، ومــرَّ وَجْهٌ آخر هو أنَّهم بعد الإحياء لا تعتبر قلوبهم، وعليه فضمير العقلاء بالنظر إلى الأصل وهو حياتُهم في الدنيا.

﴿**بِهِمْ يَوْمَئِذٍ**﴾ يوم إذ بُعْثِر ما في القبور وحُصِّل ما في الصدور، أو يوم إذ فعل ذلك، متعلِّقان بـ«خَبِيرٌ» من قوله: ﴿**لَّخَبِيرٌ**﴾ عالم ببواطنهم وظواهرهم، أي: مُجَازٍ لهم، وإلَّا فَعِلْمُه أزليٌّ.

والله أعلم، وهو الموفِّق النَّاصر.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

101

تفسير سورة القارعة

مكِّيَّة وآياتها 11 ـ نزلت بعد سورة قريش

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾

أهوال يوم القيامة، واختلاف جزاء الناس فيها

[نحو] ﴿**الْقَارِعَةُ**﴾ مبتدأ خبرُه الجُملة بعده، أو «يَوْمَ» على أنَّه بُنِي لإضافته لجملة، ولو كان فعلها مضارعًا معربًا، على أنَّ «القارعة» نفس اليوم، ويدلُّ له قراءة زيد بن علي برفع «يَوْم»، إلَّا أنَّها تحتمل أنَّها خبر لمحذوف، أي: هي يوم، أو يتعلَّق بمحذوف خبر على أنَّ «القارعة» غير نفس اليوم. أو فاعل لـ«تأتي» [محذوفًا]، و«يَوْمَ» متعلِّق بـ«تأتي»، أو بالقارعة الأوَّل، أو الثالث، كأنَّه قيل: «وما أدراك ما الذي يقرعُ الناس يَوْمَ يكون النَّاسُ». والجملة معترضة غير خبر، وإذا جعلنا الجملة خبرًا فـ«يَوْمَ» يتعلَّق بـ«تأتي» محذوفًا، أو مفعول به لـ«اذْكُرْ»، أو يتعلَّق بـ«تقرع» محذوفًا.

والقرع: الضرب الشديد بحيث يحصل منه الصوت الشديد، ويوم القيامة يضرب القلوب بالفزع والشدائد، وكذلك يضربها صوت إسرافيل، والمراد هنا القيامة، ومبدأها النفخة الأولى، ومنتهاها الفصل بين الخلق، أو دخول الدارين. وقيل: «الْقَارِعَةُ»: صوت النَّفخة.

﴿**مَا الْقَارِعَةُ**﴾ «مَا» خبر لِمَا بعده، ومبتدأ له عند سيبويه ﴿**وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**﴾ الجملة سدَّت مسدَّ المفعول الثاني، والثالث معلَّقًا عنها بالاستفهام، وتقدَّم مثل ذلك.

﴿**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ**﴾ والجنُّ، أو أريد بالناس ما شملهم، وكذا سائر المواضع ﴿**كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾ الذباب المتهافت على نار المصباح، أو نار غيره الصغير الضعيف، وهو جمع، أو اسمه، ويدلُّ لذلك قول جرير:

إنَّ الفرزدقَ ما علمتَ وقَوْمَه مثل الفراش غَشَيْن نار المصْطَلِي

«غشَيْنَ» بِنُونِ الإناث.

وقال الفرَّاء: غوغاء الجراد المنتشر، ووجه الشبه على كلِّ حال الضعف والحيرة والانتشار والمزاحمة والاضطراب، والذهاب على غير نظام.

﴿**وَتَكُونُ**﴾ تصير ﴿**الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ**﴾ الصوف مطلقًا، أو المصبوغ، فإنَّ الجبال على ألوان، جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ وسودٌ كما في القرآن [في سورة فاطر آية 27]، وذكر الجبال مع الناس إشارة إلى عظم القارعة، حتَّى أثَّرت في الجبال العظام فكيف بالناس؟.

﴿**الْمَنفُوشِ**﴾ المخلَّل بالأصابع أو بالآلة، ووجه الشبه التفرُّق والخفَّة، قيل: والحمرة ﴿**فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ**﴾ في جواب شرط محذوف، أي: إن قيل: ما الشأن بعد؟ ﴿**مَوَازِينُهُ**﴾ جمع موزون.



[أصول الدين] أي: أعمالــه الموزونة الحســنة، أي: التي عوملت في تدقيق عددها وحالها ومقابلتها بجزائها معاملةَ الشَّــيء بالــوزن، هذا مذهبنا ومذهب المعتزلة والفرَّاء ومجاهد والضحَّاك والأعمش.

أو جمع ميزان مجازًا عن ذلك التدقيق، تسميةً للشيء باسم آلته، والمعنى ما مرَّ.

ولا وزن تحقيقا بآلة خلافا لغيرنا، فإنَّهم قالوا: تجسَّم الأعمال، وبعضهم قالوا: يخلق الله أجســامًا على مقاديرها، وعلى كلا القولين الحسنات أجسام منوَّرة، والسيِّئات أجسام مظلمة.

[بلاغة] ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ حياة ذات رضًى، فـ[صيغة] «فاعل» للنسب، ينسب الرضا لصاحبها، أو على حذف مضاف، أي: راض صاحبُها، حُذِف «صاحب» وجيء بضمير مرفوع متَّصل بدل المضاف إليه واستتر، أو أسند الرِّضا إلى العيشة تجوُّزًا في الإسناد، أو **بمعنى مفعول، أي: مرضيَّة، قَبِلَها صاحبها وأحبَّها.**

وقيل: المعنى رضيتْ أهْلَها ولزمتهم، وفيه تجوُّز إذ شُبِّهت بعاقل ورمز إليه بلازمه، أو استعمل الملزوم بمعنى اللازم، فإنَّ من رضي شيئًا لازمه.

وكونهُ للنسب لا يمنع التاء، فإنَّها فيه للمبالغة، أو تاء التأنيث في النسب من معتلِّ اللام لازمة، إذ لو لم تكن لاخْتلَّ وزن «فاعل» فكان كقَاضٍ.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ﴾ أعماله الحسنة مثلُ ما مرَّ، وذلك بأن لا تكون له حسنةٌ يعتدُّ بها، أو ثقلت سَيِّئَاته على حسناته، وذلك في الموحِّد والمشرك، وقيل: المشــرك لا توزن أعماله، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [سورة الكهف: 105]، يدخلون النار بغير حساب.

﴿فَأُمُّهُ﴾ أي: الشيء الذي يقصد هو به، وهو مأواه، أو أمُّ رأسه، وهو ذلك الجسم المشتمل على المخِّ في رأسه، لأنَّه يطرح في النار منكوسًا.

أو أمُّه والدته، قال قتادة: لأنَّهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة قالوا: هوت

أمُّه، لأنَّه إذا هلك هَوَتْ أمُّه ثُكْلاً وحزنًا، وفيه مقابلة حسنة لـ«رَاضِيَةٍ»، لأنَّ حزنها غير الرضا، مع ما فيه من المبالغة.

﴿هَاوِيَةٌ﴾ أي: أمُّ رأسه ساقطة في النار، قال أبو بكر رضي الله عنه: «إنَّما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتِّباع الحقِّ، وثقله عليهم، وحُقَّ لميزان وُضِعَ فِيه الحقِّ أنْ يثقل، وخفت موازين منْ خَفَّتْ موازينُه لاتِّباعهم الباطل وخِفَّتِه عليهم، وحقَّ لميزان وضع فيه الباطل أن يخفَّ».

و«هَاوِيَةٌ» وصفٌ، أو أمُّه الوالدة له هي طبقة النار المسماة «هاوية»، على تشبيهها بالأمِّ الوالدة، لأنَّ الأمَّ الوالدة مَفْزَعٌ لولدها ومأواه.

[نحو] و«هاوية» علم لنار من نيران الآخرة ممنوع من الصرف للعَلَميَّة والتأنيث، ولكن نُوِّن للفاصلة، كما ينوَّن الممنوع من الصرف للضرورة، وأوْلى من ذلك أنَّه باقٍ على الوَصْفِيَّة، وليس علمًا، فأمْرُ التنوين ظاهرٌ، أي: نار هاويةٌ، أي: سافلة.

وعلى كلِّ حال عمقها سبعون عامًا، وهي الطبقة السفلى.

[بلاغة] وفي تسمية النار أمًّا لهم تهكُّم بهم، أو شبَّه النار بالأمِّ في أنَّها تحيط به كإحاطة رحم الأمِّ بالجنين، فإنَّ المرأة أمٌّ للجنين، كما هي أمٌّ له إذا ولد.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ﴾ تفخيمٌ، والهاء للسكت، والضمير لـ«هاوية» على أنَّها اسم لنار، وأمَّا على أنَّها بمعنى ساقطة فالضمير عائد إلى الداهية المدلول عليها، أو إلى النار المدلول عليها بـ«هاوية» بمعنى ساقطة.

﴿نَارٌ﴾ أي: هي نارٌ ﴿حَامِيَةٌ﴾ أي: شديدة الحرِّ.

يا حيُّ يا قيُّوم يا ذا الجلال والإكرام

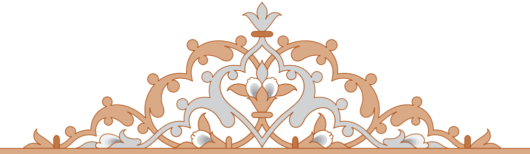
نجِّنا منها ومن سائر النِّيران، وأدْخِلْنَا الجنان.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

102

تفسير سورة التكاثر

مكِّـيَّة وآياتها 8 ـ نزلت بعد سورة الكوثر



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿1﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿2﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿3﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿4﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿5﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿6﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿7﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿8﴾﴾

غفلة الناس حتَّى ألهاهم التكاثر والتفاخر عن المصير المحتوم

﴿أَلْهَاكُمُ﴾ صَرَفَكُم عن الاشتغال بالعبادة.

[لغة] وهو مأخوذ من اللَّهوِ، وأصل اللهو الغفلة، وشاع في كلِّ شغل، وُخُصَّ في عرف الناس بالشغل الذي يسرُّ المرءَ، وهو قريب من اللعب، وفسَّره بعض بالإغفال، أي: صيَّركم التكاثُر غافلين عن أمر الدِّين الذي هو أهمُّ ما يُشْتَغَلُ به.

﴿التَّكَاثُرُ﴾ معاطاة كُلِّ أحد أن يكون أكثر من الآخر مالاً وولدًا، أو أن يكون أكثر ناسًا.

وفي الترمذيِّ عن مطرَّف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقال: «**يقول ابن آدم**

مَالي مالي، وهل لك من مالك إلَّا ما تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ، أو أَكَلْتَ فأفنيت، أو لبست فأبليت؟!»[1].

وفي مسلم عن أنس بن مالك عن رســول الله ﷺ: «**يتبعُ الميِّتَ ثلاثةٌ فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه ماله وأَهْلُهُ وعمَلُهُ، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله**»[2].

﴿**حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾ بالذهاب إليْها بحسابكم لا بأرجلكم، وذلك تسمية للعدِّ للموتى زيارةً لا ذهابًا بالأرجل.

[سبب النزول] قال أبو بريدة: نزلت في بني حارثة وبني الحارث من الأنصار تفاخَرُوا؛ قالت إحداهُمــا: أفيكم فلان وفلان؟ وقالت الأخرى مثل ذلك، ثمَّ انتقلوا إلى عدِّ الموتى، وقيــل: انتقلوا بأرجلهم، فتقول إحداهما: أفيكم مثل فلان؟ وتشير إلى قبره، وتفعل الأخرى مثل ذلك، فنزلت الآية، وذلك في المدينة.

وقيل: تفاخر بنو سهم بن عمرو وبنو عبد مناف أيُّهم أكثرُ، فغلبتهم بنو عبد مناف في الكثرة، فقال بنو ســهم: أهلكنا البغيُ في الجَاهِلِيَّة فعادُّونا بالأحياء والأموات، فغلبتهم بنو سهم في العَدَدِ.

وذلك في الإسلام، ألا ترى إلى قولهم: إنَّ البغي أهلكنا في الجَاهِلِيَّة؟ فإنَّ الباقي على شرك لا يقول ذلك، وقبل الهجرة لا يوجد من يقول ذلك، فذلك في المدينة أو في مكَّة بعد الإسلام وشــهْرَتِهِ، وبنو عبد مناف وبنو سهم من قريش لا من الأنصار.

---

(1) رواه **مســلم** في كتاب الزهـد والرقائـق، باب (...) رقم 5258. من حديـث عبد الله بن الشخير بن عوف.

(2) رواه **مسلم** في كتاب الزهد والرقائق، باب (...) رقم 5260 من حديث أنس بن مالك.

وقيل: نزلت في اليهود، يقولون: بنو فلان أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، والمشهور أنَّها في غيرهم.

وقيل: ألْهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن مِتُّم ولم تشتغلوا بما يغْنِيكُمْ من أمر الدِّين وينفعكم في الآخرة، فالزيارة في هذا الوجه عبارة عن الموت.

[بلاغة] والماضي في هذا الوجه للاستقبال لكن نــزِّل منزلة الماضي للتحقُّق، أو لتغليب من مــات، أو بجعل موت آبائهم منزلة موتهم. وليســت الزيارة في شيء من هذه الأوجه حقيقةً، لأنَّ الحقيقة أن تذهب إلى غيرك لتنفعه ثمَّ ترجع إلى أهلك.

والذاهب إلى المقبرة برجلــه ليعدَّ القبور غير ذاهب لشــأن نفع القبور، والذاهب إليها بالحساب لا بالأرجل غير ماشٍ إليها ولا نافع، والذاهب إليها بالموت لم يذهب برجله ولا بحسابه ولا لنفع القبور.

[بلاغة] فالزيارة في ذلك كلِّه اســتعارة، وفي الحساب بلا مشي أو مع مشي تَهَكُّمٌ بهم بأنَّهم كالذاهب بالمشي إلى المقبرة بلا قصد نفع، لأنَّ الموتى لا تكلِّمهم، ولأنَّ زيارة الموتى للاتِّعاظ وتذكُّر الموت ليستعدَّ له وتزال الغفلة.

كما قال ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها فإنَّها تذكِّركم الآخرة ولا تقولوا هجرا**»[1]، أي: ككلام المدح وللنواح، والعدِّ للفخر، وهم عكسوا جعلوا زيارتها في مقام اللَّهو.

[بلاغة] وحذف المُلهى عنه ـ وهو الآخرة وأمــرُ الدِّين ـ قيل: للتعظيم المأخوذ من الإبهام بالحذف، والمبالغة بالذمِّ، حيث أشار إلى أنَّ الملهى عَمَّا ينفع هكذا مذموم، فكيف عن أمر نافع لَا بُدَّ منــه، وفيه أنَّه ليس في الحذف

(1) رواه **ابن ماجه** في كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في زيــارة القبور، رقم 1560. من حديث ابن مسعود.

ذلك بل قيل: ألهاكم، فيقال: عمَّاذا؟ فيقال: عن الدِّين والآخرة، لدلالة المقام وسائر الأَدِلَّة حذف للعلم به.

وسمع أعرابيٌّ الآية فقال: بعث القوم للقيامة وربِّ الكعبة، فإنَّ الزائر منصرف، أي: لأنَّه لو كان الموت على اللَّبث الدائم لم يقل: ﴿زُرْتُمْ﴾، وَلَمَّا قاله علم أنَّه لا بدَّ من الانتقال، ولا سبيل للانتقال إلى الدنيا فهو لَا بُدَّ إمَّا إلى الجَنَّة أو النار.

وعن عمر بن عبد العزيز: لا بدَّ لمن زار أن يرجع إلى جنَّة أو نار.

[قلت:] وكلام عمر بن عبد العزيز والأعرابيِّ مبنيٌّ على أنَّ الزيارة بالموت لا بالعدِّ، وفي الآية تقليل اللبث في القبور، لأنَّ الزائر مُسْتَوفز للرجوع لا مطمئنٌّ بالإقامة، والقلَّة نسبيَّة منظور فيها إلى الخلود في الدارين.

﴿**كَلَّا**﴾ ارتدعوا عن اللهو بالتكاثر عن الدِّين والآخرة، فإنَّ عاقبته وخيمة ﴿**سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ عاقبةَ التَّكاثُر سوءًا، فحذف المفعولان، أو تعرفون عاقبته بعينها وتميِّزونها.

﴿**ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ كالأوَّلين، لَكِنَّ هذا العلم أفخم، بدليل «ثمَّ»، أي: تعلمون علمًا أقوى من الأوَّل، وليس تأكيدا للأوَّل بدليل العطف، فإنَّ الأصل في التأكيد أن لا يكون بالعطف، ولو كان قد يقع، واللُّغويُّون منعوه، وأجازه النحويُّون والمفسِّرون، كالحسن ومجاهد والضحَّاك والكلبيُّ.

و«ثُمَّ» لتراخي الرتبة كما رأيت، وقال عليٌّ: للتراخي في الزمان، الأوَّل في القبور والثاني بعد البعث.

وقال الضحَّاك: الأوَّل زجر للكافرين وتفريع، والثاني للمؤمنين أو تشريف لهم. وذلك تحكُّم لا دليل عليه، وفيه تعدُّد الخطاب وتعدُّد المخاطبين بلا تمييز،

وإنَّما يجوز ذلك بتمييز، مثل: قم وقومي في خطاب مذكَّر ومؤنث، ومثل: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [سورة يوسف: 29]، وأيضًا كيف يكون قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تَشريفًا للمؤمنين؟ وإنَّما يظهر في الزجر مطلقًا.

﴿**كَلَّا**﴾ تأكيدٌ للأوَّل، أو ردع عَمَّا يتضمَّنه ما بعد من خُلُوِّهِم عن علم اليقين ﴿**لَوْ تَعْلَمُونَ**﴾ لو تعرفون ما بين أيديكم من الأهوال.

[نحو] ﴿**عِلْمَ الْيَقِينِ**﴾ مفعول مطلق مضاف لنعته، أي: العلم اليقين، ويرجع ذلك إلى إضافة البيان، أي: علمًا هُو اليقين، على أنَّ اليقين بمعنى المتيَقَّن به لا باقٍ على المعنى المصدريِّ، وإن أُبقِي صحَّ، فلا تكون الإضافة كذلك بل مُجرَّد إضافة تقييد، ويجوز كونه وصفًا لمحذوف، أي: علم الأمر المُوقَنِ بِه، كعلمكم بالأمر الذي تُوقنون به.

[قلت:] وفي الآية إشارة إلى أنَّه لا يكفي العلم ما لم يكن يقينًا، فإذا كان في المشرك من أوَّل الأمر فأولى أن يخصَّ به الموحِّد، ولا يخفى أنَّ العلم قد يطلق على عين اليقين.

وجواب «لَوْ» محذوف، أي: لازدجرتم عن الإشراك والمعاصي والتكاثر، أو لَبَالَغْتُم في الامتثال، أو نحو ذلك. ﴿**لَتَرَوُنَّ**﴾ بأبصاركم أيُّها المشركون.

وعن عليٍّ: مازلنا نشكُّ في عذاب القبر حتَّى نزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾.

﴿**الْجَحِيمَ**﴾ وتدخلونها، جواب قسم مستأنف، أي: واللهِ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ، تهديدٌ وتأكيدٌ للوعيد. وجواب «لَوْ» لا يؤكَّد بالنون خلافًا لبعض إذ قال: إنَّه جواب «لَوْ»، وإنَّ المعنى: سوف تعلمون الجزاء، لو تعلمون الجزاء علم اليقين الآن لترونَّ الجحيم، أي: لتكوننَّ الجحيم دائمًا في نظركم لا تغيب عنكم، وليس كذلك، إذ لا يتبادر، ولا دليل عليه، ولو كان ذلك أمرًا صحيحًا.

[قلت:] وليس **كلُّ ما صَحَّ** [معنى] **يفسَّر به القرآن**، ولعلَّ داعيه إلى ذلك دعوى مناسبة ذلك لقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾ بأن تكون تلك رؤية قلبيَّة ملازمة للقلب، وهذه رؤية مشاهدة ـ كما قيل ـ الأولى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة الفرقان: 12]، والثانية: إذا وَرَدُوها، أو إذا دخلوها، أو الأولى إذا وردوها، والثانية إذا دخلوها.

والجمهور على أنَّها تأكيد للأولى، ثمَّ رأيتُه نصًّا، و«ثمَّ» للأبلغيَّة، وقيل: الرُّؤْيتان عبارة عن تعدُّد الرؤية بعد دخولها بلا نهاية، كما كثر استعمال التكرير ولو بالتثنية، ككرَّتين ولبَّيك، وهو ضعيف، لأنَّ من هو فيها لا يستحسن أن يقال: يراها أو يشاهدها مَرَّة بعد أخرى، إلَّا أن تعتبر الزيادة الحادثة، لأنَّها تحدث للنار مزيد حرارة.

و«عَيْنُ الْيَقِينِ»: رؤية المشاهدة، فإنَّها نفس اليقين، و«عَيْن» بمعنى نفس، وهو على حذف مضاف، أي: رؤية عين اليقين، وهو مفعول مطلق، وقيل: تنازع فيه الرؤيتان على قول الجمهور: إنَّ الثانية تأكيد للأولى.

[لغة] و«اليقين»: العلم الذي لا شكَّ فيه، وهذا في اللُّغة، وأمَّا في الاصطلاح فاعتقاد الشيء أنَّه كذا مع اعتقاد أنَّه لا يمكن إلَّا كذَا اعتقادًا مطابقًا للواقع غير ممكن الزوال، وقيل: اليقين سكونُ النفس مع ثبات الفهْمِ.

و«عِلْمُ الْيَقِينِ»: العلم بما أعطاه الدليل من إدراك الشيء على ما هو عليه، و«عَيْنُ الْيَقِينِ»: ما أعطاه الكشف والمشاهدة، وبعد ذلك حقُّ اليقين؛ فعلم العاقل بالموت علم اليقين، وإذا عاين ملائكة الموت فعين اليقين، وإذا ذاق الموت فحقُّ اليقين.

﴿**ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ**﴾ أيُّها الكُفَّار، أو يَا كلَّ من ألهته دنياه عن دينه، مشركًا أو مُوَحِّدًا فاسقًا، وقيل: أو موحِّدًا موفِّيًا ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ يوم إذ رأيتموها من بعيد قبل

دخولها ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾ صحَّة البدن والعقل والمأكول والمشروب، والملبوس والمركوب، والجماع والمسكن والمفرش والماء البارد، والظلِّ والنوم وإذهاب ما يحدث من المصائب.

وجاء في الحديث عن أبي الدرداء عنه ﷺ: «**أَكْلُ خبز البُرِّ، والنوم في الظلِّ، وشرب ماء الفرات مُبَرَّدًا**»[1]، وعن ثابت البناني[2]: «كسرة تقوته، وماء يروِيه، وثوب يواريه»[3]. وعن ابن عبَّاس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الخصاف**[4] **والماء وفلق الخبز**»[5]. وعن ابن عبَّاس مرفوعًا: «الأمن وَالصِّحَّة»، وعن عليٍّ: العافية، وعن بعضهم: الصحة والمال والفراغ.

وفي البخاريِّ عن ابن عبَّاس عن رسول الله ﷺ: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصِّحَّة والفراغ**»[6]. وعن ابن عبَّاس: «صِحَّة الأبدان والأبصار، يسأل العبد فيم استعمل ذلك». وقيل: الإسلام، وقيل: مُحَمَّد ﷺ، إذ هَدَى من الضلال. وعن ابن مسعود: الأمن وَالصِّحَّة، وقيل: **القدر الزائد على ما لا بدَّ منه من ملبس ومسكن ومشرب ومأكل**. وقال الحسن بن الفضل: تخفيف الشرائع، وتيسير القرآن.

---

(1) أورده **السيوطيُّ** في الدر، ج 6، ص 434. وقال: أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. من كلام عليِّ بن أبي طالب وليس حديثا.

(2) ثابت بن أسلم البناني أبو محمَّد مولاهم البصري، وبنانة هم بنو سعد بن لؤي بن غالب، ولد في خلافة معاوية سنة 59هـ. حدَّث عن ابن عمر وأنس وأبي برزة وغيرهم، وحدَّث عنه عطاء بن أبي رباح وقتادة وشعبة. وقد وثَّقه أحمد والنسائيُّ. تُوُفِّيَ بالبصرة سنة 127هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 187.

(3) أورده **السيوطيُّ** في الدرِّ، ج 6، ص 434. وقال: أخرجه ابن جرير من حديث ثابت البناني.

(4) الخصاف: ما خيط من النعال.

(5) أورده **السيوطيُّ** في الدُّرِّ، ج 6، ص 439. بلفظ: «وفلق الكسر». وقال: أخرجه الخطيب وابن عساكر، عن ابن عبَّاس.

(6) رواه **البخاري** في كتاب الرقاق باب لا عيش إلَّا عيش الآخرة رقم 5933 من حديث ابن عباس.

[سيرة] ومن ذلك ما أكله النبيء ﷺ وأبو بكر وعمر من عِذْقٍ فيه رطب وبسر وتمر ولحم شاة ذبحها لهم أبو أَيُّوب الأنصاريُّ، وَلَمَّا أكلوا قال ﷺ: «**هذا النَّعيم الذي تُسْأَلُونَ عنه**» كذَا فعل أبو أَيُّوب لهم، وَلَمَّا أكلوا وشربوا ماءًا باردًا قال: «**هذا هو النعيم الذي تسألون عنه**» إلَّا أنَّه شوى لهم لحم جدي وطبخ، وقال: «**أخرجكما من بيوتكما الجوع ولم ترجعا حتَّى أصابكما هذا النعيم**»، وذلك أنَّه لقيهما فقال: ما أخرجكما؟ قال: الجوع فقال ﷺ: «**والله ما أخرجني إلَّا الجوع**» فأتى بهما دار أبي أَيُّوب فقالت زوجه: ذهب يستقي الماء العذب، فجاء فقال: «لا أحد أفضل ضيفًا منَّا اليوم» فلمَّا هيَّأ الرطب والبسر ذهب للذبح فقال ﷺ: «**إِيَّاكَ والحلوب**»[1].

وفي الترمذيِّ: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**يسأل العبد عن النَّعيم، ألم نُصحَّ جسدَك، ونُرْوِك من الماء البارد**»؟[2] وفي الترمذيِّ: لَمَّا نزلت الآية قال الزبير: أيُّ نعيم يا رسول الله؟ ما هما إلَّا الماء والتمر، فقال ﷺ: «**سيكون**»[3]، أي: سيكون ما هو أعظم.

قال: «**لا تزول قدم عبد حتَّى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل به؟**»[4].

قلت: مراد هؤلاء التمثيل، فالمراد في الآية ذلك كلُّه وزيادة، ألا ترى أنَّه ذكر ماء الفرات وليس كلُّ أحد له ماء الفرات؟ وألا ترى التمثيل بفلق الخبز تنبيهًا

---

(1) رُوي بصيغ متقاربة وشخصيات مختلفة، وأقرب الروايات لما ذكره الشيخ رواية **الطبرانيِّ** في الأوسط، رقم: 2247. من حديث ابن عبَّاس.

(2) رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفسير (89) باب ومن سورة التكاثر، رقم 3358. من حديث أبي هريرة، بلفظ: «إنَّ أوَّل ما يسأل عنه يوم القيامة، يعني العبد...».

(3) رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفسير، باب سورة التكاثر، رقم: 3356. من حديث الزبير بن العوَّام.

(4) رواه **الترمذيُّ** في كتاب صفة القيامة والورع عن رسول الله، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، رقم 2340. من حديث ابن مسعود بلفظ: «خمس» عوض «أربع».

على أنَّها من النعم ولو دقَّت؟ وألَا ترى[إلى] ذكــر العافية تنبيهًا على أنَّ النعم لا تختصُّ بالمأكول والمشروب، وإلى ذكر الدِّين تنبيهًا على أنَّ النعم لا تختصُّ بالدنيا بل تشمل الدِّين؟ أترى ما أكله النبيء ﷺ والعُمَرَانِ أكله النَّاس كلُّهم؟

فالنعم عَامَّة، والمسؤول عامٌّ، والسؤال سؤال توبيخ للكفَّار والفسَّاق، وسؤال تذكير للمؤمنين. وقيل: الخطاب والسؤال للمشركين بعد دخول النار كما يُسألون عن غير ذلك، مثل: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَاتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالبَيِّنَاتِ﴾ [سورة غافر: 50].

وذكرت الشِّيعة أنَّ النعم دين الإسلام على أيدي النبيء ﷺ وذرِّيَّته لا غير ذلك من النِّعم، وأنَّها الإصلاح بين الناس الأنصــار وغيرهم، والهدى بعد الضلال، وإذهاب الفتنة. [قلت:] ولو ذكروا ذلك مع ما تقدَّم لم نشنِّع عليهم.

وجاء أنَّه «لا يُســأل العبد عن ظلِّ الخصِّ، وكســرة يقيم بها صلبه، وثوب يستره»، أي: لا يناقش فيهنَّ.

وعنه ﷺ: «**من قرأ في ليلة ألف آية لقي الله تعالى وهو عنه راضٍ**»[1]، فقيل: من يقوى على ذلك يا رسول الله؟ فقرأ سورة التكاثر فقال: «**والذي نفسي بيده لتعدل ألف آية**».

والله أعلم، اللهمَّ وَفِّقْنَا.

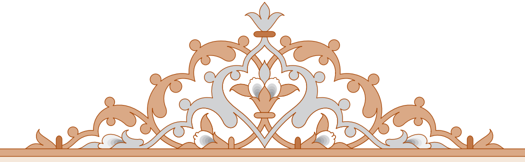
وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

(1) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ، وإنَّمــا أورد الهنديُّ في الكنز، ج 1، ص 596، رقم 2714 ما يقاربه معنــى. وهو: «من قرأ فــي ليلة ألف آية لقــي الله وهو ضاحك فــي وجهه، قيل: يا رســول الله ﷺ، ومن يقوى على قراءة ألف آية؟ فقرأ: ﴿بِسْــمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ...﴾ إلخ، ثمَّ قال: والذي بعثني بِالْحَقِّ إنَّها لتعدل ألف آية». وقال: رواه الخطيب في المتَّفق والمفترق، والديلميُّ، من حديث عمر.

103

تفسير سورة العصر

مكِّـيَّة وآياتها 3 ـ نزلت بعد سورة الشرح



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ ﴿1﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿2﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿3﴾ ﴾

الإنسان في خسران إلَّا من آمن وعمل صالحا

﴿**وَالْعَصْرِ**﴾ أقْسَم بوقت العصر لعِظمه بوقوع صلاة العصر فيه، وهي عظيمة الشأن، كما أنَّها الصلاة الوسطى المخصوصة بالذِّكر لمزيَّتها بعد العموم عند الجمهور، وفي مصحف ابن مسعود وعائشة وحفصة: «والصلاة الوسطى صلاة العصر» [سورة البقرة: 238].

وعنه ﷺ: «**من فاتته صلاة العصر فكأنَّما وُتِرَ مالَهُ وأهلَه**»[1] وفي الصحيحين عنه ﷺ: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم نارا**»[2].

وقيل: العصر صلاة العصر، تسـميةً للمظروف باسم ظرفه، وقيل: هو على

(1) رواه الربيع والشيخان وغيرهما. **الربيع**: كتاب الصلاة، باب جامع الصلاة، رقم: 304 من حديث أنس. **البخاري**: كتاب مواقيت الصلاة، باب إثـم من فاتته العصر، رقم: 527. من حديث ابن عمر.

(2) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 2، ص 90.

حذف مضاف. وخصَّت بالفضل لأنَّها وقت تهافت الناس في أشغالهم وتجارتهم وكسبهم، فيعظم الأجر لمن صلَّاها مطمئنًّا فيها. وقيل: أقسم بذلك الوقت لخلق آدم فيها من يوم الجمعة، وهو أبو البشر.

وعن قتادة: أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة، وهما أوَّلُ النهار وآخره، وليس في هذا أنَّه أقسم به لخلق آدم فيه. وقد قيل: يطلق العصر على البكرة وعلى العشية، وعن الزجَّاج: يطلق على اليوم وعلى اللَّيلة، فيحتمل أنَّه أقسم بالبكرة أو بالعشية أو باليوم أو باللَّيلة.

وقيل: المراد عصر النبوءة، أقسم بزمانه كما أقسم بمكانه في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ [سورة البلد: 1]، وذلك من حيث بعثه ﷺ إلى أن مات، وهو أفضل الأعصار، وقيل: من حين ولد إلى يوم القيامة لأنَّ ذلك زَمَانُه، وزمانُ أمَّته خير أُمَّةٍ، ووقت جريان شرعه، ومقداره من الزمان من لَدُنْ خَلْقِ آدم مقدار وَقْتِ العصر من اليوم.

ففي البخاريِّ عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنَّه سمع النبيء ﷺ يقول: «**إنَّما بقاؤكم في من سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس**»[(1)].

فتح الله تعالى النبوءة بآدم الذي دخل الجنَّة وأكل منها، ولم يكن في بطن، ولم يخرج من فرج، وختمها بأفضل الأنبياء، كنَوْر الشَّجر وثماره المؤَخَّرة عن أوراقها وأغصانها، والمقصود بالذات من الشجر ثِمارُها ونَورُها.

وعن ابن عبَّاس: العصر الدَّهر، أقسم الله تعالى به لاشتماله على العجائب، وللتنبيه به على نِعمِه ونِقَمِهِ، فيستعدُّ العاقل لمجانبة الخسران. قيل: وَللرَّدِ على من يضيف الحوادث إلى الزمان، وفيه أنَّه لا دَلَالَةَ في السورة ولا في العصر على ذلك. وقيل: التقدير: «وربِّ العصر».

(1) رواه **البخاريُّ** في كتاب التوحيد (31) باب في المشيئة والإرادة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ﴾، رقم 7467 و7533. مع زيادة في آخره. من حديث ابن عمر.

﴿إِنَّ الإنسَانَ﴾ الناسَ المكَلَّفِينَ كلَّهم، فـ«ال» للعموم الاستغراقيِّ، وتفسيره بأبي جهل تمثيلٌ. ﴿لَفِي خُسْـرٍ﴾ خسـرانٍ في أفْعالهم وأقوالهم واعْتِقادهم، لا ينتفعون بها، فذلك خسران، ولا سيما أنَّه يقارن عدم الانتفاع بها هلاك بها لمخالفة ما كُلِّف به.

[بلاغة] وتنكير «خُسْرٍ» للتعظيم، أي: خسْر عظيم، أو للتنويع، أي: نوع من الخسران غير ما يعرفه الإنسان، ومنْ أجاز استعمال الكلمة في معنَيَيْها أجاز التعظيم والتنويع معًا، بل قصد التنويع قابل للتعظيم وكافٍ فيه، فهو نوع عظيم.

[قلت:] ومن الخسـران مضيُّ زمان في معصية أو في إِهْمال، قيل: أو في طاعة يمكنه أن يكون في طاعة أفضل منها، وفيـه أنَّ المؤمن لا يخلو من أن يكون في طاعة فوقها طاعة أفضل، أو في إهْمال فكيف يستثنى؟ وأيضًا المشرك لا تعتبر طاعته، وذلك كما قيل أيضًا: كلُّ ساعة لم تكن فيها عبادة فقد خسرها.

وقيل: الإنسان إذا عُمِّر هرم وخسـر بدنه ولم يعمل به، ﴿إِلَّا الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ فإنَّه يُكتبُ لهم عمل كَأَفْضَـلِ ما كانوا يعملون، ويقول للملائكة «اكتبو له ذلك فأنا قَيَّدتُّه»، فذلك كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَلَهُمُۥ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [سورة التين: 5ـ6][1].

﴿إِلَّا الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ واجتنبوا الذُّنوب، وإذا أذنبوا تابوا، وتفسـير ابن عبَّاس بِعَلِيٍّ وسـلمان ﵄ تمثيلٌ لا حصر، وإشـارةٌ إلى أنَّ الجنَّة للمطيع عربيًّا أو عجميًّا، فهي عامَّة لمن اتَّصَفَ بعنوان الإيمان والعمل الصالح، في شأن إصلاح نفسه كما رأيت، وبعنوان إِصْلاح غيره كما قال: ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ إلخ أوصى بعض بعضًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالأمر الصواب الثَّابت، وهو دينُ الله اعتقادًا وقولاً وفعلاً.

(1) انظر ما تقدَّم في تفسير آخر سورة التين.

﴿**وَتَوَاصَوْا**﴾ كرَّرَهُ للتَّأكيدِ لشدَّة الصبر، حتَّى كأنَّه شيء آخر لم يشمله لفظ الحقِّ ﴿**بِالصَّبْرِ**﴾ على مشاقِّ الطاعات ومشاقِّ تحَمُّل النفس للمصائب، ومشاقِّ كفِّها عن الشهوات، ولأنَّ الأوَّل في رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضي الله تعالى، والثاني في رتبة العُبُودِيَّة التي هي الرضا بما فعل الله تعالى ظاهرًا وباطنًا.

وفي البيهقيِّ والطبرانيِّ عن أبي حذيفة ـ وكانت له صُحبة ـ: كان الرَّجلانِ من أصحاب رسـول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتَّى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ثمَّ يسـلِّم أحدهما على الآخر. وفي الحديث: «**ليس سلامُ الملاقاة أوْكد، من سلام المفارقة**»[1].

وعن الشَّـافعي: «لو لم ينزل الله إلَّا هذه السورة لكفت النَّاس»، أي: في الزجر والتَّرغيب والترهيب، لأنَّها شملت جميع علوم القرآن، أي: من النوع المذكور، وفيها أيضًا الحضُّ إلى الأمر بالمعروف ولو ندبًا، والنَّهي عَمَّا ينكر شرعًا ولو مكروهًا غَيْرَ مُحَرَّمٍ، وأن يُحبَّ لأخيه ما يحبُّه لنفسه، والتواصي كما مرَّ أوْكدُ من التَّآمُر.

والله أعلم.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

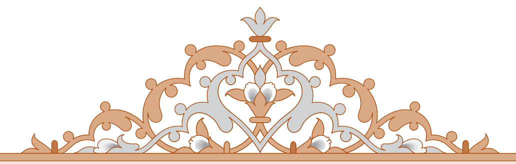


(1) أورده **المنذريُّ** بلفظ «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسـلِّم، فإذا أراد أن يقوم فليسلِّم، فليسـت الأولى بأحقَّ من الآخرة»، وقال: رواه أبو داود والترمذيُّ والنسائي، من حديث أبي هريرة. الترغيب والترهيب، ج 3، ص 428.

104

تفسير سورة الهمزة

مكِّـيَّة وآياتها 9 ـ نزلت بعد سورة القيامة



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝1 الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝2 يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝3 كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝4 وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝5 نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝6 الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝7 إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّوصَدَةٌ ۝8 فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝9 ﴾

العيَّاب للناس احتقارا وجزاؤه

﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ** ﴾ مبتدأ وخبر، و«لُمَزَةٍ» نعت لـ«هُمَزَةٍ» أو لمنعوته، أي: هلاك لكلِّ إنسان همزةٍ لمزةٍ.

[سبب النزول] نزلت ـ عند ابن إسحاق صاحب السِّيرة ـ في أُبَيِّ بن خلف الجمحيِّ، وعند السُّدِّيِّ: في أُبيِّ بن عَمْرو الثقفيِّ المعروف بالأخنس بن شريق بن وهب، وكان كثير الوقيعة في الناس، على أنَّه مات كافرًا، وهو المشهور، وصحَّح ابن حجر أنَّه أسلم، وكان من المؤلَّفة قلوبهم.

وليس كونه من المؤلَّفة ما يمنع الوعيد، فإنَّ كثيرًا من المؤلَّفة مات مشركًا، إلَّا أنَّ الباقر من آل البيت قرأ بإسكان الميمين في «همزة» و«لمزة»، ومعناهما

في الإســـكان: الذي يأتي بالأَضَاحِيكِ فَيَضْحَكُ النَّـــاسُ منه، ويهينونه بالهمز واللَّمز، وليس الأخنس يهان، ولكن لا مانع من أن يكون كذلك ثمَّ ترك أو دام، ويلاعبه الناس بالهمز واللَّمز.

ونزلت في أميَّة بن خلف من بني جمح عند السـدِّي، وكان يهمز النبيء ﷺ ويعيبه، وفي جميل بن عامر عند مجاهد، وفي الوليد بن المغيرة عند بعض، وكان يغتاب النبيء ﷺ من ورائه، وينقصه في وجهه، وفي العاصي بن وائل عند بعض، **ولعلَّها نزلت في هؤلاء كلِّهم**، ولعلَّ هؤلاء القائلين أرادوا التمثيل لا الحصر.

[قلت:] ولا يقال: لِمَ عِيبَ هؤلاء بالهمز والغمز والشركُ أعظمُ منهما؟ لأنَّا نقول: ذلك أظهر كالشمس، ولكن نبَّهنا الله ﷻ عن هذين الفعلين زيادةً عليه، وفيهما إشـــراكٌ، إذ لا يهمز النبيء ﷺ إلَّا من كفر به ﷺ، وخصوص السبب لا ينافي عموم الحكـــم، إلَّا أنَّه قيل: نزلت الآية عامَّة وهؤلاء ســـبَبُها، وقيل: نزلت في هؤلاء خصوصًا وهم المرادون، ولكن يلحق بهم غيرهم في الحكم.

[بلاغة] والهمز الكســـر، واللَّمز الطعن في الأجسام حقيقةً استعمالا في الأعْراض بمعنى الغيبة، والذمُّ على الاســـتعارة، ثمَّ صار حقيقةً عرفيَّة خاصَّة والمراد في الآية من يعتاد ذلك كما هو شأن ما كان على وزن فُعَلة، بضمِّ الفاء وفتح العين أو بضمِّ الفاء وإسكان العين.

وفسَّر ابن عبَّاس الهمزة بالمشَّاء بالنميمة المفرِّق بين الناس عمومًا، واللُّمَزَة بالمغري بين الإخوان خصوصا. وعن مجاهد: الهمزة الطعَّان في الناس واللمزة الطعَّانُ في الأنساب. وعن أبي العالية: الهمزة في الحضرة واللُّمَزَة في الغيبة.

وعن ابن جريج: الهَمْز بالعين أو الشَّدْقِ أو باليد أو بالشَّفتين أو بالحاجب أو بالرَّأس، واللَّمزُ باللِّسان. وقيل: الهمز أن يعيبك في الغيب، واللَّمز أن يعيبك في الوجه، وقيل: بالعكس.

وقيل: **الهمــز باليَدِ واللَّمز باللِّســان، وهو ظاهر حســن**، وقيل: الهمز باللِّسان واللَّمز بالعين، وقيل: الهمز إيذاء الجليس باللِّسان واللَّمز بالعين أو الرأس أو الحاجب.

[نحو] ﴿**الذِي جَمَعَ مَالاً**﴾ بــدل من «كُلّ» بدل كلٍّ لا نعــتٌ، لأنَّ «كُلّ» نكرة و«الذي» معرفــة، وقيل: بدل بعض، الرابط محــذوف، أي: الذي جمع مالاً منهم، و«منهم» حال من «الذي».

ونكَّر «مَالاً» للتفخيــم والتكثير. وكان عند شــريق أربعة آلاف دينار، وقيل: عشرة آلاف، ويناسب التكثير قراءة الحسن وابن عامر وغيرهما بشدِّ ميم «جمع»، وقولُه تعالى: ﴿**وَعَدَّدَهُ**﴾ عــدَّه مَرَّة بعد أخرى، حُبًّا لهُ وفرحًا بكثرته، وقيل: جعله أنواعًا، كَدُورٍ وأَجِنَّةٍ وخَدَمٍ، وماشية، ومركب ومتاع، أو جعلَهُ عُدَّةً لنوائب الدَّهر.

والتَّشديد على كلِّ حال للمبالغة، وذلك أنسب للتفخيم والتكثير، وقيل: التنكير للتحقير والتَّقليل باعتبار أنَّه أقلُّ شــيء وأحقره عند الله، وبالنسبة إلى ما أعدَّ الله للمؤمنين في الآخرة.

﴿**يَحْسِبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُ**﴾ يظنُّ أنَّ ماله المعهود الذي عدَّده.

[نحو] فـ«مَالَهُ» كلمتان: «مال» وهاء الضَّمير، وهو المناســب لِمَا قبل كما رأيت، ويجوز أن يكون ثلاث كلمات: «ما» الموصولة، ولام الجرِّ وهاء الضمير.

أي: يظنُّ أنَّ الذي له من مال وجاهٍ وولد ونحوهِنَّ أخلده، وهذا أعمُّ. ومعنى «أَخْلَدَهُ»: أبقاه فيما مضى من حين كان له ذلك إلــى وقته. وإذا كان ذلك علَّة ترتَّب عليه ما بعد من الزمان ما دام له ذلك، فالماضي على ظاهره.

وقيل: إنَّه بمعنى المضارع، وإنَّ صيغة المضيِّ للمبالغة، كأنَّ الاســتقبال الخُلُودِيَّ حاضرٌ، أو بمعنى المضارع التجدُّدِي الاسْتِمْرارِيِّ.

ومعنى الإخلاد إطالةُ العمر أو الدَّوامُ لفرط غُرُوره، ولتعليقه الحياة باستعداد أسباب [ذلك] أو أَنَّ من شأن المال الإخلاد، أو المراد التَّمثيل بأنَّ رغبته في الدنيا وجمعها على حدِّ ما مرَّ عنه تشبه ظنَّ إخلادٍ بالمال لصاحبه واقعًا.

فذلك استعارة تمثيليَّة بأنَّ طول المال أمَّله. وعلى أنَّ «مَالَهُ» كلمتان يكون الإظهار في مقام الإضمار لزيادة التَّقرير. والجملة مستأنفة تأتي على جمع المال وتعديده، ولو جعلت حالاً من ضمير «عَدَّدَ» أو من ضمير «جَمَعَ» لاحتاج الكلام إلى التقدير للآخر أو تقدير ما يعمُّ، أي: يفعل ذلك حاسبًا أنَّ ماله أخلده.

﴿**كَلَّا**﴾ ردعٌ عن الهمز واللمز، وجمع المال وتعديده، وحسبانه أنَّ المال مُخَلِّدَهُ.

وعن عليِّ بن أبي طالب: مات أصحاب الأموال وهم أحياء، وبقي العلماء بعد موتهم. ووجه قول بعض: إنَّه ردعٌ للجمع والتعديد، وحسبان الإخلاد أنَّهنَّ سُقْنَ على طريق الحدوث، والهمز واللَّمز سِيقَا على طريق الثبوت، كأنَّهما طبيعتان لا تزولان.

﴿**لَيُنبَذَنَّ**﴾ والله لَيُطْرَحَنَّ ﴿**فِي الْحُطَمَةِ**﴾ النار التي تُحَطِّمُ ما يلقى فيها، أي: تكسره كسرًا شديدًا، كما هو شأن هذا الوزن من المبالغة كما مرَّ في «الهُمَزة» و«اللُّمَزَة»، وَمِمَّا يدلُّ على التعظيم أُفْعُولة (بضمِّ الهمزة) كأعجوبة وأضحوكة، لَكِنَّ هذا الوزن بمعنى مفعول.

وفسَّرها الضحَّاكُ بالطبقة الرابعة من جهنَّم، والكلبيُّ بالسادسة، وروي عنه أنَّها الثانية والحساب من فوق، ويقال للطبقة من جَهَنَّم باب. [قلت:] وقَولُ أبي صالح من رواة ابن عبَّاس أنَّها نار قبورهم ضعيفٌ.

﴿**وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ**﴾ تهويلٌ لأمرِها كأمثال ذلك من الأمور التي لا تنالها العقول ﴿**نَارُ اللهِ**﴾ هي نارُ الله ﷻ، أضيفت لله ﷻ إعظامًا لها.

﴿**الْمُوقَدَةُ**﴾ بأمر الله ﷻ، أوقد عليها ألف عام حتَّى احمرَّت، وألفًا حتَّى ابيضَّت، وألْفًا حتَّى اسْــوَدَّت، فهي ســوداء مظلمة، كما في الترمذيِّ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ[1].

﴿**التِي تَطَّلِعُ**﴾ تعلو ﴿**عَلَى الاَفْئِدَةِ**﴾ أي: على أوساط القلوب أو تغشاها، وخصَّ القلوب لأنَّها ألطف ما في الجسد، وأشدُّهُ تألُّمًا بأدنى أَذًى يمسُّه، ولأنَّها محلُّ الاعتقاد الزائغ من إشراك وما دونه، وهي أخبث ما في الجسد إذا فسدت كما في الحديث[2]، وهي منشأ الأعمال.

تأكل النار الإنسان، فإذا بلغت قلبه أكلته، وابتدأ خلقه في الحين، أقلَّ من لحظة، وقيل: لا تحرقه لأنَّه يمــوت بإحراقه ولا موت في الآخرة، أو تحرق ظاهره ولا يمــوت، أو لا تحرقه ولكنَّه يتوجَّع بإحــراق البدن، ولذلك قال: ﴿تَطَّلِعُ﴾، أي: تشرف.

وقيل: «تَطَّلِعُ»: تعلم علمًا حقيقًا بخلق الله تعالى لها حياة وتمييزا، وتُسَلَّطُ عليه تَسَلُّطَ العَالِمِ، على التجوُّز، بمعنى أنَّ لكلِّ إنسانٍ مقدارًا من الذَّنب مُبَيَّنًا على صفة قلبه، فتطَّلع عليه، فيجازيه بحسبه.

﴿**إِنَّهَا عَلَيْهِم**﴾ قُدِّم على متعلَّقــه للفاصلة وبطريق الاهتمام بالمتقدِّم، والتشويق للمتأخِّر، أو هو خبر أوَّل، والأوَّل أولى. ﴿**مُّوصَدَةٌ**﴾ مطبقة.

---

(1) يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **الترمذيُّ** في كتاب صفة جَهَنَّم عن رسول الله ﷺ، باب منه، رقم 2516. من حديث أبي هريرة.

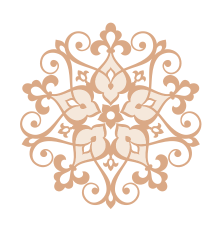
(2) يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **البخاريُّ** في كتاب الإيمان (39) باب فضل من استبرأ لدينه، رقم 52. ورواه **مســلم** في كتاب المســاقاة (20) باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم 107 (1599). من حديث النعمان بن بشــير، وأوَّل الحديث قولــه ﷺ: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن...».

﴿فِي عَمَدٍ﴾ جمع عمود عند الفرَّاء، وقال أبــو عبيدة: جمع عمد، وقيل: اسم جمع.

[نحو] وهو متعلِّق بمحذوف خبر لِّمحذوف، أي: هم في عمد والظرفيَّة مجازيَّة لشدَّة الوثوق، حتَّى كأنَّهم في داخل العمد، وهي عمد كالجذوع من النَّار مثقبــة تُدخل في أرجلهــم، أو عمد من حديد كذلــك، وبالأوَّل قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما، أو بمحذوف حال من هاء «عَلَيْهِمْ»، أو متعلِّق بـ«مُوصَدَةٌ»، و«فِي» بمعنى الباء على هذا.

والإطباق عليهم تشديد وإيَّاسٌ، وزيد في ذلك الرَّبط على الأبواب بالعمد. ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ الأصْلُ: مَمْدُودَة، وشُدَّ الفعل للمبالغة، فكان اسم المفعول «مُمَدَّدَة»، أي: مُطَوَّلة جِدًّا، والله قادر على أن ينجِّينا من النار، ورحمته واســعةٌ وســابقةٌ غضَبَهُ، والله المستجار.

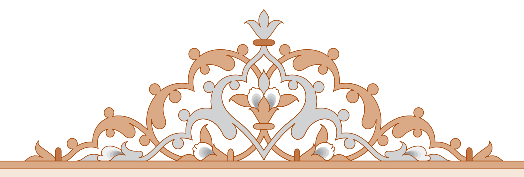
وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



105

تفسير سورة الفيل

مكِّـيَّة وآياتها 5 ـ نزلت بعد سورة الكافرون



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝1 أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝2 وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝3 تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝4 فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝5﴾

قصَّة أصحاب الفيل

﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾ ألم تعلم يا محمَّد أو يا من يصلح للعلم، فيدخل ﷺ أوَّلاً، وهكذا قُلْ حيث يصلح القول، ولم يشاهد ذلك ﷺ، ولكن أيْقَنَ فَكَانَّهُ رأى، وأيضًا العرب إذا أكَّدت شيئًا قالت لمن لم يره: ألم تره؟ ولو كان غافلاً عنه أو منكرًا، كما قال امرؤ القيس:

ألم ترياني كلَّما جئت زائرا .... إلخ[1].

[بلاغة] والاستفهام لتقرير الرؤية بنفي عدمها، أو هي رؤية عين استعملت بمعنى الإدراك القلبيِّ مجازًا استعاريًّا لعلاقة الإدراك، أو إرْساليًّا،

(1) تمامه: «وجدتُ بها طِيبًا وإن لم تطيّب».

لأنَّ الإدراك بالعين سبب للإدراك بالقلب إذ هي باب له، وهذا أبلغ من الأوَّل الذي هو استعمال الرؤية من أوَّل الأمر بمعنى العلم.

[نحو] و«كَيْفَ» حال من «رَبُّ»، أو مفعول مطلق لـ«فَعَلَ»، أي أيَّ فعل فعل؟ لا مفعول به لـ«تَرَ»، لأنَّها لا تكون مفعولاً به، ولأنَّ لها الصدرُ. والمراد التهويل بالهيئة العجيبة، ولذلك لم يقل سبحانه: ألم تر ما فعل ربُّك؟. والجملة سدَّت مسدَّ مفعولي «تَرَ» معلَّقًا عنها بالاستفهام، وتعلَّق الرؤية البصريَّة كما تعلَّق العِلميَّة.

[قصة أصحاب الفيل] وكان إهلاك أصحاب الفيل تمهيدًا لرسالة رسول الله ﷺ، ولشرف البيت، ودعوة الخليل، وكان في عام ولادته ﷺ قبل ولادته بخمسين يومًا في المحرم، وولادتُه في ربيع الأوَّل، وبه قال السهيليُّ، وهو الأصحُّ، وقيل: بخمسة وخمسين يومًا، وقيل: بأربعين، وقيل: بشهر.

وهنا أقوال ضعيفة: قيل: بعشرين سنة، وقيل: بخمسة عشر سنة، وقيل: بثلاثة وعشرين، وقيل: بثلاثين، وقيل: بأربعين، وقيل: بسبعين.

روي أنَّ جماعة من قريش تجَّارًا في أرض النِّجاشيِّ أجَّجوا نارًا عند بِيعَةٍ على ساحل البحر، واشتووا في يوم عاصف، فحرقت الهيكل، ووصل الصريخ إلى النِّجاشيِّ، فاغتاظ، فبعث أبرهةَ لهدم الكعبة. وفي مَكَّة أبو مسعود الثقفيُّ، وكان أعمى، يَشْتُو بِمَكَّةَ ويصيف بالطائف، له رأي، وهو صديق لعبد المطَّلب، فقال له: قَلِّد مائة من الإبل واهدها واجعلها [هديا] لعلَّهم يصيبون منها شيئًا فيهلكهم الله عَزَّ وَجَلَّ، ففعل، فحملوا عليها وذَبَحُوا، وجعل عبد المطَّلب يدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فقال أبو مسعود: **إنَّ لهذا البيت ربًّا يمنعه**، وقد قصده تبع ملك اليمن، فابتلاه الله عَزَّ وَجَلَّ، وأظلم عليه ثلاثة أيَّامٍ، فتاب، وكساه القباطيّ البيض، ونحر له، فانظرْ نحو البحر. فإذا طير لا نجديَّة ولا تهاميَّة، لا غربيَّة ولا شاميَّة، وجاءت حتَّى

دارت عليهم، فأرسلت حجارة عليهم، ورجعت من حيث جاءت، ولم تصب دوابَّهم ولا فِيلَهُم الذي جاءوا به وَأَبَى، وأصابت أفْيَالاً توجَّهتْ ولَمْ تَأْبَ.

وشهر أنَّه بنى بعضُ عُمَّال النِّجاشيِّ كنيسة بصنعاء لم يُر مثلها، وسمَّاها القُلَّيْس (بضمِّ القاف وفتح اللام مشدَّدة ومخفَّفة)، بالرخام المجزع، والحجارة المنقوشة بالذهب، من قصر بلقيس.

وكتب إلى النِّجاشي (بكسر النون): «بنيت لك كنسية أصرف إليها حجَّ العرب»، فسمع بذلك رجل من بني فقيم بن عديٍّ بن كنانة، فأحدث فيها، ولطَّخ قبلتها بالعذرة، فأخبر بأنَّه فعل ذلك رجل من العرب غضبًا لبيته.

وقيل: أجَّجت العرب نارًا حولها فاحترقت بحمل الرِّيح، أو كان الأمران جميعًا، فجهَّز الحبشة في ستِّين ألفًا ومعه فيله محمود، وكان قويًّا عظيمًا، ومعه اثنا عشر فيلاً دونه، وقيل: ثمانية، وقيل: ألف، والأكثرون أنَّ معه محمودًا وحده.

فرأت العرب جهاده حقًّا، فقاتله رجل من أشراف اليمن يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه وسائر العرب، فهَزَمَهُم جُندُ النِّجاشي، وأخذ أسيرًا، وقال لأبرهة أمير الجند: لا تقتلني لعلَّني أنفعك، فحبسه.

وَلَمَّا وصل أرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب بمن معه فَهُزِم، فقال: أبقني لعلِّي أنفعك، فخرج به يدلُّه، وَلَمَّا مرَّ بالطَّائف تلقَّاه مسعود بن مالك الثقفيُّ مع رجال من قومه، فقالوا له: نحن عبيدك لا نخالفك إنَّما البيت الذي تريد في مكَّة لا بيت اللَّات الذي عندنا، فبعثوا معه أبَا رغال، فلمَّا نزل أبو رغال مات، فالعرب ترجم قبره.

وبعث أبرهة ـ وهو بالمغمس ـ أبا الأسود بن مقصور حتَّى انتهى إلى مكَّة، فساق أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وفيها مائتا بعير لعبد المطَّلب، وقيل: أربع مائة، فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن بالحرم بقتاله، فَكَفُّوا وعلموا أنَّهم لا يطيقونهم.

وبعث أبرهة حياطة الحميري أن يقول لسيِّد مكَّة: لم أجئ لقتالكم ولكن لهدم البيت، فأجابه عبد المطَّلب: «لا طاقة لنا بقتالك وللبيت ربٌّ إن شاء حماه». وسار عبد المطلب إلى العسكر فسأل عن ذي نفر فقال له ـ وهو صديقه ـ: ما عندك؟ فقال: إنِّي أسير أنتظر القتل، ولكن أوصي إلى سائس الفيل فليحسن إليك ويدخلك على أبرهة، فمدحه إلى أبرهة بأنَّه سيِّد أهل مَكَّة، وأنَّه ينفق على أهل مَكَّة والوحش والطير، فأدخله فقال له: إنَّه جاء يطلب إبله مائتي بعير، فقال له: قل له: «قد زهد المَلِكُ فيك بعدُ إذْ جاء لهدم بيت فيه شرفك وشرف قومك ولم تهتم إلَّا بإبلك»، فأجاب: بأنِّي ربُّ الإبل وللبيت ربٌّ يمنعه، فقال: لا يمنعه، فقال: أنت وذاك، فردَّ إليه إبله.

وروي أنَّ ثفانة بن عديٍّ سيِّد بني بكر، وخويلد بن واثلة سيِّد هذيل، عرضا عليه ثلث أموال تهامة ليرجعنَّ عن البيت، وقد دخلا مع عبد المطَّلب، فأبى وأمر عبد المطَّلب العرب فتفرَّقوا في جبال لِئَلَّا يضرَّهم الجيش، وأخذ بحلقة باب الكعبة ودعا الله ﷻ وقال أبياتًا مشهورة[1] وخرج.

[قصص] فلمَّا أصبح أبرهة تهيَّأ للدخول، وعبَّأ الجيش وهيَّأ الفيل، وَلَمَّا وَجَّهُوه إلى مَكَّة أخذ نفيل بن حبيب بأذن الفيل فقال: ارجع فإنَّ هذا بلد الله الحرام، وخرج نفيل حتَّى صعد الجبل، فأبى الفيل، فوجَّهُوه إلى اليمن فهرول، وإلى الشام فهرول وإلى مكَّة فأبى أيضًا، فسقوه الخمر ليذهب تمييزهُ فلم تؤثِّر فيه. وقيل: إنَّ عبد المطَّلب هو الذي أخذ بأذن الفيل وقال ذلك، وذلك في وادي محسر.

فأرسل الله تعالى طيرًا من جهة البحر خضرًا، وقيل: سودًا وقيل: بيضًا كاليَعَاسِيب، وقيل: كالخطاف، كلُّ طائفة يقودها طائر أحمر المنقار، أسود

---

(1) وهي كما رواها صاحب السيرة، ج 1، ص 84:

اللهم إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبنَّ صليبهم ومحالهم غدوا محالك

الرأس، طويل العنق، في منقار كلٍّ واحد حجر، وفي رجليه حجران كالعدس، أو كالحمص، لا يصيب حجرٌ أحدًا إلَّا مات، تثقب بيضته ورأسه، وتخرج من دبره، وتحفر في الأرض لشدَّة وقعها. وزعم بعض أنَّ ذلك بريح تُقَوِّيها.

وتساقطوا وماتوا في مواضعهم كلُّهم، وقيل: تحاملوا وجعلوا يسألون نفيل بن حبيب الطريق إلى اليمن، فمنهم من مات في حينه، ومنهم من تحمَّل.

فروي أنَّ أبرهة ما وصل صنعاء إلَّا وهو كفرخ الطائر، وقيل: لم يصبهم الطير كلَّهم، وقيل: لم ينج منهم إلَّا واحد أخبر النَّجاشيَّ، وَلَمَّا أخبره رماه طائر حلَّق من مكَّة على رأسه فهلك، واسمه أبو يكسوم.

وروي أنَّ عائشة ﵂ أدركت قائد الفيل وسائسه تَخَلَّفا في مكَّة فَسَلِمَا، وهما أَعميَان مُقْعَدان يستطعِمان النَّاس.

وَلَمَّا أصبح عبد المطَّلب أرسل أحد أولاده على فرس سريع، فرجع فقال: هلكوا كلُّهم، فجاء عبد المطلب ومن معه فأخذوا أموالهم.

ويروى أنَّ عبد المطلب حفر حفرة ودفن فيها من جواهرهم والذهب الأحمر ومالهم ما شاء، وأبا مسعود الثقفي كذلك، وقد كان معه في الأمر، وصعد في الجبل، فخيَّره عبد المطلب وقال: إن شئت فهما لك، فقال أبو مسعود: أخرى لي، فقال: لك حفرتي، لأنَّها أكثر مالاً وقد أعمقا في الحفر والاختيار والملء، ثمَّ نادى سائر العرب، فأخذوا وصاروا كلُّهم أغنياء.

﴿**أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ**﴾ الاستفهام للتقرير، لوحظ فيه معنى الإخبار، فعطف عليه الإخبار في قوله: ﴿**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا اَبَابِيلَ**﴾ نعت «طَيْرًا»، أو يقدَّر الاستفهام في هذه، أي: أَوَأَرْسَلَ، بهمزة قبل واو العطف على أنَّها مِمَّا بعده، أو لا يقدَّر، لكن العطف على ما سحب عليه الاستفهام استفهام.

[لغة] والتضليل التضييع، جعل كيدهم في تخريب الكعبة ضائعًا، والطير اسم جمع، وقيل: جمع طائر، وشذَّ إطلاقه على الواحد. و«أبابيل» جماعات، والمفرد إبَّالة (بكسر الهمزة وشدِّ الباء) وهي حزمة الحطب الكبيرة، شبِّهت بها الطير المجموعة، وقيل: مفرده أبول، وقيل: أبيل وقيل: أبال، والوزن صالح للكلِّ، وقال أبو عبيدة والفرَّاء: لا واحد له من لفظه.

[قصص] وكان وجوه تلك الطير وجوه السباع، ولم ير مثلها قبلُ ولا بعد. وعن ابن عبَّاس: لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكفٌّ كأكفِّ الكلاب، وقيل: لها رؤوس كرؤوس السباع، وقيل لها: أنياب كأنياب السباع، وقيل: طير خضر مناقرها صفر، وقيل: سود، ويجمع بثبوت ذلك كلِّه، فكلٌّ أخبر بما شاهد. وزعم بعض أنَّ حمام الحرم منها، وعن عبيد بن عمير: كأنَّها رجال السند.

﴿**تَرْمِيهِم**﴾ بعد أن صاحت ﴿**بِحِجَارَةٍ**﴾ الجملة نعت ثان، والمضارع لاستحضار الحالة الماضية كأنَّها تشاهد، ومرَّ أنَّها كالعدس والحمص.

[قصص] وعن نوفل بن معاوية الديلميِّ: رأيت الحجارة التي رمي بها أصحاب الفيل كالحمص، وأكبر من العدسة حمر كأنَّها جزع ظفار. وعن ابن عبَّاس: مثل البندق، وعنه: كبعر الغنم، وعن أبي صالح: على كلِّ حجر اسم من يرمى به واسم أبيه، وأنَّه رأى ذلك عند أمِّ هانئ.

وزعم عبيدة بن عمير أنَّ الحجر الواحد كالبعير البارك، وأصغرها كرأس الرجل. وعن ابن مسعود: إن وقعت على الرأس خرجت من الدبر، وإن وقعت من جانب خرجت من الجانب الآخر، وأنَّ الله تعالى بعث ريحا فزادتها شدَّة[1].

---

(1) لا يغيب عنك أنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قد قال أنَّه يذكر القصَّة أحيانا أو القصص لا يصدِّقها، ولكنَّه يفعل ذلك ترويحا للقارئ ودفعا للسأم.

[لغة] ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ نعت «حِجَارَةٍ»، والسجِّيل: الطين المتحجِّر، وهو معرَّب «سنككل» بذلك المعنى، وقيل: من السِّجل (بالكسر) وهو الدلو الكبيرة، أي كأنَّها ماء مصبوب متتابع من الدلو، ففيه على هذا استعارة مكنيَّة وتخييليَّة.

وقيل: من الإسجال بمعنى الإرسال، أي: من مثل شيء مرسل. و«مِنْ» في ذلك كلِّه للابتداء، وقيل: المعنى: من العذاب المكتوب، والسجل بمعنى الكتابة، فتكون للتبعيض.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ﴾ كتبن ﴿مَّاكُولٍ﴾ أكلته الدوابُّ وبقي أطراف منه، أو خرج من بطونها روثا، شبَّه تقطُّع أوصالهم بتفرُّق أجزاء الروث، وزعم بعض أنَّه جعلهم في الهوان كعصف أكلته الدوابُّ وراثته، لا يدفنون، وقيل: كورق أكله السوس في الهوان، أو باطن أجسادهم خال بأكل الحجر له وظاهرها سالم، أو المراد: الخلوُّ عن الروح، و**الصحيح ما ذكرت أوَّلا**.

ويقال: لَمَّا جاؤوا لهدم حجارة الكعبة رموا بالحجارة، وَلَمَّا حملهم على ذلك تلطيخ الكنانيِّ قبلة كنيستهم بالعذرة جعلهم كالروث، أو لَمَّا حملهم على ذلك إحراقها بنار العرب التي أجَّجوها وحملتها الريح، رموا بحجارة حارَّة تأكل باطنهم، فكأنَّه قيل: أنتم أهل لِمَا فُعل بكم من هدم أجسادكُم ورميها بالحجارة الحارَّة، وتلطيخ كنيستكُم وتحريقها.

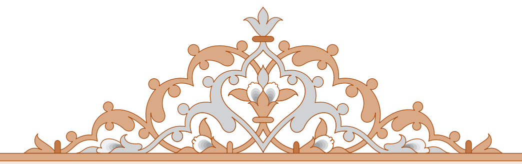
[دعاء] اللَّهُمَّ افعل بنا من الخير ما أنت أهله، ولا تفعل بنا من الشرِّ ما نحن أهله، أستغفر الله الرحمن الرحيم من كلِّ ذنب.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

106

تفسير سورة قريش

مكِّيَّة وآياتها 4 ـ نزلت بعد سورة التين



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿1﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿2﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿3﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿4﴾﴾

التذكير بنعم الله على قريش، وأمرهم بعبادته وشكره

﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ**﴾ متعلِّق بـ«يعبـد»، ولا تمنع الفاء من ذلك، لأنَّها صلة لتأكيد الربط، وتلويحًا لمعنى الشرط، أي: إنَّ نعم الله تعالى غير محصورة فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لنعمة الإيلاف.

[نحو] وإنَّما تمنع التقديم لمعمول مَا بعدها عنها لو كانت في جواب شرط محقَّق، وهو المتبادر، وهو قول الخليل. وعلَّقه الكسائيُّ والفرَّاء بفعل أمرٍ محذوف، أي: **اعجبوا لإيلاف قريشٍ رحلةَ الشتاء والصَّيف، وتركهم عبادة الله تعالى الذي أعزَّهم ورزقهم وآمنهم!**. وفرَّع على ذلك بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ...﴾ إلخ.

وعلَّقه الأخفش بمحذوف تقديره: فعلنا ما فعلنا من إهلاك أصحاب الفيل، أو أهلكنا أصحاب الفيل لإيلاف، لِدلالَة آخر السورة قبلها عليه، بناءً على أنَّه

لا يجوز تعليق ما في أوَّل الســورة في آخر ما قبلها، إذْ لم يُوجَد في القرآن، ولكن إذا صار إلى هذا التقدير فلْيُعَلِّقه بـ«جَعَلَهُمْ» في آخر السورة.

وقد روي عنه أنَّه عَلَّقه بهِ لِصِحَّة المعنــى، والقربِ، وعدمِ حذْفٍ وتقديمٍ وتأخيرٍ وتأويل.

[قلت:] ومع ذلك كلِّه ومع كون القرآن كالسُّــورة الواحدة يمتنع عندي، للمحافظة على أن تكون كلُّ سورة مستقلَّة.

والقولُ بأنَّهما سورة واحدة ـ فَيَسُــوغُ التعليق كما أنَّه قول جَماعةٍ ـ يَرُدُّهُ الفصل بالبسملة المتواترة نطقًا وخطًّا. وروي أن البسملة لم توجد في مصحف أُبيٍّ، لكن روي أيضًا أنَّها وجدت فيه، والمُثْبِتُ مُقَدَّمٌ على النَّافي.

ويروى أنَّه يراهما سورة واحدة، ويعتقد ذلك، ولم يُبَسْمِلْ خطًّا في كتابه ولا يقرأ البسملة بينهما، وعن عمرو بن ميمون: «صلَّيت المغرب خلف عمر فقرأ في الأولــى ﴿وَالتِّينِ﴾، وفــي الثَّانية ﴿أَلَمْ تَــرَ...﴾ إلخ، و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ بلا بسملة» قلنا: لَعَلَّه لا يَصِحُّ ذلك، وإن صحَّ فلعلَّه قرأها بمقدار لا يسمعه، والتَّواتُر نطقًا وكتابةً يأتي على ذلك كلِّه، «وكلُّ الصيد في جوف الفرا» وهو حجَّة لا محيد عنها.

وفي الترمذيِّ عن ســعيد بن زيد عن رسول الله ﷺ: «**من أراد هوان قريش أهانه الله**»[1]. وفي الترمذيِّ عن ابن عبَّاس عن رسول الله ﷺ أنَّه دعا فقال: «**اللَّهمَّ أَذَقْتَ أَوَّلَ قريش نكالاً، فَأَذِقْ آخرهم نَوَالاً**»[2].

---

(1) رواه **الترمــذي** في كتاب المناقــب، باب في فضل الأنصــار وقريش، رقــم: 3905. وأورد **الســيوطيُّ** في الدُّرِّ، ج6، ص447 ما يقاربه معنى، وقال: أخرجه ابن أبي شيبة عن سعد بن أبي وقاص.

(2) أورده **السيوطيُّ** في الدر، ج6، ص447. وقال: أخرجه ابن أبي شيبة، عن عبيد بن عمير.

وعن الزبير بن العوَّام وسعيد بن المسيّب عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله تعالى فضَّل قريشًا بسورة لم يذكر فيها غيرهم، ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾**»[1]. وعنه ﷺ: «**إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[2]، رواه مسلم عن واثلة بن الأسقع.

ويروى: «**اصطفى عبد المطلب من بني هاشم، واصطفى أبي من عبد المطلب، واصطفاني من أبي**»، وفي مسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ: «**الناس تبَع لقريش في الخير والشرِّ**»[3]. وفي البخاري ومسلم: «**النَّاس تبعٌ لقُريش في هذا الشأن، مسلمهم لمسلمهم، وكافرهم لكافرهم**»[4].

وعن أمِّ هانئ بنت أبي طالب أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «**فضَّل الله قريشًا بسبع خصال، لم يعطها أحدٌ قبلهم ولا أحدٌ بعدهم، إنِّي فيهم، والخلافة فيهم، والحجابة فيهم، والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل، وعبدوا الله تعالى سبع سنين لم يعبده فيها أحدٌ سواهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحدٌ غيرهم، ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾**»[5]. وفي رواية: «النبوءة فيهم» بدل: «إنِّي فيهم»، و«عشر سنين» بدل: «سبع سنين».

---

(1) أورده **السيوطي** في الدُّرِّ المنثور، ضمن الخصال السبع المذكورة في حديث أمِّ هانئ الآتي، مع بعض الاختلاف. وقال: أخرجه الخطيب في تاريخه عن سعيد بن المسيب.

(2) رواه **مسلم** في كتاب الفضائل (1) باب فضل نسب النبيء ﷺ، رقم 1 (2276) من حديث واثلة بن الأسقع.

(3) رواه **مسلم** في كتاب الإمارة (1) باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش، رقم 3 (1819) من حديث جابر بن عبد الله.

(4) رواه **البخاريُّ** في كتاب المناقب (1) باب قول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ...﴾ رقم 3495. من حديث أبي هريرة. ورواه **مسلم** في كتاب الإمارة (1) باب الناس تبع لقريش... رقم 1 (1818) من حديث عمرو.

(5) رواه **الحاكم** في المستدرك كتاب التفسير (106) باب تفسير سورة قريش، رقم 3975 (1113) من حديث أمِّ هانئ.

ويناسب أنَّهما سورتان أنَّ فواصل ﴿لِإِيلَافِ﴾ ليست على طريقة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، ولا يحتجُّ بهذا، لأنَّه يقع أيضًا في سورة واحدة.

[صرف] و«إيلاف» مصدر آلَفَ (بهمزة وألف مبدلة من همزة) بوزن أكرم، والياء في الآية بدل من همزة، وليست همزة «آلف» للتعدية بل هو كثلاثيّ أَلِفَ، كفَرِحَ، فكلاهما مُتَعَدٍّ لواحدٍ.

والمرادُ: مُؤالفتُهم رحلة الشتاء والصيف، أو معاهدتُهم لها، من آلفه بمعنى عاهده، والوزن واحد هو أفعل، كأكرم، أي: هي شيء اعتادُوه لتفضُّل الله تعالى عليهم فيها بعدم الخوف.

ويجوز أن تكون للتعدية، **فالأصل: إيلاف الله قريشًا إيلافُه إيَّاهم رحلة**، أي: تصييره إيَّاهم آلفين.

[أنساب] وقريش ولد النضر بن كنانة على الأصحِّ، سُمِّيَت به القبيلة، وهي من تناسلوا عنه، وقد سئل رسول الله ﷺ: مَنْ قريش؟ فقال: «**من وَلَدَ النَّضْرُ**»[1] (بفتح الميم والدَّال وضمِّ الرَّاء)، وإذا صحَّت الرواية لم يعدل عنها.

وقيل: ولد فهر بن مالك بن النضر، ونسب للجمهور، وأجمع عليه النسَّابون من قريش وغيرهم، فيما قال الزبير بن بكار[2].

واسمه: قريش، وفهر لقبه، وأبو غالب كنيته. وقيل: قريش ولد مخلد بن النضر، وهو ضعيف، وقيل: لا ولد للنَّضر إلَّا مالك.

(1) رواه **البخاري** في كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثى...﴾، رقم: 3303، بلفظ قريب. من حديث زينب.

(2) الزبير بن بكار بن عبد القريشي الأسدي المكِّي من أحفاد الزبير بن العوَّام، عالم الأنساب وأخبار العرب راوية، ولد بالمدينة المنوَّرة سنة 172هـ، وولي قضاء مَكَّة. وتُوُفِّيَ فيها سنة 256هـ. له مجموع في الأخبار ونوادر التاريخ بعنوان «الموفقيات»، طبع منه أجزاء، أَلَّفه للموفق بن المتوكل العَبَّاسيِّ، وكان يؤدِّبه. **الزركلي**: الأعلام، ج 3، ص 42.

وقيل: قريش هو كِلاب، لقِّب لكثرة صيده بِالكلْب، وقيل: لكثرة مكالبته للأعداء، أي: معالجته لهم ووثوبه عليهم، واسمه: عروة.

وزعم الشِّيعة أنَّ قريشًا ولد قصيٍّ، ليدخل عليٌّ دون عمر وأبي بكر، إذ هما فوق قُصَيٍّ.

[لغة] وهو تصغير «قرش» وهو دابَّة، أقوى دوابِّ البحر، تأكل ولا تُوكل، وتعلو ولا تعلــى. وقيل: مأخوذ مــن التَّقَرُّش وهو الكســب والتجمُّع لكثرة تَجْرِهِم وجمعهم الفضائل. وقيل: من التقريش وهو التفتيش، لأنَّ أباهم يفتِّش عن أصحاب الحاجــات ليقضيها، وتابعوه في ذلك. وقيــل: من التقرُّش وهو التجمُّع، كانت قريش متفرِّقين فجمعهم إلى الحرم وسكنوه قال بعضهم:

أبونا قريــش كان يُدعى مجمِّعا ... به جمــع اللهُ القبائــلَ من فهر

وروي:

أبونا قصــيٌّ كان يدعى مجمِّعا ... به جمع الله القبائــل من فهر[1]

والتَّصغير على كلِّ حال للتعظيم، سواء أقلنا من القرش على الأصل، أو من التَّقرُّش أو التقريش على الترخيم بحذف الزوائد.

﴿إِيلَافِهِمْ﴾ بدل كُلٍّ من «إِيلَافِ قُرَيْشٍ» وفي ذلك تفخيمٌ، إذ ذَكَر الإيلافَ أوَّلاً غير مُقيَّدٍ، وثانيا برحلة الشتاء والصيف، كقولك: أكْرم زيدًا، زيدًا العالم.

[نحو] ﴿رِحْلَةَ﴾ مفعول به ثانٍ لـ«إِيــلَافِ» الثاني، من معنى الألْفة، وهو أولى، أو منصوب على حذف «على» أو لام التعليل، أي: معاهدتهم على رحلة ولزومهم لها، أو لأجل رحلة، إذْ عاهدوا غيرهم فــي ذلك. ويجوز أن يكون

(1) هذه الصيغة هي التي ذكرها **ابن دريد** في جمهرة اللغة، ج 2، ص 731. وهو من قول الفضل ابن العبَّاس بن عتبة بن أبي لهب. ولم نقف على قائل الصيغة الأولى.

مفعولاً به على المعاهدة على التجوُّز، إذْ نَزَّل الرَّحلة منزلة عاقلٍ يُعاهَدُ، فَرَمَزَ لذلك بملائِمِهِ وهو المعاهدة.

﴿**الشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ**﴾ الحاصِلُ أنَّه أهْلك أصحابَ الفيل لتبقى رحلةُ الشِّتاء والصيف، والإطعامُ لَهم، وعدَمُ الخوْف. أو قال: اُعْبُدُوهُ لِيُبْقِيَ لكم ذلك.

[تاريخ] رحلةٌ في الشِّتاء إلى اليمن وإلى مَكَّة للتجر وسائر الأغراض، ورحلةٌ في الصيف إلى بصرى من أرض الشام وإلى الطَّائف للماء والظلِّ، لا يُتَعَرَّضُ لهم لأنَّهم أهلُ حرم الله ﷻ. وأفرد الرَّحلة لأنَّه مصدر يَصْلح للقليل والكثير، وأيضًا الإضافة للجنس، فشمل الكثير.

فعن النقَّاش[1]: لهم أربعُ رُحُلٍ لأربعة إخوة من منافٍ: عبدُ شمس يؤالف إلى الحبشة، والمطَّلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، وهاشم إلى ملك الشام، أخذ من هاشم خيلاً فآمنه للتجر.

وقيل: الإيلاف شبه الإجارة بالخفارة، ويقال: شقَّ عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام، فأخصب الله تبالة وجرش من بلاد اليمن، فحملوا الطعام إلى جدَّة في السفن وإلى مَكَّة على الإبل والحمير، وأخصب أهل الشَّام وحملوا إليها، فَكَفَاهُمُ الله أيضًا مؤونة الرِّحلتين.

وعن ابن عبَّاس: جمعهم هاشم على الرِّحلتين فزالت المجاعة، وكانوا يَقْسِمون ربحهم على الغنيِّ والفقير، فكان فقيرهم كغنيِّهم، وعن الكلبيِّ: أوَّل من حمل السمراء ـ أي: القمح من الشام، ورحَّل إليها الإبل ـ هاشم بن عبد مناف.

(1) النقَّاش هو: أبو بكر بن الحسن بن محمَّد بن زيَّاد الموصليُّ البغداديُّ، العلَّامة المفسِّر، شيخ القرَّاء، ولد سنة 266هـ. حدَّث عنه ابن خزيمة وغيره، وقرأ عليه أبو بكر بن مهران وغيره. وروى عنه الدارقطنيُّ وغيره. وكان واسع الرحلة، له كتاب «شفاء الصدور» في التفسير وكتاب الإشارة في غريب القرآن والقراءات، تُوُفِّيَ سنة 351هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ص137.



﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ الكعبة التي حُمِيت من أصحاب الفيل ﴿الذِي أَطْعَمَهُم﴾ بواسطة الرِّحلتين، أو الأربع التي تمكَّنوا منها، ولكونهم أهل بيت الله ﷻ، ووُلَاة بيته العزيز ﴿مِّن جُوعٍ﴾ عظيم يأكلون فيه الجيف والعظام والجلود والدَّم، لدعوة إبراهيم: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [سورة إبراهيم: 37].

و«مِنْ» للتعليل على حذف مضاف، أي: لإزالة الجوع، أو بمعنى عن، أو الجوع علَّة باعثة، أي: لحصول الجوع، وقيل: «مِنْ» للبدليَّة.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ شديد، والناس بين مُتَخطَّفٍ ومنهوب، ومنه خوف أصحاب الفيل، وخوف الخطف في مسايرهم وبلدهم، لدعوة إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [سورة إبراهيم: 35]، ومنه خوف الجذام والطاعون، و«مِنْ» للابتداء أو بمعنى عن.

وقيل: آمنهم بمحمَّد ﷺ وبالإسلام، وقيل: لَمَّا كفروا دعا عليهم بسبع سنين قحطًا حتَّى أكلوا الجلود، وقالوا: يا محمَّد ادع الله تعالى يمطرنا فقد آمنَّا، فدَعا فأُخْصِبوا. وقد احترمهم الناس لكونهم أهل بيت الله ﷻ، فذلك قوله تعالى: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

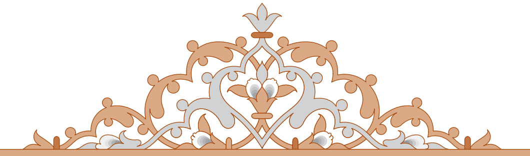
اللَّهمَّ آمنَّا من الخوف والجوع في الدنيا والآخرة.
وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



107

تفسير سورة الماعون

مكِّـيَّة الآيات الثلاث الأولى، والبقيَّة مدنيَّة، وآياتها 7 ـ نزلت بعد سورة التكاثر



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿1﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿2﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿3﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿4﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿5﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿6﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿7﴾﴾

الكافر المنكر الجزاء الأخرويَّ والمنافق المرائي بعمله، وعقاب كلٍّ منهما

﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح للرؤية. والاستفهام تشويقٌ إلى طلب معرفة المكَذِّب ليتحرَّز عنه، وعن متابعته، وتعجيب منه، والرؤية بمعنى المعرفة، أو بصريَّة. وكما تكون الرؤية عِلمِيَّة متعدِّية إلى اثنين تكون بمعنى المعرفة متعدِّية لواحد.

[نحو] ﴿الذِي﴾ مفعول «رَأَيْتَ»، وإن جُعلت عِلمِيَّة قُدِّر المفعول الثَّاني جملةً مُعَلَّقًا عنها، أي: من هو؟ أوْ أليس مستحقًّا للعذاب؟.

﴿يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ بالجزاء أو بِشَرْعِ اللهِ ﷻ، وهو الإسلام والقرآن. ﴿فَذَٰلِكَ الذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ جواب شرط محذوف، أي: إن لم تعرِفْهُ فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم.

[نحو] و«الذِي» خبر «ذَلِكَ»، أو فهو ذلك الذي يَدُعُّ اليتيم، فـ«الذِي» تابع لـ«ذَلِكَ»، أو الفــاء عاطفة داخلة على المســبَّب، فإنَّ دعَّ اليتيم مســبَّب عن التكذيب بالدين، والتَّكذيب بالدِّين سبب له.

وإشارة البعد تحقير، أو للإشارة لعلَّة الحكم، بخلاف ما لو أتي بالضمير، فإنَّ الضمير لا شعور له به.

والمعنى: يَدْفَعُه عن حقِّه وماله، أو يقهره ويضربه ولا يُواسِيهِ.

﴿**وَلَا يَحُضُّ**﴾ أحدًا من أهله، أو أصحابه، أو غيرهم من الأغنياء، أو من يجد ما يتصدَّق به، لأنَّه لا يرجو ثوابًا أُخْرَوِيًّا لإنكاره للبعث ﴿**عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ اسم مصدر، أي: إطعام المسكين، أو هو نفس الشــيء الذي يعطى على حذف مضاف، أي: على مناولة طعام المسكين للمسكين، أو إعطاء طعام المسكين.

ومعنى «طَعَامِ الْمِسْكِينِ» إذا جعلناه بمعنى نفس ما يتصدَّق به: الطعامُ الذي يستحقُّه المسكين، ويحتاج إليه كأنَّه ملك له، كقوله تعالى: ﴿وَالذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [سورة المعارج: 24 ـ 25]، ولك أن لا تقدِّر مضافًا.

والمراد: نفس ما يُعطى لهذه النكتة من أنَّه كأنَّه مُلْكٌ له، وفي هذه النكتة الزَّجرُ عن المنِّ عَلَيْــه، فإنَّه إذا كان حقًّا على صاحب المال للمســكين فإنَّما إعطاؤه كقضاء الدين عليه له.

﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ**﴾ المنافقين الذين يصلُّون ويضمرون الشرك ﴿**الذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ**﴾ قال أنس والحسن: «الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: فيها» لأنَّ المؤمن يدخلها بقَصْدٍ، وإذا سها فيها نَدِمَ، وَجَبَرَهُ بسجود السهو.

[صور من تضييع الصلاة] ﴿**سَــاهُونَ**﴾ غير معتنين بها، بل يصلُّونها بلا طهارة، وبلا حضور قلب، وبلا رجاء ثواب، ويتركونها تارةً ولا يُصَلُّونها، ولا يقيمون وظائفها من نحو الطهارة إلَّا حيث يخافون أن يُطَّلعَ عليهم، ولا يخافون

خروج الوقت، ولا يندمون على تركها أو ترك وظائفها، ولا يرجون لها ثوابًا، و[لا يخافون عند] الإخْلَال بها عقابًا، ولا يُتِمُّونَ ركوعها ولا سـجودها، وإن كان فيه توحيد [أي: إيمانٌ] ضعيف صلَّاها ولو بعد خروج وقتها، أو قبل وقتها، والتفت فيها، و«أشأم وأتْهَمَ»[1] والْتَفَتَ يمينًا ويسارًا، أو يخرج عنها ولا يدري كم صَلَّى، ويصلِّي تارة ويترك أخرى.

والفاء للتفريع والعطف، **إذا ذَمَّ دَعَّ اليتيم وعدَمَ الحضِّ فَأولى أن يَذُمَّ تارك الصلاة التي هي عمادُ الدِّين، والفارقة بين الكفر والإيمان.**

وقيل [الفاء] في جواب شـرط، كأنَّه قيل: إذا كان دعُّ اليتيم وتركُ الحضِّ بهـذه المثابة فما بال تـرك الصلاة؟ وقيـل: إنَّ المصلين هم مـن ذكر قبلُ، والمعنى: إذا علم أنَّ حالهم قبيح فويلٌ لهم.

﴿**الذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ**﴾ النـاسَ بصلاتهم إذا صَلَّوْا، وبما يفعلون من أعمال الخير: ﴿وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلَاةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً...﴾ إلخ [سورة النساء: 142].

﴿**وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ من أموالهم عن مُسْتَحِقِّه، وهو الزكاة عند عليٍّ وابن عمر وابن عبَّاس، ويدلُّ له ذكره بعد الصلاة كما اعتيد في القرآن ذكر الزكاة بعد الصلاة، فهم يتركون الصلاة والزكاة، وعليه الحسن والضحَّاك وقتادة.

والمعروف كلُّه عند محمَّد بن كعب القرظيِّ والكلبيِّ، وما يتعاوره الناس بينهم من متاع البيت كالقدر والمقلاة والفأس عند ابن مسعود، وهو رواية عن ابن عبَّاس.

وعنه: «**كنَّا نعدُّ الماعون على عهده ﷺ عارية الدَّلو والقِدْر**»[2]، كما رواه أبو داود.

---

(1) هذا مثل يضرب لمن يتَّجه هنا وهناك، ولا يستقرُّ على حال، والكلمة من الشام وتهامة.

(2) رواه **أبو داود** في كتاب الزكاة باب في حقوق المال، رقم 1657. من حديث عبد الله بن عبَّاس.

[فقه] ومنعُ ذلك عن المضْطَـرِّ إليه حرامٌ، وعن غيـر المضطرِّ مكروه. وقيل: ما لا يحلُّ منعه كالماء والملح والنار. قال العلماء: **يسـتحبُّ أن يكثر الرجل في بيتـه ما يحتاج إليه الجيران ويتفضَّل بـه عليهم**. ومعنى الماعون: المال عند الزهري، وقال: إنَّه لغة قريش.

[صرف] ووزنه فَاعُول، فالزائـد الألف والواو، والمعنى: الشـيء القليل، والزكاة وما يتعاور شيءٌ قليل، والمعروف في الغالب قليلٌ من المال. وقيل: وزنه: مَفْعُل من العون (بفتح الميم وضمِّ العين) نقلت ضَمَّة الواو إلى العين، وزيدت فيه الألف عوضًا عن المنقول عنه. وقيل: وزنه معفول (بتقديم العين على الفاء) من العون أيضًا، صارت عينه مكان فائه هكذا: موعون، قلبت الواو ألفًا.

وكلٌّ من الزكاة وما يتعاوره الناس والمعروف يعان به مستحقُّه.

[سبب النزول] وقيـل: نزلت في أبـي جهل جاءه يتيمٌ عـارٍ يطلب مالَه فدفَعَهُ دفعًـا عنيفًا. وقيل: في الوليد بن المغيرة. وقيـل: في العاصي بن وائل السهمي. وقيل: في عمرو بن عائد المخزومي. وقيل: في منافق بخيل. والعبرة بعموم الحكم لا بخصوص السبب. [قلت:] وبعدُ فلا بأس بتفسير الآيات بهم لأنَّه إذا أشرك إنسان فعل ذلك أو بَعْضَهُ ورضي بالباقي.

[فقه] والكلام على الترقِّي، فإنَّ ترك الصـلاة أعظم من دعِّ اليتيم وعدم الحضِّ على طعام المسـكين، لأنَّها عماد الدِّين والفارق بين الإيمان والكفر، والرياء فوق ترك الصلاة، لأنَّه الشـرك الأصغر، والزكاة شقيقة الصلاة، وقشرة الإسلام، وهي معاشٌ، قَطْعُها يُؤَدِّي إلى اختلال غيرها.

اللَّهمَّ اجعلنا مِمَّن أدى الفرائض مخلصًا.

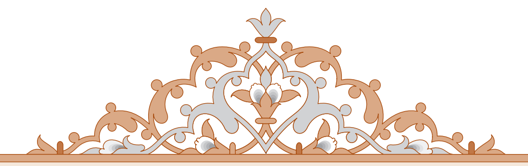
والله الموفِّق والمستعان.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

108

تفسير سورة الكوثر

مكِّـيَّة وآياتها 3 ـ نزلت بعد سورة العاديات



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾

إكرام الرسول ﷺ بنهر الكوثر

﴿**إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَـرَ**﴾ «فَوْعَل» من الكثرة المفرطة، وهو صيغة مبالغة، وهو صفة لمحذوف، أي: الخير الكوثر. ومذهب الجمهور أنَّه نهر في الجنَّة.

قال ﷺ: «**هل تدرون ما الكوثر؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هو نهر أعطانيه ربِّي في الجنَّة، عليه خير كثير، تَـرِدُ عليه أمَّتي يوم القيامة، آنيتُه عددُ الكواكب، يختلج العبد منهم فأقول: يا ربِّ، إنَّه من أمَّتي، فيقال: إنَّك لا تدري ما أحدث بعدك**»[(1)] ويروى: «**يُذَاذُ عَنْهُ رجالٌ من أصحابي فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيقال: ما تدري ما أحدثوا بعدك فأقول: سحقًا سحقًا**»[(2)].

قال أنس: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «**قد أعطيت الكوثر**»، قلت:

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الصلاة (14) باب حجَّة من قال: البسملة آية من أوَّل كلِّ سورة سوى براءة. رقم 53 (400) **والنسائي** في كتاب الافتتاح (21) باب قراءة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، رقم 903. من حديث أنس.

(2) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 9، ص 229.

يا رسول الله ما الكوثر؟ قال: «**نهر في الجنَّة عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب، لا يشرب منه أحد فيظمأ، ولا يتوضأ منه أحد فيشعث أبدًا، ولا يشرب منه من أخفر ذمَّتي، ولا من قتل أهل بيتي**»[(1)].

وعن عائشة: «هو نهر في الجنَّة، عمقه سبعون ألف فرسخ، ماؤه أشدُّ بياضًا من اللَّبن، وأحلى من العسل، شاطئاه الدرُّ والياقوت والزبرجد، خَصَّ الله به نبيه محَمَّدًا ﷺ من بين الأنبياء عليهم السلام». وقالت: «ليس أحدٌ يدخل إصبعه في أذنيه إلَّا سمع خرير ذلك النهر»، أي: صوته كصوت الأذنين إذا سُدَّتا.

وعن أنس عن رسول الله ﷺ: «**دخلت الجنَّة فإذا أنا بنهر حافتاه خيامُ اللُّؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مِسْكٌ أذْفر، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله تعالى**»[(2)].

وقيل: هو حوضه في المحشر، ينصبُّ فيه ماء من عينه في الجنَّة. قيل: هو قريب من الجنَّة حيث يحتبس أهلها ليتحالُّوا من المظالم بينهم في الأرض المبدلة. وعلى نهره في الجنَّة طير أعناقها كأعناق الجزور.

قال عمر: هي ناعمة؟ فقال ﷺ: «**أكلها أنعم**»[(3)]. وعنه ﷺ: «**حوضي كما بين جرباء**[(4)] **وأذرج**»، وهما قريتان في الشام بينهما ثلاثة أيَّام. ويروى: «**كما بين صنعاء والمدينة**»[(5)]. ويروى: «**ما بين المدينة وعَمَّان**»[(6)] (بفتح العين وشدِّ الميم) موضع في الشام. ويروى: «**ما بين صنعاء وأيلة**»[(7)].

---

(1) رواه **الطبرانيُّ** في الكبير، رقم: 2882. من حديث أنس.

(2) رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفسير (90) باب ومن سورة الكوثر، رقم 3360. من حديث أنس.

(3) رواه **الحاكم** في كتاب التفسير (108) باب تفسير سورة الكوثر، رقم 3360. من حديث أنس.

(4) بلدة قريبة من بصرى في طريق الشام، أمَّن أهلَها الرسولُ عند سيره إلى تبوك على أن يؤدُّوا الجزية. وأذرج مكان بين معان وصلّح، حيث اجتمع فيه الحكمان بعد وقعة صفين.

(5) رواه **البخاري** في كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم: 6219. من حديث حارثة بن وهب.

(6) رواه **مسلم** في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبيِّنا ﷺ، رقم: 6139. من حديث أنس.

(7) وقد أورد **المنذريُّ** في كتاب الترغيب والترهيب، ج4، ص418، رقم 66 فصلا في الحوض والميزان والصراط ما يقاربه معنى، بلفظ: «...كما بين عدن إلى عُمان». من حديث أبي أُمامة.

[قلتُ:] واختلاف الروايات يدلُّ على أنَّ المراد التمثيل بالوسع لكلِّ أحد بما يعقل، وبين أيلة والمدينة خمس عشرة مرحلة، وأيلة آخر الحجاز وأوَّل الشَّام.

والمخصوص به هو الذي في الجنَّة، وأمَّا في المحشر فلكلِّ نبيء حوض يردُّه المطيعون من أممهم، قال ﷺ: «**إنَّ لكلِّ نبيء حوضا، وإنَّهم يتبَاهَوْنَ أَيُّهُم أكثر واردةً، وإنِّي أرجو أن أكون أَكثرهم واردة**»[1].

وقيل: الكوثر أولاده، لأنَّ السـورة ردٌّ على من قال: أبتر. وقيل: أصحابُه وأشياعُه إلى يوم القيامة. وقيل: علماء أمَّته. وعن الحسن: إنَّه القرآن، وفضائله لا تحصى.

وقيل: تيسير القرآن وتخفيف الشرائع. وقيل: الإسلام. وقيل: التوحيد. وقيل: النبوءة. وقيل: نور قلبه ﷺ. وقيل: العلم والحكمة. وقيل: إِيثَارُه غيره على نفسه في المنافع. وقيل: فضائلُه.

وقيل: المقام المحمود. وقيل: الخير الكثير والنعم الدُّنيَوِيَّة وَالأُخرَوِيَّة من الفضائل والفواصل. وما خُصَّ فهو تمثيل لا حصر.

ومعنى ﴿أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾: مَلَّكْنَاكَهُ من الآن وستقبضه يوم القيامة، وفي هذا غنًى عن قولك: الماضي بمعنى المضارع.

وفي الخطاب مزيد تعظيمٍ وتبشـير، وأنَّه مجرَّد فضل، ولو قيل: أعطينا الرسولَ أو النبيءَ أو نحو ذلك من المشتقَّات، فربَّما توهمَّ أنَّه أعْطِيَه لمضمون ذلك المشتقِّ من الرسالة أو النبوءة أو نحو ذلك.

﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**﴾ الصلوات الخمس وغيرها، كصـلاة العيد والضحى، خلافًا لمن يصلِّي لغير الله وينحر لغير الله تعالى ﴿**وَانْحَرِ**﴾ ما قدرت عليه من الأنعام، ولا

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب صفة القيامـة والرقائق والورع، باب صفة الحوض، رقم: 2443. من حديث سمرة.

سيما البُدن والضحيَّة، وتصدَّق بها على المساكين وغيرهم، لأجل ذلك الإعطاء، شكرًا له وخلافًا للسَّاهين عن الصلاة، وللذي يَدُعُّ اليتيم، ويمنع الماعون.

والجمهور على أنَّ المراد: نحر الأضاحي. وقيل: نزلت لصلاة عيد الأضحى ونحر الضحيَّة. وقيل: أَمْرٌ بصلاة الصبح في مزدلفة والنحر بمنى. وقيل: انْحَرْ وارْجِعْ في الحديبيَّة، فَخَطَبَ وصَلَّى ركعتين وَنَحَرَ.

[فقه] وفي البيهقيِّ والحاكم وابن أبي حاتم وابن مردويه: سأل رسول الله ﷺ عن النحر جبريلَ فقال: «رَفْعُ يديْك ـ أي إلى نحرك ـ عند كلِّ تكبيرة في الصلاة، وإنَّ ذلك صلاتنا معشر الملائكة وزينة الصلاة»[1].

[نقد الحديث] قلنا: حديث رفع الأيدي إلى النحر موضوع، لَوْ صحَّ للزمه النبيء ﷺ وأكثر منه في صلواته، وكذا الصحابة، ولم نجد حديثًا صحيحًا في أنَّه فعله ولا في صحَّته، ثمَّ رأيت ابن كثير قال: **إنَّه حديث منكرٌ جدًّا، وابن الجوزي قال**: إنَّه موضوع.

[قلت:] وكذا حديث ابن جرير عن أبي جعفر مرفوعًا: «إنَّه رَفْعُ اليدين عند تكبيرة افتتاح الصلاة». وحديث البخاريِّ وغيره: «إنَّه وَضْعُ يمناك على يسراك، ثمَّ وضعهما على صدرك في الصلاة»[2]. وكذا في البيهقيِّ عن أنس، وجماعة عن ابن عبَّاس، كلُّ ذلك موضوع ولا يصحُّ[3].

[قلت:] فهذه الأمَّة كلُّهم يعملون بنحر الضحيَّة وغيرها في هذه الآية، ومرَّ ذكر أنَّ سنَّة القرآن ذكر الزكاة بعد الصلاة، وما ذكرتُه قريب منها، بخلاف

(1) رواه **الحاكم** في كتاب التفسير (108) باب تفسير سورة الكوثر، رقم 3980 (118) من حديث عليٍّ.

(2) لم نقف عليه بهذا للفظ عند البخاري، وورد نحوه في كتاب صفة الصلاة، باب وضع اليمنى على اليسرى، رقم: 707. من حديث سهل بن سعد.

(3) تفسير ابن كثير، ج 4، ص 559. ونصُّه: «كلُّ هذه الأقوال غريبة جدًّا». وذكر القرطبيُّ في جامع أحكام القرآن، ج 20، ص 222، عن أبي القاسم أنَّ الإمام مالكا لم يرفع يديه في الصلاة أبدا.

الحمل على رفع اليدين، وبخلاف ما ذكره الضحَّاك من أنَّه رفعهما إلى النَّحر للدعاء بعد الصلاة، وهو كلام غير حديث، **وكان المشركون يصلُّون وينحرون للأوثان، فأمرنا الله تعالى أن نصلِّي له وننحر له.**

﴿**إِنَّ شَانِئَكَ**﴾ مبغضك مطلقًا، كالعاصي بن وائل، كما فسَّر ابن عبَّاس والجمهور، وعقبة بن معيط، كما فسَّر به شمر بن عطية، وكأبي جهل كما فسَّر به ابن عبَّاس في رواية، وكمشركين قالوا: أبتر، لَمَّا مات ابنه إبراهيم في رواية عن أبي أَيُّوب، وكأبي لهب كما فسَّر به عطاء.

وعن ابن عبَّاس: كعب بن الأشرف وجماعة من قريش، ويروى أنَّه دخل مكَّة وقالوا له: إنَّك سيِّد المدينة، ونحن أهل الكعبة، فنحن خير أَمْ هذا الأبتر؟ أو أنحن خير أم هذا الصنبور؟ فقال: أنتم، فنزل فيه: ﴿اَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُومِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلَآءِ اَهْدَىٰ مِنَ الذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً﴾ [سورة النساء: 51]، وفيهم: ﴿اِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الَابْتَرُ﴾.

والصنبور: ما ينبت في أصل النخلة، يقطع فتستريح منه، [يريدون:] هكذا محمَّد نستريح منه إذا مات. وقيل: الوحيد الضعيف الذي لا ناصر له، لا قريب ولا بعيد. **والصحيح العموم**، بل هؤلاء التخصيصات سبب النزول، وسببه لا يمنع عموم الحكم.

و«شانئ» اسم فاعل للاستمرار فشمل الماضي، أو هو للماضي، فإضافته محضةٌ، فصَحَّ الإخبار عنه بالمعرفة، ومجيء ضمير الفصل، وإن جعلنا «هُوَ» مبتدأ فالخبر جملة لا معرفة، فيجوز حمله على المضيِّ أو على الحال، أو على الاستقبال أو الاستمرار، وعلى كلِّ حال المراد: من استمرَّ على البغض، فيخرج من تاب.

﴿**هُوَ الْاَبْتَرُ**﴾ المنقطعُ النَّسل والذِّكر الحسَن، وأمَّا أنت فذريَّتُك وحُسن ذِكرِكَ، وآثار فضلك باقيةٌ كثيرة ملأت الأرض إلى آخر الدهر، والحمد لله تعالى، ولك في الآخرة ما لا تحيط به دائرة.

وانقطع نسل هؤلاء الشانئين له، ولم يبق لهم ابن ولا بنت، وقيل: انقطع نسل بعضٍ حقيقةً ونسل بعض حكمًا بأن أسلم فقطع الإسلامُ بينه وبين أبيه وجدِّه، لا يلحق أباه ولا جدَّه دعاءٌ ولا عملٌ صالح منه.

[أولاد الرسول ﷺ] وأكبر ولده ﷺ القاسم، ثمَّ زينب، ثمَّ عبد الله، ثمَّ أمُّ كلثوم، ثمَّ فاطمة، ثمَّ رقيَّة رضي الله عنهم، مات القاسم بِمَكَّةَ، ثمَّ مات عبد الله، فقال العاصي: انقطع نسله فهو أبتر، وكان عقبة يقول: لا يبقى لمحمَّد عقب فهو أبتر.

وعن أبي أيُّوب: لَمَّا مات إبراهيم ليلاً قال بعض المشركين لبعض: إنَّ هذا الصابئ قد بُتِر اللَّيلة، واعتُرِض نسبةُ ذلك إلى أبي جهل بأنَّه مات ـ لعنه الله ـ قبل موت إبراهيم. [قلت:] ولا أُسَلِّمُ هذا الاعتراض لظهور أنَّ إبراهيم مات قبل بدر، وأبا جهل في بدر، والسورة مَدَنِيَّة عند الجمهور، وهو الصحيح.

قال أنس: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه مبتسمًا، فقال: «**أنزل عليَّ آنفًا سورة، فقرأ سورة الكوثر**»(1). وقيل: نزلت بِمَكَّةَ ونزلت أيضًا بالمدينة.

أسألك اللَّهمَّ أن تسقيني من الكوثر.

والله المستعان.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

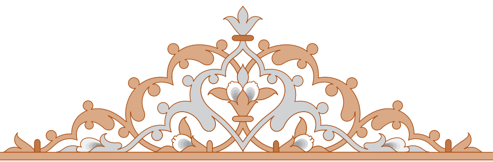
---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من كلِّ سورة سوى براءة. رقم: 921. من حديث أنس.

109

تفسير سورة الكافرون

مكِّـيَّة وآياتها 6 ـ نزلت بعد سورة الماعون



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)﴾

البراءة من الشرك والكفر وأعمال المشركين

قال ابن عمر: «رمقت رسول الله ﷺ خمسا وعشرين مَرَّة ـ وفي لفظ: «شـهرًا» ـ يقرأ في الرَّكعتين قبل الفجر والرَّكعتين بعد المغرب بـ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ أي: في الركعة الأولى و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ في الثَّانية»[1].

وعن عائشة مرفوعًا: «نعم السورتان مِمَّا يقرأ في الرَّكعتين قبل الفجر ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾»[2]. روى الحديثين ابن ماجه وابن حبَّان، والأوَّلَ أحمدُ والترمذيُّ والنسائيُّ.

---

(1) رواه **النسائيُّ** في كتاب الافتتاح (68) باب القراءة في الركعتين بعد المغرب، رقم 991. و**الترمذيُّ** في كتاب الصلاة (308) باب ما جاء في تخفيف ركعتي الفجر... رقم 417. و**ابن ماجه** في كتاب الصلاة (102) باب ما جاء فيما يقرأ في الركعتين قبل الفجر، رقم 1158. من حديث ابن عمر.

(2) أورده **الآلوسيُّ** في تفسـيره، ج 6، ص 453. وقال: أخرجه ابن الضريس والحاكم في الكنى وابن مردويه، من حديث ابن عمر.

[فقه] وسنَّة الفجر أفضل السنن الرواتب عند الجمهور[1]، والصحيح أنَّ الوتر أفضل.

[سيرة] [قلت:] ورسـول الله ﷺ معصوم عن الكبائر والصغائر قبل البعثة وبعدها، متعبَّد بما ألهمه الله من الدِّيـن، وكان يتعبَّد في غار حراء قبل البعثة، وقيل: كان قبلها متديِّنًا بما صحَّ عنده من شرع إبراهيم صلى الله عليهما وسلَّم، وأمَّا بعدها فهو عامل بما قبلها منتظرًا لِمَا يُوحى إليه متديِّنًا بما وجد منه.

[قلت:] وزعم بعض أنَّه متعبِّد بما صحَّ عنده مِن شـرائع مَنْ قبله بطريق الوحي لا من جهتهم أو نَقْلِهم أو كتبهم لأنَّهم خائنون، وهو قول ضعيف، كيف يوحى إليه بشـرع من قبله؟ فإنَّ ما يوحى إليه شـرعه، وإنَّمـا ذلك في بني إسرائيل، يوحى إلى نبيء فيتابعه الأنبياء بعده.

وعلى ذلك القول فقيل: تعبّد بشـرع إبراهيم، وعليه أصحاب الشـافعيِّ، وقيل: بشريعة موسـى إلَّا ما نسـخ، وقيل: تعبّد بكلِّ ما صحَّ عنده أنَّه شريعة لنبيء قبله ما لم يثبت نسخه، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [سورة الأنعام: 90]، ونسب لأحمد.

وعن قتادة: لم تزل العرب على بقايا دين إسماعيل عليه السلام، كالحجِّ، والختان وإيقاع الطلاق الثـلاث، والدِّية، وغسـل الجنابة، وتحريم النـكاح بالصهر والقرابة، وقبل البعثة يفعل ذلك ونحوه، لأنَّه من مكارم الأخلاق لا تحرم من غير شرع، وقيل: تعبُّدًا من الله عز وجل.

﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ نداء للعموم، أو لكفَّار مخصوصين أعْلمه الله تعالى أنَّهم أشـقياء لا يؤمنـون: الوليد بن المغيـرة والحارث بن قيس،

---

(1) ومثلها في الأفضليَّـة الركعتان بعد صلاة المغرب، للحديث المرويِّ عن رسـول الله ﷺ. رواه **أحمد** و**ابن ماجه** عن عليٍّ كرم الله وجهه. راجع: الشَّمَّاخِي: الإيضاح، ج 2، ص 311.

والأسود بن عبد يغوث، والعاصي بن وائل، والأسود بن المطَّلب بن أسد، وأميَّة بن خلف.

[سبب النزول] قالوا لرسول الله ﷺ: أُعْبُدْ ما نعبد ونعبد ما تعبد، فيشفع الصالح عند الله منك أو منَّا في المبطل، ويأخذ حظَّه مِمَّا أصاب من العبادة الحقَّة عند الله عَزَّوَجَلَّ.

أو قالت عتاة من قريش من المستهزئين وأبي جهل ومن لم يؤمن: أُعْبُدْ آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فقال: «معاذ الله أن أعبد غير الله تعالى»، فقالوا: اسْتَلِمْ بعض آلهتنا نعبد إلهك، فقال: «لا». ومن قال: مال النبيء إلى مسحها ليسلموا فنهاه الله تعالى فترك فقد كفر[1].

وفي رواية: استلمْ بعض آلهتنا نصدِّقك ونعبد إلهك، قال: «حتَّى أنظر ما يأتي من ربِّي»، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا...﴾ إلخ.

[قلت:] وقوله: «حتَّى أنظر ما يأتي من ربِّي» موضوع، إذ لا يتوقَّف حاشاه في منع المسح، ولذلك أُسقط في بعض الراويات كما سقط في رواية أنَّهم قالوا للعبَّاس: لو استلم ابن أخيك بعض آلهتنا لصدَّقناه وآمنَّا بإلهه.

وعلى كلِّ حال في ذلك نزلت السورة أو كان ذلك جميعًا فنزلت، فلمَّا نزلت غدا إلى المسجد فقرأ عليهم وهم مجتمعون لم يَخَفْهم ولم يكترث بهم بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، فأيسوا وَاشتَدَّ إيذاؤهم للمؤمنين.

ولا مانع من أن يقع أحد الخبرين قبل الآخر فتنزل، ويعاند أصحاب الخبر الآخر أو يرجون أن يقبل رأيُهم.

---

(1) المقصود بالكفر: كفر النعمة غير المخرج من الملَّة، كما هو العادة في اصطلاح الشيخ وعدَّة علماء، أي: فقد عصى؛ ذلك أنَّ الميل إلى الفعل ليس فعلًا. (المراجع).

[بلاغة] وكان خطابهم بالنداء أوّلاً ليقبلوا عليه ولا يفوتهم شيء مِمَّا يقول، وكان النِّداء بـ«الْكَافِرُونَ» لا بمن كفروا، أو يا أَيُّهَا الذين كفروا، لأنَّ الكفر فيهم قديم راسخ، أوْ لأنَّ المراد أشقياء مخصوصون لا يؤمنون، أو للاختصار ليصل بسرعة إلى لفظ «لَآ أَعْبُدُ...» إلخ الذي هو المقصود بالذات، ولأنَّ الكفر كلَّه ملَّة واحدة في البطلان، ولو قال: يا أَيُّهَا المشركون لاخْتَصَّ اللَّفظُ على حسب الظَّاهر وعلى حسب الحال بمن يعبد الأصنام، ولأنَّ اسم الكفر أشَدُّ في نفسه وأشدُّ عليهم في التعميم، وفي عدم الاكتراث بالكافرين مطلقًا، وفي الإيَّاس منه.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ وَلَآ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ القرآن مشتمل على الأمر والنهي، وكلٌّ يتعلَّق بالقلب أو بالجارحة، وذلك أربعة، فكانت السورة بربع القرآن كما رواه الترمذيُّ وأنس، وفيه أنَّ ﴿إِذَا زُلْزِلَت﴾ نصفٌ، و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ثلثٌ[(1)].

والمعنى: لا أعبد في المستقبل ما تعبدون الآن من الأصنام، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد الآن وقبلُ وبعدُ، فهو للاستمرار، ولا أنا عابد فيما مضى ما عبدتم فيما مضى، وما عبدتم في وقت مَّا من الأوقات. أمَّا أنا فلم أزل عابدًا له في الماضي والحال والاستقبال. ولم يُعَدَّ طوافُهم وحجُّهم وعمرتهم واستغفارهم عبادةً لأنَّها مصاحبةٌ للإشراك، مخلوطة به.

و«لَا» النافية مختصَّة بالاستقبال، و«مَا» للحال، لَكِنَّ هذا غالب لا يطَّرد، فقد تكون «لَا» للحال و«مَا» للاستقبال لقرينة. وقيل: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ للاستقبال ﴿وَلَآ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ

---

(1) يشير إلى الأحاديث التي أوردها الترمذيُّ في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في ﴿إِذَا زُلْزِلَت﴾، رقم 2819 و2821. من حديث أنس.

أَعْبُدُ ﴾ للحال، وعكس الزجَّاج. وقيل: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ للماضي، وما بعده للمستقبل.

وقيل: لنفي ما اعتبره الكافرون وما بعده للنفي على العموم، أي: لا أعبد ما تعبدون رَجَاءَ أن تعبدوا الله تعالى، ولا أنتُم عابدون الله رجاء أن أعْبد أصنامكم، ولا أنا عابد أصنامكم لغرضٍ مَّا، ولا أنتم تعبدون الله لغرضٍ مَّا.

أو المعنى: لَا أعبد الأصنام التي تعبدون، ولا أنتم عابدون الله هكذا، وكأنَّهم قالوا: نحن نعبد الله لكن مع غيره، فقال: ﴿وَلَآ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ... ﴾ إلخ أي: ولا أنا عابد في وقت مَّا الإله الذي عبدتم، لأنَّ الله ليس ما تخيَّلتم له من عبادة غيره معه، ولا أنتم عابدون الإله الحقَّ الخالص الذي أعبده، وهذا أنكى لهم من أن يقتصر على قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾. وعلى كلِّ وجه لا تكرير في الآية.

وذِكْرُ اللهِ تعالى بلفظ «مَا» ـ اسمًا موصولاً، أو نكرة موصوفة ـ إشارةٌ إلى الصفة، بل قد تكون «مَا» للعالم بلا تأويل، كما حكي عن سيبويه، وقيل: مشتركة بين العالم وغيره وضعًا.

وقيل: في [الجملتين] الأوليين بمعنى الذي، أو نكرة موصوفة؛ وفي الأخريين مَصدَرِيَّة، أي: لا أعبد الذي تعبدونه، أو إِلَهًا تعبدونه، ولا أنتم عابدون الذي أعبده، أو إلهًا أعبده، ولا أنا عابد عبادتكم، أي: مثلها في الشكِّ أو الشرك، ولا أنتم عابدون عبادتي، أي: مثل عبادتي في اليقين والتوحيد.

﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ**﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [وقوله:] ﴿وَلَآ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾، أي: لكم خَاصَّة دينكم الذي هو الإشراك لايتجاوز إليَّ ﴿**وَلِيَ دِينِ**﴾ تقرير لقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾، أي: لي خاصَّة ديني الذي هو التوحيد لا يتجاوز إليكم، لقضاء الله ﷻ

بشــقوتكم، لســوء اســتعدادكم، ولتعليقكم إيَّاه بالمحــال، وهو عبادتي لأصنامكم، أو مسحي عليها، ولأنَّ ما وعدتموه عين الإشراك.

أو هذا تقرير لقوله ﷻ: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾. والقصر قصر إفراد في الموضعين.

وروي أنَّ ابن مســعود رضي الله عنه دخل المسجد والنبيء ﷺ جالس، فقال له: «نَابِذْنا يا ابن مســعود» فقرأ: ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ثمَّ قال له في الركعة الثَّانية: «أخلص»، فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ فلمَّا سلَّم قال له: «يا ابن مسعود، سَلْ تُجَبْ».

[قلت:] ومعنى الســورة مأمور به قبل القتال وبعد القتال، ولا حاجة إلى جعله أمرًا بترك القتال ثمَّ نسخ بالقتال. اللَّهمَّ ببركة ما هو اسمك الأعظم عندك استَجِبْ دعائي واجْعل لي الخير فيه.

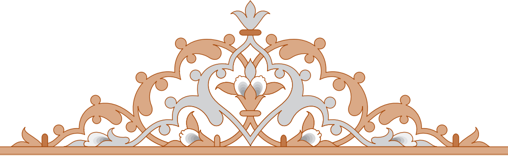
وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



110

تفسير سورة النصر

مدنيَّة نزلت في حجَّة الوداع، وهي آخر ما نزل من السور، وآياتها 3ـ نزلت بعد سورة التوبة



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)﴾

بشارة الرسول بعزَّة الإسلام وانتشاره

﴿**إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ**﴾ إذا جاءك نصر الله، أي: إعانتُه إيَّاك وإظهارُك على عدوِّك، وحفظك مِمَّا تكره من الملمَّات وذلِّ أهل الدِّين، ولا حاجة إلى تخصيصه بالإعانة والإظهار، ولو كان أنسب بقوله: ﴿**وَالْفَتْحُ**﴾.

و«إِذَا» متعلِّق بجوابها وهو «سَبِّحْ» على المشهور الصحيح، وهكذا تقول أبدًا، وإذا مَنَعَ مانع فَتَأَوَّلْه.

والمراد بالنصر تغليبُه ﷺ على قريش وسائر العرب، أو المرادُ نصرُه ونصرُ أمَّته بعده، وهذا أوَّله، وكأنَّه موجود كلُّه في الحِين.

وعن ابن عبَّاس: النصر صُلح الحديبيَّة، والفتح فتح مكَّة، وهذا هو الصَّحيح. وقيل: الفتح فتح بلاد الشرك له ولأمَّته بعده، لأنَّ فتح مَكَّة أوَّلهُ وبابُه، فهو

متتابع كأنَّه حضر كلُّه، والنصر: الإظهار على العدُوِّ، وهو متقدِّم على الفتح، ولذلك قدَّمه على الفتح.

والسورة إشارة لنعي رسول الله ﷺ كما قال ابن عبَّاس، وجاء به الحديث[1]، وما بقي بعدها إلَّا عامين، وَلَمَّا نزَلَتْ بَكَى عمر وقال: قَدْ قَرُبَ موته ﷺ.

[سيرة] وكان الفتح في السَّنة الثامنة لثلاث عشرة بقيت من رمضان، على رأس ثمان سنين ونصف من الهجرة وخرج إليها ليلتين مضتا من رمضان، أو لثمان عشرة، أو لاثنتي عشرة، أو لست عشرة، أو يوم الأربعاء لعشر مضين بعد العصر، وضُعِّف، أو لعشر بقين.

[سيرة] خرج بعشرة آلاف من المهاجرين والأنصار كلِّهم، وغيرهم من العرب، أو باثني عشر ألفًا، ويجمع بأنَّه خرج بعشرة آلاف وتلاحق ألفانِ بعدُ، وَلَمَّا بلغ الكديد أفطر بين عسفان وأمج، وأفطروا. ولم يعلم بهم أحدٌ حتَّى نزل بمَرِّ الظَّهران.

[قلت:] وذلك من المعجزات لكثرة الناس وكون البرِّ للعرب والأعراب والسفر.

وقد دعا ﷺ أن يعمي عنهم الأخبار، إلَّا أنَّ حاطبًا أخبر أهل مكَّة في كتاب كما مرَّ في الممتحنة. واستخلف على المدينة أبا رُهْمٍ كلثوم بن حصين الغفاري، ولا يخفى أنَّ السورة نزلت قبل الفتح، ويحمل النَّصر على ما كان مع الفتح المذكور، وذلك إخبار بالغيب، وهو معجزة.

وإن نزلت السورة بعد الفتح كما زعم بعض فـ«إِذَا» بمعنى إذْ، متعلِّق بمحذوف، أي: كمُل الأمرُ أو تمَّ، أو تبقى للاستقبال، فيتوجَّه الاستقبال إلى شيء

---

(1) بشير إلى الحديث الذي أورده صاحب الكشَّاف: «لَمَّا نزلت خطب رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ عبدا خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله ﷻ». فعلم أبو بكر، فقال: فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا». قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشَّاف: الحديث متَّفق عليه.

مستقبل مُتَرَقَّبٍ باعتبار ما يدلُّ عليه، ولو تحقَّق باعتباره في نفسه، وفتح مكَّة أمُّ الفتوح جالب لِمَا بعدَ منها. أو للاستقبال باعتبار المجموع الذي بعدَ «إِذَا»، فإنَّ منه ما هو مستقبل، فإنَّ رؤيته الناس يدخلون في دين الله أفواجًا معتبرة، ولو بآخر من يدخل في دين الله ﷻ، إن لم يكن النُّزول بعد تمام الدُّخول.

أو يراد بالنصر نصر الله الرحمن الرحيم لرسوله والمؤمنين في أمر مكَّة، زادها الله شرفًا وحَفِظَهَا، وبالفتح ما كان فيها وفي غيرها، ولا إشكال في الاستقبال.

والمجيءُ حقيقةٌ في الحصول، وقيل: في الشروع فيما به الحصول كالتنقُّل، ولعلَّه مشترك وضعًا.

[سيرة] وسبب الفتح أنَّ رسول الله ﷺ صالح قريشًا في الحديبيَّة، على وضع الحرب عشر سنين، وقيل: عشرين، ومن شاء كان على عهده ﷺ، ومن شاء كان معهم.

فكان معه ﷺ خزاعةُ ومعهم بنو بَكْر، ثمَّ قتل بنُو بكر رجلاً من خزاعة على ماءٍ لخزاعة يسمَّى الوتير، أسفل مَكَّة، وأعانهم قريش ببعض الرِّجال وبسلاح خِفْيةً لَيْلاً حتَّى أدْخلوهم الحرم، وقاتلوا فيه.

وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ بديل بن ورقاء بذلك، وجاءته جماعة أيضًا فقال: «**لا نُصِرْتُ إن لم أنصُركم، وإنَّ هذه السحابة تشهد بنصركم**». وقال ﷺ: «**كأنِّي بأبي سفيان جاءكم يشدُّ العقد**»(1).

فجاء أبو سفيان فاستشفع بأبي بكر بعده ﷺ، ثمَّ بعمر، ثمَّ بعليٍّ أن يُكَلِّمُوه ﷺ، فلم يُجِبْهُ أحدٌ، ثمَّ بفاطمة، ثمَّ بابْنِها الحسن غلامًا يدبُّ، قال له عليٌّ: لا أجد لك إلَّا أنْ ترجعَ إلى مكَّة وتقول: «أجرت بين النَّاس».

(1) ينظر تفاصيل الفتح: سيرة **ابن هشام**، ج 2، ص 390 فما بعد. (ط. الحلبي).

وَلَمَّا نزلوا بمرِّ الظهران رقَّ العَبَّاس على أهل مكَّة فخرج، ولقي أبا سفيان، فجاء به إليــه ﷺ، فأركبه معه على بغلة رســول الله ﷺ، وقــال عمر: دَعْني يا رسول الله أقْتُلْهُ ولم يُجِبْهُ، وقَدْ سبقَهُ العَبَّاسُ بالأمْنِ، وما آمن إلَّا بعد شدَّة.

وكان يحبُّ الفخر، فقال ﷺ: «**نادِ في مكَّة: من أغلق على نفســه بَابَهُ فهو آمنٌ، ومن دخل المسجد فهو آمنٌ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ**». وقد قال قبل إسلامه له ﷺ: ما أفعل باللَّاتِ والعزَّى؟ فقال عمر: أخرأ عليها، فقال ﷺ: «**دعني وابن عمِّي يا عمر**».

وَلَمَّا ارتحل لدخول مَكَّة قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا عبَّاس بمضيق الوادي، فكلَّما مرَّت قبيلة بلوائها مثل سليم ومزينة [يعرِّفه العَبَّاس بها]، قال: مالي ولها؟ حتَّى مرَّت الكتيبة الخضراء المهاجرون والأنصار، سمِّيت لكثرة سلاح الحديد فيهم، حتَّى لا يظهر إلَّا عيونهم، فقال: لا طاقة على هؤلاء، يا عبَّاس لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما، فقال ابن عبَّاس: إنَّها النبوءة، قال: فنعم إذن.

﴿**وَرَأَيْتَ النَّاسَ**﴾ أي: العــرب، كأهل مكَّة والطَّائف وهوزان واليمن، من أهل الأوثان، وقيل: المراد أهل اليمن، قال ﷺ: «**الله أكبر الله أكبر، جاء نصر الله والفتح، وجاء أهل اليمن**»(1)، قيل: يا رسول الله ما أهل اليمن؟ أي: ما شأنهم؟ قال: «**رقِيقُو القلــوبِ، الفِقْهُ يَمَانٌ، والحكمة يمانيَّــة**»(2). وفي رواية: «**الإيمان يمان، والحكمة يمانية**»(3)، وهو على ظاهره.

﴿**يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا**﴾ الخطاب للنبيء ﷺ أوْلى من أنْ يُجعل لِكُلِّ من يصلح له على العموم البدليِّ، والرؤية بصريَّة مجازيَّة، أو بمعنى المعرفة،

(1) رواه **أبو يعلى** في مسنده، رقم: 2505. من حديث ابن عبَّاس.

(2) رواه **البخاري** في كتــاب المغازي، باب قدوم الأشــعريِّين وأهل اليمن، رقــم: 4129، من حديث أبي هريرة.

(3) رواه **مسلم** في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، رقم: 191ـ193. من حديث أبي هريرة.

فإنَّه لا مانع منه، ولو منعه أبو حيَّان ومرَّ كلامٌ فيه، فهي على الوجهين متعدِّية لواحد. و«يَدْخُلُونَ» حال، أو بمعنى العلم فتعدَّى لاثنين ثانيهما «يَدْخُلُونَ».

[صرف] والفوج: الجماعة المارَّة المسـرعة، أو مطلق الجماعة، وجَمْعُهُ على أفْعال[1] قياسٌ، لأنَّه مُعَلُّ العين، ولو جُمِعَ على أَفْعُل لثقلت الضمَّة على الواو، كأَثْوُبٍ بالضمِّ. و«أَفْوَاجًا» حال من واو «يَدْخُلُونَ».

والسورة مَدَنِيَّة، والمدنيُّ: ما بعد الهجرة ولو قبل الوصول، أو في السفر، أو في مكَّة بعدها، ونزولها قريب من موته ﷺ.

لَمَّا نزلت السورة قال لفاطمة رضي الله عنها: «نُعِيَتْ إليَّ نفسي»، فبكت ثمَّ ضحكت، فقيل لها؟ فقالت: أخبرني أنَّه نعِيتْ إليه نفسه، فبكيتُ، وأخبرني أنِّي أوَّل أهلهِ لحوقًا به فضحكتُ.

وبين حجَّة الوداع وموته ﷺ ثلاثة أشهر ونيِّف، وعن قتادة: مات رسول الله ﷺ بعد نزول: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ بسنتين، وقيل: نزلت بعد انصرافه من خيبر، وعليه فأكثر من سنتين، لأنَّ وقعة خيبر كانت سنة سبع أواخر المحرَّم. وعن ابن عبَّاس: آخر سورة نزلت تَامَّة بمرَّة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ﴾، والله أعلم.

كان الناس يُسـلِمون آحَادَ وثُنَاءَ وثُلَاثَ، وَلَمَّا كان الفتح كانوا يُسـلمون جماعاتٍ عظامًا، وما مات ﷺ إلَّا بعد إِسْـلامِ العرب كُلِّهِم، كما قال أبو عمر يوسف بن عبد البرِّ الأنصاريُّ[2]، إلَّا بني تغلب فإنَّهم بقوا على نصرانيَّتهم إلى

---

(1) في نسخة (د) وهي مسوَّدة المؤلف بخطِّه: «أفوال».

(2) هو يوسـف بن عبد الله بن محمَّد بن عبد البرِّ بن عاصـم النمريُّ القرطبيُّ المالكيُّ، ولد سـنة 368هـ. أخذ العلم في قرطبـة عن علماء كثيرين، وحـدَّث عنه ابن حزم الظاهـريُّ والحميديُّ وغيرهم، وكان إماما ثقة متقنا علَّامة متبحِّرا، كان ظاهريًّا ثمَّ تحوَّل إلى الْمَالِكِيَّة مع ميل إلى فقه الشافعيِّ في مسـائل، وهو مِمَّن بلغ مرتبة الأَئِمَّة المجتهدين. تُوُفِّيَ سـنة 463هـ. ترك تصانيف كثيرة وجليلة مثل: بيان العلم وفضله، وكتاب الجامع لأحـكام القرآن، وكتاب التمهيد، وكتاب الاستذكار في شرح الموطأ، وغيرها. **الحمصي**: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 2، ص 368.

الآن دخلهم رجل من المغاربة، وذكر الإسلام فكادوا يقتلونه، وهم الآن أشدُّ على السلطان من نصارى العجم.

[من أهدر دمه عند الفتح] ولم يقتل أحدًا إلَّا عبد الله بن خطل، لأنَّه أسلم فبَعَثَهُ مُصَدِّقًا، وله مولى مُسلم يخدُمه أمره أن يذبح تيسًا فيُطعمه، ونام واستيقظ ولم يفعل شيئًا، فقتله وارتدَّ، وقتل أمَةً له تغنِّيه بهجاء رسول الله ﷺ.

والحويرث بن نقيد بن وهب، وكان يُؤذيه بِمَكَّةَ، وقيس بن صبابة لقتله الأنصاريَّ الذي قتل أخاه خطأً، ولِرِدَّته. وأمر بقتل سَارَّة مولاة لبني عبد المطَّلب، وكانت تؤذيه بِمَكَّةَ، فتغيَّبت حتَّى استؤمن لها فآمنها.

وبقتل عكرمة بن أبي جهل، فهرب إلى البحر، فجاءت به زوْجُه، فأمَّنه ﷺ. وأمر بقتل عبد الله بن سعد بن أبي سرح، لأنَّه ارتدَّ فغيَّبه عثمان أخوه من الرَّضاع حتَّى أمَّنه ﷺ.

[سيرة] وكانت العرب تقول: إن غلب محمدٌ قَوْمَه أسْلَمْنا، فلَمَّا فتح مكَّة قالوا: أهْلك الله عنها أصحاب الفيل، فَما فَتَحَهَا إلَّا أنَّه نبيء، فأسْلموا ما بين قادمين ومرسلي الوفد، حتَّى إنَّهُ أسلم من اليمن سبعمائة رجل بمرَّة، وافدين بأنفُسِهِم وعمَّن وراءهُم، لكن وصلوا جماعة جماعة، فهم أفواج، وقلُوبُهم لَيِّنة، أسْلموا بلا سيف.

﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ سَبِّح الله، أيْ نَزِّهْهُ ـ بقلبك، أو مع التلفُّظ بسبحان الله أو بغيره ـ عمَّا لا يليق، ملتبسًا بالثَّناء عليه بأنواع المحامد.

[نحو] وإضافة الحمد لمنصوبه لَا للفَاعِل، فهو متعلِّق بحال محذوفة، ويجوز تعليقه بـ«سَبِّحْ»، أي: مع حمد ربِّك، وجوِّز أن تكون الباء للاستعانة، فتتعلَّق بـ«سَبِّحْ»، وهذا لا يصحُّ إلَّا على جعل إضافة الحمد إلى الفاعل، أي: بحمد ربِّك نفسَه.

[أصول الدين] وليس تسبيح من يقول: صفاتُه هُو مُعَطِّلاً لبعض الصفات كَمَا قيل، ويَجْتَنِبُ النقص، فلا يقال: سبحان ربِّي الأسفل، ولو كان في كلِّ موضع.

وقيل: نزِّهه عن العجز عن تعجيل الفتح، واحمده على أن أخَّره لحِكْمةٍ، وهو تفسير لا يفهم من الآية، بل المراد العموم كما مرَّ.

وما روي عن عائشة ـ من أنَّه ﷺ كان يكثر في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللَّهمَّ ربَّنا ولك الحمْدُ اللَّهمَّ اغفِرْ لي**» يتأوَّل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾[1]، أي: يعمل بمعناه ـ لا يوجب أن يكون تفسيرًا لها، ولا مرجِّحًا لتفسيره بذلك، بل هو بعض عمومها. وكذا ما في البخاري عنها: إنَّه كان يكثر في آخر أمره: «**سبحان الله وبحَمْدِه، أسْتَغْفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه**»[2].

وقال: «**كأنَّ ربِّي أخبرني أن سأَرَى علامَةً في أمَّتي وأمَرني إذا رأيتُها أنْ أُسَبِّحَ بحمده وأَستغفره**»[3]، فإنَّ التسبيح المأمور به غيرُ مخْتصٍّ بالعجز المنفيِّ المذكور، بل عن كُلِّ نقص، والتَّسبيح في الحديث على العموم.

وكذا عن أمِّ سلمة: كان ﷺ لا يقومُ ولا يجيء ولا يذهب إلَّا قال: «**سبحان الله وبِحمْدِه أسْتغْفِرُ الله**» قال: «**إنِّي أمرت بها**» وقرأ السورة[4].

قال عبد الله بن مسعود: لَمَّا نزل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ...﴾ إلخ، كان رسول الله ﷺ يُكثر إذا قرَأها ورَكَعَ أن يقول: «**سبحانك اللَّهمَّ ربَّنا وبحمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي إنَّكَ أنت التَّواب الرَّحيم**»[5] ثلاثًا.

(1) رواه **النسائيُّ** في الكبرى، رقم: 716. من حديث عائشة.

(2) رواه **مسلم** في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم: 1116، من حديث عائشة.

(3) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج 6، ص 456. وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر.

(4) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج 6، ص 457. وقال: أخرجه ابن جرير وابن مردويه، عن أمِّ سلمة.

(5) رواه **الحاكم** في كتاب التفسير (110) باب تفسير سورة النصر. رقم 3983 (1121). من حديث ابن مسعود.

وزعم بعض أنَّ «سَـبِّحْ» أمر بالبقاء على الحمد وَالتَّصَرُّف. وقيل: «سَـبِّحْ» بمعنى: قُلْ: «سبحان الله» تَعَجُّبًا من تيسـير الله ﷻ لك النَّصر والفتح على أَهْلِ الحرم، بحيث لا يخطر ببالِ أحدٍ، واحمده على صنعه، والتعجُّبُ سببٌ للتسبيح.

وهو خروج عن الظَّاهر، ومخالف للحديث، وأيضًا التعجُّب غير كسـبيٍّ، فكيف يؤمر به، وهذا من باب استعمال أداة الاستفهام للتعجُّب، لأنَّ معناها: إنَّ هذا أمر عجيب، فكذا الآية، وكأنَّه إخبار بأنَّ ذلك أمرٌ من شأنه أن يُتعجَّب منه.

[قلت:] وكذا تفسير التسـبيح هنا بالصلاة مخالف للظاهر، ومخالف للحديث والمقام، وصلاته [يوم الفتح] ثمان ركعات في بيت أمِّ هانئ، أو في داخل الكعبة، أو أربع للضحى وأربع للفتح لا يجب أن تكون تفسيرا للآية، بل هي بعض من التسبيح والحمد، ولا سـيما أنَّ الصحيح أنَّه لم يصل الثمان حين دخل الكعبة. وشـهر أنَّ الثمان بتسليمة واحدة، ولو كانت أربعًا للضحى وأربعًا للفتح لَفَصَلَ بِالتَّسلِيم.

[فقه] وصلاه الفتح مسنونة، وقد صلَّاها سعد يوم فتح المدائن.

[سيرة] ودخل رسـول الله ﷺ مكَّة متواضعًا بقلبه وجسـده حتَّى كاد رأسه يمسَّ مقدَّم الرحل، وقال لأهل مكَّة: ما تقولون؟ قالـوا: أخٌ كريمٌ، قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»، فلقِّبوا بذلك. وأقام بعد الفتح في مكَّة خمسة عشر يومًا وهو يُقصِّر الصلاة ولا يصلِّي صلاة الجمعة، فخرج إلى هوازن وثقيف وقد نزلوا حُنينًا.

﴿**وَاسْتَغْفِرْهُ**﴾ ولو لم يكن لك ذنب، إعظامًا لله تعالى، وهضْمًا للنَّفسِ، أو تعبُّدًا، وعَمَّا يصدر سهوًا أو نسيانًا، أو عَمَّا أبيح له وكان الأولى خلافُه، أو عن الاقتصار عن عبادة وترك ما هو أعلى منها من العبادات.

والإشارة إلى قصور العابد عن الإتيان بما يليق بجلال الله تعالى، ورأيت بعد ما كتبت ما هو في معناه أنَّه أبدًا على الترقِّي في العبادات، فَكُلَّما كان في مرتبة منها استغفر من التي كان عليها قبلها، أي: من الاقتصار عليها.

وقيل: عمَّا قبل النبوءة، مع أنَّه لا يعمل قبلهـا الصغائر ولا الكبائر، ومن زعم أنَّ الصغائر تصدر من الأنبياء قال: استغفارُه منها.

وقيل: اسْتَغْفِرْهُ لذنوب أمَّتك، ويناسبه أنَّ الله ﷻ أمره بذلك وقال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ﴾ [سورة محمد: 19]، وقيل: لتعليم أمَّتك.

وكان يستغفر في اليوم واللَّيلة سبعين مرَّة، وقيل: أكثر، وقيل: مائة، وجاء به حديث، وكلَّما قام من مجلس قال: «**سـبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**»[1]. ويشرع لمن سَلَّم من الفريضة أن يستغفر ثلاثًا.

وقدَّم الحمد مـع أنَّ التخلِّي قبـل التَّحلِّي، لأنَّـه لله بالإجلال لجلاله، والاستغفار لقصور في العبد، ولكراهة أن يشرع الإنسانُ في الدُّعاء قبل التملُّق لله تعالى بألفاظ المدح والتضرُّع، ولأنَّ تعقيب العبادة مشروع كما شرع بعد الوضوء، وبعد الإفاضة، ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سـورة البقرة: 199]، وبعد القيام من المجلس، وبعد الوضوء، وبعد المكتوبة، وبعد التهجُّد.

ومن قال حين يأوي إلى فراشه: «أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلَّا هو الحيُّ القيُّوم، وأتوب إليه» غُفِرَتْ ذُنُوبُه ولو كانت كزبـد البحر ورمل عَالِج، وورق الشـجر[2]، ومن أكثر الاسـتغفار جعل الله له من كلِّ همٍّ فرجًا، «**ولو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقومٍ يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم**»[3].

---

(1) تقدَّم تخريجه في ج 14، ص 123.

(2) يشير إلى الحديث الذي رواه **الترمذيُّ** في كتاب الدعوات، باب منه، رقم: 3397، من حديث أبي سعيد.

(3) رواه **مسـلم** في كتاب التوبة (2) باب سقوط الذنوب بالاسـتغفار، رقم 11 (2749). ورواه **الترمذيُّ** في كتاب صفة الجنَّة (2) بـاب ما جاء في صفة الجنَّة ونعيمهـا، رقم 2526، في =

﴿**إِنَّهُ كَانَ**﴾ في الأزل قاضيًا أن يخلق الخلق ويتوب عليهم، ومن شأنه أن يقبل التوبة، أو كان من حين خلَق المُكَلَّفين ﴿**تَوَّابًا**﴾ مبالغًا في العفو، فإنَّ صورة كراهة الله ﷻ المعصية كصورة إعراض، وصورة العفو كصورة الراجع بعد الإعراض.

أو ﴿تَوَّابًا﴾: مُبَالِغًا في قَبُولِ التوبة، والمبالغة في الوجهين تحقيق ذلك، وكثرة الأفراد من التَّائبين، و«لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار»[1]، و«ما أصرَّ من اسْتغفر ولو عادَ في اليوم سبعين مرَّة»[2]، ويناسب ذلك رجاء المستغفر وطمعه في القبول، وكأنَّه قيل: لأنَّه كان توابًا.

ولم يقل: إنَّه كان غَفَّارًا مع أنَّه قال: «اسْتَغْفِرْهُ»، لأنَّ الاستغفار إنَّما ينفع مع التَّوبة، ولا ينفع الاستغفار بلا ندم، وقد قيل: إنَّ الأصل: «استغفره إنَّه كان غفَّارًا، وتب إليه إنَّه كان توَّابًا».

الله لا إله إلَّا هو المَلِكُ الحيُّ القيُّوم ذو الجلال والإكرام، أَستغفرُ الله الرحمن الرحيم، اللهُمَّ اقْضِ لي كُلَّ حاجة.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

= حديث طويل، أَوَّله قوله: «قلنا يا رسول الله ﷺ: ما لنا إذا كُنَّا عندك رقَّت قلوبنا، وزهدنا في الدنيا...». من حديث أبي هريرة.

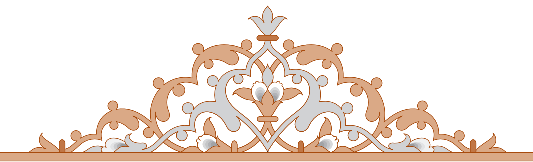
(1) يشير إلى الرواية التي أوردها **العجلوني** في كشف الخفاء، رقم: 3071، وقال: رواها أبو الشيخ والديلمي والبغوي عن ابن عبَّاس موقوفًا ومرفوعًا.

(2) يشير إلى رواية **أبي داود** في كتاب الوتر، باب في الاستغفار، رقم: 1516. من حديث أبي بكر الصدِّيق.

111

تفسير سورة المسد

مكّيّة وآياتها 5 ـ نزلت بعد سورة الفاتحة



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ⑤﴾

ذمُّ أبي لهب وامرأته ووعيدهما

﴿تَبَّتْ﴾ خَسِرَتْ أو هَلَكَتْ، يقال: شابَّة لا تَابَّة، أو شابَّةٌ تابَّة، والتَّابة الهالكة، أي: الهَرِمَة التي هلك شبابها، أي: ذهب. أو «تَبَّتْ» هلكت من كلِّ خير، والمأصدق واحد.

[بلاغة] وإسناد التباب إلى اليدين من إسناد ما للكلِّ إلى الجزء، فذلك مجاز عقليٌّ. أو اليدان بمعنى الكلِّ، أي: تبت نفسُ أبي لهب، أو ذات أبي لهب، فالمجاز مرسل والإسناد حقيقة. أو اليدان عبارة عن النفس والذَّات لِمَا بينهما من اللُّزوم، والوجهُ الذي ذكرتُ قبلَ هذا تفسيرٌ بالجزء عن الكلِّ.

﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ عبد العزَّى بن عبد المطَّلب بن هاشم، وكُنِّي بذلك لإشْراقِ وجْهِهِ، فذكره الله به تَهَكُّمًا به، إِذْ كان يفتخر بذلك، وليناسب أنَّه

من أهل النار ذات اللَّهب، ولكراهة ذكر عبد العزَّى، ولشهرته بهذه الكنية دون اسمه عبد العزَّى، وهو عمُّ الرسـول ﷺ، وهو من أشدِّ الأعداء على رسول الله ﷺ مثل أبي جهل.

[سيرة] قال طارق الصحـاريُّ: بينما أنا في سـوق ذي المجاز إذا أنا برجل حدِيثِ السِّنِّ يقول: «يا أَيُّهَا الناس، قُولُوا: لا إله إلَّا الله تفلحوا»، إذا رجلٌ خلفه يرميه، وأدمى سـاقيه وعرقوبة، ويقول: «يـا أَيُّهَا إنَّه كذّابٌ فلا تصدِّقوه»، فقلت: من هذا؟ فقالوا: محمَّد يزعم أنَّه نبيء، وهذا عمُّه أبو لهب يزعم أنَّه كذَّاب.

فَلِرَمْيِهِ بيده قال الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾. ومعنى «حديث السنِّ» أنَّه لم يَشِبْ.

وَلَمَّا نادى على الصفا بطون قريش[1]: يا بني عديٍّ، يا بني فهر، وهكذا، فاجتمعوا، وأمرهم بالتَّوحيد، قال أبو لهب لعنه الله: تَبًّا لَكَ، أَلِهَذَا جمعتنا؟ فأخذ حَجَرًا يريد رميه به، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾.

فلرميه بالحجر، وإرادة رميه بيده، وقوله: تبًّا لك، أسـند التباب إلى اليدين.

والمراد بمضيِّ تَبَابِه قضاءُ الله به، أو كونه على الضلال، أو هلاكه في الآخرة، وفي هذا الوجه صورة المضيِّ للتَّحقُّق.

﴿وَتَبَّ﴾ على صورة الدعاء، وجاز ذلك بعد الإخبار بالوقوع للتَّأكيد، تقول: فلان ملعون لعنه الله، تريد بقولك: «لعنه الله» الدعاء.

(1) راجع: ج 10، ص 307 في الموضوع.

أو الأوَّل لليدين فقط، مرادًا بهما أنفسهما فقط، لا الذَّات، وبالثاني ذاته، وكلاهما إخبارٌ على صورة الدعاء. وقيل: الأوَّل دعاء صــورةً، والثاني إخبار بالوقوع، كقوله:

جزى رَبُّــه عَنِّــي عديَّ بــنَ حاتم جزاء الكلاب العاوِيَاتِ وقَدْ فَعَلَ(1)

[قلت:] وهذا وجه حسن لم يسبقني إليه أحد. وقد جاز أنَّهما إخباران وأنَّهما دعاءان، وأنَّ أحدهما دعــاء والآخر إخبار، وجاز أنَّ الدعــاء حقيق على تقدير القول: قل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ...﴾ إلخ.

[نحو] والواو عاطفة، أو حاليَّة على تقدير «قد»، وإذا جُعل «تَبَّ» دعاءً لم يَجُزْ تقدير «قد»، لأنَّها لا تدخل على الإنشاء، لأنَّه لا خارج له يحقَّق مثلاً بـ«قد»، ولا تكون الجملة حالاً، إذ الإنشاء لا يكون حالاً، لأنَّه لا خارج لَهُ يكون تقييدًا.

وقرأ ابن مسعود: «وَقَد تَبَّ»، بـ«قد» فدلَّت قراءته على أنَّ «تَبَّ» إخبار.

[سيرة] وري أنَّــه لعنه الله يحســن إلى رسول الله ﷺ، ويُحســن إلى قريش لتكــون له يدٌ عِندَ الغالب منهما، فـ﴿تَبَّتْ يَــدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ إخبارٌ ببطلان يده التي ادَّخرها عــند رسول الله ﷺ بعناده، ويــدُه التي عند قريش بهلاك قريش.

واليد على هذا الوجه بمعنى النِّعمة، ويجوز بقاؤها على أصلها.

وقيل: الأوَّل إخبار عن هلاك عمله إذ لم ينفعه، لأنَّ غالب الأعمال تعالج بالأيدي، والثَّاني إخبارٌ عن هلاك نفسه.

(1) البيت من الطويــل للنابغة الذبياني، وهو من الشــواهد. انظر: **إميل يعقوب**: معجم شــواهد اللغة، ج 6، ص 21.

رَدَّ الله ﷻ قوله: «أفتدي بمالي وولدي إن كان ما يقول محمَّد حقًّا» بقوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ...﴾ إلخ.

[نحو] «مَا» نافية، والمفعول به محذوف، أي: ما أغنى عنه ماله شيئًا، أي: ما دفع عنه ضرًّا عند توجُّه الهَلَاكِ إليه. أو استفهاميَّة واقعة على الضرِّ مفعول به مقدَّم، [أي:] أيَّ ضرٍّ أغنى عنه؟ أي: دفع عنه. أو واقعة على الإغناء مفعول، أي: أيَّ إغناء أغنى عنه، والمراد مَالُهُ الذي ورث.

﴿**وَمَا كَسَبَ**﴾ المال الذي اكتسبه بالتَّجر أو غيره. أو «مَالُهُ» أصل مالِه، و«مَا كَسَبَ» من ربح.

أو ما أغنى عنه ماله الموروث وماله المكسوب، هذا هو المراد بـ«ماله»، وقوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ معناه ما كسب من الكيد لرسول الله ﷺ. أو من عَمَلِهِ الذي يظُنُّهُ طاعةً تنفعُه، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [سورة الفرقان: 23].

والمراد: ماله الموروث والمكسوب وما كسبه من الولد، وكان يقول: «أفدي نفسي بمالي وولدي»، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أفضل ما أكلتم من كسبكم وإنَّ أولادَكُم من كَسْبِكُم**»[1]، كما في الترمذيِّ.

وكان له ثلاثة أولاد: عتيبة (بالتصغير) مات كافرًا وكان أصغرهم، وعُتبة أكبرهم، ومعتب أوسطهم، أسْلما يوم الفتح وشَهِدَا حُنَيْنًا والطائف، وسُرَّ ﷺ بإسلامهما ودعا لهما.

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الأحكام، باب أنَّ الوالِد يأخذ من مال ولده، رقم: 1358. من حديث عائشة.

[سيرة] وكانت أمُّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ عند عتيبة (بالتصغير)، وأختها رقيَّة عند أخيه عتبة قبل تحريم نكاح المسلمة للمشرك، وَلَمَّا نزلت السورة في ذَمِّ أبي لهب وولده عتيبة على أنَّه المراد بما كسب، عزم عليهما أن يطلِّقاهما ففعلا.

[سيرة] وقال عتيبة (بالتَّصغير): «يا محمد إنِّي كافرٌ بالنَّجم إذا هوى، وبالذي دَنا فَتَدَلَّى»، وثفل إليه ﷺ ولم تصبه، فقال: «**اللَّهمَّ سلِّط عليه كلبًا من كلابك**»[1]، وسافر مع أبيه إلى الشَّام، فنزلوا منزلا وقال لهم راهب هناك: هذه أرض مسبعة، فقال أبو لهب: «يا معشر قريش أغيثوني، خفت على ولدي دعاء محمَّد»، فجعلوه تحت جدار الرَّاهب، وأحاطوه بأنفسهم وإبلهم ليلاً فتلقَّفه سبع، فما سمعوا منه إلَّا صُيَاحَه، فهذا تباب ولده في الدُّنيا.

وأمَّا تبابه هو فيها فإنَّ الله ﷻ رماه بالعدسة[2] بعد بَدْر بسبع ليالٍ، فاجتنبه أهلُه، وكانت تُتَّقَى كالطَّاعون، وبقي ثلاثًا بعد موته لم يدفن، فأنتن وخافوا العار فاستأجروا بعض السُّودان فاحتملوه ودفنوه.

ويروى: حفروا له حفرة فألقوه فيها بالخشب، وقذفوه بالحجارة حتَّى واروه. وقيل: أسندوه لحائط وقذفوا عليه الحجارة من خلف حتَّى توارى.

ويجوز أن يكون «مَا كَسَبَ» شاملاً للجاه والمال.

[نحو] ويجوز أن تكون «مَا» مَصدَرِيَّة، والمراد: كسب المال أو الولد، كما في الحديث المتقدِّم. وأن تكون «مَا» نافية، أي: وما كسب شيئًا ينفعه عند الله ﷻ، أو استفهاميَّة.

---

(1) رواه **البيهقيُّ** في الكبرى، كتاب الحجِّ. باب ما للمحرم قتله من دوابِّ البرِّ، رقم: 9832. نقلاً عن المغازي.

(2) العدسة بثرة قاتلة تخرج كالطاعون، وقلَّما يسلم منها إنسان. **ابن منظور**: لسان العرب، ج 9، ص 81.



﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ عظيمةً، والسِّين للاستقبال، أخبرنا الله تعالى أنَّه يهلك في الدنيا ويهلك يوم القيامة بالنَّار، وزعم بعض أنَّ الاستقبال من المضارع، وأنَّ السين لتأكيد الوعيد. ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ اتِّقادٍ عظيم.

[نحو] ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ عطف على ضمير «يَصْلَى»، لا مبتدأٌ مخبَرٌ عنه بـ«حَمَّالَةُ» أو منعوت به والخبر الجملة بعده.

وإن كان الذمُّ بمجرَّد حمل الحطب أو النَّميمة بلا تصريح بدخول النَّار. وهي أمُّ جميل بنت حرب بن أميَّة، أخت أبي سفيان، عمَّة معاوية، وكانت عوراء.

[قصص] روى جعفر الصادق عن أبيه محمَّد الباقر ـ وهما من أهل البيت ـ أنَّ عقيل بن أبي طالب ـ وهو من أجداد ابن عقيل شارح الألفيَّة ـ دخل على معاوية، فقال معاوية: أين ترى عمَّك أبا لهب من النَّار؟ فقال: «إذا دخلتها فهو عن يسارك، مفترش عمَّتك حمَّالة الحطب، والرَّاكب خير من المركوب»!. وكان معاوية حليما جدًّا يتحمَّل، فإن صحَّ الخبر فلعلَّ «إذا» بمعنى إنْ الشرطيَّة، لكن من أين له أن يعلم أنَّه على يساره، وأنَّه فوقها؟! وكأنَّه فرض كلام في سرعة جواب، وانتقام في عجلة.

﴿حَمَّالَةُ الْحَطَبِ﴾ تحتطب سِرًّا وخفاءً عن النَّاس لِئَلَّا تعابَ، وكانت راغبة في المال، شحيحة عن أن تشتري أو تأجر، وإن اشترته حملته على ظهرها سرًّا، وكانت أيضا تضع شوك الحطب حزمة في طريق النَّبيء ﷺ فيلينه الله فلا يَضُرُّه، فذلك تعيير لها بالبخل.

وعن ابن عبَّاس: حمل الحطب عبارة عن المشي بالنَّميمة بين النَّاس، يقال: للنَّمَّام: يحمل الحطب بين النَّاس، فالحطب استعارة للنار.

[بلاغة] وقال الطبريُّ: الحطب الخطايا والذنوب، ومنها عداوة رسول الله ﷺ وعلى آله، كما يقول المظلوم للظالم: أحمل حَقِّي على ظهرك. فالاستعارة تمثيليَّة، أو مفردة باستعارة لفظ «الْحَطَبِ» للخطايا والذنوب، لأنَّ كُلًّا مبدأ للإحراق؛ نار الدنيا بالحطب، ونار الآخرة بالمعاصي.

[نحو] ﴿فِي جِيدِهَا﴾ خبر مقدَّم، أي: في عنقها ﴿حَبْلٌ﴾ مبتدأ مؤخَّر ﴿مِّن مَّسَدٍ﴾ نعت لـ«حَبْلٌ»، والجملة حال من ضمير «حَمَّالَةُ».

[لغة] والمسد: ما مُسِدَ، أي: فُتِلَ فَتْلاً شديدًا من ليف المَقْلِ، أو من أيِّ ليف كان، وهو أصحُّ، أو من ليف شجر باليمن يسمَّى: المسد، وقد يكون من جلد أو شَعر أو وبر.

وإنَّما حَسُنَ ذمُّها بحمل الحطب لأنَّه عِلاوةٌ على وَقَريْ ذُنُوبِها، ويجوز أن يكون بالمعنى: إنَّها في جهنَّم على صورة حَمَّالة الحطب في جيدها حبل من مسد، إلَّا أنَّ حطبها من نار شجر الزقُّوم أو من الضريع، وحبلها مِمَّا مُسِدَ من سلاسل النار، كما يعذَّب الجاني من جنس جنايته، فالحبل مستعار للسلسلة، تدخل السلسلة من فيها وتخرج من دبرها، وهي سبعون ذراعًا، ويلوى باقيها على عنقها.

ولم يقل: «في عنقها» لكثرة استعمال الجيد في مقام الزِّينة، فتَهَكَّمَ عليها بأنَّ زينتها حبل من مسد.

وقال: ﴿امْرَأَتُهُ﴾ لا زوجه تحقيرًا لها. وبُحِثَ بذكر «امرأة» في نحو قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ﴾ [سورة هود: 71]، و﴿امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾ [سورة آل عمران: 35]، ويجاب بأنَّ المقام لِلذَّمِّ فَنَاسَبَ ذِكْرُ «امرأة» لا ذِكْر «زوج».

وقيل: في عنقها جوهرة من أنواع الجواهر حلفت لَتُنفِقَنَّهَا في عداوة محمَّد. وقيل: قلادة من ودع. وقيل: خرزات، ففي عنقها في النَّار قلادة من حديد ممسودة.

وتضمَّن ذلك ذَمَّهَا بالبخل إذ كان لها هذا المال ولم تستغن عن حمل الحطب، وَمِمَّا يقال: ماتت مخنوقة بحبل حزمة الحطب؛ استراحت على حَجَر، وفي جيدها حبل رابط لحزمة الحطب، فجبذه مَلَكٌ من خلفها فماتت.

وتنكير «مَسَدٍ» للتَّنويع، أي: من مسدٍ من أنواع المسد.

والله أعلم.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم، ونَجَّانا من النار.



112

تفسير سورة الإخلاص

مكّيَّة وآياتها 4 ـ نزلت بعد سورة الناس

معنى أحاديث أنَّها ثلث القرآن، وحديث: «**إنَّ الله تعالى جزَّأ القرآن ثلاثة أجزاء، وسورة الإخلاص جزء**»[1] أنَّ ثوابَ قراءَتِها ثوابُ ثلث القرآن بلا تضعيف، أو أنَّها في صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والثُّلثان الآخران قصص وأحكام.

قيل: أو هي مَعْرِفَةُ ذاته تعالى، والثُّلثان الآخران معرفةُ أفعاله ومعرفة صفاته، وقيل: هي في تقديسه تعالى، والثُّلثان الآخران صفاتُه وأفعالُه.

وفي الحديث: «**من قرأها مائتي مرَّة مُحيت عنه ذنوبه خمسين سنة، إلَّا أن يكون عليه دين**»[2] وأنَّه: «**من نام على يمينه وقرأها مائة قال الله تعالى له: ادخل الجَنَّة عن يمينك**»[3]، وأنَّ رجلًا أحبَّها فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُبُّكَهَا أدخلك الجنَّة بفضله**»[4].

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾. رقم: 1923. عن قتادة عن أبي الدرداء.

(2) رواه **الترمذيُّ** في كتاب فضائل القرآن، باب سورة الإخلاص، رقم: 2898. من حديث أنس.

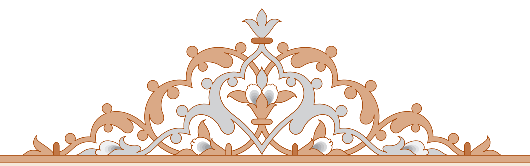
(3) أورده **السيوطي** في الدر، ج 6، ص 460 وقال: أخرجه الترمذيُّ وأبو يعلى ومحمَّد بن نصر وابن عديٍّ والبيهقيُّ في الشعب. من حديث أنس.

(4) رواه **البخاريُّ** في كتاب الصلاة، باب الجمع بين السورتين في الركعة والقراءة، رقم 741. من حديث أنس.

وفي الصَّحيحين عن عائشة رضي الله عنها: «إنَّ رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلة جمع كفَّيه، ثمَّ ينفث فيهما فيقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ والمعوِّذتين، ويمسح بهما ما استطاع من جسده»[1]، يبدأ من أمِّ رأسه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاثًا، **وكلُّ ما قيل في فضل هذه السورة فعند الله أكثرُ، وشأنه أكبرُ.**

[قلت:] وكلُّ ما قيل: مَنْ فَعَلَ أو صَلَّى كذا، أو قرأ كَذَا، أو تصدَّق بكذا، أو نحو ذلك غُفِرَ له، أَوْ لَه كذا مِمَّا يستغرب، فلا غرابة فيه، لأنَّ المعنى أنَّه يفعل ذلك مخلصًا، فيكون سببًا للتَّوبة من ذنوبه، فيصل لذلك الفضل، فَفِعْلُهُ ذلك مفتاحٌ.

(1) رواه **البخاريُّ** في كتاب فضائل القرآن (14) باب فضل المعوّذات، رقم 5017. ورواه **الترمذيُّ** في كتاب الدعوات (21) باب ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام، رقم 3402. من حديث عائشة.



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾

إخلاص التوحيد وتنزيه الله ﷻ

[نحو] ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ «هُوَ» ضمير الشأن، يُذْكَرُ تفخيمًا للأمر على الإجمال والإبهام، فيكون الذِّهن مترقِّبًا لبيانه، فيُذكَرُ الخبر المفسِّر له والذِّهن قد استعدَّ لفهمه، فيتمكَّن من فهمه، والجملة خبره.

وهذا المعنى موجود، ولو قلنا جرى سؤال: ما ربُّك؟ ومن أيِّ شيء؟ فكان «هُوَ اللهُ أَحَدٌ» جوابَهُ، إلَّا أنَّ المتبادر في مراعاة هذا السؤال أن تقول: «هُوَ» عائد إلى الرَّبِّ المسؤول عنه، فخبره مفرد هو لفظ الجلالة، و«أَحَدٌ» خبر ثان.

[سبب النزول] ففي البخاريِّ والترمذيِّ عن أُبيِّ بن كعب أنَّ المشركين قالوا للنَّبيء ﷺ: «انسب لنا ربَّك» فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ...﴾ إلخ. وفي الطبريِّ والطبرانيِّ: قال له أعرابيٌّ: أنسب لنا ربَّك، فنزلت السُّورة.

ويروى أنَّ عامر بن الطُّفيل وأربد بن ربيعة قالا لرسول الله ﷺ: إلى ما تدعونا يا محمَّد؟ قال: «إلى الله» قال: صفه لنا، أَمِنْ ذهبٍ أو فضَّة أو حديد أو خشب؟ فنزلت السُّورة، فأهلك الله تعالى أربد بالصَّاعقة، وعامرًا بالطَّاعون.

وعن ابن عبَّاس: قال كعب بن الأشرف وحييُّ بن أخطب وغيرهما من اليهود: يا محمَّد، صِفْ لنا ربَّك الذي بعثك، فنزلت السورة.

[أصول الدين] و«اللهُ» عَلَــمٌ على واجب الوجود، ويقال: عَلِمَ اللهُ نَفْسَــهُ فوضع لفظًا له بخصوصه، هذا مذهبنا.

[صرف] وهمزة «أَحَــدٌ» عن واو، وقلب الواو المفتوحة همزة شــاذٌّ، فاللَّفظ فصيح استعمالاً شــاذٌّ قياسًــا، بخلاف «أَحَدٌ» الملازم للنفي غالبا فهمزته أَصليَّة.

وقيل: الهمزة في «أَحَدٌ» في الآية أَصلِيَّة، والفرقُ ـ بلزوم النفي وعدمه والملازم للنفي ـ الاستغراقُ.

وقيل: أصل «أَحَدٌ» في الآية واحِد (بالألف وكسر الحاء) قلبت الواو ألفًا فحذفت إحدى الألفين، وفتحت الحاء.

[لغة] وفرَّق ثعْلب بأنَّ أحدًا لا يبنى عليــه العدد ابتداءً، فلا يقال: أحد واثنان وثلاثة، كما يقال: واحد واثنان وثلاثة، ولا يقال: رجل أحد كما يقال: رجل واحد، ولذلك اختصَّ به سبحانه وتعالى.

وفرَّق بعض بــأنَّ الأحد في النَّفي نَصٌّ في العمــوم، بخلاف الواحد فإنَّه يحتمل العموم وغيره، فيقال: ما في الدار أحدٌ، فلا يقال: بل اثنان، ويقال ما في الدَّار واحد بل اثنان.

وقيل: الأحديَّة لا تحتمل الجزئيَّة والعدديَّة بحال، والواحديَّة تحتملهما، يقال: مائة واحدةٌ وألف واحدٌ، ولا يقال: مائة أحدٌ ولا ألفٌ أحدٌ، فإنَّ قال لأزواجه: والله لا أقرب واحدة منكنَّ صار مُوليًا منهنَّ، أو لا أقرب إِحْدَاكُنَّ صار موليًا من واحدة، فيُدَيَّنُ إلى قصده ونيَّته.

وقيل: الأَحَديَّة لتفرُّد الذات، والواحديَّة لنفي المشاركة في الصِّفات، وقيل بالعكس، وكلاهما لله، فيقال: الواحد الأحد، وهما في حكم اسم واحد.

[أصول الدين] وفسَّر ابن عبَّاس «أَحَدٌ» بالواحد، كما قرأ الأعمش: «قُلْ هُوَ اللهُ الوَاحِدُ»، وفسَّره بما لا يتجزَّأ ولا ينقسم، فالله واحد في كلِّ وصف، لا يقال: جسم ولا عرض ولا جوهر، ولا غير ذلك. ولا يجمعه وغَيْرَهُ شيءٌ، حتَّى الوجود، فوجوده غير وجود غيره، فهو واحد من جميع الوجوه، ولا يطلق أحدٌ في غير النَّفي وغير العدد إلَّا على الله ﷻ.

[فلسفة] والواحد إمَّا حقيقيٌّ بأن امتنع انقسامُه بوجه مَّا، كالباري ﷻ، وإمَّا واحد بالشخص بأن امتنع حملُه على متعدِّدٍ كزيد، وإمَّا واحد بالجنس، بأن لم يمتنع حملُه على كثيرين كالحيوان، فهو واحد من وجه، كثير من وجه.

وإمَّا واحد بالنَّوع، بأن كان نفس الماهية المعروضة للكثرة، كالإنسانيَّة لزيد وعمرو. وإمَّا واحد بالفصل، بأن كان جزءَ ماهيَةٍ واحدة مميّزًا لها، كالناطق المتَّحد فيه زيد وعمرو.

وإمَّا واحد بالعَرَض، وهو قسمان: واحد بالمحمول بأن كانت جهة الاتِّحاد محمولة فيه على متعدِّد، كاتِّحاد البياض في حمله على الثَّلج والقطن، وواحد بالموضوع بأن كانت جهة الاتِّحاد موضوعة للمتعدِّد الموضوع، كاتِّحاد الإنسان للضاحك والكاتب، وحمله عليه، ويسمَّى الأوَّل واحدًا بالمحمول، والثَّاني واحدًا بالموضوع.

[فلسفة] ثمَّ الواحد بالشخص إن قَبِلَ القسمةَ، إمَّا واحد بالاتِّصال، بأن كانت أقسامه متشابهة بالاسم والحدِّ، بأن قَبِلَ القسمة لذاته كالمقدار، أو لغيره كالجسم البسيط، فإنَّه يقبلها بتوسُّط المقدار، وإمَّا واحد بالاجتماع بأن كانت أقسامه الحاصلة له بوصف أقسام مختلفة، كالبدن المنقسم إلى الأعضاء المختلفة، ويسمَّى أيضًا واحدًا بالتركيب.

﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ مبتدأ وخبر بالحصْرِ، أي: لَا صَمَدَ إلَّا اللهُ ﷻ، وهو السيِّد الذي لا أحد فوقه، فهو الـذي يُقْصدُ إليه في الحوائج، فهـو الذي انتهى إليه السؤدد، وكمل في شرفه، ولا يحتاج إلى غيره.

يقال: صمده وصمد له وإليه والمعنى: المصمود إليه. ولا يصحُّ تفسيره بمن لا تعتريه الآفات، إلَّا عَلى معنى أنَّه فوق كُلِّ أحد، فكيف يصيبه غيره بِضُرٍّ، وإلَّا فهو تفسير بالواقع لا تفسير باللُّغة.

وقيل: الذي لا عيب فيه، وقيل: الكامل في جميع أفعاله وصفاته.

ومن تفسيره بالمعنى الواقع أنَّه الباقي بعد خلقه، وعليه قتادة، ومثله قول معمر بن المثنَّى[1]: معناه الدَّائم، وقول بعض: لا يبلى ولا يفنى، وقول بعض: إنَّه الذي لا تعتريه الآفات، ولا تغيِّره الأوقات، وقول بعض: إنَّه الذي ليس له زوال، ولا لملكه انتقال.

وعن أبيِّ بن كعب: «الصَّمَدُ»: الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَـمْ يُولَدْ﴾، لأنَّ من يولد سيموت، ومن يموت يورث منه. وقال ابن عبَّاس في رواية وجماعة: «الصَّمَدُ»: الذي لا جوف له، ووجهه أنَّ الصمد الشـيء الصلب الذي لا رخاوة فيه، ولا رطوبة، ولا خلوة، فليس بأجوف، فلا يأكل ولا يشـرب، فهو الغنيُّ، بخلاف عيسـى وأمِّه فإنَّهما يأكلان الطَّعام. وقيل: يفعلُ ما يشـاءُ ويحكم ولا معقِّب لحكمه، والصحيح ما ذكر أوَّلاً.

ويجوز إطلاق السيِّد على الله ﷻ، وقيل: لا يطلق مضافًا لمخصوص، مثل: سيِّد الملائكة، ويجوز: السيِّد، وسيِّد الخلق، وسيِّد ما سواه.

---

(1) أبو عبيدة معمر بن المثنَّى التميميُّ مولاهم البصريُّ النحويُّ، ولد سنة 110هـ في الليلة التي تُوُفِّيَ فيها الحسـن البصريُّ. حدَّث عن هشـام بن عروة ورؤبة بن الحجاج وأبي عمرو بن العلاء، حدَّث عنه عليُّ بن المديني وغيره. تُوُفِّيَ سنة 210هـ. له كتاب «مجاز القرآن». انظر: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 341.

وقال: ﴿اللَّهُ الصَّمَـدُ﴾ ولم يقل: وهو الصمد، ليكـون المعنى: إنَّ من لم يتَّصف بالصمديَّة لم يستحقّ اسم الأُلُوهِيَّة، كما تقول: العالِمُ هو العامل، أي: يستحقُّ اسم عالم من يعمل بعلمه لا غيرُه.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ليس متَّصفًا بالولادة فيما مضى كما زعمت اليهود عزير ابن الله، والنصارى المسيح ابن الله، والمشركون الملائكة بنات الله، كما لا يتَّصف بها في الحال أو في المستقبل.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لا يصحُّ هنا إلَّا المضيّ، لأنَّ الموجود لا يتوهَّمُ أحدٌ أنَّه يولد في الحال، ولا في المستقبل، لأنَّ الولادة تستدعي التحيُّز والحلول والتركيب والمشاهدة والملاقاة والحدوث والتجزُّؤَ وانفصال شيءٍ عنه، ولأن الولد من جنس أبيه، ولا جنس له تعالى، لأنَّه قديـم. وأيضًا الولادة للخلافة عن الأب والإعانة، والله ﷻ لا يموت، ولا يحتاج إلى الإعانة.

وصفة الولادة تنافي الأَحديَّة والصمديَّة. وكان النفي بالمضيِّ لمضيِّ دعوى اليهود والنصارى في الـولادة. ولم يكن بصيغة الحال أو الاسـتقلال لأنَّه لا مدَّعيَ أنَّه يلد في الحال أو المستقبل.

والمولوديَّة تسـتدعي الحدوث والانفصال، والحدوثُ وجميعُ ما مرَّ في الوالديَّة تعالى الله عنهما.

[قلت:] ولا مدَّعِيَ أنَّه مولودٌ، ولكن نَفَاها استكمالاً لجانب نفي الولادة، ولأنَّ من شـأن الوالد أن يكـون مولودًا، ومـن أثبت الوالديَّة لـزم أنَّه أثبت المولوديَّة، ولأنَّ المولود له والد، ولأنَّ النصارى قالوا: المسيح مولود، وإنَّه إله تعالى الله، والمولود لا يكون إلهًا.

[نحو] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا اَحَدٌ﴾ «لَهُ» متعلِّق بـ«يَكُنْ»، أو بمحذوف حال من «كُفُؤًا»، و«كُفُؤًا» خبر مقدَّم، و«أَحَدٌ» اسم «يَكُن».

وأخِّر «أَحَدٌ» للفاصلة، ولأنَّ المقصود بالذات نفي المكافأة عن الله تعالى، ولذلك قُدِّم «لَهُ» عن «كُفُوًا» إذا قلنا: إنَّه حال من «كُفُوًا»، لأنَّ المقصود بالذَاتِ النفي عن ذاته تعالى.

[قلت:] والذي أختاره جواز التَّعليق بِـ«كَانَ»، وأنَّ لها دلالةً على الحدث.

وإن وقف القارئ على ﴿يَكُن﴾ واستأنف ﴿لَّهُ كُفُوًا اَحَدٌ﴾ كان لفظه إشراكًا مرَّتين، مرَّة بقوله: ﴿لَمْ يَكُن﴾، فإنَّه نفي لوجوده تعالى، ومرَّةً بقوله: ﴿لَهُ كُفُوًا احَدٌ﴾ لأنَّه إثبات الكفؤ له تعالى. والكفؤ: المماثل المساوي.

وكان العطف في الجملتين على التــي قبلهما، لأنَّ الثلاث لمعنى واحد، وهو **نفي المماثلة والمناسبة عن الله تعالى بوجه مَّا**، ونفي ما تضمَّنته أقسامُها، لأنَّ المماثل إمَّا ولد أو والد أو نظير غيرهما، فلتغاير الأقســام واجتماعها في المقسوم لزم العطف بالواو.

وقوله: ﴿هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ﴾ بيان للــذَّات الواجب [الوجود] ما هو، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا اَحَدٌ﴾ بيان أنَّه ليس له ما يساويه من نوعه أو جنسه، تعالى عن النَّوعية والجنسيَّة، لا بأن يكون مَولودًا ولا بأن يكون متَوَلِّدًا عنه، ولا بأن يكون مقابلاً في الوجود، سبحانه لا إله إلَّا هو الملك الحيُّ القيُّوم ذو الجلال والإكرام.

قال الله ﷻ: «**كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إيَّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أوَّل الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأمَّا شــتمه إيَّاي فقوله: اتَّخذَ اللهُ ولدًا وأنَّا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤًا أحد**»(1).

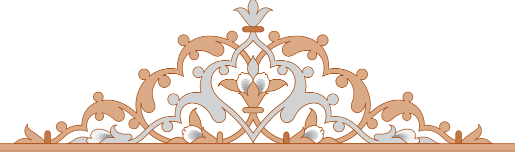
وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

(1) تقدَّم تخريجه انظر ج 10 ص 179.

113

تفسير سورة الفلق

مكِّـيَّة وآياتها 5 ـ نزلت بعد سورة الفيل



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿1﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿2﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿3﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿4﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿5﴾﴾

الاستعاذة من شرِّ المخلوقات

﴿**قُلْ أَعُوذُ**﴾ ألْتَجِئُ ﴿**بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ «الْ» للاستغراق و«الْفَلَق» بمعنى مفعول، على الحذف والإيصال، والمعنى: المفلوق عنه، ومن ذلك ـ بلا حذف وإيصال ـ قَصَصٌ بمعنى مقصوص. أي: ربّ المخلوقات كُلِّها، والعدم كالشيء المغطّي لها، شقَّهُ اللهُ فأوجدَهُنَّ في الماضي، ويُوجدهنَّ في الحال والاستقبال، أجساما وأعراضًا.

وكلُّ موجود **فلقه الله من العدم حال خلقه،** فلق الله العرش أخرجه عن العدم، وفلقَ الله السماوات والأرضين أوجدهُنَّ عن العدم، ثمَّ فلق الأرض عن النَّبات والعيون، وفلق الجبال عن الشجر والعيون.

وقد قيل: الفلقُ الخَلْقُ، أي: أعُوذُ بربِّ جميع المحدَثات. وفلق الله الإنسان عن أفعاله، أي: أصدرها منه، أي: خلقها، وفلق الصباح عن الليل،

ويقال: فلق اللَّيلَ عن الصبح، كما يقال: سلخت الجلد عن الشاة، والشاةَ عن الجلد.

وروي موقوفًا عن ابن عبَّاس: الفلقُ جُبٌّ في جهنَّم، وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي مرفوعًا: «**سجنٌ في جهنَّم يُحْبَسُ فيه المتكبِّرون والجبَّارون، وإنَّ جهنَّم لتعوذُ مِنْه بالله تعالى**»[1].

وعن عمر ابن عنبسة[2] مرفوعًا أيضًا: «**الفلقُ بئرٌ في جهنَّم، فإذا سُعِّرت البئر سعِّرت منها جهنَّم، وإنَّ جهنَّم تتأذَّى منه ما يتأذَّى ابن آدم من جهنَّم**»[3].

وعن كعب موقوفًا: «بيت في جهنَّم إذا فتح صاح أهل النار من شدَّة حرِّه». وعن الكلبيِّ: واد في جهنَّم. وقيل: هو جهنَّم. قيل: خُصَّ الفلق ـ على معنى البيت أو البئر في النار ـ بالذِّكر لأنَّه مسْكن اليهود.

رأى بعض الصحابة سعة عيش أهل الذِّمة في الشَّام، فقال: لا أبالي أليس وراءهم الفلق؟ وفسِّر بأحدهما وناسب سحر اليهود له ﷺ في بئر دروان، **والصَّحيح التَّفسير الأوَّل بالعموم.**

[نحو] ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ الشرُّ هنا المضرَّة، فهو اسم غير وصفٍ، وإضافته للاستغراق، و«مَا» اسم موصوف، والرَّابط محذوف، أي: ما خلقه.

[قلت:] ولا حاجة إلى جعلها مَصدَرِيَّة، لأنَّ هذا المصدر لا يبقى على حاله،

---

(1) أورده **السيوطيُّ** في الدرِّ، ج 8، ص 688، وقال: أخرجه ابن مردويه والديلمي. من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(2) هو عمرو بن عنبسة بن خالد بن حديقة، أبو نجيح السلمي البجلي، الإمام الأمير، أحد السابقين إلى الإسلام، هاجر بعد أحد روى الحديث وكان من أمراء الجيش يوم وقعة اليرموك توفي حوالي 60هـ. الحمصي، تهذيب سير أعلام النبلاء: ج 1 ص 734.

(3) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج 30، ص 280. وقال: أخرجه ابن مردويه، عن عمرو بن عنبسة. والله أعلم بصحَّة هذه الروايات.

بل يُؤوَّلُ باسم مفعول هكذا: من شرِّ خَلْقِه، أي: من شرِّ مخلوقه، ومخلوقه هو نفس ما خلقه، فمصدريَّتها تكلُّفٌ لا داعي إليه.

وإن قيل: الخلق يطلق على معنى المخلوق في كثير من العبارات هكذا، لأنَّه موضوع له بلا ملاحظة أنَّه مصدر بمعنى مفعول، كالمصادر التي تغلَّبت عليها الِاسمِيَّة، قلت: المصدر الذي يُدَّعى هُنا يكون على أصله، وإلَّا لم يَكُن لكون «مَا» مصدرية معنًى.

وشَرُّ مَا خَلَقَ: مضرَّة الدنيا والدِّين، ومضرَّة القبر والبعث والموقف والنار، وشرُّ النفس والإنس والجنِّ، والدَّوابِّ والطير، والذنوب، والخسف والغرق والصاعقة وغير ذلك، والحفرة ونار الدُّنيا ممَّا جاء على يد الملائكة أو غيرهم، وشرُّ الليل وشرُّ النَّفث، وشرُّ الحسد، المذكوراتُ بعدُ تخصيصًا بعد تعميم.

[فقه] وقد أمرنا بقتل الدوابِّ المؤذية، ولا يجوز مسالمة الحيَّة والعقرب ونحوهما بِرُقْيًا ولا بغيرها، ولا سيما إن كانت الرُّقيا بما لا يجوز.

[قلت:] ومن يسترقي للعقرب مثلاً فيقبضها ولا تضرُّه فقد فعل مُحرَّمًا من جهة أنَّه سالم ما أمر بقتله، والواجب عليه قتلها، ومن جهة أنَّه استرقى بما لا يعرف معناه، أو عرفه وليس اسمًا لله ﷻ.

وأجاز بعض أن يكون «شَرُّ» اسْم تفضيل، ويراد إبليس، لأنَّ السحر لا يَتِمُّ إلَّا بِهِ وبجنوده، لأنَّ كلَّ مضرَّة دِينِيَّة هو السَّبب لها، وكذا كثير من المضارِّ الدُّنيَوِيَّة. و[قيل:] كلُّ مضرَّة دُنيَوِيَّة أتت عقابا على أمر دينيٍّ، وقيل: المراد المضارُّ الدُّنيَوِيَّة.

﴿**وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ**﴾ ليل، استعملت النكرة في العموم هنا بلا تقدُّم سلب.

وذِكْرُ ﴿شَرِّ غَاسِقٍ﴾ بَعْدَ ﴿شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ تخصيصٌ بعد تعميم، لكثرة حضور اللَّيالي، وتلويحٌ إلى أنَّه ينبغي التَّخصيص لِمَا هو أهمُّ في الدُّنيا بعد التَّعميم، وذلك أدْعَى إلى الإجابة.

[لغة] والغَسَقُ: السَّيلانُ أو الامتلاءُ، كأنَّ زمان الليل ممتلئ ظلمةً، والظلمة تسيل وتنصبُّ كما ينصبُّ الماء، على الاستعارة. وغسقت العينُ: امتلأت دمعًا.

وأضاف الشرَّ إلى الليل لوقوعه فيه، وذلك مرويٌّ عن ابن عبَّاس: «إنَّ الغاسق الليل»، وهو قول مجاهد والحسن، وكذا قال الزَّجاج: إنَّه الليل، إلَّا أنَّه لم يقل: من معنى الامتلاء أو السَّيلان، بل من معنى البُرُودة، والليل أبردُ من النَّهار.

وقال محمَّد بن كعب: الغاســق النَّهار، وقيل: اللَّيــل إذا أقبل بظلمته من الشــرق، وقيل: القمر ليلة أربعة عشــر، لامتلائه نورًا من نور الشمس وأصله مظلم، وقيل: القمر مطلقًا لسيلانه، أي: سيره سريعًا في قطع البروج.

لَمَّا طلع القمر قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة استعيذي بالله من شرِّ هذا الغاسق، فإنَّه هو الغاسق إذا وقب**»[(1)] كما في الترمذيِّ، وإذا صحَّ الحديث لم يعدل عنه.

وقيل: الغاسق الشَّمس، لامتلائها نورًا، وقيل: الغاسق الثريَّا، وقيل: الحيَّة، ولكلٍّ من ذلك شــرٌّ. أمَّا الليل فلأنَّه يصاب فيه بذوات السموم، أو شوكة أو حفرة وغير ذلك، ومن أمثال العرب: «الليل أخفى للويل»، وأيضًا هو نحس عند المنجِّمين.

والقمر أنسب لسبب النزول، وشرُّ الشمس المَضَرَّةُ اللاحقة منها بحرارتها، والأسقام تكون عند سقوطها، وعنه ﷺ: «**إذا طلع النجم ارتفعت العاهة**»[(2)]، وفي رواية «**عن جزيرة العرب**»[(3)]. وروي مرفوعًا: «**إذا طلع النجم ارتفعت العاهات**» أو «**خفَّت**». وشرُّ الحيَّة اللَّذغ، وهي ممتلئة سمًّا، فالسمُّ يسيل منها في الجسد.

---

(1) رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفسير (94) باب ومن سورة المعوِّذتين، رقم 3366 و**الحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير (113) باب تفسير سورة الفلق، رقم 3989 (1127). من حديث عائشة. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(2) أورده **السيوطيُّ** في الدر، ج 6، ص 368. وقال: أخرجه أبو الشيخ، عن أبي هريرة.

(3) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، مج 10، ص 361. بدون تخريج.

﴿إِذَا وَقَبَ﴾ وقوب الليل دخولُ ظلامه في كلِّ شيء، ووقوب النهار دخوله في الليل، ووقوب القمر دخوله في الخسوف، وله ظلمة حينئذ، أو في الغيوبة، أو في المحاق آخر الشهر، وفي ذلك الوقت يتمُّ السحر المؤثِّر للمرض، والسورة جاءت فيه، ووقوب الثريَّا سقوطها، ووقوب الحيَّة لذغها.

﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ النفوس النفَّاثات، فيشمل نفوس الرجال والنساء، وزعم بعض أنَّ المراد بنات لبيد إذ سحرن رسول الله ﷺ خُصُوصًا، ويلحق بهنَّ غيرهنَّ، وليس كذلك.

والنفث يكون من الرجال والنساء، فهو أولى لعمومه، بخلاف من قدَّر: «النساء النفَّاثات»، فإنَّه مختصٌّ بالنساء، وإنَّه أنسب بالواقع، فإنَّ المشهور أنَّه سحره رجل، ويقال: أعانه بعض النساء.

ولأنَّ السحر من النفوس الخبيثة، فتقدَّر النفس، وإذا قدَّرنا «النفس» فلا تغْليب، كما زعم بعض أنَّ المراد هنا العموم للرجال والنساء، وأنَّ النساء غُلِّبن هنا على الرِّجال، كما يغلب جمع الذكور على جمع الإناث في الصفات، إلَّا إنْ أراد قائلُه بالتغليب: إنَّه أريد النساء، وإنَّه لم يذكر الرجال لأنَّهنَّ أعظم سحرًا.

[فقه] والنفث: النفخ مع ريق قليل، وقيل: بلا ريق وأمَّا مع ريق فثفلٌ، وذلك جائز في الصَّلاح، كما كان ﷺ ينفث على أهله إذا اشتكوا بالمعوِّذات، فالجمهور من الصحابة وغيرهم على جَوازِه، وكره عكرمة النفث والمسح والعقد، وأنكر جماعة الثفل والنفث، وأجازوا النفخ بلا ريق.

[سيرة] ويروى أنَّ لبيد بن الأعصم وبناته لعنهم الله سحروا رسول الله ﷺ حتَّى إنَّه لَيُخَيَّل إليه أنَّه فعل شيئًا ولم يفعله، وأنَّه أتى أهله ولم يأتهنَّ.

[قلت:] ولا يقدح هذا في النبوءة، لأنَّه حَالَ الوحيِ وإقامةِ الحُجَّةِ والتبليغ حاضرُ العقل، وهذا أمر حادث شاذٌّ، وما هو إلَّا كمرض شديد ونوم، وتكلَّف بعض أنَّه كان التخييل على بصره لا على قلبه.

قال ابن عبَّاس وعائشة: كان غلام من اليهود يخدم النبيء ﷺ، فلم تزل به اليهود حتَّى أخذ من مُشَاطَةِ رأس رسول الله ﷺ، وعِدَّةٍ من أسنانِ مُشْطِه، فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وتولَّى ذلك لبيد بن الأعصم، فنزلت السورتان المعوِّذتان. ويروى أنَّه لبث سِتَّة أشهر، واشتدَّ عليه ثلاث ليالٍ، فنزلت المعوِّذتان.

وفي الصَّحيحين عن أبي سعيد الخدريِّ أنَّ جبريل عليه السلام أتى النبيء ﷺ فقال: يا محمَّد أشتكيت؟ فقال: نعم، قال: «**قل: بسم الله أرقيك، من كلِّ شيء يؤذيك، ومن شرِّ كلِّ نفس أو عين حاسد، اللهُ يشفيكَ، بسم الله أرقيك**»[1].

ويروى أنَّه أرسل عليًّا فجاء بذلك من البئر إليه ﷺ، فلم يحضر ﷺ معه، فإمَّا أنَّه قصَّة أخرى غير التي ذكروا أنَّه حضر عند البئر، وإمَّا أنَّها واحدة والمعنى: أنَّه جاءه بذلك من أسفل البئر، أي: جانبه فوق.

وروي أنَّه دعا الله ثمَّ دعا، فجاءه جبريل وميكائيل، فكان أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، أي: مسحور، قال: من طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أيِّ شيء، قال: في مشط، أي: آلة المشط، ومشاطة، أي: ما يسقط بالمشط، أو يتعلَّق بالآلة، وجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ في بئر ذَرْوَان، أو في بئر ذي أروان، ويروى: في بئر بني زريق[2].

فلمَّا أصبح غدا مع عليٍّ والزبير وعمَّار، أو أرسَلَهُم ثمَّ تبعهم، فدخل رجل فاستخرج جفَّ طلعة من تحت الراعوفة، وهي صخرة في قعر البئر، فإذا فيها

---

(1) رواه **الربيع** في كتاب الأذكار (21) باب في الدعاء، رقم 495. من حديث عبادة بن الصامت. **والحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير (113) باب تفسير سورة الفلق، رقم 3391 (1129) من حديث ابن عبَّاس.

(2) **البخاري**، كتاب الدعوات باب تكرير الدعاء، رقم: 6028. من حديث عائشة.

مشط رسول الله ﷺ، أو أسنان مشطه، ومن مشاطة رأسه، وإذا تمثال رسول الله ﷺ عليه من شمع، وفيه إبر غرزت، وإذا وَتَر، أي: خيط فيه إحدى عشرة عقدة، فنزل جبريل بالمعوِّذتين.

فقال: يا محمَّد قل: ﴿قُلَ اَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وحلَّ عقدة، ثمَّ ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وحلَّ عقدة، حتَّى فرغ منهما وحلَّ العقد، وما نزع إبرة إلَّا وجد لنزعها ألمًا تعقبه راحة، حتَّى فرغت السورتان والعُقَد، فكأنَّما نشط من عقال.

وقال ﷺ: كأنَّ ماءها نقاعة الحناء، وكأنَّ نخلها رؤوس الشياطين، وأمر بما استخرجوا فدفن، وقالت عائشة: «يا رسول الله أفلا أحرقت لبيدًا؟» قال: «**لا، قد عافاني الله، ولا أثير شرًّا على الناس وما يراه من عذاب الله تعالى أشدُّ**»[1].

﴿**وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ**﴾ في قلبه ﴿**اِذَا حَسَدَ**﴾ أي: إذا عمل بحسده، كدعاء بسوء، وشتم وضرب، أو ضرٍّ من الأضرار إذا عمله بقلبه أو جارحته، وسحر كما سحر اليهود رسول الله ﷺ، إذ حسدوه، كما قال ﷺ: «**إذا حَسَدْتَ فلا تَبْغِ**»[2]. ومن العمل أن ينظر إليه نظر سوء لبغض، فقد يؤثِّر فيه نظره حتَّى يهلكه، أو دون الإهلاك.

ولا تأثير لسحر أو فعل حاسدٍ إلَّا بإذن الله تعالى، وقد يؤثِّر النظر إلى بعض الحيَّات مَضَرَّة، وكذا العائن يضرُّ بإذن الله تعالى، وكلاهما تتكيَّف نفسُه وتتَوَجَّهُ نحو من أراد ضرَّه، والعائن قد يَعِينُ من لا يحسده، ويعين من حضر ومن غاب كالحاسد، وقيل: يختصُّ بالحاضر. والحسد ضروريٌّ[3] لا مؤاخذة عليه، حتَّى يعمل به.

---

(1) روي ما يقاربه في رواية البخاري المذكورة قبلُ.

(2) رواه **الربيع** في كتاب الأدب (51) باب جامع الآداب، رقم 701. كما رواه **ابن عديٍّ** في الكامل. من حديث أبي هريرة.

(3) أي: طبعي غير كسبي، وفيه نظر؛ لأن من الممكن تجنُّب أسبابه. تأمَّل. (المراجع).

و[الحسد] هو تمنِّي الإنســان زوال النِّعمة على المنعَم عليه بها، بانتقالها إليه، أو إلى غيره، أو بلا انتقال. وهذا حدٌّ غَيْــرُ جامع، لأنَّه يبقى ما إذا تمنَّى بقاء إنسان مثلاً على حاله التي فَقَدَ فيها شيئًا من النعم، كتمنِّي دوام مَرَضِهِ أو دوام فقــره، ولا يدخل هذا في الحــدِّ المذكور إلَّا بتكلُّــف إرادة عدم النعمة المترقَّبة التي رجاؤها نعمة متوقَّعة، بل لا يتمُّ هذا جوابا.

والسِّــحر شــيء له حقيقةٌ، ذُكر في القرآن والحديث أنَّه تعلَّمه من تعلَّمه لا خيالٌ، كما زعم من نَفَاهُ، والله خَلَقَه، وإنَّما يؤثِّر بإذن الله تعالى، ولا يقدح في النبوءة، لأنَّ لها دلائل ومعجزات، وليس يؤثِّر في نبيء قبل المعجزة، ولا في حال الوحي.

[فقه] والرُّقَى بالقرآن وألفاظ الحقِّ جائزة، ويجب اجتناب ما لا يُعرف له معنًى من ألفاظ أو نقوش لعلَّ فيه كفرًا، قال رسول الله ﷺ لابن مسعود رضي الله عنه: «**اقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ﴾ والمعوّذتين حين تصبح وحين تمسي تُكْفَ كلَّ شيء**»[1]. وقال: «**ما تعوَّذ الناس بأفضل من المعوّذتين**»[2].

وفي الترمذيِّ أنَّ رســول الله ﷺ كان يتعوَّذ بقوله: «**أعــوذ بالله من الجانِّ وعين الإنسان**»[3]، وَلَمَّا نزلت المعوّذتان أخذ بهما وترك ما سواهما.

---

(1) رواه **النســائيُّ** في كتاب الاستعاذة (1) باب الاســتعاذة، رقم 5443. ورواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم 5082 مطــوَّلا. من حديث معاذ بن عبد الله عن أبيه.

(2) هذا جزء من حديث رواه **النسائيُّ** في كتاب الاســتعاذة (1) باب الاستعاذة، رقم 5444. من حديث معاذ عن أبيه أيضا. وأوَّله قوله: «كنت مع رســول الله ﷺ في طريــق مَكَّة، فأصبت خلوة مع رســول الله ﷺ، فدنوت منه فقال: قل، فقلت: ما أقول؟ قال: قل، قلت: ما أقول؟ قال: ﴿قُلَ اَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ...﴾ حتَّى ختمها...».

(3) رواه **الترمذيُّ** في كتاب الطب، باب الرقية بالمعوِّذتين، رقم: 2058. من حديث أبي سعيد.

وفي حديث الربيع بن حبيب ومالك في الموطَّأ: «كانت عائشة ﵂ ترقي رسول الله ﷺ وتمسح جسده بيديه للبركة لا بيديها»(1).

وفي الترمذيِّ عن خزامة سألت رسـول الله ﷺ: أريت رقًى نسترقي بها، ودواء نتداوى به، وتقاةً نتَّقي بها، هل تردُّ من قَدَر الله تعالى شـيئًا؟ قال ﷺ: «**هي من قدر الله تعالى**»(2).

وختم ما في السورة من الأسـواء بالحسد ليُعلم أنَّه شَرُّها، وهو أوَّلُ ذنب عُصِيَ اللهُ تعالى به في السَّماء من إبليس، وفي الأرض من قابيل.

اللَّهمَّ باسمك الأعظم عندك استجب دعائي وتقبَّلْ مِنِّي هذا الكتاب.

والله الموفِّق، وهو المستعان.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



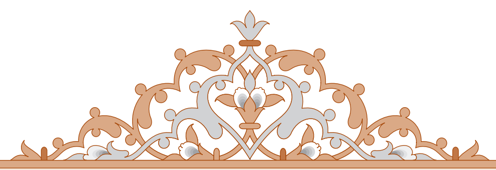
(1) رواه **الربيع** في كتاب الأشـربة، بـاب في الحمى والوعـك، رقـم: 648. ورواه **مالك** في الموطأ، كتاب الجامع، باب التعوُّذ والرقية من المرض، رقم 3471. من حديث عائشة.

(2) رواه **الترمذيُّ** في كتاب القدر (12) باب ما جاء لا تردُّ الرقى ولا الدواء من قدر الله شيئا، رقم 2148. من حديث ابن أبي جزامة عن أبيه.

114

تفسير سورة الناس

مكِّـيَّة وآياتها 6 ـ نزلت بعد سورة الفلق



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَٰهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾

الاستعاذة من شرِّ وسوسة شياطين الإنس والجنِّ

﴿**قُلَ اَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ مالِكِهِم ومالك أمورهم، فهو الذي تَوَلَّى إفاضة النِّعم عليهم، وإذْهابَ المضَرَّاتِ، لأنَّ المالك يقوم بأمر عبده.

﴿**مَلِكِ النَّاسِ**﴾ هو بالمعنى الأوَّل تأكيد لفظيٌّ له، كقولك: قعد جلس، أو «رَبِّ النَّاسِ»: مُرَبِّيهم، و«مَلِكِ النَّاسِ» ملك ذواتهم وأحوالها، أو «رَبِّ النَّاسِ» سيِّدهم، وقد يكون السيِّد غير مالك كما يسود السلطان على الناس، وليسوا مماليك له. و«مَلِك» صفة مبالغة، نعت لـ«رَبِّ النَّاسِ».

﴿**إِلَهِ النَّاسِ**﴾ أي: الذي يجب عليهم أن يعتقدوا أنَّه الإلَه لا كسائر أرباب العبيد والمُلَّاكِ [إذْ] لا ألوهة لهم ولا إيجاد ولا إبقاء ولا تصرُّف كليًّا، وهو نعت آخر.

وخصَّ الناس بالذكر لأنَّهم أشرف الخلق، وإلَّا فالله ﷻ ربُّ كلِّ شيء، وإله كلِّ شيء، أي: أعوذ من شرِّ الموسوس إلى الناس بالذي هو ربُّهم وإلهُهُم، فهو يملكهم ويردُّهم عن الشرِّ، ويبطل كيدهم.

وكرَّر «النَّاس» ولم يضمر في الآية الثانية والثالثة لتأكيد التَّقْرِيرِ أنَّهم مربوبون مملوكون مألوهون. قيل: أو الأوَّل بمعنى الأجنَّة والأطفال المحتاجين للتربية، والثاني بمعنى الكهول والشبَّان، والثالث بمعنى الشيوخ المتعبِّدين.

[قلت:] وهو تفسيرٌ وَسْوَسَ به الشيطانُ لصاحبه أن يُفسِّر به، إذ لا دليل عليه، ويزاد على ذلك أنَّ الغالب في المعارف المتكرِّرة الاتِّحادُ.

﴿**مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ**﴾ صفة تفيد المبالغة، أي: يُلقي إلى غيره كلامًا خَفِيًّا أو إشارة، أن يفعل أو يترك، خيرًا أو شرًّا.

والمراد في الآية الشرُّ ـ عافانا الله الرحمن الرَّحيم ـ وهو التأثير في القلب بالزيغ، وذلك أولى من أن يجعل اسم مصدر هو الوسوسة، أطلق على الذات الخبيثة مبالغة، أو بتأويله باسم الفاعل، أو يقدَّر مضاف، أي: ذي الوسواس.

وتعليق الحكم بمعنى اللفظ المشتقِّ يؤذن بعلِّية معنى اللفظ الذي منه الاشتقاق، فالمراد الأمر بالاستعاذة من وسوسة الموسوِس، كما نقول: أعوذ بالله من السارق، ونريد الاستعاذة من سرقته.

ويجوز أن يراد: أعوذ بربِّ الناس، ملك الناس، إله الناس من شرور الموسوِس ووسوسته، وسائرِ مضرَّاته، ويقوِّيه أنَّه قال: ﴿مِن شَرِّ﴾ فهو يعمُّ شروره، ولم يقل: من شرِّ الموسوس ولا من شرِّ وسوسة الوسواس.

فشرُّه يعمُّ شرَّ التأثير في القلب، وشرَّ مَضَرَّة البدن والعقل، كالجنون وما يقرب منه، وأسباب المرض والعلل، وتزيين النوم عن العبادة.



ومن شرِّ البدن حديث البخاري وغيره عن رسول الله ﷺ: «**يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، نَمْ فَإِنَّ الليل عليك طويل...**» إلخ[1]، أعني أنَّه فعل على قافيته فعلاً أثَّر في بدنه. وأمَّا على أنَّ معنى العقد التَّمثيل للوسوسة فليس من شرِّ البدن.

﴿**الْخَنَّاسِ**﴾ صفة مبالغة. قيل: أو نَسَب، كالخبَّاز واللبَّان، قلت: لا ينبغي العدول إلى النسب إلَّا لداعٍ معنويٍّ أو صِناعيٍّ، ومن المعنويِّ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصِّلت: 46]، ومرَّ كلام فيه، ولا داعي هنا، مع أنَّ له فعلاً، وهو «خنس»، بخلاف لَبَّان.

[لغة] ومعنى «خنس» تأخَّر، أي: كثير التأخُّر أو عظيمُه عن الإنسان إذا ذَكَرَ الله تعالى، وليس في النسب المبالغة التي في صفة المبالغة، فقد تقول: الخبَّاز واللبَّانُ لمن لم يبالغ في الخبز واللبن.

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ للوسواس خطما كخطم الطائر**»[2]، ويروى: «خرطومًا كخرطوم الكلب». ويروى: «كخرطوم الخنزير».

ويقال: رأسه كرأس الحيَّة يضعه على القلب، فإذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار في أذن القلب يوسوس، فإن ذكر الله تعالى نَكَصَ وَخَنَسَ، فلذلك سمِّيَ الوَسْوَاس الْخَنَّاس. ويروى أنَّه يضع خرطومه على القلب، فإذا ذكر الله تعالى تأخَّر.

﴿**الذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**﴾ أي: في قلوبهم، سمَّى الحالَّ باسم المَحَلِّ، فإنَّ القلب في الجانب الأيسر من الصدر، ويجوز أن يراد ظاهر معنى الصدر بأن يدخل في الصدر ويوسوس منه إلى القلب، فقد فعل الوسوسة فيه

(1) رواه **الربيع** في كتاب الطهارات، باب جامع الوضوء، رقم 130. ورواه **البخاري** في كتاب الجمعة باب عقد الشيطان على قافية الرأس... رقم 1074. من حديث أبي هريرة.

(2) أورده **السيوطيُّ** في الدر، ج 6، ص 740. وقال: أخرجه ابن شاهين من حديث أنس، مع زيادة في آخره.

إلى القلب، وقد قال ﷺ: «**إنَّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدَّم**»[1]، وذلك كما لا يردُّهم حائط، وحمل بعضهم الحديث على التَّمثيل.

والمراد بالناس الإنس خَاصَّةً.

﴿**مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾ يتعلَّق بمحذوف، حال من «الْوَسْوَاسِ»، أو من المستتر فيه. و«مِنْ» للتبعيض، فـ«الْوَسْوَاس» يعمُّ من يوسوس من الجنِّ ومن يوسوس من الإنس، فكأنَّه قيل: من الوسواس الذي هو من الجنِّ، والذي هو من الإنس.

وأجيز أن يتعلَّق بـ«يُوَسْوِسُ» على أنَّ «مِنْ» للابتداء، أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجنِّ، بأنَّ الجنَّ يعلمون الغيب [في زعمهم]، ويَضُرُّون وينفعون، ومن جهة الناس بأنَّ المنجِّم أو الكاهن يعلم الغيب، **ولا يعلم الغيب إلَّا الله**.

وقيل: «مِنْ» للبيان، من الناس، أي: في صدور الناس الذين هم الجنُّ والإنس، وهو ضعيف، إذ هو بصورة تقسيم الشيء إلى نفسه وإلى غيره، وذلك جعل قسْم الشيء قسيمًا للشيء، وإطلاق الناس على الجنِّ قليلٌ، كما ورد في بعض الأخبار: «ناسٌ من الجنِّ». قال بعض العرب لِجِنٍّ: من أنتم؟ قالوا: ناسٌ من الجنِّ.

الله لا إله إلَّا هو الحيُّ القيُّومُ، ذو الجلال والإكرام يا ربِّ اكف عنَّا شرَّ الدنيا والآخرة، وأغننا بخير الدنيا والدين والآخرة[2].

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

---

(1) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج 7، ص 144.

(2) في نسخة (أ): «وقد تمَّ طبع الجزء الأخير من تيسير التفسير للقطب الربَّانيِّ، والسيِّد الصمدانيِّ، للإمام الكامل، العلَّامة العالم العامل، الأورع الفاضل، إمامنا وقدوة مذهبنا، شيخنا وسيِّدنا الحاج امحمَّد بن الحاج يوسف بن عيسى اطفيَّش، الإباضيِّ الوهبيِّ مذهبًا، المصعبيِّ اليسجنيِّ مسكنًا، أدام الله بقاءَهُ وإجلاله، وشكر سعيه وتقبَّل أعماله، لخمس عشرة ليلة مضين من شهر رجب سنة 1326 ستَّة وعشرين وثلاثمائة وألف. على ذمَّة ملتزميه السيِّد الكريم الوارع العظيم الحاج عمر بن الحاج إبراهيم بن محمد العطف[ـاويِّ] والحاج محمد بن الحاج صالح بن عيسى بن سليمان اليسجيّ. يسَّر الله لمؤلِّفه ولهم كلَّ معسر، وصرف عنهم كلَّ شرٍّ...».

تمَّ بحمد الله وحسن عونه الجزء السادس عشر من تيسير التفسير،

ويليه بإذن الله تعالى الجزء السابع عشر للفهارس العامَّة

الفهـارس

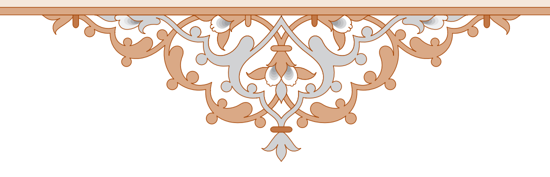
1 ـ الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

2 ـ الفهرس التفصيلي للمســائل الفقهيَّة

3 ـ فهرس لبعــض مختــارات الشــيخ

4 ـ فهارس عامَّــة للموضوعات الفرعية

5 ـ فهرس الآيات والعناوين الرئيســية



الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

المسألـــــة	الصفحة
• مثبت بعث الروح بدون جسم كافر لأنَّه منكر للبعث	7
• أفعاله تعالى المذكورة تثبت البعث بقدرته على إنشائه بلا مثال يحتذى	14
• إبداع المصنوعات مع ما فيها من منافع الخلق دليل على ألا يجعل لها عاقبة وهو البعث للجزاء	14
• ظاهر الآية يفيد جواز أن يقال خاطبت الله تعالى، ومنعه أصحابنا	28
• وللعبد اختيار في الطاعة والمعصية	30
• الآية: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ﴾ دليل على أنَّ الكافر مخاطب بفروع الشريعة	81
• وليس معنى ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أنَّهم لا يرون الله، لأنَّ رؤيته تعالى مستحيلة	117
• عصيان العاصي مراد له ولا يتخلَّف عن الوقوع	155
• الله خلق كلَّ شيء وأخطأت المعتزلة في دعوى أنَّ الفاعل خالق لفعله	174
• أيعمل الناس فيما مضى عليهم أو في أمر يستأنفونه؟	242
• لا واجب على الله سبحانه	256
• يجزم بالعذاب على المشرك فقط وأما الموحِّد فقد يغفر له ولو أصرَّ، وهذا ليس بمذهبنا	267
• ليس من يقول: «صفاته هو» معطِّلا لبعض الصفات كما قيل	408
• وفسَّر الأعمش ﴿أَحَدٌ﴾ بما لا يتجزَّأ ولا ينقسم فالله واحد في كلِّ وصف	424
• والواحد ما امتنع انقسامه بوجه ما	424

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهيَّة

المسألـــة	الصفحة
• أخطأ من استَدَلَّ بالآية على جواز الصلاة ليلا بلا لباس	10
• أجاز ابن عمر وابن عبَّاس وغيرهما العزل وهو أن يصبَّ النفطة خارج الفرج لِئَلاَّ تحمل، والصحيح تحريمه	80
• الكيل والوزن حقٌّ على من عليه المكيل والموزون وهو البائع	110
• في صلاة النفل يجوز زيادة ذكر على قراءة القرآن ومنعه بعض	172
• يصحُّ صوم يوم عاشوراء بدون تبييت النية	203
• المنُّ بالإنعام جائز في حقِّ الله تعالى	271
• من مسح على رأس يتيم كان له بكلِّ شعرة نورا يوم القيامة	273
• إذا ألحَّ السائل جاز زجره بعد ثلاث	274
• من أدرك التحيَّات الأخيرة مع الإمام استدراكا لا يزيد على «وأنَّ محَمَّدًا عبده ورسوله»	282
• صور من تضييع الصلاة	387
• لا يجوز منع الماعون عن المضطرِّ إليه، ويستحبُّ أن يجعل المستطيع في بيته ما يحتاج إليه الجيران	389
• إنَّ ترك الصلاة أعظم من دعِّ اليتيم وعدم الحضِّ عن طعام المسكين لأنَّها عماد الدين	389
• وفي البيهقي والحاكم: «ارفع يديك إلى نحرك عند كلِّ تكبيرة في الصلاة» وهو موضوع	393

المسألـــــة	الصفحة
• سنَّة الفجر أفضل السنن الرواتب عند الجمهور، وكذلك سنَّة المغرب	397
• تفسير التسبيح هنا بالصلاة مخالف للظاهر ومخالف للحديث	409
• وصلاة الفتح مسنونة وقد صلاها سعد يوم فتح المدائن	409
• لقد أمرنا بقتل الدوابِّ المؤذية	430
• النفث عند الرقيا جائز للصلاح	432

فهرس لبعض مختارات الشيخ

المسألـــــة	الصفحة
• ومن إخفاء الصدقة البيع بالرخص قصدا	9
• امتنَّ الله تعالى في الآية: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ بنعمة النوم	10
• لقد غلطوا في الاستعارة التبعيَّة فبناؤها على الاستعارة الأَصلِيَّة	11
• ومن العجيب قول بعض الْمُحَقِّقِينَ: إنَّ الصفة المشـــبَّهة تكون بمعنى مفعول، بل تكون بمعنى فاعل فقط	14
• من بعث مقطوع الرجلين منكَّسا يمشِّيه الله على غير الرجلين	16
• لا صحَّة لما قيل: إنَّ أرواح الناس تقوم مع الملائكة بين النفختين	29
• قلت: والملائكة من عدَّة وجوه أفضل من البشر والمؤمنون منهم أفضل	29
• وكثير ممن ليس وزيرا للملك ولا يباشر أحواله أفضل من وزرائه عنده	29
• من خشي الله تعالى أتى منه كلُّ خير	42
• ما ذكرته أولى من قول بعض: فكذَّب فرعون موسى وعصاه	43
• المتبادر من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ...﴾ ما مرَّ من فرار الظالم من المظلوم	73
• والصحيح تحريم العزل لأنَّ فيه قطع النسل إلاَّ لموجب	81
• من أبدل الضاد بالظاء أو كان ينطق بهما بلفظ واحد فسدت صلاته إن تعمَّد ذلك وقدر على التمييز تهاونا	95
• ولو نوى أن يكون ماله صدقة لورثته كان له أجر ما ترك لهم إن أخرج الحقوق	99
• والدرهم في الحياة أفضل من سبعين بعد موته	99

المسألــــة	الصفحة
• لا يجوز تسمية السورة باسم «الرحمن» على الصحيح، ولا يحسن التسمية بالبقرة والنمل وغيرهما	107
• البخس في الكيل ولو أقلّ قليل معصية، ولا عيب لمن ترك حقَّه وافيا	110
• ومن خصائص الجنَّة أنَّ أهلها لا يكرهون من طعامها شيئا ولا يملونه	153
• لا نســـلِّم أنَّ هؤلاء الكفرة المرادين في قوله تعالى: ﴿بَلِ الذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أشدُّ كفرا من فرعون وثمود	157
• أمرنا أن ننزه أسماء الله تعالى ولكن لا نقول: سبحان اسم ربِّي الأعلى	172
• إذا كان الإمام يطيل القيام قبل الإحرام فعلى المأمون أن يذكر الله وأن يسبِّح ثمَّ يحرم عندما يحرم الإمام	172
• ويناسب الآية: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الَاعْلَى﴾ ما ذكره صاحب السؤالات: إذا أردت ذكر الصواب وغيره فابدأ بذكر الصواب	173
• قيل: لا يجوز إعادة تذكير الكافر إذا كان لا يزيده التذكير إلاَّ كفرا لأنَّه يؤدِّي إلى تجديد كفره	180
• لا نسلِّم أنَّ ما في الآية: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أفظع من الصَّلْيِ	182
• قيل: لم يسبِّح اسم ربِّه مَن ذَكَرَ ذلك باللسان دون القلب، إلاَّ إن دخل في الذكر باجتهاد فتغلبه غفلة	183
• لا دليل في الآية على جواز تكبيرة الإحرام بغير لفظ الجلالة	183
• وفي الحديث جواز استماع كلام المرأة الأجنبية إذا لم تكن ريبة	187
• الآية تدلُّ على أنَّ لأهل النار اشتياقًا للشراب والطعام	192
• يجوز أن يكون المعنى أنَّ الإبل تتَّضع فيركبها راكب وكذلك سرر الجنَّة تتَّضع، وكذلك ما بعدها	198
• في فضل صوم عشوراء أحاديث ضعيفة إذا ضُمَّ بعضُها إلى بَعضٍ تَقَوَّت	203

المسألـــــة	الصفحة
• ونقول: الأَوْلى تعميم كُلِّ شفع وَكُلِّ وتر مِمَّا ذُكر	204
• ذكر رجل صالح	204
• أرى بعض المشارقة البغداديين إذا رأوا لأبي حيَّان حسنة دفنها	211
• أخطأ فيمن رخص في أخذ الإرث ولو من حرام	216
• لا يجوز أن يفسَّر الاطمئنان بالإعراض عن كلِّ ما سوى الله	221
• أنا أعجب بإكثارهم العدد إذا عدوا في هذا ومثله	232
• إدخال السرور على مُتَعَدِّد أفضل من إدخال السرور على واحد	233
• ومع ذلك فللعبد قدرة واختيار ولا إجبار	242
• نصَّ بعض أصحابنا أنَّه لا يجوز التفسير في القرآن بالنزول إجمالا والتفصيل فيما بعدُ في المدينة	251
• لا يجوز تفسير الضلال بكونه على دين قومه في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ﴾	270
• ويحسن إكرام طالب العلم وإسعافه بمطلوبه	274
• نقول: وقع ما ذُكر من شقِّ صدره ﷺ تمهيدا للنبوءة وزيادة تكميل بعدها، ولا يلزم تفسير الآية به	277
• الآية ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ زاجرة عن البطالة	283
• لو كان أوَّل ما نزل فاتحة الكتاب ـ كما قيل ـ لكان قوله: «ما أنا بقارئ» عنادا	292
• وما روي عن الزهري أنَّ الهجرة كانت بعد البعثة بخمسٍ غير مسلَّم	302
• وذِكْر ضعف ابن مسعود وصغر جثَّته ليس غيبة لأنَّا لم نرد به نقصا	304
• لا يصحُّ ما قيل: إنَّ ألف شهر هي ملك بني أميَّة لأنَّها أيَّام سوء	313



المسألـــــة	الصفحة
• يحسن للمكلف أن يدعو بهذا الدعاء «أعوذ بالله من الإهمال»	325
• الآيات والأحاديث تدعو إلى رجاء الجنَّــة والعمل لها والخـوف من النار	325
• لا كتابيَّ بعد بعثته ﷺ بل هو مشرك	328
• حكم الجنِّ والإنس واحد	329
• الرضا بالله تعالى أن ترضى به ربًّا ومدبِّرا...	330
• الذي يظهر لي في مثل هذا أنَّ الكنود طبيعة في الإنسان	345
• كلام عمر بن عبد العزيز والأعرابيِّ دليل علـــى أنَّ الزيارة في ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ بالموت لا بالعدِّ	356
• في الآية ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ إشارة إلى أنَّه لا يكفي العلم ما لم يكن يقينا	357
• من الخسران أن يمضي زمان في معصية أو في أهمال، قيل: أو في طاعة يمكن أن ألا تكون أفضل	364
• يمتنع عندي تعليق أوَّل الســـورة بما قبلها للمحافظـــة على أن تكون سورة مستقلَّة	380
• حديث رفـع الأيـدي إلى النحـر موضـــوع، لو صحَّ للزمه النبيء في صلواته	393
• ومضمون الســـورة مأمور به قبل الإذن بالقتال وبعده، ولا حاجة إلى جعله أمرا بترك القتال	401
• كُلُّ ما قيل: مَن فَعَلَ كذا فله كذا من الثـــواب لا غرابة فيه لأنَّـه يفعل ذلك مخلصا...	421
• لا مدعي أنَّه تعالى مولود لكن نفي ذلك استكمالا	426

المسألــــة	الصفحة
• لا حاجة إلى جعل «ما» مصدرية في قوله تعالى: ﴿مِن شَــرِّ مَا خَلَقَ﴾ لأنَّ المصدر لا يبقى على حاله	429
• من يسترقي للعقرب مثلا فيقبضها ولا تضرُّه قد فعل محرَّما من جهة أنَّه سالَمَ ما أُمر بقتله	430
• لا يقدح في حقِّ النبوءة ما قيل في الســحر لرسول الله ﷺ من بنات اليهودي	432



فهارس عامَّة للموضوعات الفرعية

الموضوع	الصفحة
• الإشادة بمخطوط ووصفه	65
• أصول الدين	7، 14، 28، 30، 81، 117، 155، 174، 220، 242، 256، 267، 330، 339، 351، 408، 423، 424
• أصول الفقه	174
• أمثلة مِمَّا في صحف إبراهيم	185
• أمثلة مِمَّا في صحف موسى	186
• أنساب	382
• بلاغة	11، 17، 18، 49، 54، 56، 59، 60، 91، 97، 98، 125، 126، 135، 139، 140، 143، 148، 150، 157، 163، 188، 191، 192، 205، 206، 210، 214، 240، 248، 256، 261، 279، 281، 320، 327، 334، 335، 351، 352، 355، 364، 367، 372، 399، 412، 418
• تاريخ	384
• تفضيل الله الإنسان	287
• تلاوة	199
• دعاء	378
• ذكر رجل صالح	204

الموضوع	الصفحة
• رسم	305
• سبب النزول	57، 124، 131، 160، 177، 192، 227، 252، 259، 263، 266، 300، 312، 337، 340، 344، 354، 366، 389، 398، 422
• سجدة التلاوة	306
• سيرة	53، 57، 109، 171، 187، 225، 226، 269، 277، 292، 293، 299، 304، 360، 397، 403، 404، 407، 409، 413، 414، 416، 432
• صرف	6، 9، 11، 21، 24، 38، 39، 58، 63، 64، 90، 92، 98، 118، 119، 154، 163، 193، 194، 213، 215، 223، 229، 237، 238، 245، 263، 343، 382، 389، 406، 423
• صور من تضييع الصلاة	387
• طب	285
• عتقاء أبي بكر	253
• فقه	10، 79، 80، 81، 95، 110، 172، 203، 232، 271، 273، 274، 282، 389، 393، 397، 409، 430، 432، 435
• فلسفة	424
• فلك	140 ـ 142
• فوائد جمَّة في الإبل	197
• قراءة	250
• قراءته ﷺ في الصلاة	107
• قصة أصحاب الفيل	373 ـ 376

الموضوع	الصفحة
• قصة تاريخية	318
• قصص	9، 43، 146، 147، 206، 208، 209، 262، 318، 375، 377، 417
• لغة	10، 13، 22، 39، 40، 59، 116، 117، 122، 135، 149، 153، 156، 159، 164، 175، 190، 195، 201، 205، 208، 209، 210، 227، 237، 268، 279، 306، 324، 326، 333، 341، 345، 353، 358، 377، 378، 383، 418، 423، 431، 439
• مخرج الضاد والظاء	95
• من أهدر دمه عند الفتح	407
• منافع التِّين	284
• نحو	5، 7، 9، 12، 14، 20، 24، 27، 31، 45، 51، 53، 54، 59، 66، 87، 96، 102، 105، 106، 109، 112، 121، 122، 123، 134، 136، 148، 150، 155، 156، 160، 161، 165، 170، 174، 175، 188، 191، 193، 194، 196، 199، 205، 206، 210، 213، 219، 225، 239، 240، 243، 246، 247، 248، 250، 258، 268، 271، 286، 287، 296، 298، 302، 305، 314، 316، 317، 321، 323، 325، 330، 335، 342، 343، 348، 349، 352، 357، 368، 371، 373، 379، 383، 386، 387، 407، 414، 415، 416، 417، 418، 422، 426، 429
• نقد الحديث	393
• نقد رواية	301
• هيئة	12، 311

فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

الآية	العنوان	الصفحة
	تفسير سورة النبأ (78)	
1 ـ 16	الإخبار عن البعث وأدلَّة القدرة الإلهيَّة	5
17 ـ 30	أوصاف يوم القيامة وأماراته وعذابه	15
31 ـ 36	أحوال السعداء	24
37 ـ 40	عظمة الله ورحمته وتأكيد وقوع يوم القيامة	27
	تفسير سورة النازعات (79)	
1 ـ 14	التأكيد على وقوع البعث وموقف المشركين منه	33
15 ـ 26	التذكير بقصَّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون	41
27 ـ 33	الاستدلال على البعث بخلق السماوات والأرض والجبال	46
34 ـ 46	التذكير بالجزاء يوم القيامة وتفويض علم الساعة لله	50
	تفسير سورة عبس (80)	
1 ـ 10	المسلم أولى بالاحتفاء به	56
11 ـ 23	القرآن موعظة وتذكرة، وعظيم نعم الله على الإنسان	61
24 ـ 32	إنعام الله على الإنسان بما يحتاج إليه	68
33 ـ 42	أهوال يوم القيامة، وأحوال أهلها	71

الآية	العـنـوان	الصفحة
	تفسير سورة التكوير (81)	
1 ـ 14	أحوال القيامة وأهوالها	74
15 ـ 29	إثبات الوحي القرآني من الله، ونبوءة الرسول ﷺ	89
	تفسير سورة الانفطار (82)	
1 ـ 8	صور لما يقع يـوم القيامة مـن أهـوال، وتوبيخ الإنسان على جحود النعم	97
9 ـ 19	غرور الإنسان، وتسجيل الملك لما يعمله، وهول يوم الجزاء	103
	تفسير سورة المطفِّفين (83)	
1 ـ 6	وعيد المطفِّفين يوم الجزاء	107
7 ـ 17	مقرُّ ديوان الأشرار وأرواحهم	113
18 ـ 28	مقر ديوان الأخيار وأحوالهم	119
29 ـ 36	سوء معاملة الكفَّار للمؤمنين في الدنيا، ومقابلتهم بالمثل في الآخرة	124
	تفسير سورة الانشقاق (84)	
1 ـ 15	أهوال يوم القيامة، وانقسام الناس فريقين	128
16 ـ 25	تأكيد وقوع القيامة وما يتبعها من الأهوال	134
	تفسير سورة البروج (85)	
1 ـ 9	القسم بأشياء عظام على لعنة أصحاب الأخدود	140
10 ـ 16	عقاب الكفَّار وثواب المؤمنين	151
17 ـ 22	كمال القدرة الإلهيَّة	156

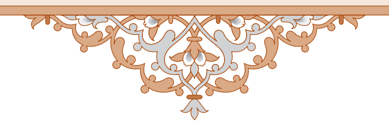
الآية	العنوان	الصفحة
	تفسير سورة الطارق (86)	
1 ـ 10	التأكيد على إثبات البعث بالقسم على مظاهر من القدرة	159
11 ـ 17	القَسَم على صدق الرسالة، وتهديد الكائدين لهما	167
	تفسير سورة الأعلى (87)	
1 ـ 8	بعض صور قدرة الله تعالى، وبشارة النبيء ﷺ بتحفيظه القرآن	171
9 ـ 19	الأمر بالتذكير ومُوَافَقَةُ الشريعة لما في الصحف الأولى	180
	تفسير سورة الغاشية (88)	
1 ـ 7	هول يوم القيامة وأحوال أهل النار	187
8 ـ 16	أحوال المؤمنين المخلصين أهل الجنَّة	193
17 ـ 26	إثبات قدرة الله تعالى على البعث وغيره والتذكير بأدلَّة ذلك	196
	تفسير سورة الفجر (89)	
1 ـ 14	حتميَّة عذاب الكفَّار وجزاء بعضهم في الدنيا	201
15 ـ 20	توبيخ الإنسان على قلَّة اهتمامه بالآخرة، وفرط تماديه في طلب الدنيا	212
21 ـ 30	حال الإنسان الحريص على الدنيا والمترفِّع عنها يوم القيامة	217
	تفسير سورة البلد (90)	
1 ـ 7	ابتلاء الإنسان واغتراره بقوَّته وماله	224
8 ـ 20	تعداد بعض نعم الله على الإنسان ووسيلة النجاة في الآخرة	229

الآية	العنـوان	الصفحة
	تفسير سورة الشمس (91)	
1 ـ 10	جزاء إصلاح النفس وإهمالها	236
11 ـ 15	العظة بقصَّة ثمود	245
	تفسير سورة الليل (92)	
1 ـ 11	اختلاف الناس في مسعاهم	249
12 ـ 21	تأكيد قدرة الله على مكافأة الفريقين	256
	تفسير سورة الضُّحى (93)	
1 ـ 11	نعم الله تعالى على النبيء محمَّد ﷺ	260
	تفسير سورة الشرح (94)	
1 ـ 8	نعم الله على نبيئه ﷺ	276
	تفسير سورة التين (95)	
1 ـ 8	حال الإنسان خَلْقًا وعملاً	384
	تفسير سورة العلق (96)	
1 ـ 8	قدرة الله في خلق الإنسان وتعليمه القراءة والكتابة	392
9 ـ 19	صور أخرى من الطغيان وتهديد الطغاة ووعيدهم	300
	تفسير سورة القدر (97)	
1 ـ 5	نزول القرآن في ليلة القدر وفضلها	308
	تفسير سورة البيِّنة (98)	
1 ـ 5	لا تكليف بلا بيان، ولا عقوبة دون إنذار	320

الآية	العنـوان	الصفحة
6 ـ 8	وعيد الكفَّار، وجزاء الأبرار	327
	تفسير سورة الزلزلة (99)	
1 ـ 8	أهوال يوم القيامة، وعدالة الله في الجزاء	332
	تفسير سورة العاديات (100)	
1 ـ 11	حبُّ الإنسان الخير العاجل، وإهمال الاستعداد للآخرة	341
	تفسير سورة القارعة (101)	
1 ـ 11	أهوال يوم القيامة، واختلاف جزاء الناس فيها	349
	تفسير سورة التكاثر (102)	
1 ـ 8	غفلة الناس حتَّى ألهاهم التكاثر والتفاخر عن المصير المحتوم	353
	تفسير سورة العصر (103)	
1 ـ 3	الإنسان في خسران إلَّا من آمن وعمل صالحا	362
	تفسير سورة الهمزة (104)	
1 ـ 9	العيَّاب للناس احتقارا وجزاؤه	366
	تفسير سورة الفيل (105)	
1 ـ 5	قصَّة أصحاب الفيل	372
	تفسير سورة قريش (106)	
1 ـ 4	التذكير بنعم الله على قريش، وأمرهم بعبادته وشكره	379

الآية	العنـوان	الصفحة
	تفسير سورة الماعون (107)	
1 ـ 7	الكافر المنكر الجزاء الأخرويَّ والمنافق المرائي بعمله، وعقاب كلٍّ منهما	386
	تفسير سورة الكوثر (108)	
1 ـ 3	إكرام الرسول ﷺ بنهر الكوثر	390
	تفسير سورة الكافرون (109)	
1 ـ 6	البراءة من الشرك والكفر وأعمال المشركين	396
	تفسير سورة النصر (110)	
1 ـ 3	بشارة الرسول بعزَّة الإسلام وانتشاره	402
	تفسير سورة المسد (111)	
1 ـ 5	ذمُّ أبي لهب وامرأته ووعيدهما	412
	تفسير سورة الإخلاص (112)	
1 ـ 4	إخلاص التوحيد وتنزيه الله عَزَّ وَجَلَّ	422
	تفسير سورة الفلق (113)	
1 ـ 5	الاستعاذة من شرِّ المخلوقات	428
	تفسير سورة الناس (114)	
1 ـ 6	الاستعاذة من شرِّ وسوسة شياطين الإنس والجنِّ	437

التعريف بالمفسِّر(*)



- في سنة 1237هـ/1818م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

- في سنة 1243هـ/1827م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ـ بلده الأصلي ـ، واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغًا كبيرًا.

- في سنة 1253هـ/1837م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

- منذ سنة 1300هـ/1882م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

(*) انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.



- في سنة 1304هـ/1886م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها، وألقى دروسًا في الحرم المدني، تشريفًا وتقديرًا له من علمائه.

- له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفًا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.

- تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

- في سنة 1332هـ/1914م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.